الفصل الثانى والثلاثون

شرح مقامات اليقين وأحوال الموقنين

أصول مقامات اليقين التى تُرَدّ إليها فروع أحوال المتقين تسعة هى **التوبة والصبر والرجاء والخوف والزهد والتوكل والرضا والمحبة**، وهذه محبة الخصوص وهى محبة المحبوب.

ذكر فروض التوبة أول مقامات اليقين، وشرح فضائلها ووصف التوابين

قال الله تعالى فى البيان الأوّل من **خطاب العموم** وتوبوا إلى الله أيها المؤمنون لعلكم تفلحون، معناه إرجعوا إليه من هَوى نفوسكم ومن وقوفكم مع شهواتكم عسى أن تظفروا ببُغيتكم فى المعاد وكى تبقوا ببقاء الله عز وجل فى نعيمٍ لا زوال له ولانفاد، ولكى تفوزوا وتسعدوا بدخول الجنة وتنجوا من النار فهذا هو الفلاح. وقال فى البيان الثانى من مخاطبته **الخصوص** ياأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نَصوحا عسى ربكم أن يكفّر عنكم سيأتكم ويُدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار، فنَصُوحاً من النصح جاء على وزن فَعول للمبالغة فى النُصح، وقد قرئت نُصوحا بضم النون فتكون حينئذ مصدر نصَحَتُ له نُصحا ونُصوحا، فمعناه خالصة لله تعالى. وقيل اشتقاقه من االنِصَاح وهو الخيط، أى مجردة لاتتعلق بشىء ولايتعلق بها شىء، وهو الاستقامة على الطاعة من غير رَوَغان إلى معصية كما تروغ الثعالب، وأن لايحدّث نفسه بعوْد إلى ذنب متى قدَرَ عليه، وأن يترك الذنب لأجل الله تعالى خالصا لوجهه كما ارتكبه لأجل هواه، مُجمعاً عليه بقلبه وشهوته، فمتى أتى الله عز وجل بقلب سليم من الهوى وعمل خالصٍ مستقيم على السُنّة فقد خُتِمَ له بحسن الخاتمة، فحينئذ أدركته الحسنى السابقة وهذا هو التوبة النَصوح، وهذا العبد هو التوّاب المتطهر الحبيب، وهذا إخبار عمّن سبقت له من الله الحسنى، ومَنْ تداركه نعمةٌ من ربه رَحِمه بها من تلوث السُّوأى، وهو وصف لمن قصده بخطابه إذ يقول فى كتابه إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين. وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لاذنب له.

وسئل الحسن عن **التوبة النصوح** فقال هى ندم بالقلب واستغفار باللسان وترك بالجوارح وإضمار أن لايعود إليه. وقال أبو محمد سهل رحمه الله ليس من الأشياء أوجب على هذا الخلق من التوبة، ولاعقوبة أشد عليهم من فقد علِم التوبة وقد جهل الناس علِم

التوبة. وقال من يقول إن التوبة ليست بفرض فهو كافر، ومن رضى بقوله فهو كافر. وقال **التائب** الذى يتوب عن غفلته فى الطاعات فى كل طرفة ونَفَس. وقد جعل علىّ كرم الله وجهه ترك التوبة مقاما فى العَمَى وقرنَه باتباع الظن ونسيان الذكر، فقال فى الحديث الطويل ومن عَمِيَ نَسِيَ الذكر واتبّع الظن وطلب المغفرة بلا توبة ولااستكانة، **ففرض التوبة** الذى لابد للتائب منه، ولايكون محقا صادقا إلا به، هو الإقرار بالذنب والاعتراف بالظلم، ومَقْت النفس على الهوى، وحل الإصرار الذى كان عَقَدَه على أعمال السيآت، وإطابة الغذاء بغاية مايقدر عليه، لأن الطُعْمَة أساس الصالحين، ثم الندم على مافات من الجنايات. **وحقيقة الندم** إنْ كان حقا إذ لكل حق حقيقة أن لايعاود إلى مثل ماوقع الندم عليه، ثم اعتقاد الاستقامة على الأمر ومجانبة النهى. **وحقيقة الاستقامة** أن لايقابل مااستقبل من عمره بمثل ماوقع الاعوجاج به، وأنْ يتبع سبيل مَنْ أناب إلى الله، وأن لايصحب جاهلا فيُرديه، ثم الاشتغال بإصلاح مافسد فى أيام بطالته ليكون من المصلحين الذين تابوا وأصلحوا مافسدوا، فإنّ الله عز وجل لايُصلح عمل المفسدين كما لايضيع أجر المحسنين، ثم الاستبدال بالصالحات من السيآت والصالحات من الحسنات، ليكون ممن تُبدّل سيآته حسنات لتحققه بالتوبة وحُسن الإنابة، لأن التبديل يكون فى الدنيا، يُبدّل بالأعمال السُّوأى أعمالا حُسنى، بدليل قوله تعالى إن الله لايغيّر مابقوم حتى يغيّروا مابأنفسهم، فإذا غيّر مابهم من سىء حَسَنا بدّل سيآتهم حَسَنات، ثم الندم ودوام الحزن. وحقيقة الندم والحزن على الفوْت أن لايُفرّط ولاينى فى وقت دَرْكه، ولايرجع ولاينثنى فى حيز استبداله. وقال أبو سليمان الدارانى لو لم يبك العاقل فيما بقى من عمره إلاعلى فوْت مامضى منه فى غير الطاعة، لكان خليقا أن يحزنه ذلك إلى الممات، فكيف بمن يستقبل مابقى من عمره بمثل مامضى من جهله؟ وقال سهل بن عبد الله التائب لاعيش له إلا الضرورة للقَوام، ويغتم على مامضى، والجد فى الأمر، ومباينة النهى فيما بقى، ولايتم له ذلك إلا باستعمال علم اليقين فى كل شىء، ثم المتابعة بأعمال الصالحات ليكون ممن قال الله تعالى ويدرؤن بالحسنة السيئة الآية، أى يدفعون ما سلف من السيآت بما يعملون من الحسنات، وكذلك قال **النبى صلى الله عليه وسلم** فى حديث أبى ذر فإذا عملت سيئة فاعمل بعدها حسنة، السر بالسر، والعلانية بالعلانية. وفى وصية مُعاذ أتبع السيئة الحسنة تمحها. وليدخل فى الصالحين كما قال الله تعالى والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلهم فى الصالحين، ثم المسارعة إلى الخيرات إذا قَدِر عليها ليدرك بها ماضيّع

وفات ليكون من الصالحين، وفى هذا المقام يصلح لمولاه فيحفظه ويتولاه كما قال الله وهو يتولى الصالحين.

وجُمَل ماعلى العبد فى التوبة وماتعلّق بها عشر خصال، **أولها** فَرْضٌ عليه أن لايعصى الله تعالى، **والثانية** إن ابتلى بمعصية لايُصر عليها، والخَصْلة **الثالثة** التوبة إلى الله تعالى منها، **والرابعة** الندم على مافَرَط منه، **والخامسة** عقْدُ الاستقامة على الطاعة إلى الموت، **والسادسة** خوف العقوبة، **والسابعة** رجاء المغفرة، **والثامنة** الاعتراف بالذنب، **والتاسعة** اعتقاد أن الله قدّر ذلك عليه وأنه عَدَل منه، **والعاشرة** المتابعة بالعمل الصالح ليعمل فى الكفّارات لقوله صلى الله عليه وسلم واتْبَع السيئة الحسنة تمحُها، وفى جميع هذه الخصال جُمَل آثار رويناها عن الصحابة والتابعين يكثُر ذكرها.

ويقال إن ملك الموت إذا ظهر للعبد أعلمه أنه قد بقى من عمرك ساعة وأنك لاتستأخر عنها طَرْفة عين، قال فيبدو للعبد من الأسف والحسرة مالو كانت له الدنيا من أوّلها إلى آخرها لخرج منها على أن يَضُم إلى تلك الساعة ساعة أخرى ليستعتب فيها أو يستبدل بها فلا يجد إلى ذلك سبيلا. وهذا تأويل قوله عز وجل وحيل بينهم وبين مايشتهون، قيل التوبة، وقيل الزيادة فى العمر، وقيل حُسن الخاتمة، حيل بينهم وبين ذلك كما فعل بأشياعهم من قبل، أى بنظرائهم وأهل فرقتهم، قال فإذا كل ساعة تمضى على العبد فهى بمنزلة هذه الساعة، قيمتها الدنيا كلها إذا عرف قيمة ذلك، فلذلك قيل ليس لما بقى من عمر العبدقيمة إذا عرف وجه التقدير من الله بالتصريف والحكمة.

وقيل فى معنى قوله تعالى من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخّرتنى إلى أجل قريب، قال الوقت القريب أن يقول العبد عند كشف الغطاء يا ملك الموت أخّرْنى يوما أعبد فيه ربى وأعتب فيه ذنبى وأتزوّد صالحاً لنفسى، فيقول فَنِيَت الأيام فلا يوم، فيقول أخّرْنى ساعة، فيقول فنيت الساعات فلا ساعة، قال فتبلغ الروح الحلقوم فيؤخذ بكَظمه عند الغرغرة، فيغلق باب التوبة ويُحجب عنه وتنقطع الأعمال وتذهب الأوقات وتتصاعد الأنفاس، يشهد فيها المعاينة عند كشف الغطاء فيحتد بصره. فإذا كان فى آخر نَفَس زهقت نفسُه فيدركه ماسبق له من السعادة، فتخرج روحه على التوحيد فذلك حُسن الخاتمة، أويدركه ماسبق له من الشَقْوة فتخرج روحه على الشك، فهذا سوء الخاتمة نعوذ بالله منه، وقيل هذا هو المنافق ويقال المدمن

على المعاصى المُصرُّ عليها. وقد قال الله تعالى إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب، قيل قبل الموت، وقبل ظهور آيات الآخرة، وقبل الغرغرة أى تغرغر النفس فى الحُلقوم، لأنه تعالى قد حكم أن التوبة بعد ظهور إعلام الآخرة لاتُقبل، ومنه قوله عز وجل يوم يأتى بعض آيات ربك لاينفع نفساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبل، يعنى من قبل معاينة الآيات، أو كسَبت فى إيمانها خيراً، قيل التوبة هى كسب الإيمان وأصول الخيرات، وقيل الأعمال الصالحة هى مزيد الإيمان وعلامة الإيقان. وقد قيل ثم من يتوبون من قريب أى عن قريب عهدٍ بالخطيئة، لايتمادى فيها ولايتباعد عن التوبة، وتوبته من قريب أن يُعقِبَ الذنبَ عملاً صالحا ولايُردفه ذنبا آخر، وأن يخرج من السيئة إلى الحسنة ولايدخل فى سيئة أخرى.

وقيل أول من يسأل الرجعة من هذه الأمة من لم يكن أدّى زكاة ماله، أو لم يكن حجّ بيت ربه، فذلك تأويل قول الله تعالى فأصّدق وأكنْ من الصالحين. وكان ابن عباس رضى الله عنه يقول هذه الآية من أشد شىء على أهل التوحيد، هذا لقوله تعالى فى أوّلها يا أيها الذين آمنوا لاتلُهكم أموالُكم ولا أولادُكم عن ذكر الله، وقد قيل لايَسأل عبدٌ الرجعة عند الموت وله عند الله عز وجل مثقال ذرة من خير. وروينا بمعناه من كان له فى الآخرة مثقال ذرة من خير لو أن له الدنيا بما فيها أوّلها إلى آخرها لم يُحب أن يعود إلى الدنيا. وقال بعض العارفين إن لله تعالى إلى عبده سرّين يُسرهما إليه يُوجد ذلك بإلهام يُلهمه أحدهما إذا وُلِدَ وخرج من بطن أمه، يقول له عبدى قد أخرجتك إلى الدنيا طاهرا نظيفا واستودعتك عمرك وائتمنتك عليه، فانظر كيف تحفظ الأمانة وانظر كيف تلقانى كما أخرجتك، وسرٌ عند خروج روحه يقول عبدى ماذا صنعت فى أمانتى عندك، هل حفظتها حتى تلقانى على العهد والرعاية فألقاك بالوفاء والجزاء، أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب، فهذا داخل فى قوله عز وجل والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون، وفى قوله تعالى أوفوا بعهدى أوف بعهدكم، عُمر العبد أمانة عنده إن حفظه فقد أدىّ الأمانة، وإنْ ضيّعه فقد خان الله، إن الله لايحب الخائنين. وفى خبر ابن عباس رضى الله عنه من ضيّع فرائض الله عز وجل خرج من أمانة الله، وعند التوبة النصوح تكفير السيآت ودخول الجنات.

وكان بعضهم يقول قد علمت متى يغفر الله لى، قيل ومتى، قال إذا تاب علىّ. وقال آخر أنا مِنْ أن أُحرَم التوبة أخوْف منى من أن أُحرَم المغفرة، وقال الله تعالى ومَنْ أصْدقُ من الله حديثا فتاب عليكم وعفا عنكم، وقال الله تعالى فى مثله وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو

عن السيآت. وقال بعض العلماء لاتصح التوبة لعبد حتى ينسى شهواته ويكون ذاكراً للحزن لايفارق قلبه، ذاهبا عن الذنب لايخالج سره. وقال بعض علماء الشام لايكون المريد تائبا حتى لايَكتب عليه صاحب الشمال معصية عشرين سنة. وقال بعض السلف من علامة صدق التائب فى توبته أن يستبدل بحلاوة الهوى حلاوة الطاعة، ويفرح ركوب الذنب الحزن عليه والسرور بحسن الإنابة. وقال بعض العلماء فى معناه لايكون العبد تائبا حتى يدخل مرارة مخالفة النفس مكان حلاوة موافقتها، وحُدِّثنا فى الإسرائيليات أن اللّه عز وجل قال لبعض أنبيائه وقد سأله قبول توبة عبدٍ بعد أن اجتهد سنين فى العبادة ولم ير قبول توبته، فقال له وعزّتى وجلالى لو شَفَع فيه أهل السموات والأرض ماقبلت توبته وحلاوة ذلك الذنب الذى تاب منه فى قلبه. ومَنْ بقيت حلاوة المعصيّة فى قلبه أو نظر إليها إذا ذكرها بفكره خيف عليه العوْد فيها إلا بشدّة مجاهدة وكراهة لها، ونفْى خاطرها عن سره إذا ذكرها بالخوف والإشفاق منها.

وقال أبو محمد سهل أول مايؤمر به المبتدىء المريد التوبة وهو تحويل الحركات المذمومة إلى حركات محمودة، ويلْزِم نفسه الخلوة والصمت. ولاتصح له توبة إلا بأكل الحلال، ولايقدر على الحلال حتى يؤدى حق اللّه تعالى فى الخلْق وحق اللّه تعالى فى نفسه. ولايصح له هذا حتى يتبرأ من حركته وسكونه إلاّ باللّه تعالى، وحتى لايأمن الاستدراج بأعمال الصالحات. **وحقيقة التوبة** أن يدع ماله حتى لايدخل فيما عليه، ولايكون يُسَوِّف أبدا إنما يُلْزِم نفسه الحال فى الوقت.

وحدثونا عن سَرِىّ السَقَطى أنه قال من شرط التوبة أنه ينبغى للتائب المنيب أنه يبدأ بمباينة أهل المعاصى ثم بنفسه التى كان يعصى اللّه تعالى لها، ولاينيلها إلا مالا بد منه، ثم الاعتزام على أن لايعود فى معصية أبدا، ويُلْقى عن الناس مؤنته، ويدع كل مايضطره إلى جريرة، لايتبّع هوى ويتّبع من مضى من السلف. وينبغى لأهل التوبة أن يحاسبوا نفوسهم فى كل طَرْفة، ويَدَعوا كل شهوة ويتركوا الفضول – وهى ستة أشياء: ترك فضول الكلام، وترك فضول النظر، وترك فضول المشى، وترك فضول الطعام والشراب واللباس. قال لايَقْوَى على ترك الشُبهات إلاّ مَنْ ترك الشهوات.

وسئل يحيى بن معاذ رحمه اللّه كيف يصنع التائب، فقال هو من عُمره بين يومين، يوم مضى ويوم بقى، فيصلحهما بثلاث، أمّا مامضى فالندم والاستغفار، وأمّا مابقى فبترك

التخليط وأهله ولزوم المريدين ومجالسة الذاكرين، والثالثة لزوم تصفية الغذاء والدؤب على العمل.

ومن **علامة صدق التوبة** رقة القلب وغزارة الدمع، وفى الخبر جالسوا التوّابين فإنهم أرقّ شيء أفئدة. ومِنْ التحقق بالتوبة أن يَستعظِم ذنوبه فإنه يقال إن الذنب كلما استعظمه العبد صَغُر عند اللّه تعالى، ويقال إن استصغار الذنب كبيرة، كما جاء فى الخبر المؤمنُ الذى يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه، والمنافق الذى يرى ذنبه كذُباب مرّ على أنفه فأطاره. وقد روينا فى خبر مرسل ليتق أحدكم أن يؤخذ عند أدنى ذنوبه فى نفسه، وقال بعضهم الذنب الذى لايغفر قول العبد ليت شيء عملته مثل هذا، فهذا كما قال بلال بن سعد لاتنظر إلى صِغَر الخطيئة ولكن انظر إلى مَنْ عصيت. وقد حدثنا عن اللّه تعالى أنه أوحى إلى بعض أوليائه لاتنظر إلى قلّة الهدّية وانظر إلى عظَمة مُهديها، ولاتنظر إلى صغر الخطيئة وانظر إلى كبرياء مَنْ واجَهْتَه بها، فإنما عظمت الذنوب عن تعظيم المواجَه بها، وكَبُرت فى القلوب لمشاهدة ذى الكبرياء ومخالفة أمره إليها، فلم يصغر ذنب عند ذلك وكانت الصغائر عند الخائفين كبائر. وهذا أحد الوجهين فى قوله تعالى ذلك ومن يُعظّم حرمات اللّه فهو خير له، ومن يعظم شعائر اللّه فإنها من تَقْوى القلوب. قيل الحرمات تُعَظّم فى قلبه فلا ينتهكها، ومن هذا قول الصحابة للتابعين إنكم لتَعملون أعمالا هى أدق فى أعينكم من الشَعْر، كنا نعدها فى عهد النبى صلى اللّه عليه وسلم من الموبقات، ليسوا يعنون أن الكبائر التى كانت على عهد النبى صلى اللّه عليه وسلم صارت بعده صغائر، ولكن كانوا يستعظمون الصغائر لعظمة اللّه تعالى فى قلوبهم لعظيم نور الإيمان، ولم يكن ذلك فى قلوب من بعدهم. وأوحى اللّه تعالى إلى بعض أوليائه كم من ذنب رأيته منك قد أهلكتُ بدونه أمة من الأمم، وقد روينا عن أبّان بن إسمعيل عن أنس عن النبى صلى اللّه عليه وسلم أنه أهلك اللّه تعالى أمةً من الأمم كانوا يعبثون بذكورهم.

فأمّا نسيانه الذنوب وذكرُها فقد اختلف قول العارفين فى ذلك، فقال بعضهم **حقيقة التوبة** أن تنصب ذنبك بين عينيك. وقال آخر حقيقة التوبة أن تنسى ذنبك. وهذان طريقان لطائفتين وحالان لأهل مقامين، فأماً ذكر الذنوب فطريق المريدين وحال الخائفين، يُستخرج منهم بتذكرها الحزن الدائم والخوف اللازم. وأماً نسيان الذنوب شُغْلاً عنها بالأذكار وما يستقبل من مزيد الأعمال فطريق العارفين وحال المحبين، ووجهة هؤلاء شهادة التوحيد وهى

مقام فى التَعرّف، ووجهة الأولين مشاهدة التوقيف والتحديد، وهى مقام فى التعريف، ففى أى المقامين أقيم عبدٌ قام بشهادة وُجهته وعَمَل بحكم حالته، ومقام شهادة التوحيد أفضل عند العارفين من مقام مشاهدة التعريف، وإنْ كانت هذه أوسع وأكثر إلاّ أنها فى أصحاب اليمين وفى عموم المقربين. وشهادة التوحيد أضيق وأقل وأهلها أعلى وأفضل، وهى فى المقربين وخصوص العارفين. وقد يعترض المريد بقصة داود عليه السلام فى تَذَكّره ونَوْحه على خطيئته فإن الأنبياء لايُقاس عليهم لمجاوزتهم حدود مَنْ دونهم، وقد يقلبون فى أحوال المريدين ويسلك بهم سبيل المتعلمين، وذلك لأجل الأمة ليكون طريقاً للعالمين.

واعلم أنه لايُؤمَن على ضعيف اليقين قُوَى النفس عند تذكر الذنوب نظر القلب إليها بشهوةٍ أو ميل نفسٍ معها بحلاوة، فيكون ذلك سبب فتنته فيفسد من حيث صلح، كما لايُؤْمَن على معتاد خطيئة بالنظر إلى سببها حركة النفس إليها، وإن كان الأفضل الاتفاق معها مالم يكن الاتفاق معصية لمجاهدة النفس بالصبر عنها، إلاّ أن ذلك غرور فيه خطر، فترك الاجتماع وقطع الأسباب حينئذ أسلم، وما كان أسلم للمريد فهو أفضل. وفى نسيان الذنوب الذكرُ لما يُستَقبل، والانكماش على مايفوت من الوقت خوف فوت الثانى. وقد كان بعض أهل المعرفة يكره للمريد أن يكون وسواسه الجنة أو تذكّر مافيها من النعيم واللباس والأزواج. وقال وأستحبُ للمريد أن يكون وسواسه ذِكْرَ اللّه تعالى، وخواطره وهمه متعلقةً باللّه تعالى لاسواه. قال لأن المريد حديث عهد بتوبة، غير معتاد لطول الاستقامة والعصمة، فإذا تذكّر نعيم الجنة لم آمَن عليه لضعف قلبه أن يشتهى مثله مما يشاهد فى الدنيا من اللباس والطيبات والنكاح، لأن هذا عاجل وذاك آجل، فتطلب نفسه مثل ماتذكرت من نعيم الآخرة معجلاً فى الدنيا، قال فإذا كان همُّه اللّه تعالى كان أبعد له من زينة الدنيا وشهواتها، ولم يجتر العدو بتمثيل ذلك له من العاجل إلى أن يقوى يقينه، وتنتقل عادته، وتدوم عصمته.

وقد اختلف أهل العلم أيضافى عبدٍ ترك ذنبا وعمل فى الاستقامة ونفسُه تنازعه إليه وهو يجاهدها، وفى آخر ترك الذنب وانكمش فى الإصلاح فلم تكن نفسه تطالبه فلا تنازعه إلى الذنب، ولم يكن على قلبه منه ثُقْل ولامجاهدة، أى هذين أفضل؟ فقال بعض علماء أهل الشام، الذى تنازعه نفسه إلى الذنب وهو يجاهدها أفضل، لأن عليه منازعة وله فضل مجاهدة، ومال إلى هذا القول **أحمد بن أبى الحوارى وأصحاب أبى سليمان الدارانى**. وقال علماء

البصرة، الذى سكنت نفسه عن المنازعة بشاهدٍ من شواهد اليقين والطمأنينة، فلم يبق فيه فضلٌ لعوْد، ولا طلب لمعتاد، أفضل. ومال إلى هذا **رياح بن عمرو القيسى** وهو من كبار علماء البصريّين، وقال لو فَتَر هذا لكان هذا أقرب إلى السلامة ولم يؤمَنْ على الآخر الرجوع.

وقد اختلف العلماء أيضا فى عبدين، سئل أحدهما شيأ من بذْلِ ماله فى سبيل اللّه فأبت نفسه عليه وثَقُل عليها ذلك، فجاهدها وأخرج ماله، وسئل آخر بذل ماله فبذله مع السؤال طوْعا ولا ثُقْل عليها ولا مجاهدة منه لها، أيهما أفضل؟ فقال قومٌ المجاهد لنفسه أفضل لأنه اجتمع له الإكراه والمجاهدة، فحصل له عملان، وذهب إلى هذا القول **ابن عطاء** وأصحابه؛ وقال آخرون الذى سمحت نفسه بالبذل طوْعا من غير إكراه ولا اعتراض أفضل، قال لأن مقام هذا فى سخاوة النفس والتحقق بالزهد أفضل من جميع أعمال الأول من الإكراه والمجاهدة ومن بذْلِ ماله على ذلك، ولأن الأول وإنْ غلَبَ نفسه فى هذه الكَرّة لا يأمنْ غلبتها له فى كرّة ثانية أوثالثة، إذ ليس السخاء من مقامها لأنها كانت محمولة عليه. وإلى هذا ذهب **الجنيد** رحمه اللّه، وهو عندى كما قال.

وسئل **أبو محمد سهل** عن الرجل يتوب من الشىء ويتركه ثم يخطر ذلك الشىء بقلبه أو يراه أو يسمع به فيجد حلاوة، فقال الحلاوة طبع البشرية، ولابد من الطبع، وليس له حيلة إلاّ أن يرفع قلبه إلى مولاه بالشكوى، وينكره بقلبه ويُلزم نفسه الإنكار ولا يفارقه، ويدعو اللّه تعالى أن يُنسيه ذكر ذلك ويشغله بغيره من ذكره وطاعته. وقال فإنْ هو غَفَل عن الإنكار طَرْفة عين أخافُ عليه أن لا يسلم وتعمل الحلاوة فى قلبه، ولكن مع وجدان الحلاوة يُلزم قلبه الإنكار والحزن فإنه لا يضره. وهذا عندى هكذا، لأن التوبة لا تصح مع بقاء الشهوة، ويكون العبد مراداً بالمجاهدة، وهذا حال المريدين. ومحو الشهوات من القلب بدوام التولى وصف العارفين. وربما تَعْلُق بالذنب ذنوب كثيرة هى أعظم منه مثل الإصرار عليه والاغتباط به وتسويف التوبة بعده، ووجد حلاوة الظَفَر بمثاله أو وَجَد الحزن والكراهة على فوْته والسرور بعمله، أو حَمَل غيره عليه إن كان ذنبا بين اثنين، أو إنفاق مال اللّه سبحانه وتعالى فيه، فهو كُفر النعمة به. وقد قيل من أنفق درهما فى حرام فهو مسرف. ومن ذلك أن يستصغر الذنب ويحتقره فيكون أعظم من اجتراحه، أو يتهاون بستر اللّه تعالى عليه ويستخف بحلم اللّه تعالى عنه فيكون ذلك من الاغترار، أو يجهل نعمة اللّه تعالى عليه فى ستره وإظهار ضده كما قال فى الدعاء المأثور

الذى يُمدَح اللّه سبحانه وتعالى به - يا مَنْ أظهر الجميل، وستَّر على القبيح، ولم يؤاخذ بالجريرة، ولم يهتك الستر. ويقال كل عاص تحت كنف الرحمن فإذا رفع يديه عنه انهتك ستره. ومن ذلك المجاهرة بالذنب والصوْل به والتظاهر، وهذا من الطغيان. وفى الخبر كل الناس مُعافى إلاّ المجاهرين، يبيت أحدهم عن الذنب قد ستره اللّه تعالى عليه فيصبح فيكشف ستر اللّه تعالى ويتحدث بذنبه.

وربما سنّ العاصى بالذنب سنّة اتُّبع عليها فتبقى سيآت ذنبه عليه مادام يُعمل به. وقد قيل طوبى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه ولم يؤاخذ بها بعده، وطوبى لمن لم يَعْدُدْ ذنبه غيره. وقال بعضهم لا تذنب، فإن كان لابد فلا تَحمِل غيرك على الذنب فتكسب ذنبين. وقد جعل اللّه تعالى هذا المعنى وصفا من أوصاف المنافقين فى قوله تعالى المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينْهون عن المعروف، فمن حمل أخاه على ذنب معه فقد أمر بالمنكر ونهى عن المعروف. وقال بعض السلف ما انتهك المرء من أخيه حُرمةً أعظم من أن يساعده على معصيته ثم يُهوّنها عليه. وقد يعيش العبد أربعين سنة ثم يموت فتبقى ذنوبه بعده مائة سنة يُعاقَب عليها فى قبره إذا كان قد سنّها سنّاً واتُّبع عليها، إلى أن تندرس أو يموت من كان يعمل بها ثم تسقط عنه ويستريح منها. ويُقال أعظم الذنوب من تلم من لا يعرفه ولم يره من المتقدمين مثل أن يتكلم فيمن سلف من أهل الدين وأئمة المتقين، فهذه المعانى كلها تدخل على الذنب الواحد وهى أعظم منه. ومن ذلك قوله تعالى ونكتب ما قدّموا وآثارهم، قيل سُننهم التى عُمل بها بعدهم. وفى الخبر من سَنّ سُنّة سيئة فعُمل بها من بعده كان عليه مثل وِزر من عمل بها، لا ينقص من أوزارهم شيأ. وكان ابن عباس رضى اللّه عنهما يقول ويل للعالِم من الاتّباع، يزل زلة فيرجع عنها، ويحتملها الناس فيذهبون بها فى الآفاق. وقال بعض أهل الأدب مثل زلّة العالم مثل انكسار السفينة تغرق ويغرق الخلق معها. وفى الخبر الإسرائيلى أنّ عالما كان يُضل الناس بالبدع، ثم أدركته توبة فرجع إلى اللّه تعالى وعمل فى الإصلاح دهراً. فأوحى اللّه تعالى إلى نبيّهم قل له إن ذنبك لو كان فيما بينى وبينك لغفرته لك بالغاً ما بلغ، ولكن كيف بمن أضللتَ من عبادى فأدخلتَهم النار؟

فأما استحلال المعصية أو إحلالها للغير فليس من هذه الأبواب فى شىء، إنما ذلك خروج عن الملّة وتبديل للشريعة، وهو الكفر باللّه تعالى كما رُوى عن النبى صلى اللّه عليه وسلم - ما

آمن بالقرآن من استحل محارمه .- وقد سمّى الله تعالى عَمَلَةَ السوء جَهَلَة، فقال تعالى إنه مَنْ عَمَل منكم سوءاً بجهالة، وقال تعالى بل أنتم قوم تجهلون، وقال تعالى بل أنتم قوم مسرفون. ويقال إن العرش يهتز ويغضب الرب تعالى لثلاثة أعمال، لقتل النفس بغير نفس، وإتيان الذَكَر الذكر، وركوب الأنثى الأنثى. وفى خبر لو اغتسل اللوطى بالبحار لم يطهره إلاّ التوبة. ولو لم يكن فى يسير المعصية من الشؤم إلاّ حرمان الطاعة وفقد حلاوة الخدمة ومَقْت المولى لكان هذا من أعظم العقوبات، كما قال وهيب بن الورد وقد سئل هل يجد العاصى حلاوة الطاعة؟ قال لا، ولا من هَمّ بمعصية. ولذلك سمى الله تعالى يَحيَى سيّداً لأنه لم يَهُم بمعصية، فصار علامة السيد بقدر سؤدد مَنْ لا يَهُم بالمعاصى، فصار مَنْ لا يَهُم بالمعاصى سيدا.

وفى خبر مَنْ لبس ثوب شهرة، وفى بعضها من نظر إلى عِطْفَيْه فاختال، أعرض الله تعالى عنه وإن كان عنده حبيبا. كيف وفى المخالفة وجود البُعد والوَحشة والانقطاع من المعاملة. وروينا فى خبر أن آدم عليه السلام لمّا أكل من الشجرة تطايرت الحُلَل عن جسده وبدَت عورته، قال فاستحيا التاج والإكليل من وجهه أن يرتفعا عنه، فجاءه جبريل عليه السلام فأخذ التاج عن رأسه وحلّ ميكائيل الإكليل عن جبينه، ونوديا من فوق العرش اهبطا من جوارى فإنه لا يجاورنى من عَصَانى، فالتفت آدم إلى حوّاء باكياً وقال هذا أول شؤم المعصية أُخرجنا من جوار الحبيب!

وروينا أنّ سليمان نبى الله صلى الله عليه وسلم لما عوقب على خطيئته من أجل التمثال الذى عُبِدَ فى داره أربعين يوما، أو قيل بسبب المرأة التى سألته أن يحكم لأبيها على خصمه فقال نعم ولم يفعل، أو قيل بل بسبب أنه أحب بقلبه أن يكون الحكم لأبيها على خصمه لمكانها فى قلبه، فسُلِبَ مُلكُه أربعين يوما فهرب تائها على وجهه، وكان يسأل بكفه فلا يُطعَم، فإذا قال أطعمونى فإنى سليمان بن داود شُجّ وضُرِب. ولقد بلغنى أنه استطعم من بيت فطُرِد وبَزَقت امرأة فى وجهه. وفى رواية قال فأخرجت إليه عجوز جرّة فيها بوْل فصبّته على رأسه، إلى أن خرج له الخاتم من بطن الحوت فلبسه بعد انقضاء الأربعين وهى أيام العقوبة. قال فجاءت الطير فعكفت عليه، وجاءت الجن والشياطين والوحوش فاجتمعت حوله، فلما عرفه الصيادون عَقَروا بين يدَيه واعتذروا إليه مما كانوا طردوه وشجّوه، فقال لا ألومكم فيما صنعتم قبل، ولا

أحمدكم فيما تصنعون الآن، هذا أمر من السماء فلابد منه. ولقد بلغني أنه كان من مسيره والريح تحمله في جنوده، إذ نظر إلى قميصه نظرة وكان عليه قميصٌ جديد فكأنه أعجبه، فوضعته الريح بالأرض، فقال لها لِمَ فعلت ولم آمرك، قالت إنما نطيعك إذا أطعتَ اللّه تعالى. وقد قال بعض العلماء في معنى هذا من خاف اللّه تعالى خافه كل شيء، ومن خاف غير اللّه تعالى أخافه اللّه تعالى من كل شيء، فكذلك أيضا من أطاع اللّه تعالى سخّر له كل شيء، ومن عصاه سخّره لكل شيء، أو سلّط عليه كل شيء.

وفي الخبر إن العبد لَيُحرَم الرزق بالذنب يصيبه وقد قيل الرزق من الحرام من قلة التوفيق للأعمال الصالحة. وكان ابن مسعود رضي اللّه عنه يقول إني لأحسب أن العبد ينسى العلم بالذنب يصيبه ولو لم يكن من بركة التوبة والعلم والاستقامة على الطاعة، إلاّ أنّ كل ما يصيب العبد فهو خير له، إنْ كان سعَةً فهو رفق من اللّه تعالى به عليه ولطف له منه، وإنْ كان ضيقاً فهو اختبار من اللّه تعالى وخيرةٌ للعبد، ويجد حلاوة ذلك ولذته لأنه في سبيله وقد أصابه وهو مقيم على طاعته، ولو لم يكن من شؤم الناس ووجد النقص لمخالطتهم إلاّ أن المعصية معهم أشد، وهي بهم أعظم لتعلق المظالم في أمر الدنيا وشأن الدين، وكل من قلّت معارفه قلّت معهم خطاياه.

وقال بعض السلف ليست اللعنة سواداً في الوجة ونقصاً في المال، إنما اللعنة أنْ لا يخرج من ذنب إلاّ وقع في مثله أو شر منه، وذلك أن اللعنة هي الطرد والبُعد فإذا طُرِد من الطاعة فلم تُيَسّر له بَعُدَ عن القربات فلم يوفق لها فقد لُعِن. وقد قيل في معنى الخبر الذي رأيناه آنفا إنّ العبد ليُحرم الرزق بالذنب يصيبه قبل أن يُحرم الحلال ولا يوفق له بوقوعه في المعصية. وقيل يحرم مجالسة العلماء ولا ينشرح قلبه لصُحبة أهل الخير. وقيل يمقته الصالحون وأهل العلم باللّه تعالى فيعرضون عنه. وقيل يُحرم العلم الذي لا صلاح للعمل إلاّ به لأجل إقامته على الجهل. ولا تنكشف له الشبهات بإقامته على الشهوات، بل تلتبس عليه الأمور فيتحيّر فيها بغير عصمة من اللّه تعالى، ولايوفق للأصوب والأفضل. وقد كان الفضيل يقول ماأنكرت من تغير الزمان وجفاء الإخوان فذنوبك أورثتك ذلك. ويقال نسيان القرآن بعد حفظه من أشد العقوبات، والمنع من تلاوته وضيق الصدر بقراءته والاشتغال عنه بضده عقوبة الإصرار. وقال بعض صوفية أهل الشام نظرتُ إلى غلام نَصْراني حسن الوجه فوقفت أنظر

اليه فمر بى ابن الجلاّء الدّمشقى فأخذ بيدى فاستحييت منه، فقلتُ يا أبا عبد اللّه سبحان اللّه، تعجبتُ من هذه الصورة الحسنة وهذه الصنعة المحكمة، كيف خُلقت للنار؟ فغمز يدى وقال لتجدن عقوبته بعد حين، قال فعوقبت بعد ثلاثين سنة. وقال بعضهم إنى لأعرف عقوبة ذنبى فى سوء خُلُق حمارى. وقال آخر أعرف العقوبة حتى فى نار بيتى.

والعقوبة موضوعها الشدة والمشقة، فعقوبة كل عبد من حيث يُشتد عليه، فأهل الدنيا يعاقبون بحرمان رزق الدنيا من تعذُّر الإكساب وإتلاف الأموال، وأهل الآخرة يُعاقَبون بحرمان رزق الآخرة من قلة التوفيق للأعمال الصالحات وتعذر فتوح العلوم الصادقة، ذلك تقدير العزيز العليم. وكان أبو سليمان الدارانى يقول **الاحتلام عقوبة**. وقال لايفوت أحداً صلاةٌ فى جماعة إلاّ بذنب يُحدثه. فدقائق العقوبات على قدر ترافع الدرجات. وقد جاء فى الأخبار ماأنكرتم من زمانكم فبما غيّرتم من أعمالكم. وفى الخبر يقول اللّه عز وجل أدنى ماأصنع بالعبد إذا آثر شهوته على طاعتى أنْ أحرمه لذيذ مناجاتى، فهذه عقوبة أهل المعاملات. ولو ظهر تغيّر القلب عند المعصية على وجه العاصى لاسوّد وجهه، ولكن اللّه تعالى سلّم بِحِلمه وسَترَه فغطّى ذلك فى القلب مع تأثيره فيه. وحجابُه لصاحبه وقسوتُه عن الذِكْر وعن طلب الخير والبِرّ والمسارعة إلى الخير هو من أكبر العقوبات. ويقال إن العبد إذا عصى اظلَّم قلبه ظُلمة يثور على القلب منها دخان يشهده الإيمان، فهو مكان حزن العبد الذى تسوءه سيئته، ويكون ذلك الدخان حجابا له عن العِلْم والبيان كما تحجب السحابة الشمس فلاتُرى، ويكون غُلفا يجده فى نفسه للخَلْق، فإذا تاب العبد وأصلح انكشف الحجاب فيظهر الإيمان فيأمر بالعلم كما تبرز الشمس من تحت الحجاب. ومن هذا قوله تعالى كلا بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون، قيل هو الذنب على الذنب حتى يسوّد القلب ويصير الإيمان تحت الحجاب فلا يَعرف معروفا ولايُنكر منكرا، وعندها يُنكَس أعلاه أسفله إذا استكمل سواده، فحينئذ مَرَدَ على النفاق فأملس فيه واطمأنّ به وثَبتَ، إلى أن ينظر اللّه تعالى إليه فيعطف بفضله عليه. وقد كان الحسن رضى اللّه عنه يقول إن بين العبد وبين ربه عز وجل حداً من المعاصى معلوماً إذا بلغه العبد طُبِعَ على قلبه فلم يوفقه بعدها للخير. وفى حديث ابن عمر الطابع معلق بقائمة العرش، فإذا انتُهكت الحُرمات واستُحلّت المحارم أرسل اللّه تعالى الطابع فطَبع على القلوب بما فيها. وفى حديث مجاهد القلب مثل الكف المفتوحة فكلما أذنب ذنبا انقبضت أصبع حتى تنقبض الأصابع كلها فتشدُ على القلب فذلك هو القُفل. ويقال لكل ذنب

نبات ينبت على القلب فإذا كثرت الذنوب قام النبات حول القلب مثل الكُم للثمرة، فانضم على القلب فذلك هو الغلاف. ويقال إنه الكِنان أحد الأكِنّة التى ذكر الله تعالى أن القلب لايسمع معها ولايفقه.

ولكل ذنب عقوبة إلا أن يعفو الله، والعقوبة ليست على قدر الذنب ولامن حيث يعلم العبد، لكنها على تقدير المشيئة وعن سابق علم الربوبية، فربما كانت فى قلبٍ وهى من أمراض القلوب، وربما كانت فى الجسد، وقد تكون فى الأموال والأهل، وتكون فى سقوط الجاه والمنزلة من عيون علماء الإسلام والمؤمنين، وقد تكون مؤجلة فى الآخرة وهذه أعظم العقوبات، وهى لأهل الكبائر من الموبقات الذين ماتوا عن غير توبة، ولأهل الإصرار والعزة والاستكبار، لأنها إذا كانت فى الدنيا كانت يسيرة على قدر الدنيا، وإذا تأخرت كانت عظيمة على قدر الآخرة. وفى الخبر إذا أراد الله تعالى بعبد خيراً عجّل له عقوبة ذنبه، وإذا أراد به شراً أخّره حتى يُوافى به الآخرة.

واعلم أن **الغَمّ** على مايفوت من الدنيا **والهَمّ** بالحرص عليها من العقوبات، **والفرح والسرور** بما نال من الدنيا مع مَنْ لايبالى ماخرج من دينه، من العقوبات. وقد يكون دوام العوافى واتساع الغنى من عقوبات الذنوب إذا كانا سببيْن إلى المعاصى، وقد تكون عقوبة الذنب ذنبا مثله وأعظم منه، كما يكون مثوبة الطاعة طاعة مثلها أو أفضل منها. وفى أحد الوجوه من معنى قوله تعالى وعصيتم من بعد ماأراكم ماتحبون، قال الغنى والعافية. كما يكون الفقر والسَقَم برحمة من الله تعالى إذا كانا سببا للعصمة، وهُمَا أمهات المعاصي إذا كانا سببيْن لها ومِطْرَقيْن إليها.

واعلم أن **الحِلْم** لايرفع العقوبة ولكن يؤخرها، ومن شأن الحليم أن لايعجّل بالعقوبة، وقد يعاقب بعد حين. ورووينا فى معنى قوله تعالى فلما نسوْا ماذُكِّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء، أى الرُخَص والرَغَد، حتى إذا فرحوا بما أوتو أخذناهم بغتة، قيل بعد ستين سنة. وفى الخبر من الذنوب ذنوب لايُكفّرها إلا الهَمّ بطلب المعيشة. وفى لفظ آخر لايكفرها إلاّ الهموم والأحزان. والاهتمام بالمباحات من حاجات الدنيا للفقراء كفأرات، وهو على مايفوت من قُرُبات الآخرة للمؤمنين درجات، وهو على حب الدنيا والجمع منها والحرص عقوبات. وقال بعض السلف كفى به ذنبا لايُستغفر منه حبُ الدنيا. وفى حديث عائشة رضى الله عنها إذا

كثرت ذنوب العبد ولم يكن له من الأعمال مايكفرّها أدخل الله عز وجل عليه الغموم والهموم فتكون كفارةً لذنوبه. ويقال إن الهَمّ الذى يعرض للقلب لايعرف العبد سبب ذلك فهو كفارات الهَمّ بالخطايا. ويقال هو حُزن العقل عند تذكره الوقوف والمحاسبة لأجل جنايات الجسد، فيلزم العقل ذلك الهم، فيظهر على العبد منه كأنه لايعرف سبب غمّه.

فإذا أتْبَع العبد الذنب بالذنب ولم يجعل بين الذنبين توبةً خيف عليه الهلَكة لأن هذا حال **المُصِرّ**، ولأنه قد شَرَد عن مولاه بترك رجوعه إليه ودوام مقامه مع النفس على هواه، وهذا **مقام المَقْت فى البُعد**. وأفضل مايعمله العبد قطع شهوات النفس أحلى مايكون عنده الهوى، إذ ليس لشهواتها آخِر يُنتظَر، كما ليس لبدايتها أوّل يُرتسَم، فإنْ لم يقطع ذلك لم يكن له نهاية، فإنْ شُغِل بما يَستأنف من مزيد الطاعة وَجَد حلاوةَ العبادة، وإلاّ أخذ نفسه بالصبر والمجاهدة فهذا طريق الصادقين من المريدين. وقيل فى قوله تعالى استعينوا بالله واصبروا، أى استعينوا به على الطاعة واصبروا على المجاهدة فى المعصية. وقال علىٌّ كرّم الله وجهه أعمال البرّ كلها إلى جنب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كَتِفْلة إلى جنب البحر، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلى جنب الجهاد فى سبيل الله تعالى كَتِفْلة فى جنب بحر، والجهاد فى سبيل الله تعالى إلى مجاهدة النفس عن هواها فى اجتناب النَهْى كتفلة فى جنب بحر لُجّى. وعلى هذا معنى الخبر الوارد رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر - مجَاهدة النفس.

وكان سهل بن عبد الله يقول **الصبر** تصديق الصدق، وأفضل منازل الطاعة صبرٌ على معصية، ثم الصبر على الطاعة. وقد روينا فى الإسرائيليات أن رجلا تزوّج امرأة فى بلدة وأرسل عبده يحملها إليه، فراودته نفسه وطالبته بها، فجاهدها واستعصم بالله، قال فنبّأه الله تعالى فكان نبياً فى بنى إسرائيل. وفى بعض قصص موسى عليه السلام أنه قال للخضر عليه السلام بأىّ شىء أطْلَعَك الله تعالى على علم الغيب؟ فقال بترك المعاصى لأجل الله تعالى. فالجزاء من الله تعالى يجعله غاية العطاء لا على قدر العمل، لكن إذا عمل له عبدٌ شيأ لأجله أعطاه أجره بغير حساب.

ولا يتخذ التائب عادةً من ذنب فيتعذر بها توبته، فإن **العادة** جندٌ من جنود الله تعالى لولاها لكان الناس كلُهم تائبين، ولولا الابتلاء لكان التائبون مستقيمين. والعمل فى قطع

المعتاد والصبر على مجاهدة النفس فى الهوى إن بُلى به فهذه الخصال من أفضل أعمال المريدين وأزكاها، ومعها تُلهَم النفس المطمئنة رشدها وتقواها، وبها تخرج من وصف الأمّارة بالسوء إلى وصف المُطمئنة إلى أخلاق الإيمان، وهذا أحد المعانى فى الخبر الذى رُوى أفضل الأعمال ماأكرهتم عليه النفوس، لأن النفس تكره خلاف الهوى، والهوى هو ضد الحق، والله تعالى يحب الحق، فصار جبار النفس على خلاف الهوى وعلى وفاق الحق، لأن محبة الحق من أفضل الأعمال كما قال تعالى والوزن يومئذ الحق الآية، واستثنى من أهل الخُسر الذين تَوَاصوْا بالحق وتواصو ا بالصبر، وهذا أوّل اليقين.

وحُدِّث عن بعض أهل الاعتبار أنه كان يمشى فى الوحل فكان يتقى ويُشمّر ثيابه عن ساقيه ويمشى فى جوانب الطريق، إلى أن زلّقت رجلُه فى الوحل، فأدخل رجليْه فى وسط الوحل وجعل يمشى فى المحجة، قال فبكى، فقيل له مايبكيك، فقال هذا مثل العبد لايزال يتوقى الذنوب ويجانبها حتى يقع فى ذنب منها وذنبين، فعندها يخوض الذنوب خوضا.

وعلى العبد أن يتوب من الغفلة التى هى كائنة فإذا عرف هذا لم تنقطع أبداً توبته، وقد جعل الله تعالى أهل الغفلة فى الدنيا هم أهل الخُسران فى العُقبى، فقال عز من قائل وأولئك هم الغافلون، لاجرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون، ولكن غفلة دون غفلة، وخسران دون خسران، ولاتَستحقرْنّ الغفلة فإنها أوّل المعاصى، وهى عند الموقنين أصل الكبائر، وقد جعل علىٌّ كرّم الله وجهه الغفلة إحدى مقامات الكُفر وقرنها بالعَمى والشك، وأمّال صاحبها عن الرُشد ووصفها بالحسرة، فقال فى الحديث الذى يُروَى من طريق أهل البيت، فقام عمّار بن ياسر فقال ياأمير المؤمنين أخبرنا عن الكُفر عَلَى مابُنِى، فقال على أربع دعائم، على الجفاء والعَمى والغفلة والشك، فمن جفا احتقّر الحق وجهَر بالباطل ومَقت العلماء، ومن عَمِىَ نسَى الذكر، ومن غفَل حاد عن الرُشد وغرّته الأمانى فأخذته الحسرة والندامة وبدا له من الله مالم يكن يحتسب، ومن شكّ تاه فى الضلالة.

وقال بعض العلماء من صدَق فى ترك شهوة وجاهد نفسه لله تعالى سبع مرات لم يُبتل بها. وقال آخر من تاب عن ذنب واستقام سبع سنين لم يرجع إليه أبدا. وقال بعض العلماء كفّارة الذنب المعتاد أن تقدر عليه عدد ماأتيته ثم لاتقع فيه، فيكون كُل تَرْكٍ كفارةً لفعل، وهذا حال الأقوياء من التوّابين وليس هو طريق الضعفاء من المريدين، بل حال الضعفاء الهرب

والبُعد. ومن حدّث نفسه بمعصية فى عدمِها لم يملك نفسه عند وجودها، فليعملْ المريد فى قطع وساوس النفس بالخطايا وإلاّ وقع فيها، لأن الخواطر تَقْوَى فتكون وسوسة، فإذا كثُرت الوساوس صارت طَرْقاً للعدو بالتزيين والتسويل، فأضرُّ شىء على التائب تمكينه خاطر السوء من قلبه بالإصغاء إليه فإنه يدبُّ فى هلكته. وكل سبب يدعو إلى معصية أويذكّر بمعصية فهو معصية، وكل سبب يؤل إلى ذنب ويؤدى إليه فهو ذنب وإن كان مباحا وقطعته طاعة، وهذا من دقائق الأعمال.

وكان يقال من أتى عليه أربعون وهو العمر، وكان مُقيما على الذنب، لم يكدْ يتُبْ منه إلا القليل من المتداركين. وقد روى فى الخبر المُؤمن كلُ مُفْتَنٍ توّاب، وإنّ للمؤمن ذنباً قد اعتاده الفينة بعد الفينة، يعنى حيناً بعد حين. وفى الحديث كل بنى آدم خطّاء، وخير الخطّائين المستغفرون. وفى الخبر الآخر المؤمن واهٍ راقع، فخيرهم من مات على رَقْعه، أى واهٍ بالذنوب راقعٌ بالتوبة والاستغفار. وقد وصف اللّه تعالى المؤمنين بترك متابعة الذنوب وترادف السيئة بالحسنة فى قوله تعالى ويدرؤن بالحسنة السيئة، وقد جعل هذا من وصف العاملين الذين صبروا فقال تعالى أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤن بالحسنة السيئة، فجعل تعالى لهم صبريْن عن الذنب وعلى التوبة فآتاهم به أجرين، وقد اشترط اللّه تعالى على التائبين من المؤمنين ثلاث شرائط، وشرط على التائبين من المنافقين أربعة، لأنهم اعتلّوا بالخَلْق فى الأعمال فأشركوهم بالخالق فى الإخلاص، فزاد عليهم الشرط تشديد الشدّة دخولهم فى المَقْت، واعتلّ غيرهُم بوصفه فخفّف عنهم شرطيّن فقال عز وجل إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينّوا، وقوله تعالى تابوا أى رجعوا إلى الحق من أهوائهم، وأصلحوا يعنى ماأفسدوا بنفوسهم وبيّنوا، فيها وجهان، أحدهما بيّنوها ماكانوا كتموا من الحق وأخفوا من حقيقة العلم، وهذا لمن عصى بكتم العلم ولبس الحق بالباطل، وقيل بينّوا حتى تَبيّن ذلك فيهم فظهرت أحكام التوبة عليهم. وقال فى الشرطين الآخرين المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجدلهم نصيراً إلاّ الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا باللّه وأخلصوا دينهم للّه، لأنهم كانوا يعتصمون بالناس وبالأموال وكانوا يراؤن بالأعمال، فلذلك اشترط عليهم الاعتصام باللّه والإخلاص للّه عز وجل، فينبغى أن تكون توبة كل عبد عن ضد معاصيه قليلا بقليل أوكثيرا بكثير، ويكون التائب على ضد ماكان أفسد ليكون كما قال اللّه تعالى إنّا لانضيع أجر المصلحين. ولايكون العبد تائبا حتى يكون مصلحا، ولايكون مصلحا حتى يعمل الصالحات ثم يدخل فى الصالحين. وقد قال اللّه تعالى وهو يتولى الصالحين، وهذا وصف للتوّاب وهو المتحقق بالتوبة والحبيب للّه تعالى، كما قال تعالى إن اللّه يحب التوّابين أى يتولى الراجعين

إليه من أهوائهم المتطهرين له من المكاره. وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم التائب حبيب الله. وسُئل أبو محمد سهل متى يكون العبد التائب حبيب الله تعالى؟ فقال حتى يكون كما قال الله تعالى التائبون العابدون الآية. ثم قال الحبيب لا يدخل فى شىء لا يحبه الحبيب، وقال لا تصح التوبة حتى يتوب من الحسنات، وقد قال غيره من العارفين العامة يتوبون من سيئاتهم، والصوفية يُتوبون من حسناتهم، يعنى من تقصيرهم فى أدائها لعظيم ما يشهدون من حق المَلِك العزيز سبحانه وتعالى.

وكان سهل يقول التوبة من أفضل الأعمال، لأن الأعمال لا تصحّ إلاّ بها، ولا تصح التوبة إلا بترك كثير من الحلال مخافة أن يخرجهم إلى غيره، والاستغفار قُوت التوابين ومفزَع الخطائين. قال الله تعالى وهو أصدق القائلين استغفروا ربكم ثم توبوا إليه. وقال تعالى أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه، فابتدىء التوبة بالاستغفار، وعَقّبْ الاستغفار بالتوبة، فالاستغفار مع الذنب سؤال الستر من الله تعالى، ومغفرة الله تعالى لعبده فى حال ذنبه ستره عليه وحِلمه عنه. ويقال ما من ذنب ستَره الله تعالى على عبده فى الدنيا إلاّ غفره له فى الآخرة،إنّ الله تعالى أكرم من أن يكشف ذنبا كان قد ستره، وما من ذنب كشَفَه الله فى الدنيا إلاّ جعل ذلك عقوبة عبده فى الآخرة، فالله أكرم من أن يُثنّى عقوبته على عبده. وقد روى عن علىّ وابن عباس رضى الله عنهما نحو ذلك، وقد أسنداه من طريق الاستغفار بعد التوبة، وهو سؤال العبد مولاه العفو عن المؤاخذة. ومغفرة الله تعالى لعبده بعد التوبة تكفيره لسيآته وتجاوزه عنها بالعفو الكريم، وهو تبديل السيآت حسنات. كما جاء فى الخبر أن تفسير قول العبد يا كريم العفو، قال هو أنْ عفا برحمته عن السيآت ثم بدّلها بكَرمه حسنات، وقد أحكم اللهُ تعالى ذلك بقوله فاستقيموا إليه واستغفروه، بعد قوله تعالى إنّ الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا، تتنزلُ عليهم الملائكة أنْ لا تخافوا ولا تحزنوا، أى وَحّدوا الله تعالى ثم استقاموا على التوحيد فلم يشركوا، وقيل استقاموا على السُنّة فلم يُحدِثوا، وقيل استقاموا على التوبة فلم يروُغوا معها، أن لا تخافوا عقاب الذنوب فقد كفرّها عنكم بالتوحيد، ولا تحزنوا على ما فاتكم من الأعمال فقد تداركها الله تعالى لكم بالتوبة، وبلغّكم منازل المُحسنين بالاستقامة، ثم قال تعالى وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون، فى السابق، نحن أولياؤكم أى نليكم ونقرب منكم، فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، أى بالتثبيت لكم على الإيمان، ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم، أى أجسامكم من النعيم المقيم، ولكم فيها ما توعدون، أى ما تتمنون بقلوبكم من النظر إلى الملك الرحيم.

وفى الخبر التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والمستغفر من الذنب وهو مُصرّ عليه كالمستهزىء بآيات الله تعالى. وكان بعضهم يقول أستغفر الله من قولى أستغفر الله باللسان، عن غير توبةٍ ندمٍ بالقلب. وفى خبر الاستغفار باللسان من غير توبة وندم بالقلب توبة الكذّابين. وكانت رابعة تقول استغفارنا هذا يحتاج إلى استغفار. فكم من توبة تحتاج إلى توبة فى تصحيحها والإخلاص من النظر إليها والسكون والإدلال بها، فمن عَقّب السيئات بحسنات، وخَلَط الصالحات بالطالحات، طُمع له فى النجاة ورُجى له الاستقامة قبل الوفاة، قال الله تعالى خَلطوا عملاً صالحا وآخر سيأً عسى الله أن يتوب عليهم، أى يعطف عليهم وينظر إليهم، وقيل خَلطوا عملا صالحا هو الاعتراف بالذنوب والتوبة المستأنفة، وآخر سيأً ما سلَف من الغفلة والجهالة، وقد كان ابن عباس يقول غفور لمن تاب، رحيمٌ حيث رخّص فى التوبة. وقد قال الله تعالى وإنى لغفّار لمن تاب، أى من الشرك، وآمن بالتوحيد، وعمل صالحا أدّى الفرائض واجتنب المحارم، ثم اهتدى كان على السُنّة، وقيل استقام على التوبة، فهذه صفات المؤمنين فلم يردّ الله تعالى المخلصين إلى ماردّ إليه المنافقين وهو التوبة، وكذلك ردّ إليها المشركين إذ لا طريق للكل إلاّ منها، ولا وصول إلى المحبة والرضا إلاّ بها، وقال تعالى فى وصف المنافقين وآخرون مُرْجَوْن لأمر الله إمّا يعذبهم أى مع الإصرار، وإمّا يتوب عليهم أى بالاستغفار. وأحكم ذلك وفصّله بما شرط له، كما قال فى شأن الكافرين فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلّوا سبيلهم.

وقد قَرَن الله تعالى الاستغفار للعباد ببقاء الرسول صلى الله عليه وسلم فى الأمة، ورفع العذاب عنهم بوجوده، فضلاً منه ونعمة، وقال وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون. وكان بعض السلف يقول كان لنا أمانان ذهب أحدهما وبقى الآخر، فإن ذهب الآخر هلَكنا يعنى الذى ذهب الرسول صلى الله عليه وسلم، والذى بقى الاستغفار. وسئل سهل رحمه الله عن الاستغفار الذى يكفرّ الذنوب فقال أوّل الاستغفار الاستجابة، ثم الإنابة، ثم التوبة، فالاستجابة أعمال الجوارح، والإنابة أعمال القلوب، والتوبة إقباله على مولاه وتَرْك الخَلْق، ثم يستغفر من تقصيره الذى هو فيه ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر، فعند ذلك يغفر له ويكون عنده مأواه، ثم ينقل إلى الانفراد، ثم الثبات، ثم البيان، ثم المعرفة، ثم المناجاة، ثم المُصافاة، ثم محادثة السر وهو الخُلّة، ولا يستقر هذا فى قلب عبد حتى يكون العلم غذاءه، والذكر قوامه، والرضا زاده، والتفويض مراده، والتوكل صاحبه، ثم ينظر الله تعالى إليه فيرفعه إلى العرش فيكون مقامه حَمَلَة العرش.

وكان بعض السلف يقول العبد لابد له من مولاه على كل حال، وأحسن حاله أن يرجع إليه في كل شيء إذا عصى، يقول يا رب استُر علَّى، فإذا فرغ من المعصية قال يارب تُب علَّى، فإذا تاب، قال يارب ارزقنى العصمة، فإذا عمل قال يارب تقبّل منى. ومن أحسن ما يتعقب الذنب من الأعمال بعد التوبة وحل الإصرار مما يُرجى به كفّارة الخطيئة **ثمانية أعمال، أربعة من أعمال الجوارح، وأربعة من أعمال القلوب، فأعمال الجوارح** أن يصلى العبد ركعتين، ثم يستغفر سبعين مرة ويقول سبحان اللّه العظيم وبحمده مائة مرة، ثم يتصدق بصدقة ويصوم يوما، **وأعمال القلوب** هى اعتقاد التوبة منه، وحب الإقلاع عنه، وخوف العقاب عليه، ورجاء المغفرة له، ثم يحتسب على اللّه تعالى بحسن ظنه وصدق يقينه كفارة ذنبه، فهذه الأعمال قد وردت بها الآثار أنها المُكَفّرة للزّلل والعِثار، وقد يُشترط فى بعضها فيتوضأ ويُسبغ الوضوء ويدخل المسجد فيصلى ركعتين.

ويقال **صدقة الليل** تُكفّر ذنوب النهار، **وصدقة السرّ** تكفر ذنوب الليل. وفى بعض الأخبار إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تُكَفّرها، السر بالسر والعلانية بالعلانية. فأول ما يحب اللّه عز وجل على عبده أن لا يعصيه بنعمه لئلا تكون معصيته كفرانا لنعمته، وجوارح العبد وماله هى من نعم اللّه تعالى عليه، لأن قوام الإنسان بجوارحه، وثبات جوارحه بالحركة، ومنافع الحركة بالعافية، فإذا عصاه بالنعمة فقد بدّلها كفرا، كما قال تعالى بدّلوا نعمة اللّه كفرا، قيل استعانوا بها على معاصيه، ثم توّعد على التبديل بالعقاب الشديد، فقال ومن يبدّل نعمة اللّه من بعد ما جاءته فإن اللّه شديد العقاب، فقد يكون العقاب على تبديل النعمة مُعجّلاً فى الدنيا ويكون مؤجلا فى الآخرة، وقد يكون العقاب فى أسباب الدنيا، وقد يكون فى حرمان أسباب الآخرة لأنهما مآله ومثواه، وقد يكون فيهما معا، وقد تكون نفس المعصية بالنعمة عقوبة. والجهل بالنعمة وتضييع الشكر عليها، واستصغارها والسكون إليها، والتطاول والتفاخر والتكاثر بها، كل هذه الأسباب عقوبات. ثم يُفرض على العبد إذا عصاه الرجوع إلى مولاه وهو التوبة عُقيب وقوفه مع نفسه، وهو موافقة الهوى بالخطيئة، فتأخيره بالتوبة وإصراره على الذنب ذنبان مُضافان إلى الخطيئة، فإذا تاب من ذنبه وأحكم التوبة منه اعتقد الاستقامة على الطاعة ودوام الافتقار إلى اللّه تعالى فى العصمة، ثم يتوب أبدا من الصغائر إلى الهمّ والتمنى، ومن الخوف والطمع فى المخلوق، وهى ذنوب الخصوص، إلى الطرفة والنفس والسكون إلى شيء والراحة بشيء، وهذه ذنوب المقرّبين، حتى لا يبقى على العبد فيما

يعلم مخالفة، وحتى يشهد له العلم بالوفاء. وإنما حُرِم بعض التابعين ذلك المزيد ولم يجدوا حلاوة التوبة لتهاونهم بحال الرعاية، وتسامحهم بترك حُسن القيام بشاهد المراقبة، وذلك يكون من قلة إحكام أمر التوبة، ولو قاموا بحكم التوبة من الذنب الواحد وأحكموا حال الصادقين فى التوبة لم يعدموا من الله المزيد لأنهم محسنون فهم فى تجديد، قال الله تعالى سنزيد المحسنين، فإذا رأك مستقيما على التوبة عاملا بالصالحات ولم تجد نفسك على مزيد، بوجْد حلاوة أو حُسن خليقة أو عروض زهد أو خاصية معروفة، فارجع إلى باب المراقبة أو موقف الرعاية فتفقدهما، وأحْكِمْ حالهما فمِنْ قِبَلِهما أُتيت.

وقال بعض العلماء من تاب من تسعة وتسعين ذنبا ولم يتب من ذنب واحد لم يكن عندنا من التائبين. ولا تغفلن عن التفقد وتجديد التوبة أدبار الصلوات، فإنما دخل الخُسران على العمال من حيث لا يعلمون من تركهم التفقد ومحاسبة النفس، وبمسامحتها مما يعملون. واعلم أن حقيقة كل ذنب **عشرة أعمال** لا يكون العبد توّاباً بحبه الله تعالى، ولا تكون توبته نصوحا التى شرطها الله تعالى وفسرتها النبوّة، إلاّ أن يحكم العبد **عشر توبات** من كل ذنب، أولها ترك العوْد إلى فعل الذنب، ثم يتوب من القول به، ثم يتوب من الاجتماع مع سبب الذنب، ثم التوبة من السعى فى مثله، ثم التوبة من النظر إليه، ثم التوبة من الاستماع إلى القائلين به، ثم التوبة من الهمّة، ثم التوبة من التقصير فى حق التوبة، ثم التوبة من أن لا يكون أراد وجه الله تعالى خالصا بجميع ما تركه لأجله، ثم التوبة من النظر إلى التوبة والسكون إليها والإدلال بها، ثم يشهد بعد ذلك تقصيره عن القيام بحق الربوبية لعظيم ما يشهد بالمزيد من الإشراف على التوحيد، من كبير جلال الله تعالى وعظم كبريائه، فتكون توبته بعد ذلك من تقصيره عن القيام بحقيقة مشاهدته، ويكون استغفاره لما ضعف قلبه ونقص همه عن معاينة مشاهدته لعلو مقامه ودوام مزيده واعلامه.

ولا نهاية لتوبة العارِف ولا يكبر عن التوبة نبىٌّ فَمَن دونه، ولكل مقام توبة، ولكل حال من مقامٍ توبة، ولكل مشاهدة ومكاشفة توبة، فهذا حال التائب المُنيب الذى هو من الله تعالى مُقرّب وعنده حبيب، وهذا مقام المختبر بالأشياء، المُبتَلى بها، التوّاب إلى الله تعالى منها. وتوباتُه إلى الله تعالى لا تُستقصى، فهذه **حقيقة التوبة النّصوح**، وصاحبها مسلمٌ وجهُه لله تعالى، محسنٌ من نفسه مستريح، ودينه عند الله تعالى مستقيم، ومقامه وحاله من الله تعالى سليم، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله يحب كل مُفْتَنٍ توّاب.

واعلم أن الذنوب على ستة ضروب بعضها أعظم من بعض، كل ضرب منها مراتب فى كل مرتبة من المذنبين طبقة، منها معاصٍ يعتل بها العبد من معانى صفات الربوبية مثل الكِبر والفخر والجبرية وحب الحمد والمدح ووصف العز والغنى، فهذه مهلكات وفيها من العموم طبقات؛ ومعاص تكون من معانى أخلاق الشياطين مثل الحسد والبغى والحيلة والخداع والأمر بالفساد فهذه موبقة وفيها من أهل الدنيا طبقات؛ ومعاصٍ تكون من ضد السُنّة وهو ما خالفها إلى بدعة، والأحداث المبتدعة وهى كبائر، منها ما يُذهب الإيمان ويُنبت النفاق، وست من كبائر البدع وهى تَنْقُل عن الملّة، وهى القَدَرية والمُرجئة والرافضية والإباضية والجهمية، والشاطحون من المغالطين وهم الذين لا يقولون بخلْق ولا رَسْم ولا حكْم فى تعدى الحدود ومجاوزات العلم، فهم زنادقة هذه الأمة، ومعاص متعلقة بالخَلْق من طريق المظالم فى الدين والإلحاد بهم عن طريق المؤمنين، وهو ما أضل به عن الهدى، وأزاغ به عن السنن، وحرّفه من الكتاب، وتأوّله من السُنّة، ثم أظهر ذلك ودعا إليه فقُبل منه واتُّبع عليه. وقد قال بعض العلماء لا توبة لهذه المعاصى، كما قال بعضهم عن القاتل لا توبة له، للإخبار بثبوت الوعيد وحق القول عليه، والضرب الخامس من المعاصى ما تعلّق بمظالم العباد فى أمر الدنيا، مثل ضرب الإنسان، وشتم الأعراض، وأخذ الأموال، والكذب والبُهتان، فهذه موبقات ولابد فيها من القِصاص للموافقة بين يدىّ الحاكم العادل والقطع منه بقضاء فاصل، إلاّ أنْ يقع استحلال أو يستوهبها الله عز وجل من أربابها فى المآل بكرمه، ويعوض المظلومين عليها من جنابه بجوده. وقد جاء فى الخبر الدواوين ثلاثة، ديوان يُغفر، وديوان لا يُغفر، وديوان لا يُترك، فأمّا الديوان الذى يُغفر فذنوب العباد بينهم وبين الله تعالى، وأمّا الديوان الذى لا يُغفر فالشرك بالله تعالى، وأما الديوان الذى لا يُترك فمظالم العباد أى لا يُترك المطالبة به والمؤاخذة عليه. والضرب السادس من الذنوب ما كان بين العبد وبين مولاه من نفسه إلى نفسه، متعلق بالشهوات والجرى فى العادات، وهذه على ضربين كبائر وصغائر، فالكبائر ما نُصّ عليه بالوعيد وما وجبت فيه الحدود، والصغائر دون ذلك إلى نظرة وخطْرة. والتوبة النَصوح تأتى على جميع ذلك بعموم قوله تعالى فتاب عليكم وعفا عنكم، وبإخباره عزّ وجلّ عن حكْمه إذ يقول ثم تاب عليهم ليتوبوا، وبظاهر قوله تعالى إن الذين فَتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا، ومثْله ثم إن ربَك للذين هاجروا من بعدِ ما فُتِنُوا إلى قوله إن ربَك من بَعْدِها لغفور رحيم. هكذا قراءة أهل الشام بنصب الفاء والتاء ولأن البُغْية من التوبة إذا كانت غفران الذنب

والزحزحة عن النار، ونحن لا نرى أبدية الوعيد على أهل الكبائر، بل نجعلهم فى مشيئة اللّه ونُجوِّز تجاوز اللّه تعالى عنهم فى أصحاب الجنة، كما جاء فى الخبر فى تفسير قوله تعالى فجزاؤه جهنم خالداً فيها، أى إنْ جازاه، وكما روينا عن النبى صلى اللّه عليه وسلم من وَعدَه اللّه تعالى على عمل ثوابا فهو مُنجزه له، ومن وَعَده على عمل عقابا فهو فيه بالخيار، إن شاء عذّبه، وإن شاء عفا عنه، وكما قال ابن عباس رضى اللّه عنه يَغفر لمن يشاء الذنب العظيم، ويعذب من يشاء على الذنب الصغير.

وقد قال اللّه تعالى إن اللّه لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، فلم يجد للمغفرة ذنبا غير الشرك، وترك المسلمين مع سائر الذنوب فى مشيئته، وقد يَحتج مُحتجّ بالخبر المأثور فى ترك قبول توبة المبتدع إن اللّه تعالى احتّجز التوبة على كل صاحب بدعة، فهذا مخصوص لمن لم يُتب ممن حُكِم عليه بدرك الشقاء. ألا تَرَى أنه لم يقل إن اللّه تعالى احتّجز قبول التوبة عمن تاب، إنما أخبر عن حكم اللّه تعالى فيمن لم يتب بأن اللّه تعالى حجب التوبة عنه، فهكذا نقول أيضا إن القاتل إذا كان قد سبق له سوء الخاتمة بأنه يموت على غير توحيد، وكذلك المبتدع إن جُعل اسمه فى أصحاب النار، ثم كان القتل والبدعة علامة ذلك، وسببه أنهما جميعا ممنوعان من التوبة فإنها محتجزة عنهما. وكذلك القول فيمن حقّت عليه كلمة العذاب بسبق سوء الخاتمة، فلو أنه تاب سبعين توبة لم تنقذه من النار، وليست تويته بأكثر من قوله صلى اللّه عليه وسلم إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة حتى يقول الناس إنه من أهلها، ولا يبقى بينه وبينها إلاّ شبر، ثم يدركه الشقاء، وفى لفظ آخر ثم يسبق عليه الكتاب بعمل أهل النار فيدخلها، فقد دخلت التوبات فى صالح أعماله الحسنات ثم أحبَطَها عنه فى جملة عمله بسبْق الكتاب بالشقاء له. وأمّا مَنْ لم يسبق له سوء الخاتمة، ووَهِب له التوبة النصوح، ولم يدركه الشقاء، فإنها لم تُحتجَز عنه، وإن اللّه تعالى يعفو عنه بما وهَب له من التوبة، كقوله تعالى فى المنافقين إمّا يعذبُهم وإمّا يتوب عليهم، وليس النفاق دون البدعة، ولا كل المنافقين تاب عليهم ولا جميعهم ختَم لهم به، ولعموم قوله تعالى فتاب عليكم وعفا عنكم، فهذا مجمل فيمن تاب، والخبر مخصوص فيمن لم يتب، ولقوله تعالى ثم تاب عليهم ليتوبوا، ولقوله تعالى عسى اللّه أن يتوب عليهم إن اللّه غفور رحيم.

ثم إن الناس فى التوبة على **أربعة أقسام** فى كل قسم طائفة، ولكل طائفة مقام، منهم

تائب من الذنب مستقيم على التوبة والإنابة، لا يحدّث نفسه بالعوْد إلى معصية أيام حياته، مستبدلٌ بعمل سيئاته صالح حسناته، فهذا هو السابق بالخيرات، وهذه هى التوبة النَّصُوح، ونفس هذا هى المطمئنة المرضيّة. والخبر المروى فى مثل هذا سيروا سبقَ المفردون المستهترون بذكر اللّه،وضع الذكر أوزارهم فوردوا القيامة خفافا. والذى يلى هذا فى القرب عبْدٌ التوبة ونيّته الاستقامة، لا يسعى فى ذنب لا يقصده ولا ينحوه ولا يهتم به وقد يُبتلى بدخول الخطايا عليه عن غير قصد منه، ويُمتحن بالهَمّ واللّمم فهذا من صفات المؤمنين يرجى له الاستقامة لأنه فى طريقها، وهو ممن قال اللّه تعالى يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلاّ اللمم، إن ربك واسع المغفرة، وداخل فى وصف المتّقين الذين قال اللّه تعالى فيهم والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظَلموا أنفسهم الآية، ونفس هذا هى اللّوامة التى أقسم اللّه تعالى بها، وهو من المقتصدين. وهذه الذنوب تدخل على النفوس من معانى صفاتها وغرائز جِبِلّاتها وأوائل أنسابها من نبات الأرض وتركيب الأطوار فى الأرحام خَلْقاً من بعد خلق، ومن اختلاط الأمشاج بعضها ببعض، ولذلك عقّبه اللّه تعالى بقوله هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنّة فى بطون أمهاتكم الآية، فلذلك نهى عن تزكية النفس المُنشَأة من الأرض والمركّبة فى الأرحام بالأمشاج للاعوجاج، فقال تعالى فلاتزكّوا أنفسكم أى فهذا وصفها عن بدء إنشائها. وكذلك وصَفَ مشيج خليقته بالابتلاء فى قوله إنا خلَقْنا الإنسان من نُطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا، وشرحُ هذا يطول ويخرج إلى علم تركيبات النفوس ومجبول فِطرتها، وقد ذكرنا أصوله فى بعض الأبواب من هذا الكتاب. وفى مثل هذا العبد معنى الخبر الذى جاء، المؤمن مُفْتَنٌ توّاب، والمؤمن كالسنبلة تفىء أحيانا وتميل أحيانا، فازراء هذا العبد على نفسه، ومقتُه لها عن معرفته بها، وتركُ نظرِه إليه وسكونُه إلى خيرٍ إنْ ظَهَر عليها، يكون من كفّارات ذنوبه لأنه من تدبّر الخطاب فى قوله تعالى فلا تزكّوا أنفسكم هو أعلم بكم. والعبد الثالث هو الذى يقرُب من هذا الثانى فى الحال، عبدٌ يذنب ثم يتوب ثم يعود إلى الذنب ثم يحزن عليه بقصدٍ له وسعىٍ فيه وإيثاره إياه على الطاعة، إلاّ أنه يسوّف بالتوبة ويحدّث نفسه بالاستقامة ويحب منازل التوّابين ويرتاح قلبه إلى مقامات الصدّيقين، ولم يأن حينُه ولا ظهر مقامه، لأن الهوى يحركه والعادة تجنبه والغفلة تغمره، إلاّ أنه يتوب خلال الذنوب ويعاود، فتوبة هذا فوْتٌ من وقت إلى وقت، ومثله تُرْجَى له الاستقامة لمحاسن عمله وتكفيرها لسالف سيئته، وقد يُخاف عليه الانقلاب لمداومة خطئه، ونفس هذا هى المُسوِّلة، وهو

ممن خلط عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليه فيستقيم فيلحق بالسابقين، فهذا بين حالين، بين أن يغلب عليه وصف النفس فيحق عليه ما سبق من القول، وبين أن ينظر إليه مولاه نظرة تُجبر له كل كسر ويغنى له كل فقر، فيتداركه بمنّةٍ سابقة فتُلحقه بمنازل المقربين، لأنه قد سلك طريقهم بفضله ورحمته، ونيّته الآخرة. والعبد الرابع أسوأ العبيد حالا وأعظمهم على نفسه وبالاً وأقلهم من الله نوالا. عبدٌ يذنب ثم يتبع الذنب مثله أو أعظم منه، ويقيم على الإصرار ويحدّث نفسه به متى قدَر عليه، ولا ينوى توبة ولا يعقد استقامة، ولا يرجو وعداً بحُسن ظنه، ولا يخاف وعيداً لتمكن أمنه، فهذا هو حقيقة الإصرار ومقام بين العُتّو والاستكبار. وفى مثل هذا جاء الخبر هلك المُصرّون قُدُما إلى النار، ونفس هذا هى الأمّارة وروحه أبدا من الخير فرّارة، ويُخاف على مثله سوء الخاتمة لأنه فى مقدماتها وسالك طريقها، ولا يبعد منه سوء القضاء ودرْك الشقاء، ولمثل هذا قيل مَنْ سوّف الله تعالى بالتوبة أكْذَبه، وأنّ اللعنة خروج من ذنب إلى أعظم منه. وهذه الطائفة فى عموم المسلمين وهم فى مشيئة الله من الفاسقين، كما قال تعالى مُرْجَوْن لأمر الله، أى مؤخرون لحكمه إما يعذبهم بالإصرار، وإمّا يتوب عليهم بما سبق من حُسن الاختيار. نعوذ بالله تعالى من عذابه ونسأله نعيما من ثوابه. وهذا آخر كتاب التوبة.

شرح مقام الصبر ووصف الصابرين وهو الثانى من مقامات اليقين

قد جعل الله عز وجل الصابرين أئمة المتقين وتمم كلمته الحسنى عليهم فى الدين فقال تعالى وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا، وقال تعالى وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن فى الصبر على ما تكره خيرا كثيرا، وقال المسيح عليه السلام إنكم لا تدركون ما تحبون إلاّ بصبركم على ما تكرهون، وقال بعض الصحابة ماذا جعل الله تعالى من الشقاء والفضل فى التقى والصبر، وقال ابن مسعود الصبر نصف الإيمان، وقد جعل علىّ كرّم الله وجهه الصبر ركناً من أركان الإيمان وقرَنه بالجهاد والعدل والإيقان، فقال بُنِى الإسلام على أربع دعائم، على اليقين والصبر والجهاد والعدل. وقال علىّ كرّم الله وجهه الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، لا جسد لمن لا رأس له، ولا إيمان لمن لا صبر له. ورفع رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبر فى العلو والفضل إلى مقام اليقين وقرَنه به، وكذلك قال الله تعالى وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لمّا

صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون. وأخبر النبى صلى الله عليه وسلم أن من أوتى نصيبه منهما لم يُسأل ما فاته، وأخبر عليه السلام أن الصبر كمال العمل والأجر، فقال فى حديث يرويه شهر بن حوْشب الأشعرى عن أبى أُمامة الباهلى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال مِنْ أقلّ ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر، ومَنْ أُعطى حظه منهما لم يبال ما فاته من قيام الليل وصيام النهار، ولأن تصبروا على مثل ما أنتم عليه أحب إلىّ من أن يوافينى كل امرىء منكم بمثل عمل جميعكم، ولكنى أخاف أن تُفتح عليكم الدنيا بعدى فينكر بعضكم بعضا وينكركم أهل السماء عند ذلك، فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه. ثم قرأ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولَيُجزيّن الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون.

وفى حديث ابن المنكدر عن جابر سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقال الصبر والسماحة. وقد قال الله تعالى وهو أصدق القائلين أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا، وقال عز وجل إنما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب، فضاعف أجر الصابرين على كل عمل ثم رفع جزاء الصبر فوق كل جزاء فجعله بلا نهاية ولا حد، فدلّ ذلك أنه أفضل المقامات. وكان عمر رضى الله عنه يقول نِعم العِدْلان ونِعْمت العلاوة للصابرين، يعنى بالعِدْلين الصلاة والرحمة، وبالعلاوة الهدى، والعلاوة ما يُعلَى به فوق الحِملين على البعير فيكون كعِدلٍ ثالث. وقد أخبر الله تعالى أنه مع الصابرين، ومن كان الله تعالى معه غلب، كما أن من كان معه علا، فقال واصبروا إن الله مع الصابرين. كما قال الله عز وجل وأنتم الأعلوْن والله معكم. واشترط الصبر لإمداده بجنده ولنُصرة تأييده بقوله تعالى بلَى أن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين.

وكان سهل يقول الصبر تصديق الصدق. وأفضل منازل الطاعة الصبر على المعصية ثم الصبر على الطاعة. وقال فى معنى قوله عز وجل استعينوا بالله واصبروا أى استعينوا بالله على أمر الله واصبروا على أدب الله. وقال لم يمدح الله تعالى أحداً إلاّ مَنْ صبر للبلاء والشدة فبذلك يُثنى عليه. وكان يقول الصالحون فى المؤمنين قليل، والصادقون فى الصالحين قليل، والصابرون فى الصادقين قليل، فجعل الصبر خاصية الصِّدق، وجعل الصابرين خصوص الصادقين. وكذلك الله تعالى وهو أصدق القائلين قد رفع الصابرين على الصادقين فى ترتيب المقامات فجعل الصبر مقاماً فى الصدق إنْ كانت الأوصاف المنسوقة نعتاً واحدا

للمسلمين، وكانت الواو للمدح، وإن كانت مقامات فالواو للترتيب، فقد جعل الله الصابرين فوق الصادقين والقانتين، أعنى فى قوله تعالى إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الآية. وفى حديث عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأنصار فقال أمؤمنون أنتم فسكتوا، فقال عمر رضى الله عنه نعم يا رسول الله، قال وما علامة إيمانكم، قال نشكر فى الرخاء ونصبر على البلاء ونرضى بالقضاء ، فقال مؤمنون ورب الكعبة.

والصبر ينقسم على عملين أحدهما لا صلاح للدين إلاّ به، والثانى هو أصل فساد الدين، ثم يتنوع الصبر فيكون صابرا على الذى فيه صلاح الدين فيكمل به إيمانه، ويكون صابرا على الذى فيه فساد الدين فيحسن به يقينه. وروينا فى معنى هذا عن علىّ رضى الله عنه أنه لما دخل البصرة واستقام له الأمر دخل جامعها فجعل يُخرج القُصّاص ويقول القِصص بدعة، فانتهى الى حلقة شاب يتكلم على جماعة فاستمع إليه فأعجبه كلامه، فقال يا فتى أسألك عن شيئين فإنْ خرجت منهما تركتُك تتكلم على الناس وإلاّ أخرجتك كما أخرجتُ أصحابك، فقال سَلْ يا أمير المؤمنين، فقال أخبرنى ما صلاح الدين وما فساده، قال صلاحه الورع وفساده الطمع، قال صدقت، تكلم، فمثلك يصلح أن يتكلم على الناس. ويقال إن هذا الشاب هو إمامنا فى هذا العلم وهو إمام الأئمة الحسن بن يَسار مولى الأنصار البَصْرىّ.

وكان ميمون بن مهران يقول الإيمان والتصديق والمعرفة والصبر واحد وقال أبو الدرداء رضى الله عنه ذروة الإيمان الصبر للحُكم والرضا بالقدر. واعلم أن الورع أول الزهد وهو أول باب من أبواب الآخرة، والطمع أوّل الرغبة وهو باب كبير من أبواب الدنيا، وهو استشعار الطمع من حب الدنيا، وحب الدنيا رأس كل خطيئة. ويقال أول معصية عُصى الله تعالى بها الطمع وهو أن آدم عليه السلام طمع فى الخلود فأكل الشجرة التى نُهى عنها، وإبليس طمع فى إخراج آدم عليه السلام من الجنة فوَسْوَس إليه، فاتفقا فى اسم المعصية لربهما تعالى بالطمع، ثم افترقا فى المطموع فيه وفى الحكم، فتدورك آدم عليه السلام بحُسن سابقته من الله تعالى وهلَك إبليس بما سبق عليه من الشَقْوة. والطمع هو تصديق الظن ولذلك وصف الله تعالى به عدوه فى قوله تعالى ولقد صدق عليهم إبليس ظنه، والظن ضد اليقين ولا يُغنى من الحق شيأ، وقال الله تعالى فى وصف المشركين إنْ نظن إلاّ ظنا وما نحن بمستيقنين.

فمن صبر عن الطمع فى الخلق أخرجه الصبر إلى الورع، ومن صبر عن الورع فى الدين أدخله الصبر فى الزهد، ومن طمع فى تصديق الظن الكاذب أدخله الطمع فى حب الدنيا، ومن استشعر حب الدنيا أخرجه حبها من حقيقة الدين. وقد قال بعض العلماء ما كنّا نعدّ إيمان مَنْ لم يُؤذ فيحتمل الأذى ويصبر عليه إيمانا، وقد فعل اللّه تعالى ذلك بالمؤمنين اختبارا، وأخبر أن ذلك ليس منه عذابا وإنما هو فتنة لمن أراد فتنته وبلاء من الناس، فصار ذلك فتنة عليهم وابتلاء لهم، وصار رحمة للمُؤذَى وخيرا فى قوله تعالى ومن الناس من يقول آمنا باللّه فإذا أوذِى فى اللّه جعل فتنة الناس كعذاب اللّه له، يعنى فتنة الناس به كعذاب اللّه تعالى، يعنى إياه أى ليس ذلك عذابا منى إنما هو رحمة باطنة، فهو كقوله تعالى وأما إذا ما ابتلاه فقدَر عليه رزقه فيقول ربى أهانن كلا، أى لم أُهِنْه بالفقر كما لم أُكْرم الآخر بالإكرام والتنعيم. وعلى معنى هذا خاطب نبيّه صلى اللّه عليه وسلم بالصبر الذى أمره به فقال تعالى واصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود، فسلاه به وفضّله عليه.

وقد روينا فى خبر يؤتى بأشكر أهل الأرض فيُجزيه اللّه تعالى جزاء الشاكرين، ويؤتى بأصبر أهل الأرض فيقال له أترضى أن نجزيك كما جزينا هذا الشاكر فيقول نعم يارب، فيقول اللّه تعالى كما أنعمت عليه فشكر وابتليتك فصبرت لأُضَعِفَن لك الأجر عليه فيُعطى أضعاف جزاء الشاكرين. وفى الأخبار ما من عبد إلاّ يُعطى أجره بحساب وَحَدّ إلا الصابرين فإنهم يُجازفون مجازفة بغير ميزان ولا حَدّ. وجاء فى الخبر أن أبواب الجنة مصراعان يأتى عليها زحام كثير إلاّ باب الصبر فإنه مصراع واحد لا يدخل منه إلاّ الصابرون أهل البلاء فى الدنيا واحد بعد واحد. وقد قال اللّه تعالى فى جزاء المخلصين أولئك لهم رزق معلوم، وقال تعالى فى جزاء الصابرين إنما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب، وقيل فى التفسير يغرف لهم غرفا، والمعنى فى ذلك أن الصبر أشق شىء على النفس وأكرهه وأمرّه على الطبع وأصعبه، فيه الألم والكَظْم عند الذُل والحِلم، ومنه التواضع والكَتْم، وفيه الأدب وحسن الخلق، وبه يكون كفّ الأذى عن الخَلْق واحتمال الأذى من الخَلْق، وهذه من عزائم الأمور التى يضيق منها أكثر الصدور، وفيه إكراه النفوس وحملها على الشدة والبؤس. وقد جاء أفضل الأعمال ما أُكرهت عليه النفوس، ولأجل ذلك اشترط اللّه تعالى على المتقين والصادقين الصبر فى الشدائد والمكاره، وحقق بالصبر صدقهم وتقواهم وأكمل به وصفهم وأعمال بِرّهم، فقال تعالى والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون، فمعنى الصبر حبس النفس عن السعى فى هواها.

ثم يتفرع الصبر إلى معان شتى من الصبر عن تفاوت الأهواء، والصبر على الثبات فى خدمة المولى، فمن ذلك ما توجب المجاهدة صرف الهمة عنه وتطهير القلب من خطرات الهوى ونزغات الأعداء وتزيين الدنيا. ومن الآفات ما يوجب الصبر كفّ الجوارح عنها وحبس النفس عن المشى فيها. ومن الصبر **حبْس النفْس على الحق** وعكوفها عليها بمعاملة اللسان والقلب والجسم، وبذلك وصف اللّه تعالى المؤمنين الذين يعملون الصالحات واشترط لصلاح أعمالهم الصبر، وأخبر أنّ الناس كلهم فى خسران إلاّ منْ كان من أهل الحق والصبر. وعَظُم الصبر فأفرده بإعادة التواصى به. ومن الصبر حبْس النفْس على عبادة الخالق سبحانه وتعالى وصبرها على القناعة وعلى صنع الرازق. ومن الصبر **كفّ الأذى** عن الخلق وهو مقام العادلين يدخل فى قوله تعالى إن اللّه يأمر بالعدل، ثم **احتمال الأذى** عن الخلق وهو مقام المحسنين يدخل فى قوله والإحسان. ومن الصبر **الصبر على الإنفاق** وإعطاء أهل الحقوق حقوقهم، الأقرب فالأقرب، وهذا مقام المنفقين يدخل فى قوله تعالى وإيتاء ذى القربى. ومنه الصبر فى الفحشاء وهو الأمر الفاحش فى العلم والإيمان، والصبر عن المنكر وهو ما أنكره العلماء، والصبر عن البغى وهو التطاول والغلّو ومجاوزة الحد بالكِبر والإسراف فى أمور الدنيا، فهذه الآية كلها **جامعة لمعنى الصبر** وهى قطب القرآن، ثلاث منها وهى الأوّل الصبر على العدل والإحسان والإعطاء، وثلاث منها الصبر عن الفحشاء والمنكر والبغى. وكان **ابن مسعود** رضى اللّه عنه يقول أجمع آية فى كتاب اللّه عز وجل لأمرٍ ونهى هذه الآية.

وقال اللّه تعالى نِعْم أجر العاملين الذين صبروا، فما أنعَم أجرهم حتى وصفهم بالصبر، وما أكرم رزقهم حتى مدحهم بالصبر. والصبر يُحتاج إليه قبل العمل ومعه وبعده. يُحتاج **فى أول العمل** أن يصبر على تصحيح النيّة وعزم العقود والوفاء بها حتى تصح الأعمال، لأن النبى صلى اللّه عليه وسلم قال إنما الأعمال بالنيّات ولكل امرىء ما نوى. وقال اللّه تعالى وما أمروا إلا ليعبدوا اللّه مخلصين له الدين. وحقيقة النية الإخلاص. ولأن اللّه تعالى قدّم الصبر على العمل فقال تعالى إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير. والصبر الثانى فى العمل حتى يتم ويُعمل لقوله تعالى نِعْم أجر العاملين الذين صبروا. **والصبر بعد العمل** هو الصبر على كتمه وترك التظاهر به والنظر إليه ليخلص من السمعة والعُجب فيكمُل ثوابه كما خلُص من الرياء، كما قال اللّه تعالى أطيعوا اللّه وأطيعوا الرسول ولا تُبطلوا أعمالكم. وقال تعالى فى مثله لا تبطلوا صدقاتكم بالمّن والأذى. وقال بعض السلف لا يتم المعروف إلاّ بثلاث: تعجيله وتصغيره وكتمه.

ومن الصبر **حبس النفس عن المكافأة والصبر على الأذى توكلاً على المولى عز وجل** ومنه قوله تعالى ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون. وهذا **صبر الخصوص**. ومنه قال بعض أهل المعرفة لا يثبت للعبد مقام فى التوكل حتى يُؤذَى ويصبر على الأذى، وقد ذكر الله تعالى فى قوله عز وجل ودع أذاهم وتوكل على الله، وفى قوله تعالى فاتخذه وكيلا واصبر على ما يقولون، وهذا هو **أوّل الرضا**. والمقام **الثانى من الرضا هو الصبر على الأحكام** وهو صبر أهل البلاء، الأمثل فالأمثل بالانبياء لقوله صلى الله عليه وسلم نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل، ولقوله تعالى فى المُجمل ولربك فاصبر، ثم فسّره فى الكلام المفسّر واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا.

ومن الصبر **حبْس النفْس على التقوى**، والتقوى اسم جامع لكل خير، فالصبر معنى داخل فى كل برّ، فإذا جمعهما العبد فهو من المحسنين وما على المحسنين من سبيل، ومنه قوله تعالى إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يُضيع أجر المحسنين، وقال تعالى لتُبلوّن فى أموالكم وأنفسكم ولَتَسمعنّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا، وإن تصبروا وتتقو فإن ذلك من عزم الأمور، أى إن تصبروا على الأذى عن المكافأة وتتقوا عند الابتلاء والمكاره ولاتجاوزوا فإنة أفضل. كما قال تعالى وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين، وقوله تعالى وَلَمَن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل، ثم قال عز وجل ولَمَن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور، قال فالأوّل أعنى المكافأة والانتصار بالحق من العدل، والعدل حَسَن، والثانى أعنى العفو والصبّر من الفضل وهو الإحسان، وهذا مجاز قوله تعالى الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب، فاستماع القول هو العدل، والعدل حَسَن وهو الانتصار، والعفو أحسن وفيه المدح بالهدى والعقل وهذا هو مقام المُخبتين، قيل هم الذين لايظلمون، وإذا ظلموا لم ينتصروا، فالمدح بالوصف لأهل هذا المقام هو الإخبات وهو الخشوع والطمأنينة بحُسن الجزاء من الله سبحانه وتعالى فى الآخرة لقرب اللقاء. وسرعة فناء الدنيا أمدح كما قال تعالى وإنّ الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل.

والتقوى والصبر معنيان أحدهما منوط بالآخر لايتم كل واحد منهما إلاّ بصاحبه. فمن كانت التقوى مقامه كان الصبر حاله، فصار الصبر أفضل الأحوال من حيث كانت التقوى

أعلى المقامات، إذ الأتقى هو الأكرم عند الله تعالى، والأكرم على الله تعالى هو الأفضل. وقد شرّف الله تعالى الصبر بأن أضافه إليه بعد الأمر به فقال واصبر وماصبرك إلاّ بالله، وقال تعالى ولربك فاصبر، وإن كان كل شيء به وكل عمل صالح له. ولايصف الله تعالى عبدا ولايُثني عليه حتى يبتليه، فإنْ صبر وخرج من البلاء سليما مدحه ووصفه وإلاّ بيّن له كذبه ودعواه. وقيل لسفيان الثورى رضى الله عنه ماأفضل الأعمال قال الصبر عند الابتلاء. وقال بعض العلماء وأى شيء أفضل من الصبر وقد ذكره الله تعالى فى نيّف وتسعين موضعا، ولانعلم شيأ ذكره الله تعالى هذا العدد إلاّ الصبر، فلايطمعن طامع فى مدح الله له وحسن ثنائه عليه قبل أن يبتليه فيصبر له، ولايطمعن أحد فى حقيقة الإيمان وحُسن اليقين قبل أن يمدحه الله تعالى ويُثنى عليه. ولو أظهر الله تعالى على جوارحه سائر الأعمال ثم لم يمدحه بوصف ولم يُثن عليه بخير لم يؤمَن عليه سوء الخاتمة، وذلك أن من أخلاق الله تعالى أنه إذا أحب عبدا ورضى عمله مدحه ووصفه، فمن ابتلاه بكراهة ومشقة أو بهوى وشهوة فصبر لذلك أو صبر على ذلك فإن الله تعالى يمدحه ويُثنى عليه بكرمه وجوده، فيدخل هذا العبد فى أسماء الموصوفين ويصير واحدا من الممدوحين، فعندها يثبت قدمه من الزلل ويختم له بما سبق من صالح العمل.

ومن الصبر **صبر على العوافى** أن لا يجريها فى المخالفه، **والصبر على الغنى** أن لا يبذله فى الهوى، **والصبر على النعمة** أن لا يستعين بها على معصية، فحاجة المؤمن إلى الصبر فى هذه المعانى ومطالبته بالصبر عليهاكحاجته ومطالبته بالصبر على المكاره والفقر وعلى الشدائد والضُرّ، ويقال إن البلاء والفقر يصبر عليهما المؤمن، والعوافى لا يصبر فيها إلاّ صدّيق، وكان سهل يقول الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء، وكذلك قالت الصحابة رضى الله عنهم لما فُتحت الدنيا فنالوا من العيش واتسعوا، قالوا ابتلينا بفتنة الضرّاء فصبرنا، وابتلينا بفتنة السّراء فلم نصبر، فعظّموا الاختبار بالسّراء وهو ما سرّ، على الاختبار بالضرّاء وهو ما ضرّ. وقد قال تعالى الذين ينفقون فى السّراء والضّراء فمدحهم بوصف واحد فى الحالتين المختلفين لحُسن يقينهم وسخاوة نفوسهم، وحقيقة هذا المعنى قول الله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله، لأن فيهما ما يسر ويُشغل عن الذكر، ثم قال عز وجل إن من أزوجكم وأولادكم عدوّا لكم فاحذروهم، لأن فى الأزواج والأولاد ما يُفرَح به فيوافق فيه الهوى ويخالف بوجودهما المولى، فصارا عدوّين فى

العُقبى لما يؤل إليه من شأنهما. ومن هذا الخبر الذى رُوى عن النبى صلى الله عليه وسلم لمّا نظر إلى ابنه الحسن يتعثر فى قميصه فنزل عن المنبر واحتضنه ثم قال صدق الله إنما أموالكم وأولادكم فتنة، أى لما رأيت ابنى هذا لو أملك نفسى أن أخذته، ففى هذا عبرة لأولى الأبصار، وروى عنه فى الحديث أيضا الولَد محزَنة مبْخله مجْبَنة، فهذه مصادر الحزن والبُخل والجُبن، أى يحمل حب الأولاد والأموال على ذلك، فمن صبر على السرّاء وهى العوافى والغنى والأولاد وغير ذلك وأخذ الأشياء من حقها ووضعها فى حقها فهو من الصابرين الشاكرين، لا يزيد عليه أهل البلاء والفقر إلاّ بحقيقة الرضا والشكر. وقد جمع الله تعالى بين ما سرّ وضرّ وجعلهما من وصف المتقين، ومدحهم بالإحسان معهما فقال تعالى أعدت للمتقين الذين ينفقون فى السرّاء والضرّاء، والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس، والله يحب المحسنين.

ومن الصبر كتمان المصائب والأوجاع وترك الاستراحة إلى الشكوى بهما فذلك هو الصبر الجميل، قيل هو الذى لا شكوى فيه ولا إظهار. وروينا عن ابن عباس رضى الله عنهما الصبر فى القرآن على ثلاثة أوجه: صبر على أداء الفرائض لله تعالى، وصبر عن محارم الله تعالى، وصبر فى المصيبة عند الصدمة الأولى، فمن صبر على أداء فرائض الله تعالى فله ثلثمائة درجة، ومن صبر على محارم الله تعالى فله ستمائة درجة، ومن صبر فى المصيبة عند الصدمة الأولى فله تسعمائة درجة، وهذا يحتاج إلى تفسير، ولم يُفضّل ابن عباس الصبر على المصيبة لأنه أفضل من الصبر عن المحارم وعلى الفرائض، بل لأن الصبر على ذَيْنك من أحوال المسلمين، والصبر على المصيبة من مقامات اليقين، وإنمّا فضّل المقام فى اليقين على مقام الإسلام. ومن ذلك ما روى من دعاء النبى صلى الله عليه وسلم أسألك من اليقين ما تُهوّن به علىّ مصائب الدنيا. فأحسن الناس صبراً عند المصائب أكثرهم يقينا، وأكثر الناس جزعاً وسخطاً فى المصائب أقلهم يقينا. ومثل هذا الخبر الذى رويناه عن سلمة بن وردان عن أنس ابن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مَن تَرَك المِراء وهو مُحِقّ بُنِىَ له بيت فى أعلى الجنة، ومن ترك المراء وهو مبطل بنى له فى وسط الجنة. ومن ترك الكذب بنى له فى رِبْض الجنة. فقد علمتَ أن ترك الكذب وترك المراء مبطلا أفرضُ وأوجب فينبغى ان

يكونا أفضل، ولكن المعنى فيه أن الكذب والمراء بالباطل يتركه المسلمون، فأما المراء والعبد محق صادق ثم لا يمارى زُهدا فى التظاهر ورغبةً فى الصمت والسلامة فلا يصبر على هذا إلا الموقنون وهم خصوص المؤمنين، فمقامه من اليقين، والزهد وإيثار الخمول والصمت على الكلام والشهوة به أفضل وهو من اليقين، فصار هذا المؤمن بمقامه أفضل من عموم المؤمنين الذين يتركون الكذب والمماراة وإن كانا أفرض وأوجب. فهذا بيان ذلك ومعناه.

ومن الصبر إخفاء أعمال البِرّ، ومنْع النفس الفكاهة والتمتع بذكرها، وإخفاء المعروف والصدَقات فإن كتمه من الأدب، مع السلامة فى الإعلان وبَرء الساحة فى الإخبار، ولكن إخفاءه أفضل وأزكى وأحب إلى اللّه تعالى، بل هى من الذخائر النفيسة عند اللّه تبارك وتعالى. ومن الصبر صون الفقر وإخفاؤه والصبر على بلاء اللّه تعالى فى طوارق الفاقات، وهذا حال الزاهدين الراضين. **وأفضل الصبر** الصبر على اللّه تعالى بالمجالسة له والإصغاء إليه وعكوف الهّم عليه وقوة الوجْد به، وهذا خصوص للمقربين، أو حياءً منه أو حباً له أو تسليماً أو تفويضاً إليه، وهو السكون تحت جريان الأقدار، وشهودُها من الإنعام ومن حُسن تدبير الأقسام فى شهود المسئلة له والحكمة فيها والقصد بالابتلاء بها، وهو داخل فى قوله تعالى ولربك فاصبر، وفى قوله واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا. وقال عمر بن عبد العزيز رضى اللّه عنه وغيره من الائمة أصبحت ومالى سرور إلاّ فى مواضع القدَر، وروى أيضا إلاّ انتظار القضاء، ويقال من **علامة اليقين** تسليم القضاء بحُسن الصبر والرضا وهو مقام العارفين. وقال سهل فى تأويل قول على رضى اللّه عنه إن اللّه تعالى يحب كل عبد نُوّمة، قال هو الساكن تحت جريان الأحكام، يعنى من غير كراهة ولا اعتراض. فأما اشتراط الصبر فى المصيبة عند الصدمة الأولى فى قول النبى صلى اللّه عليه وسلم إنما الصبر عند الصدمة الأولى، فلأنه يُقال إن كل شىء يبدو صغيراً ثم يكبر إلا المصيبة فإنها تبدو كبيرة ثم تصغر، فاشترط لِعظَم الثواب لها عند أول كُبرها قبل صُغرها، وهى فى صدمة القلب أوّل ما يبغته الشىء فينظر إلى اللّه تعالى فيستحى فيُحسن الصبر، كما قال فإنك بأعيننا وهذا مقام المتوكلين على اللّه تعالى.

والصبر أيضا عن إظهار الكرامات وعن الإخبار بكشف القُدرة والآيات داخل فى حُسن الأدب من المعاملات، وهو من معنى الحياء من الله تعالى، وهذا طريق المحبيّن لله تعالى وهو حقيقة الزهد. ومن **فضائل الصبر** حبس النفْس عن حب المدح والحمد والرياسة. وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا مقطوعا **الصبر فى ثلاث**، الصبر عن تزكية النفس، والصبر عن شكوى المصيبة، والصبر على الرضا بقضاء الله تعالى على خيره وشره. ومن الصبر حبس النفس عن الخمول، والتواضع والذلة إيثاراً للآخرة على الدنيا، وهرباً إلى الله تعالى وتحقيقاً بوصف العبودية، وترك المنازعة والتشبه بمعانى أوصاف الربوبية تسليماً للإلهية واستسلاما للأحدية، فلا يُخرجك قلة الصبر عن ذلك إلى الطلب بشىء منه فتزّل قدم بعد ثبوتها، نعوذ بالله من ذلك. ومن الصبر على العيال فى الكسب لهم والإنفاق عليهم والاحتمال للأذى منهم فإن فى العيال طُرقات الى الله تعالى، أدناها الاهتمام بهم، وأعلاها الرضا عن الله تعالى والتوكل عليه فيهم، وأوسطها الإنفاق وحبسُ النفْس عليهم.

واعلم أن **أكثر معاصى العباد فى شيئين** قلة الصبر عما يحبون أو قلة الصبر على ما يكرهون، وقد قرن الله تعالى الكراهية بالخير والمحبة بالشر فى قوله تعالى وعسى أن تكرهوا شيأً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيأً وهو شر لكم. وحَدّ الصبر وهو أوّله فريضة بمثل أوّل الإخلاص. والصبر أيضا حيلة من لا حيلة له، لأن الأمر إذا كان بيد غيرك لم يكن إلاّ الصبر عليه، ولأن الشىء إذا كان يأتيك إلاّ قليلا قليلا وأنت محتاج إليه لم يكن إلا الصبر عليه وإلاّ انقطع ذلك القليل. وأصل قلة الصبر ضعف اليقين بحُسن جزاء من صبرتَ له، لأنه لو قَوِى يقينه كان الأجل من الوعد عاجلا إذا كان الواعد صادقا، فيُحسن صبره لقوّة الثقة بالعطاء. ولا يصبر العبد إلاّ بأحد معنيين. مشاهدة العِوَض وهو أدناهما، وهذا حال المؤمنين ومقام أصحاب اليمين،أو النظر إلى المعوّض وهو حال الموقنين ومقام المقربين، فمن شهد العوض عُنِىَ بالصبر، ومن نظر إلى المعوّض حملَه النظر.

وقد جعل بعض العارفين الصبر على **ثلاثة معان** وأنه فى أهل **مقامات ثلاث**، فقال أوّله ترك الشكوى، قال وهذه **درجة التائبين**، والثانية الرضا بالمقدور وهذه درجة الزاهدين، والثالثة المحبة لما يصنع به مولاه وهذه **درجة الصادقين**. وروينا عن الحسن وغيره الصبر على ثلاثة معان، صبر عن المعصية وهو أفضلها، وصبر على الطاعة، وصبر فى المصائب،

وهذا داخل في جمل ما فرقناه من معاني الصبر، ومجمل ذلك أن الصبر فرض وفضل يُعرف ذلك بمعرفة الأحكام، فما كان أمراً أو إيجابا فالصبر عليه أو عنه فرض، وما كان حَثّاً وندباً فالصبر عليه أو عنه فضل.

والتصبّر غير الصبر، وهو مجاهدة النفس وحملها على الصبر رترغيبها فيه، وهو التعمّل للصبر. والتصنّع للصبور بمنزلة التزهّد وهو أن يعمل في أسباب الزهد ليحصل الزهد، والصبر هو التحقق بالوصف وذلك هو المقام. ولا يُخرج العبد من الصبر كراهة النفْس ولا وجدان المرارة والألم بل يكون حاله الكَظْم عن الشكوى ونفْي السخط لحكم المولى، لأن عدم ذلك وفقده هو الرضا وحقيقة التوكل وهذان من أعلى مقامات اليقين، وفقد مراتب اليقين لا يُخرج عن حدّ الصبر، والذي يخرج عن حدّ الصبر ضدّه وهو الجزع ومجاوزة الحد من العلم وإظهار السخط وكثرة الشكوى وظهور الذم والتبرم.

ومن رياضة النفس على التصبّر - وهو مقام المتصبّرين وحال ضعفاء المريدين- أن النفس الأمّارة إذا جنحت بك إلى فضول الشهوات أو نازعتك إلى مطالبة متقدم العادات، أن تمنعها حاجتها من كل شيء فيشغلها منع الحاجة وجود الفاقة مما لابد منه عن طلب فضول الشهوات، فإذا رُضتها بالمنع ومنعتها محبوبها بالتصبّر عن الحلال انقادت لك بالصبر عن فضول الشهوات، فتكون تاركةً لشهوةٍ بعوَض عاجل من مُباح، وتكون صابرةً عن فضول شهوة لما منعتها من منال الفاقة، وتاركةً للهوى طمعا في نوال الحاجة من الغذاء. وهذا من أكبر أبواب الرياضات للنفوس الطامحات، وفيه فضل الأقوياء من المتصبرين الذين لم تستجب لهم نفوسهم بالصبر والصلاة ولم تنقد بالجوع والظمأ، فأما الضعفاء من أهل الطبقة الثالثة لا من الأوّلين أهل الصوم والصلاة، ولا من هؤلاء، فإنهم لا يصبرون على تصبّر النفس عن الحاجة، كما لا تصبر نفوسهم عن الشهوة، فرياضة هؤلاء لنفوسهم أنْ يقطعوها من كل حرام ومن كل شهوة مهلكة لتسكن نفوسهم بذلك في حبسها عن المحرمات، وتنقطع شهوتها عما وراء ذلك من الموبقات، فبهذا تطمئن نفوس الضعفاء.

وقد اختلف الناس في الصبر والشكر أيهما أفضل، وليس يمكن الترجيح بين مقامين لأن في كل مقام طبقةً متفاوتِين، والمحققون من أهل المعرفة يقولون إنه لا يجتمع عبدان في مقام بالسواء، بل لابد من أن يكون أحدهما أعلى بعلم أو عمل أو وجْد أو مشاهدة، وإن كان

الصواب والقصد والأصل واحدا. وأعلى التفاوت مشاهدات الوجه، وقد قال الله تعالى ومَنْ أصدق من الله حديثا - ولكل وجهة هو موليها، وقال تعالى قل كلٌ يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا، قيل أقصَد وأقرَب طريقا. وظاهر الكتاب والسنّة يدلان على تفضيل الصبر لقوله تعالى يؤتون أجرهم مرّتين بما صبروا، فالشاكر يؤتى أجره مرة، فأشبَه مقام الصبر مقام الخوف، وأشبَه مقام الشكر مقام الرجاء. وقد قال الله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان. وقد اتفق أهل المعرفة على تفضيل الخوف على الرجاء من حيث اتفقوا على فضل العلم على العمل، فالصبر حال من مقام الخوف، فَقَرُب حال الصابر فى الفضل من مقامه، والشكر حال من مقام الرجاء، كذلك يَقْرُب حال الشاكر من مقامه.

ومن السنّة قوله صلى الله عليه وسلم فى الخبر الذى ذكرناه من قبل مِنْ أقلّ ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر، ومَنْ أعطَى حظه منهما لم يبال ما فاته. وذكر الحديث المتقدم فقرَن الصبر باليقين الذى لا شىء أعز منه ولا أجَل، وارتفاع الأعمال وعلو اليقين به. وفى مناجات أيوب عليه السلام ان الله سبحانه وتعالى أوْحى إليه يا أيوب إنى آليت على نفسى لا أنشرنّ للصابرين ديوان توبيخ، ولا نَظَروا إلى حد الصراط، ولا أروعهم نَقْص الميزان. دارهم دار السلام.

بيان آخر من تفضيل الصبر

الصبر حال البلاء والشكر حال النعمة، والبلاء أفضل لأنه على النفس أشق لقول الله تعالى إنّما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب، فالشاكر يوفّى أجره بحساب لأن "إنما" تحقيق للوصف ونفى ما عداه.

ورفع عليّ كرّم الله وجهه الصبر على أربع مقامات اليقين وجعلها دعائمه التى بها يستبين، وجعله فيه فوقها فقال فى حديثه الطويل الذى وصف فيه شُعَب الإيمان: **والصبر على أربع** دعائم، على الشوق والشفقة والزهد والترقب، فمن أشفق من النار رجع عن المحرمات، ومن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات، ومن زهد فى الدنيا هانت عليه المصيبات، ومن ارتقب الموت سارع إلى الخيرات - فجعل هذه المقامات أركان الصبر لأنها توجد عنه وتحتاج إليه فى جميعها، وجعل الزهد أحد أركانه. وقد جعل الله تعالى الصبر حال التقوى ورفع للمتّقين فى الإكرام درجات فقال عز وعلا إنه من يتّق ويصبر، وقال تعالى إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم،

فأكرم وأتقى فوق أن يقال كِرامُكم المتقون، لأن أكرم وأتقى يدل على تفاوت، فمن كان أتقى كان أكرم عند الله سبحانه وتعالى، ومن كان أصبر على ما يوجب التقوى كان أتقى. واعلم أن الصبر سبب دخول الجنة وسبب النجاة من النار، لأنه جاء فى الخبر حُفّت الجنة بالمكاره وحفّت النار بالشهوات، فيحتاج المؤمن إلى صبر على المكاره ليدخل الجنة، ويحتاج إلى صبر عن الشهوات لينجو من النار. **فأما تفصيل التفضيل فعلى ثلاثة أوجه**، أحدها أن المقامات أعلى من الأحوال، وقد يكون الصبر والشكر حالين وقد يكونان مقامين، فمن كان مقامه الصبر كان حاله الشكر عليه فهو أفضل لأنه صاحب مقام، ومن كان مقامه الشكر كان حاله الصبر عليه، فحاله مزيد لمقامه، فقد صار الصبر مزيداً للشاكر فى مقامه. الوجه الثانى من التفضيل المقرّبون أعلى من أصحاب اليمين، فالصابرون من المقربين أفضل من الشاكرين من أصحاب اليمين، والشاكرون من المقربين أفضل من الصابرين من أصحاب اليمين، فإن قيل فإنْ كان الشاكر والصابر من المقربين فأيهما أفضل، قيل فقد قلنا إن اثنين لا يتفقان فى مقام من كلِ وجه، لانفراد الوجه بمعانى لطائف اللطيف بمثل ما انفردت الوجوه بلطيف الصنعة مع تشابه الصفات واستواء الأدوات، فأفضلهما حينئذ أعرفهما لأنه أحبهما إلى الله تعالى وأقربهما منه ،وأحسنهما يقينا لأن اليقين أعز ما أنزل الله تعالى.

ووجه آخر من بيان التفضيل أن الصبر عما يوجب الشكر أفضل، وأن الشكر على ما يوجب الصبر أفضل، فقد يختلف باختلاف الأحوال تفسيره أن الصبر عن حظ النفس وعن التنعم والترفه أفضل إن كان عبداً حاله النعمة، فالصبر عن النعيم والغنى مقام فى المعرفة وهو أفضل لأن فيه الزهد المُجمَع على تفضيله. ونقول إن الشكر على الفقر والبلاء والمصائب أفضل إن كان عبداً حاله الجهد والبلاء، فالشكر عليه مقام له فى المعرفة فهو حينئذ أفضل لأن فيه الرضا المتفق على فضله.

ونوع آخر من الاستدلال على فضل الصابر وتفضيل الصبر، فإن جملة الصابر العارف أفضل من الشاكر العارف لأن الصبر حال الفقر والشكر حال الغنى، فمن فضّل الشكر على الصبر فى المعنى فكأنه قد فضل الغنى على الفقر، وليس هذا مذهب أحد من القدماء إنما هذه طريقة علماء الدنيا طرقوا لنفوسهم بذلك وطرقوا الخلق إلى نفوسهم من ذلك، فإن مَنْ فضّل الغنى على الفقر فقد فضّل الرغبة على الزهد، والعز على الذل، والكبر على التواضع،

وفى هذا تفضيل الراغبين والأغنياء على الزاهدين والفقراء، ويَخرج ذلك إلى تفضيل أبناء الدنيا على أبناء الآخرة. وإنما فضّلنا الصبر على الشكر فى الجملة والمعنى لأن الصبر حال من مقامه البلاء، وأهل البلاء هم الأمثل فالأمثل بالأنبياء، ولأن الصبر أبعد من أهواء النفوس وأقرب إلى الضُرّ والبؤس، وأشد فى مكاره النفوس، وأنفر لطباعها وأشد مباينة لما يلائمها، فإذا سكنَتْ معه ووجد عندها كان أعجز لوصفها وأعجب فى طمأنينتها، فمدحت بالسكون والطمأنينة وكانت راضية مرضية.

وأيضا فإن اللّه تعالى أمر بالصبر وبالغ فيه بالمصابرة ووكّدها بالمرابطة فى قوله تعالى ياأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا، قيل فى أحد الوجوه رابطوا عليهما. فهذه ثلاثة أمور فى مكان واحد بمعنى الصبر، فهذا يدل على تعظيمه للصبر ومحبته تعالى له، فمن وجد منه ذلك كان أشد تعظيما لشعائر اللّه عز وجل، ومن عظّم شعائر اللّه فهو أتقى للّه تعالى، ومن كان أتقى للّه كان أكرم على اللّه لقوله تعالى ومن يُعظّم شعائر اللّه فإنها من تقوى القلوب، ثم قال اللّه تعالى إن أكرمكم عند اللّه أتقاكم. والصبر أيضا مقام أولى العزم من الرسل الذين أمر النبى صلى اللّه عليه وسلم بالقدوة بهم، وباهى اللّه تعالى بهم عبده فقال تعالى فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل. وأيضا فإن العزائم فى الدين أولى من الرُخَص.

وروينا عن سفيان الثورى رضى اللّه عنه عن حبيب بن أبى ثابت قال سئل مسلم البطين. أيما أفضل الصبر أم الشكر، فقال الصبر، والشكر والعافية أحب إلينا. وقد قيل فى معنى قوله تعالى الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه، قيل شدائده وعزائمه لأن إباحة حلال الدنيا حَسَن والزهد فيه أحسن. وقد جعل اللّه تعالى الصبر من العزائم فى قوله وإن تصبروا فإن ذلك من عزم الأمور. وقد شرّك اللّه تعالى عباده فى الشكر، وأفرد عز وجل لنفسه تعالى على لسان نبيّه صلى اللّه عليه وسلم مَنْ لم يشكر الناس لم يشكر اللّه عز وجل، ولم يشرك فى الصبر من خلْقه أحداً فقال تعالى ولربك فاصبر، وقال واصبر لحكم ربك.

واعلم أن الشكر داخل فى الصبر والصبر جامع للشكر، لأن من صبر أن لايعصى اللّه بنعمة فقد شكرها، ومن أطاع اللّه فصبّر على نفسه طاعته فقد شكر نعمته. وقد سُئل الجنيد رحمه اللّه عن غنى شاكر وفقير صابر أيهما أفضل، فقال ليس مدح الغنى للوجود ولامدح

الفقير للعدم، إنما المدح فى الاثنين قيامهما بشروط ماعليهما، فشرْط الغنى يصحبه فيما عليه أشياء تلائم صفته وتمتعها وتُلذها، والفقير يصحبه فيما عليه أشياء تؤلم صفته وتقبضها وتزعجها، فإذا كان الاثنان قائمَيْن لله تعالى بشروط ماعليهما كان الذى ألم صفته وأزعجها أتم حالا ممن متّع صفته ونعّمها، وهذا كلام الجنيد رحمه الله. وكان أبو العباس بن عطاء قد خالفه فى ذلك فيقال إن الجنيد دعا عليه فلحقه ماأصابه من البلاء، منه قتْلُ أولاده وإتلاف ماله وزوال عقله أربع عشرة سنة، فكان يقول دعوة الجنيد أصابتنى، ورجع عن قوله فى تفضيل الغنَى على الفقر فصار يفضل الفقر ويشرّفه. وأيضا فقد روينا فى الخبر أعرفكم بنفسه أعرفكم بما ابتلاه به منها، ومابتلاها به منه، فأعظم مابتلانا به محبتنا بها (أى النفس) وابتلاها بعداوتنا، فمَنْ أفضل ممن صبر على مجاهدة عدوّه على أنه مع ذلك عدوّ الله المنازع لصفات الربوبية، ومَنْ أشد بلاءً ممن ابتُلى بعداوتك وابتُلت بمحبته، وأنت فى ذلك تترك محبته لمحبة الله تعالى وتصبر على عداوته بدوام مجاهدته لمرضاة الله تعالى، فهذا أعدل العدل وأفضل الفضل ولاسبيل إلى ذلك إلاّ بفضل أثرةٍ من الله تعالى وحُسن عنايته ودوام نظره، إذ لاتوفيق ولاقوّة ولاصبر إلاّ به سبحانه وتعالى. فاما المسئلة التى سُئل عنها بعض القدماء عن عبديْن ابتُلى أحدهما فصبر، وأنعَم على الآخر فشكر، فقال كلاهما سواء، قال لأن الله تعالى أثنى على عبديْن أحدهما صابر والآخر شاكر بثناءٍ واحد، فقال تعالى فى وصف أيوب عليه السلام نِعْم العبد إنه أوّاب، وقال فى وصف سليمان عليه السلام نِعْم العبد إنه أوّاب، ففى قول هذا غفلة عن لطائف الأفهام وذهاب عن حقيقة تدّبر الكلام، إذ عندنا بين ثناء الله عز وجل على أيوب فى الفضل على ثنائه على سليمان عليه السلام ثلاثة عشر معنى، وشركَهُ سليمان عليه السلام بعد ذلك فى وصفين آخرين. وإفراد أيوب عليه السلام بفضل ثلاثة عشر معنى، أول ذلك قوله عز وجل فى أول مدحه «واذكر» فهذه كلمة مباهاة باهى بأيوب عند رسوله المصطفى عليه السلام وشرّفه وفضّله بقوله تعالى واذكر يامحمد فأمره بذكره والاقتداء به كقوله تعالى فاصبر كما صبر أولو العزم من الرُسل، قيل هم أهل الشدة والبلاء، منهم أيوب عليه السلام، قرَضوا بالمقاريض ونُشروا بالمناشير وكانوا سبعين نبيا، وقيل هم إبراهيم وإسحق ويعقوب، وهؤلاء آباء الأنبياء وأفاضلهم لقوله تعالى واذكر فى الكتاب إبراهيم، ولقوله تعالى واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار، يعنى أصحاب القوّة والتمكن وأهل البصائر واليقين، ثم رفع أيوب إلى مقامهم فضمّه إليهم

وجعله سَلوةً له صلى اللّه عليه وسلم، ثم ذكّره إياه ونكّره به، ثم قال تعالى عبدنا فأضافه إليه عز وجل إضافة تخصيص وتقريب ولم يدخل بينه وبينه لام الملك فيقول عبداً لنا، فألحقه بنظرائه من أهل البلاء فى قوله تعالى وانكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب، وهم أهل الابتلاء الذين باهى بهم الأنبياء وجعل من ذرياتهم الأصفياء، فأضاف أيوب إليهم فى حسن الثناء وفى لفظ التَذْكِرة به فى الثناء، ثم قال إذ نادى ربه فأفرده بنفسه لنفسه وانفرد له فى الخطاب بوصفه، وقال مسّنى الضر وأنت أرحم الراحمين فوصفه بمواجهة التملق له ولطيف المناجاة، وظهر له بوصفه الرحمة، فاستراح إليه به فناداه فشكا إليه واستغاث به، فأشبه مقامه مقام موسى ويونس عليهما السلام فى قولهما سبحانك تُبت إليك، وفى قول الآخر لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين، وهذا خطاب المشاهدة ونظرُالمواجهة، ثم وصفه بالاستجابة له وأهلّه لكشف الضُّر عنه وجعل كلامه سبباً لتنفيذ قُدرته ومكانا لمجارى حِكمته ومفتاحا لفتح إجابته، ثم قال بعد ذلك كله ووهبنا أهلّه فزاد على سليمان فى الوصف إذ كان بين من وُهِب لأهله، وبين مَن وُهِب له أهلُه فَضْلٌ فى المدح، لأنه قال فى وصف سليمان ووهبنا لداود سليمان، فأشبه فضْل أيوب فى ذلك على سليمان كفضل موسى على هرون، لأنه قال عز وجل فى مدح موسى عليه السلام وتفضيله على هرون ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبيا، وكذلك قال فى مدح داود ووهبنا لداود سليمان فوهب لموسى أخاه كما وهب لداود ابنه، وأشبه مقام أيوب فى المباهاة والتذكرة به مقام داود عليه السلام، لأنه قال تعالى فى وصف داود لنبيه عليه السلام فاصبر على مايقولون واذكر عبدنا داود، وكذلك قال تعالى فى نعت أيوب واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه فقد شبّه أيوب بداود وموسى عليهما السلام فى المعنى ورفعه إليهما فى المقام، وهما فى نفوسنا أفضل من سليمان عليهم السلام، فأشبه أن يكون حال أيوب أعلى من حال سليمان، وعلم اللّه تعالى المُقَدَم ولكن هكذا أُلقى فى قلوبنا واللّه أعلم. ثم قال تعالى بعد ذلك كله رحمةً منا فذكر نفسه ووصفه عند عبده تشريفاً له وتعظيما، ثم قال عز وجل وذكرى لأولى الألباب فجعله إماما للعقلاء وقدوةً لأهل الصبر والبلاء، وتذكِرةً وسلوةً من الكروب للأصفياء، ثم قال تعالى إنا وجدناه صابرا، فذكر نفسه سبحانه وتعالى ذكراً ثانيا لعبده ووصل اسمه باسمه حباً له وقرباً منه، لأن النون والألف فى وجدنا اسمه تبارك وتعالى، والهاء اسم عبده أيوب صلى الله عليه وسلم، ثم قال صابرا فوصفه بالصبر فأظهر مكانه فى القوة وخَلّقه بخُلُقِه، ثم قال تعالى فى آخر أوصافه نِعْمَ العبد إنه أوّاب، فهذان أوّل ووصف

سليمان وآخره ههنا، شَرَكه فى الثناء، وزادَ أيوب بما تقدّم من المدح والوصف الذى لايقوم له شىء فى قوله عز وجل واذكر عبدنا أيوب إلى قوله نِعْمَ العبد إنه أوّاب، عظيمٌ من الفرقان عند أهل الفهم والتبيان، وجعل فى أوّل وصف سليمان أنه وهب لأبيهْ داود عليهما السلام، فصار حَسَنَة من حسنات داود عليه السلام، واشتمل قوله تعالى نِعْم العبد إنه أوّاب على أول وصفه وأوسطه وهو آخر وصف أيوب عليه السلام وعلى جميع الأنبياء الصلاة والسلام. وقد روينا فى الخبر عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان مُلكه، وآخر أصحابى دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لمكان غناه، وفى لفظ آخر يدخل سليمان بن داود الجنة بعد الأنبياء بأربعين خريفا، وقد جاء فى الآثار أنّ أوّل من يدخل الجنة أهل البلاء، إمامُهم أيوب وهو إمام أهل البلاء، وإنّ أبواب الجنة كلها مصراعان إلاّ باب الصبر فإنه مصراع واحد وأوّل من يدخله أهل البلاء، فقد زاد أيوب على سليمان عليهما السلام بعموم هذه الأخبار لأنه سيد أهل البلاء، وتنكرةً وعبرةً لأولى النُهى، وإمامُ أهل الصبر والضُّر والابتلاء. ولم نقصد بماذكرناه التفضيل بين الأنبياء لأنّا قد نُهينا عن ذلك فيما روينا عن النبى صلى اللّه عليه وسلم أنه قال لاتفضّلوا بين الأنبياء، ولكن اللّه تعالى قد أخبرنا أن بعضهم مفضّل على بعض فى قوله ولقد فضّلنا بعض النبيين على بعض، وإنما أظهرنا فضل الثناء المستوْدع فى الكتاب فاستبطنا باطن الوصف المكرّر فى الخطاب فى قصة أيوب على قصة سليمان عليهما السلام بما ظهر لنا من فهم فصل الخطاب وتدبُّر معانى الكلام. وعِلْم اللّه تعالى المُقَدَّم وهو عز وجل أعلم وأحكم. وقد نُدبنا إلى الاستنباط فى قول الرسول عليه السلام اقرؤا القرآن والتمسوا غرائبه، ولأن فى ذلك عزاً لأهل الصبر والبلاء، وتقويةً لقلوبهم، وتعريفاً لسوابغ نِعَم اللّه تعالى عليهم، وإظهاراً لبواطن النِعَم، وتنبيهاً على لطائف الكَلِم، وتزهيداً فى الدنيا والنفس، وترغيباً فى الآخرة والصبر، وتفضيلاً لطريق أهل البلاء الذين هم الأمثل فالأمثل بالأنبياء، فجاء من ذلك تفضيل المبتلَى الصابر على بلائه والراضى بحكم مولاه، وتسليما لمرضاته على المُنعَم عليه الشاكر على نعمائه، إذ النعم ملائمة للطبع موافقة للنفس، لايُحتاج معها إلى كَدّ النفس بالصبر عليها ولاحملها على المشقة فيها بالرضا بها. والبلاء مباين للطبع، نافرةٌ منه النفس، يُحتاج إلى حملٍ عليه ومشقةٍ فيه، وماكرهته النفس فهو خير وأفضل ولاسبيل إليه الا بسكينة من اللّه تعالى وتصبّر عليه بقوة به عز وجل وعناية منه، واصبر وماصبرك إلا باللّه. وهذا آخر شرح مقامات الصبر.

شرح مقام الشكر ووصف الشاكرين وهو الثالث من مقامات اليقين

قال رسول الله تعالى مايفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم فقرَن الشكر بالإيمان ورفع بوجودهما العذاب، وقال تعالى وسنُجزى الشاكرين. ورُوى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر. وقال ابن مسعود رضى الله عنه الشكر نصف الإيمان. وقد أمر الله تعالى بالشُكر وقرَنه بالذِكْر فى قوله تعالى فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولاتكفرون. وقد عظّم الذِكْر بقوله ولَذِكر الله أكبر، فصار الشكر أكبر لاقترانه به. ورضا الله تعالى بالشكر مجازاة من عباده لفرط كرمه لأن قوله تعالى فاذكرونى أذكركم واشكروا لى خروج من لفظ المجازاة لتحقيق الأمر وتعظيم الشُكر، لأن الفاء للشرط والجزاء والكاف المتقدمة للتمثيل، فقوله تعالى فاذكرونى متصل بقوله كما أرسلنا فيكم رسولا منكم فاذكرونى واشكروا لى، والمعنى كمثل مأرسلت فيكم رسولا منكم فاشكروا لى، والعرب تكتفى من مثل بالكاف كما اكتفت من سوف بالسين فى قوله تعالى سنؤتيهم وسنستدرجهم، وهذا تفضيل للشكر عظيم لايعلمه إلا العلماء بالله تعالى.

وقد روينا فى أخبار أيوب عليه السلام أن الله تعالى أوحى إليه أنى رضيت بالشكر مكافأةً من أوليائى فى كلام طويل، وفى أحد الوجوه من قوله عز وجل لأقعدن لهم صراطك المستقيم، قال طريق الشكر، فلولا أن الشكر طريق يوصل إلى الله تعالى لما عوّل العدو على قَطْعه، ولولا أن الشاكر حبيب رب العالمين مانقضه إبليس اللعين فى قوله تعالى ولاتجد أكثرهم شاكرين. وكذلك قال الله تعالى وقليل من عبادى الشكور، كما قال تعالى ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبّعوه إلاّ فريقاً من المؤمنين. وقد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثن فيه واستثنى فى خمسة أشياء، فى الإغناء والإجابة والرزق والمغفرة والتوبة، فقال تعالى فسوف يُغنيكم الله من فضله إن شاء، وقال تعالى فيكشف ماتدْعون إليه إن شاء، وقال تعالى يرزق من يشاء ويغفر لمن يشاء، وقال عز وجل ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء، وختم بالمزيد عند الشكر من غير استثناء فقال تعالى لئن شكرتم لأزيدنكم، **فالشاكر** على مزيد، **والشكور** فى نهاية المزيد وهو الذى يكثر شكره على القليل من العطاء ويتكرر منه الشكر والثناء على الشىء الواحد من النِعَم، وهذا خلُقٌ من أخلاق الربوبية لأنه سمّاه باسم من أسمائه، والمزيدُ هو إلى المُنعِم يجعله ماشاء، فأفضل المزيد حُسن اليقين ومشاهدة الأوصاف،

وأوّل المزيد شهود النِعَم أنها من المُنعِم بها من غير حَوْل ولاقوّة إلا به عز وجل، وأوسط المَزيد دوام الحال ومتابعة الخدمة والاستعمال. وقد يكون المزيد أخلاقاً، وقد يكون علوما، وقد يكون فى الآخرة وتثبيتا عند فراق العاجلة.

وقد جعل اللّه تعالى الشكر مفتاح كلام أهل الجنة وختام تمنيّهم فى قوله تعالى الحمد للّه صَدَقَنا وعده، وقال تعالى وآخر دعواهم أن الحمد للّه رب العالمين، فلولا أنه أحب الأعمال إليه ماأبقاه عليهم لديه. ورووينا فى مناجاة أيوب عليه السلام أن اللّه تعالى أوحى إليه فى صفة الصابرين دارُهم دار السلام إذا دخلوها ألهمّتهم الشكر، وهو خير الكلام، وعند الشكر أستزيدهم وبالنظر إلىّ أزدهم وهذا غاية الفضل، فأوّل الشكر معرفة النِعَم أنها من المولى وحده لاشريك له فيها ولاظهير له عليها، إذ قد نفى ذلك عن نفسه لأنه هو الأوّل فى كل شىء، لاشىء معه ولاظهير له فى شىء، إذ قد جعل الضرّاء والسرّاء منه وإليه، جاريين على عباده، فقال تعالى وماله فيهما من شرِك وماله منهم من ظهير، والشرك الخلْط، والظهير المعين، ثم قال تعالى ومابكم من نعمة فمن اللّه، إذا مسكم الضُّر فإليه تجأرون، وقال تعالى وإن يمسسك اللّه بضُّر فلا كاشف له إلا هو، وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير، وقال تعالى فى جُمْل النعم بعد إضافتها إليه وسخّر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعا منه، وقال تعالى وأسبغ عليكم نِعَمه ظاهرةً وباطنة، فالأسباب مع صحتها والأواسط مع ثبوتها إنما هى حُكمُه وأحكامه، فظروف العطاء وآثار المُعطِى لاتؤثر فى الحكم بها والجَعل لها حُكما ولاجَعْلا، يعنى لاتحكم ولاتَجعل لأنها محكومات فكيف تَحكم، ومجعولات فكيف تَجعل، لا حاكم إلاّ اللّه وحده ولايُشرك فى حكمه أحداً. وهذا الحرف فى مَقْرَأ أهل الشام أبلغ وأوكد لأنه يخرج على الأمر، لأنهم قرؤه بالتاء وجزْم الكاف ولاتشرك فى حُكمه أحداً، فالأسباب أحكام وحق وأواسط حُكْمه، فمشاهدة المنعم فى النعمة وظهور المُعطِى عند العطاء حتى تُرى النعمة منه والعطاء عنه هو شكر القلب، لأن الشكر عند الشاكرين معرفة القلب ووصفه لاوصف اللسان، وقد أخبر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بذلك وأمر باقتناء الشكر واتخاذه مالاً فى الآخرة عِوَضاً من اقتناء الأموال فى الدنيا، فقال فى حديث ثوبان وعمر بن الخطاب رضى اللّه عنهما حين نزل فى الكنوز مانزل سأله عمر أى المال نتخذ، فقال ليتخذّن أحدكم لسانا ذاكراً وقلباً شاكرا.

ورووينا فى أخبار موسى عليه السلام وداود عليه السلام يارب كيف أشكرك وأنا لاأستطيع أن أشكرك إلاّ بنعمة ثانية من نِعمك، وفى لفظ آخر وشكرى لك نعمة أخرى منك توجب علىّ الشكر لك، فأوحى الله تعالى إليه إذا عرفت هذا فقد شكرتنى. وفى خبر آخر إذا عرفتَ أن النِعَم منى فقد رضيتُ منك بذلك شكراً. وشكرُ اللسان حُسن الثناء على الله تعالى وكثرة الحمد والمدح له وإظهار إنعامه وإكرامه ونشر أياديه وإحسانه، وأن لايشكو المالك إلى المملوك ولاالمعبود الجليل إلى العبد الذليل.

وفى الخبر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لرجل كيف أصبحت، قال بخير فأعاد عليه النبى عليه السلام السؤال ثانية كيف أنت، فقال بخير فأعاد السؤال عليه الثالثة كيف أنت، فقال بخير أحمد الله تعالى وأشكره، فقال هذا الذى أردت منك، يعنى إظهار الحمد والشكر والثناء. وإنما كان السلف يتساطون عن أحوالهم إذا التقوا ليستخرجوا بذلك حمد الله تعالى وشكره فيكونوا شركاءه فى ذلك لأنهم سبب ذكره لله تعالى، فمن يشكو مولاه ويتكرّه عندك قضاءه، إذا سألتَه عن حاله فلاتسأله فتكون أنت سبب شكواه وشريكه فى جهله. وماأقبح بالعبد أن يشكو المولى الذى ليس كمثله شىء والذى بيده ملكوت كل شىء إلى عبدٍ مملوك لايقدر على شىء.

ومن الشكر أن يشكر الله تعالى على اليسير لأن القليل من الحبيب كثير، ولأن الله تعالى حكيم فمنعُهُ حكمة وقدرة، فإذا عَرَف وجه الحكمة فى المنْع مع القُدرة على العطاء عَلِمَ أنه منَعَه ليُعطيه، فثَم صار المنع عطاءً واليسير منه كثيرا، ويعلم أن الذل والصبر عند المنع عز وشرف وهو أفضل وأنفس عند العلماء من التعزز بالعبيد والشرف بهم، وأن الطمع والتذلل إليهم والاستشراف إلى عبدٍ مملوك مثلك ذل ذليل، وحُسن الذل للعزيز كحُسن الذل للحبيب، وقُبح الذل للذليل كقبح الذل للعدو، وقد قال الله تعالى إن الذين تعبدون من دون الله لايملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه، وقال تعالى فى معناه إن الذين تدْعُون من دون الله عباد أمثالكم، والعبادة هى الخدمة والطاعة بذُل. ولايَحْسُن للعبد المقبل أن يُظهر فقره وفاقته إلى غير مولاه الذى يلى تدبيره ويتولاه، لأنه عليم خبير بحاله يسمعه ويراه فهو أعلم بما يصلحه منه. وقد قال الله تعالى فى معناه ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض، فعلَى الموقِن أن يشكر فى القبض والمنع كما يشكر فى العطاء والبسط، ثم يشهد الشاكر بقلبه شهادة

يقين ويعلم أن وصفَه وصفُ العبودية، وحكمَه أحكامُ العبيد محكوم عليه بأحكام الربوبية، وأنه لايستحق على اللّه شيأ، وأن اللّه عز وجل عليه كل شيء فرضى منه بأدنى شيء، ولم ير له على اللّه تعالى شيأ فلم يقنع للّه تعالى منه بشيء ولم يطالب مولاه بشيء، فكثرة الذكر وحُسن الثناء وجميل النشر للنَعماء وتعديد النعم والآلاء هو شكُر اللسان، لأن معنى الشكر فى اللغة هو الكشف والإظهار، يقال كَثَر وشكَر بمعنى إذا كشَف عن ثغره فأظهره فيكون إظهار الشكر وكشفه باللسان ماذكرناه، كما جاء فى الخبر ليس شيء من الأنكار يضاعف مايضاعف الحمد. وفى الحديث من قال سبحان اللّه فله عشر حسنات، ومن قال لا إله إلاّ اللّه فله عشرون حسنة، ومن قال الحمد للّه كُتبت له ثلاثون حسنة، ليس أن الحمد أعلى من التوحيد ولكن لفضل مقام الشاكر، ولأن اللّه تعالى افتتح به كلامه فى كتابه.

وفى الخبر الحمد رداء الرحمن عز وجل. وفى الخبر أفضل الذكر لا إله إلاّ اللّه، وأفضل الدعاء الحمد للّه رب العالمين. ويكون أيضا ظهور الشكُر وغلبته فى القلب شكُر القلب، ويكون شكر اللّه تعالى لعبده كشفه له ماستره عنه وإظهاره له ماحجبه من العلوم والقَدَر وهو المزيد، فيفيد ذلك حُسن معرفته به سبحانه وتعالى وعلو مشاهدته منه، وكله يرجع إلى معنى الكشف والإظهار.

وأما شكُر الجوارح للمُنعِم المفضل سبحانه وتعالى فهو أن لايعصيه بنعمة من نعمه وأنه يستعين بنعمته على طاعته ولايستعين بها على معاصيه فيكون قد كفرها، كما قال تعالى ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة اللّه كُفرا، قيل استعانوا بنعمه على معاصيه فالخلق لايقدرون علي تبديل نعمة اللّه عز وجل، ولكن معناه بدّلوا شكُر نعمة اللّه كفرا وهذا من المضمر معناه لظهور دليله عليه، لأنه أمرهم بالطاعة بالنعم فخالفوه فعصوه بها، فكان ذلك تبديلهم لما أمروا، ومثله قوله تعالى وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون، المعنى شكُر رزقكم تجعلونه تكذيبكم برسل اللّه تعالى وهذا من المحذوف أيضا، وهى فى قراءة النبى صلى اللّه عليه وسلم مُظهرة مُفسرة، فقد روينا عنه عليه السلام أنه قرأ وتجعلون شكركم، فهذا ظاهر وبمعناه ومَنَ يبدل نعمة اللّه من بعد ماجاءته فإن اللّه شديد العقاب، أى يعاقب من كفر بالنعمة فضيّع شكرها بمعصيته بها، يعاقبه بزوالها، وكذلك قوله تعالى ولئن كفرتم إنّ عذابى لشديد، قيل إن كفرتم النعمة فقد يكون العذاب فى الدنيا تبديل النعمة عقوبات وتغييرها هوان ومذلات، وقد يكون العذاب مؤجلا

كقوله تعالى إن عذابها كان غراما، قال طالبهَم على النعم بالشُكر فلم يكن عندهم فأغرمهم ثمن النعمة فحبسهم فى جُهنم، وقد قال اللّه تعالى وأسبغ عليكم نِعَمَه ظاهرة وباطنة، ثم قال وذروا ظاهر الإثم وباطنه، ففيه تنبيه لذوى الألباب الذين وصل لهم القول ليتذكرا أن يذروا ظاهر الإثم، شكر الظاهر النعم، ويذروا باطن الإثم، شكر الباطن النعم. وظاهر النعم عوافى الأجساد ووجود الكفايات من الأموال، وظاهر الإثم أعمال الجوارح من معانى حظوظ النفس، وباطن النعم معافاة القلوب وسلامة العقود، وباطن الإثم أعمال القلوب السيئّة مثل الإصرار وسوء الظن ونيّات السوء.

وقال مطرف بن عبد اللّه لأن أُعافَى فأشكر أحب إلىّ من أن أُبتلَى فأصبر، لأن مقام العوافى أقرب إلى السلامة فلذلك اختار حال الشكر على الصبر لأن الصبر حال أهل البلاء. وقد روينا عن الحسن البصرى معنى ذلك الخبر الذى لاشرّ فيه العافية مع الشكر والصبر عند المصيبة، فكم من مُنعَمٍ عليه غير شاكر، وكم من مُبتَلى غير صابر. وقد روينا عن النبى صلّى اللّه عليه وسلم معنى هذا فى قوله وعافيتُك أحب إلىّ، وقال لعلىّ رضى اللّه عنه حين سمعه يقول فى مرضه اللّهم إنى أسألك الصبر، قال لقد سألت اللّه تعالى البلاء فسلّه العافية.

ومن الشُكر **الأعمال الصالحة**، وبالعمل فسر اللّه تعالى ورسوله صلى اللّه عليه وسلم الشكر للمُنعِم، فقال تعالى إعملوا آل داود شكرا، وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لمّا عوتب فى اجتهاده وقيامه حتى تورمّت قدماه أفلا أكون عبداً شكوراً، فأخبر أن المجاهدة وحسن المعاملة شكر المستعمِل وجزاء المنعِم. وقد قال بعض العلماء **شُكر القلب** المعرفة بأن النِعَم من المنعِم لا غير، **وشكر العمل** كلما وَهَب اللّه عز وجل لك عملا أحدثْتَ له عملا ثانيا شكراً منك للعمل الأوّل، وعلى هذا يتصل الشكر بدوام المعاملة. **وأوّل الشكر** عند العارفين أن لاتعصيه بنعمة من نعمه فتجعلها فى طاعة الهوى، فأما **شكر الشاكرين** فهو أن تطيعه بكل نعمة فتجعلها فى سبيل المولى وهذا شكر جملة العبد. **وحقيقة الشكر** التقوى وهو اسم يستوعب جمل العبادة التى أمر اللّه بها عباده فى قوله تعالى ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون. ثم عبّر عن حقيقة الشكر بتقواه وأخبر سبحانه وتعالى أن التقوى هو الشكر فقال سبحانه وتعالى فاتقوا اللّه لعلكم تشكرون.

وفى الشكر **مقامان** عن مشاهدتين، أعلاهما **مقام شكور** وهو الذى يشكر على المكاره

والبلاء والشدائد والأدواء، ولايكون كذلك حتى يشهد ذلك نِعَماً توجب عليه الشكر بصدق يقينه وحقيقة زهده، وهذا مقام فى الرضا وحال من المحبة. وبهذا الوصف ذكر الله تعالى نبيه نوحا عليه السلام فى قوله تعالى إنه كان عبداً شكورا، وفى التفسير إنه كان يشكر الله تعالى على كل حال من خير أو شر أونفع أو ضرّ. وروينا فى الخبر ينادى منادٍ يو م القيامة ليقم الحمادّون فيقوم زُمرة فيُنصب لهم لواء فيدخلون الجنة، قيل ومَن الحمادون، قال الذين يشكرون الله تعالى على كل حال، وفى لفظ آخر على السرّاء والضرّاء. وقد قال بعض العلماء فى قوله تعالى وأسبغ عليكم نِعَمه ظاهرةً وباطنة، قال ظاهرة العوافى والغنى، وباطنه البلوى والفقر، فهذه نعم الآخرة، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاعيش إلاّ عيش الآخرة. **والمقام الثانى** من الشكر أن ينظر العبد إلى من هو دُونه ممن فَضلُ هو عليه فى أمور الدنيا وأحوال الدين فيعظّم نعمة الله تعالى عليه بسلامة قلبه ودينه وعافيته مما ابتُلى الآخر به، ويعظّم نعمة الدنيا عليه لما آتاه الله تعالى وكفاه فيما أحوج الآخر والجأه إليه، فيشكر على ذلك ثم ينظر إلى من هو فوقه فى الدين ممن فَضلُ عليه بعلم الإيمان وبحسن يقين، فيمقت نفسه ويُزرى عليها وينافس فى مثل مارأى من أحوالِ مَنْ هو فوقه يرغب فيها، فإذا كان كذلك كان من الشاكرين ودخل تحت اسم الممدوحين. وقد روينا معنى ذلك فى حديثٍ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال من نظر فى الدنيا إلى مَنْ هو دونه ونظر فى الدين إلى من هو فوقه كتبه الله تعالى صابرا شاكرا، ومن نظر فى الدنيا إلى من هو فوقه ونظر فى الدين إلى مَنْ هو دونه لم يكتبه الله صابرا ولاشاكرا. وقد شرحنا هذا فى مقام الرضا فكرهنا إعادته ههنا. وكل وصف يكون العبد شاكرا به يكون الشكر مقاماً له فيه، فإنّ كُفْر النِعمة يُلزمه بضده لأن الكفر ضد الشكر.

ومن كبائر النعم ثلاث، مَنْ جَهلها أضاع الشكر عليها، ومعرفتها شكر العارفين، **أولها** استتار الله تعالى بقدرته وعزته عن الأبصار، ولو ظهر للعباد لكانت معاصيهم كُفراً لأنهم لم يكونوا يُنقصون من المعاصى المكتوبة عليهم جناح بعوضة، ولأنه تبارك وتعالى كان يَظهر بوصف لايمتنعون معه عن المعاصى، ووراء هذا سرائر الغيوب. وأيضا لِمَا كان لهم فى الإيمان به من عظيم الدرجات مالهم الآن، لأنهم حينئذ يؤمنون بالشهادة وهم اليوم يؤمنون بالغيب، فرُفعت لهم الدرجات بحسن اليقين، ولذلك مدحهم الله تعالى ووصفهم. **والنعمة الثانية** إخفاء القَدر والآيات عن عموم الخلْق لأنها من سر الغيب وصلاح العبيد واستقامة

الدنيا والدين، ولو ظهرت لهم لكانت خطاياهم الصغائر كبائر مع معاينة الآيات، ولما ضوعفت لهم على أعمالهم الحسنات كمضاعفتها الآن للإيمان بالغيب. **والنعمة الثالثة** تغيب الآجال عنهم إذ لو علموا بها لما كانوا يزدادون ولايُنقصون من أعمالهم الخير والشر نرة، فكان مع علمهم بالأجل أشد مطالبةً لهم وأوقع للحُجة عليهم، فأخفى ذلك عنهم معذرةً لهم من حيث لايعلمون، ولطفاً بهم ونظراً لهم من حيث لايحتسبون. ثم بعد ذلك من لطائف النِعَم شمول سَتْرِه لهم فيَحجُب بعضهم من بعض، وستَرهم عند العلماء والصالحين، ولولا ذلك لما نظروا إليهم، ثم حَجَب الصالحين والأولياء عنهم، ولو أظهر عليهم آيات يُعرَفون بها حتى يكون الجاهلون على يقين من ولاية اللّه تعالى لهم وقُربهم منه لبَطُل ثواب المحسنين إليهم، ولحرّم قبول عملهم، ولحَبطت أعمال المسيئين إليهم، ففى حَجْب ذلك وستْره ماعمل العاملون لهم فى الخير والشر على الرجاء وحسن الظن بالغيب من وراء حجاب اليقين، وتأخرت عقوبات المؤذيين لهم عن المعاجلة لِمَا ستَر عليهم من عظيم شأنهم عند اللّه تعالى وجليل قدرهم، ففى ستر هذا نِعَمٌ عظيمة على الصالحين فى نفوسهم من سلامة دينهم وقلة فتنتهم، ونِعَمٌ جليلة عن المنتهكين لحُرمتهم المصغّرين لشعائر اللّه تعالى من أجلهم إذ كانوا أساءوا إليهم من وراء حجاب، فهذا هو لطفٌ خفى من لطف المُنعم الوّهاب سبحانه وتعالى، كما جاء فى الخبر بقول اللّه عز وجل من آذى ولياً من أوليائى فقد بارزنى بالمحاربة، ثم أنا الثائر لوليّى لا أكِلُ نُصرته إلى غيرى. وعن جعفر الصادق رضى اللّه عنه فى معنى هذه النعم التى أوجبنا الشكر فى إخفائها، قال إنّ اللّه تعالى **خبّأ ثلاثاً فى ثلاث**، رضاه فى طاعته فلاتحتقروا منها شيأ لعل رضاه فيه، وخبّأ غضبه فى معاصيه فلا تحتقروا منها شيأ لعل غضبه فيه، وخبأ ولايته فى عباده المؤمنين فلاتحتقروا منهم أحداً لعله ولىٌّ للّه تعالى. ويكون مثل ذلك مثل من آذى نبيا وهو لايعلم بنبوّته وأن اللّه تعالى نبّاه قبل أن يخبره أنه نبى اللّه ورسوله إليه، فلايكون وزرُه وزرَ من انتهك حُرمة نبىٍ قد أعلمه أنه نبى لعظيم حُرمة النبوّة.

والشاكرين **طريقان** أحدهما أعلى من الآخر، **أوّلهما** شكر الراجين وهو حُسن المعاملة لما أملُوه ورَجوُه من ظواهر النِعَم، فعملوا وجاء إتمامها فكان حالهم المسارعة والمسابقة إلى الأعمال الصالحة شكراً لما ابتدأهم به وخصّهم دون سائر خلقه، **وأعلاهما** شكر الخائفين وهو خوف سوء الخاتمة والإشفاق من درْك الشقاء بحكم السابقة نعوذ باللّه تعالى منه، فكان خوفهم دليلا على اغتباطهم بموهبة الإيمان، وكان اغتباطهم يدلّ على عظيم قَدْر الإسلام فى

قلوبهم ونفيس مكانه عندهم فعظُمت النعمة به عليهم، فمعرفتهم بذلك هو شكرُهم فصار الخوف والإشفاق طريقاً لهم فى الشكر للرازق. وقد جعل اللّه تعالى ذلك نعمة وكل نعمة تقتضى شكراً فى قوله تبارك وتعالى، قال رجلان مِنْ الذين يخافون أَنْعَمَ اللّه عليهما، قال بعض المفسرين أَنْعَمَ اللّه عليهما بالخوف وهذا أحد وجهى الكلام، ولو لم يشكر العبد مولاه إلاّ أنه تبارك وتعالى على هذه الأوصاف والأخلاق التى هى صفاته وأخلاقه من نهاية الكرم والجود الذى لاغاية له، ومن غاية التفضل والحلم الذى لانهاية، فلّما كان تبارك وتعالى بهذه الأخلاق المرجوّة والصفات الحسنى وجب أن يشكره العبيد لأجله تعالى لا لأجل نعمه وأفعاله، وهذا ذكر المحبين إذ لو كان تعالى على غير هذه الصفات والأخلاق التى عرفه بها العارفون ولا بد لهم منه، أى شىء كان يصنع العباد وأى حيلة كانت لهم؟ فله الحمد كله وله الشكر كله كما هو مستحقه وأهله بحمده لنفسه ولاينبغى إلاّ له سبحانه وتعالى كما ينبغى لكرم وجهه وعِزِ جلاله، إذ كان ولم يزل على ماهو الآن ولايزال أبدا على ماكان من الأوصاف والنعوت التامات والأسماء الحسنى والأمثال العُلى، ومعرفة هذا هو شكر العارفين، ومشاهدته هو مقام المقربين، فشُكر هؤلاء اللّه تعالى لأجل اللّه تعالى، ودعاء هؤلاء التحميد والتقديس، وأعمالهم الإجلال والتعظيم للأجّل العظيم، وسؤالهم تجلّى الصفات والنصيب من مشاهدة معانى الذات، ووصف هذا لايوصف وشرحه بالمعقول لايُعرف، وهذا داخل فى مشاهدة قوله عز وجل ليس كمثله شىء، وعن هذه المشاهدة اغتبط موسى عليه السلام بالربوبية وأنس بالتقريب فانبسط بالتمكين فقال لى ماليس لك، فقال اللّه تعالى وماهو، فقال لى مِثْلُك وليس لك مِثْل نَفسك، فقال عز وجل صدَقتْ، يعنى لى أنت على هذه الأوصاف التى هى غاية الطالبين ولامزيد عليها للراغبين، وليس لك كأنت إذ ليس كمثلِك شىء وأن لا إله إلاّ أنت، فمن غامض النِعَم الشُكر على هذه المعانى.

وما زوَى عنك وصرَفَه من فضول الدنيا فإنه أقل للشُغل والاهتمام وأيسر للحساب، ثم ابتلى به غيرَك من الدنيا مما شغله به عنه وقطعه دونه، ففى صرف الدنيا عنك وابتلاء غيرك بها نعمتان عليهما شُكران، فإذا رأيت مُبتَلى فى دينه بصفات المنافقين أو مُبتَلى بنفسه بأخلاق المتكبّرين، أو منهما فيما عليه من أفعال الفاسقين، عدَدَت جميع ذلك نِعَماً من اللّه تعالى عليك إذ لم يجعلك كذلك لأنك قد كنت أنت ذاك لوْلا فضل اللّه عليك ورحمته،فقد رَحِمَك بما صرَف عنك من السوء فذلك من فضل اللّه تعالى عليك، فمعرفته بذلك شكر منك للّه تعالى.

وأكثر عقوبات الخلق من قلة الشكر على النعم، وأصل قلة الشكر الجهل بالنعمة، وسبب الجهل بالنعمة قصور العلم بالله تعالى وطول الغفلة عن المُنعم وترك التفكر فى نِعَمه والتذكّر لآلائه ومِنَنّه سبحانه وتعالى فقد أمر بذلك فى قوله تعالى، وانكروا آلاء الله لعلكم تفلحون، قيل نِعَمه، وقال المفسرون واذكروا نعمة الله عليكم ومأأنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظُكم به، وبمعناه قوله تعالى ولتكملوا العدّة ولتكبّروا الله على ماهداكم ولعلكم تشكرون، يعنى على نعمة الهداية وتوفيق الطاعة. فإذا جَهل العبد النعمة لم يعرفها، وإذا لم يعرفها لم يشكر عليها، وإذا لم يشكر عليها انقطع مزيده، ومن انقطع عنه المزيد فهو فى نُقصان ماادّعى. وأيضا فإن من لم يشكر النعم لجهله بها لم يُومَن عليه كُفرُها، فإنْ كَفَرَها أدركه العذاب الشديد للوعيد إلاّ أن تَدَاركَه نُعمةٌ من ربه.

وأصول نعم المرافق للأحراث أربعة، أوّلها النُطفة التى أخرجت من خزانة الأرحام جميع البهائم والأنام، ثم الحرْث الذى أخرج من خزانة الأرض جميع الثمر، ثم الماء الذى لنا منه شَراب ومنه شجر، ثم النار التى فيها ضياء ومصالح الأطعمة وبها لأهل البصائر تَذْكِرة. وهذه النعم هى التى نكرها المُنعم فى آخر سورة الواقعة وأضافها إلى نفسه عزّ وجلّ ولم يجعل فيها شريكاً معه وفتح للعباد العمّال أبوابها.

ومن أفضل النعم وأجلها نعمة الإيمان به سبحانه وتعالى، ثم نعمة الرسول، ثم نعمة القرآن، ثم أن جَعَلنا من خير أمة أُخرجت للناس. وقبل ذلك أول نعمة عَقَلناها أن جعلنا موجودين دون سائر المعدومات، ثم جعلنا حيَواناً دون سائر المواَت، ثم جعلنا بشراً دون سائر الحيوان، ثم أن جعلنا ذكوراً دون الإناث، ثم صوّرنا فى أحسن تقويم، ثم عوافى القلوب من الزَيْغ عن السُنّة، ومن الميل إلى دواعى النفس الأمّارة، ثم صحة الأجسام، ثم كشف السَتْر، ثم حُسن الكفاية للحاجة، ثم صنوف ماأظهر من الأزواج للأقوات، ثم تسخير الصَنعة لنا مما بيّن السماء والارض، فهذه أمهّات النِعَم، فكلما كثُرت هذه المعانـــى وحسُنت كثُر الشكر عليهما لعظيم النعم بها، وإنْ تعُدّوا نعمة الله لاتُحصوها.

وكان أبو محمد سهل رحمه الله يقول خُصّ بمعرفة النِعَم وبمعرفة عظيم حِلم الله تعالى وسَتْره الصّديقون. وقد قال الله تعالى أصدق القائلين وأحسن الواصفين وإن تعُدّوا نِعَمة الله لاتُحصوها إن الله لغفور رحيم، فتمّت النعمة بوصفيْه اللذين هو لهما أهلٌ من المغفرة

والرحمة. ثم قال أيضا فى مثله إن الإنسان لظلوم كفّار، فكان أعظم للنعمة وأوسع فى الكرم والمنّة على وصفىّ الإنسان اللذيْن هو أهل لهما من الظُلم والكفر، فهو سبحانه وتعالى أهْلُ التقوى وأهل المغفرة، والعبد أهل لما وصفه به مولاه عز وجل، إلى أن يجود عليه بقديم مابه تولاه، فبنعمته أطاعه العاملون، ومن نعمته جازاهم، وبنعمته عصاه الجاهلون، ومن نعمته ستَر وَحلِمَ عنهم.

ومن النعَم **إظهار الجميل وستر القبيح** فلا ندرى أى النعمتين أعظم، جميل ماأظهر أو قبيح ماستر. وقد يُمدح الله تعالى بالوصفين معا فى الدعاء المأثور يامَنْ أظهرَ الجميل وستر القبيح. ومن النِعْمة **الصحة والفراغ**، هما أوّل نعيم الدنيا وأصول أعمال الآخرة، وبهما تكون المغابنات كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعمتان مغبونٌ فيهما الناس ـ الصحة والفراغ. وقال الفضيل بن عيّاض عليكم بمداومة الشُكر على النِعَم فَقلّ نعمةٌ زالت عن قوم فعادت إليهم. وقال بعض السلف النِعَم وحشية فقيّدوها بالشكر. وقد روى فى خبر ماعَظُمت نعمة الله تعالى على عبد إلاّ كثُرت حوائج الناس إليه، فمن تهاون بهم عرّض تلك النعمة للزوال وقد قال الله تعالى إن الله لايغيّر مابقوم حتى يغيّروا مابأنفسهم، قيل لايغيّر نِعَمه عليهم حتى يغيّروها بتضييع الشكر فيعاقبهم بالتغيير، والوجه الآخر لا يغيّر مابهم من عقوبة حتى يغيّروا معاصيهم بالتوبة، فذكر بذلك السبب الأوّل من حكمه، ثم ذكر السبب الثانى من حِكْمته، وهو مُسبب الأسباب للحِكمة والمشيئة.

ويقال إن تحت كل شعرة من جسم العبد نعمة، وبكل عِرق فى جسده نعمتان فى تسكينه وتحريكه، وفى كل عظْم أربع نعم، وبكل مفصل سبع نعم، وفى جسم الإنسان ثلاثمائة وستون مِفْصَلاً، ومثل ذلك من العظام، وفى كل طَرْفة نعمتان، وبكل نَفَس نعمتان، وفى كل دقيقة تأتى عليه من عُمرهِ نِعَمٌ لاتُحصَى، والدقيقة جزء من اثنىْ عشر جزأ من شُعيرة، والشعيرة جزء من اثنى عشر جزأ من ساعة، والأنفاس أربعة وعشرون ألف نَفَس فى اليوم والليلة. وفى أخبار موسى عليه السلام يارب كيف أشكرك ولك فى كل شعرة من جسدى نعمتان: أنْ ليّنت أصلها وأنْ طَمَنتَ رأسها. وقد روينا فى الأثر من لم يعرف نِعَم الله عليه إلاّ فى مَطعمه ومَشربه فقد قل علْمه وحضر عذابه. هذا مع سوابغ العوافى والكفايات والوقايات.

ويقال إنّ فى باطن الجسم من النِعَم سبعة أضعاف النعم التى فى ظاهره، وأن فى القلب

من النعم أضعاف مافى الجسم كله من النعم، وأن نعم الإيمان باللّه تعالى واليقين أضعاف نعم الأجسام والقلوب، فهذه كلها نعم مضاعفة علَى نعم مترادفة لايُحصيها إلاّ مَنْ أنعمَ بها، ولايعلمها إلاّ من خَلَقها. ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير، سوَى نِعَم المطعم والمشرب والمَلبس والمنكح من دخول ذلك وخروجه، وكثرة تكرره وتزايده، بأن أدخل مَهناه وأخرج أذاه، وبأن طيّب مَدخله ويسّر مَخرجه وبقّى منفعته، ومأأحال من صورته وغيّر من صفته فللتزهيد والذلّة والاعتبار والتذكِرة، وتلك أيضا نِعَم.

وقد قيل إنّ الرغيف لايستدير حتى يُعمل فيه ثلثمائة وستون صنعة من السماء والأرض ومابينهما من الأجسام والأعراض والأفلاك والرياح والليل والنهار وبنى آدم وصنائعهم والبهائم ومعادن الأرض، أوّلها ميكائيل الذى يكيل الماء من الخزائن فيفرغه على السحاب، ثم السحاب التى تحمله فيرسله، ثم الرياح التى تحمل السحاب والرعد والبرق، والمَلَكان اللذان يسوقان السحاب، وآخر الخبّاز، فإذا استدار رغيفاً طلب سبعة آلاف صانع، كل صانع أصلٌ من أصول الصنائع. فهذه كلها نِعَم فى حضور رغيف، فكيف بما زاد عليه مما وراءه.

فعلى العبد بكل نعمة شُكر، إنْ طولب بشُكر نعمةٍ واحدة على حقيقتها هلَك إلاّ أنْ تغمده رحمة من ربه فتغمره لتمام النعمة. وروينا أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم سمع رجلا يقول اللّهم إنى أسألك تمام النعمة، فقال هل تدرى ما تمام النعمة، قال لا، قال دخول الجنة. وقيل لبعض الحكماء ماالنعيم؟ قال الغنى فإنى رأيت الفقير لاعيْش له، قيل زدنا، قال العافية فإنى رأيت السقيم لاعيْش له، قيل زدنا، قال الأمن فإنى رأيت الخائف لاعيْش له، قيل زدنا، قال الشباب فإنى رأيت الهَرِمَ لاعيْش له، قيل زدنا، قال لاأجد مزيداً. وبعض مانكره هو أحد الوجوه فى قوله تعالى أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا، قيل الشباب، وقيل الفراغ، وقيل الأمن والصحة. وفى قوله تعالى وعصيتم من بعد ما أراكم ماتُحبون، قيل العوافى والغنى، وبمعناه فى قوله تعالى وأسبغ عليكم نِعَمه ظاهرةً وباطنه، قيل ظاهرة العوافى وباطنة البلاوى، لأنها سبب نعيم الآخرة ومُزيدها لقوله تعالى ونَقْصٍ من الأموال والأنفس والثمرات وبشّر الصابرين. وقد جاء فى الخبر من أصبح مُعافى فى بدنه آمناً فى سِرْبه وعنده قوت يومه فكأنما حِيزت له الدنيا بحذافيها. وأُنشدتْ فى معناه لبعض أهل القناعة:

إذا القوت تأتّى لك * والصحة والأمن * وأصبحت أخا حُزن * فلا فارَقَك الحزن

وأنشد الآخر:

كن وفلْقة خبز * وكوز ماء وأمن * ألذ من كل عيش * يحويه سخْب وسجْن

وحدثونا أن عابداً عبد الله تعالى سبعين عاما فأرسل الله تعالى اليه ملَكا يبشرّه بدخول الجنة برحمة الله تعالى، فهجس فى نفسه بل بعملِى، فاطّلع الله تعالى على ذلك منه، فأوحى إلى عِرْق ساكنٍ من عروقه أن تحرّك عليه، قال فاضطرب لذلك وقلِق وانقطعت عبادته وذهبت أعماله شُغلا منه بنفسه، ثم أوحى الله تعالى إلى العرق أنْ اسكُنْ فسكَن، فرجع العبد إلى عبادته، فأوحى الله تعالى إليه إنما قيمة عبادتك عِرْق واحد سكَنَ من عروقك فاعترِفْ.. وروينا معناه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بوصف آخر أنّ رجلا عَبَد الله سبعين عاما، قال فيأمر الله عز وجل به إلى الجنة برحمته، فيقول بلى بعملى، فيقول الله عز وجل أدْخلوا عبدى الجنة بعمله، قال فيمكث فى الجنة سبعين عاما، فيأمر الله تعالى به أن يُخْرَج ويقال له قد استوفيت ثواب عملك، قال فيسقُط فى يديه ويندم، فينظر أقوى شىء كان فى نفسه بينه وبين ربه فإذا هو الرجاء وحُسن الظن، فيقول يارب اتركنى فى الجنة برحمتك لابعملى، قال فيقول الله عز وجل دعوا عبدى فى جنتى برحمتى.

وحُدّثتُ عن رجل شكا إلى بعض أهل المدينة فقره وأظهر لذلك غمّه، فقيل له أيسرُّك أنك أعمى ولك عشرة آلاف، قال لا، قيل فيسرُّك أنك أخرس ولك عشرة آلاف، قال لا، قال قيل فيسرُك أنك أقطع اليدين والرجلين ولك عشرة آلاف، قال لا، قيل فيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف، قال لا، قيل أفما تستحى أنْ تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفا؟ وهذا كما قال لأن فى الإنسان قِيَمَ هذه الأشياء من الجوارح وزيادة من المال، لأنها ديّات جوارحه لو قطعت. وحدثنى بعض الشيوخ فى معناه أن بعض القرّاء المقربين اشتدّ به الفقر حتى أحزنه وضاق به ذَرْعا، قال فرأى فى المنام كأن قائلا يقول له تودّ أنّا أنسيناك سورة الأنعام، وأنّ لك ألف دينار، قال لا، قال فسورة هود، قال لا، قال فسورة يوسف، قال لا، قال فمعك قِيَم مائة ألف وأنت تشكو الفقر، فأصبح وقد سرى عنه هَمّه. وهكذا جاء فى الخبر تغنّوا بالقرآن أى استغنوا به، ومن لم يستغن بآيات الله تعالى فلا أغناه الله عز وجل. وإنّ القرآن هو الغنى الذى لافقر معه ولاغنى بعده، ومَنْ آتاه الله القرآن فظنّ أن أحداً أغنى منه فقد استهزأ بآيات الله تعالى، وفى لفظ آخر فقد استخّف بما أنزل الله عز وجل. وفى الخبر من لم يتغنّ بالقرآن فليس منا. وفى الخبر المجمل كفَى باليقين غِنىً، **والقرآن هو حق اليقين.**

وروينا عن بعض السلف يقول الله عز وجل إن عبدا أغنيّته عن ثلاث، فقد أتممت عليه نعمتي: عن سُلطان يأتيه، وطبيب يداويه، وعمّا في يد أخيه. وروينا في مناجاة أيوب عليه السلام أن الله تبارك وتعالى أوحى إليه مامن عبدٍ لي من الآدميين إلاّ ومعه ملَكَان، فإذا شكر على نعمائي قال الملَكَان اللهّم زده نعماً على نعمه فإنك أهل الشكر والحمد، فكن من الشاكرين قريبا وزدهم شكرا وزدهم من النعماء، وكفى بالشاكرين ياأيوب علو الرتبة عندي وعند ملائكتي، فأنا أشكر شكرهم، وملائكتي تدعو لهم، والبقاع تحبهم، والآثار تبكي عليهم، فكنْ لي ياأيوب شاكراً، ولآلائي ذاكراً، ولاتذكرني حتى أذكرك. ولاتشكرني حتى أشكر أعمالك. أنا أُوَفق أوليائي لصالح الأعمال وأشكرهم على ماوفقتُهم، واقتضيهم الشكر ورضيتُ به مكافأةً فرضيتُ بالقليل عن الكثير، وتقبلتُ القليل وجازيتُ عليه بالجزيل. وشر العبيد عندي من لم يشكرني إلاّ في وقت حاجته، ولم يتضرع بين يديّ إلاّ في وقت عقوبته.

وقد جعل الله تعالى الشاكرين بوصف الصالحين والمقربين والعالمين، وهذه الأوصاف الثلاث من أعالي مقامات الموقنين فقال عزّ وجلّ وقليلٌ من عبادي الشكور، كما قال الله تعالى إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليلٌ ماهم، وكما قال في وصف المقربين ثُلةٌ من الأولين وقليلٌ من الآخرين، وكما قال عزّ وجلّ مايعلَمهم إلا قليل. وفي حديث أبي بكر الصّديق رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم سَلوا الله العافية، ومأأُعطي عبد أفضل من العافية إلاّ اليقين، ففضّل العافية على كل عطاء، ورفع اليقين فوق العافية لأن بالعافية يتم نعيم الدنيا، واليقين معه وجود نعيم الآخرة، فلليقين فضْلٌ على العافية كفضل الدوام على الانتقال، والعافية سلامة الأبدان من الأسقام والعِلل، واليقين سلامة الأديان من الزَيْغ والأهواء، فهاتان نعمتان تستوعبان عظيم الشكر من العبد.

ومن أقوى المعاني في قوله تعالى يوم لاينفع مال ولابنون إلاّ مَنْ أتى الله بقلب سليم، قيل سالمٌ من الشك والشرك، والسالم الصحيح المعافى. وبوجود عافية اليقين في القلوب عَدِمَ الشك والنفاق وهي أمراض القلوب، كما قال تعالى في قلوبهم مرض، قيل شك ونفاق. وعافية القلب أيضا من الكبائر كما قال تعالى فيطمع الذي في قلبه مرض يعني الرياء. ويقال مامن مصيبة إلاّ ولله تعالى فيها خمسُ نِعَم، أوّلها أنها لم تكن في الدين، ويقال كل مصيبة في غير الدين فهي طريق من الدين، والثانية أنها لم تكن أكبر منها، والثالثة أنها كانت مكتوبة عليه

لامحالة فقد نفدت واستراح منها، والرابعة أنها عُجّلت فى الدنيا ولم تُؤجّل فى الآخرة فتعظُم على مقدار عذاب الآخرة، والخامسة أن ثوابها خير منها فإن المصيبة إذا كانت فى أمر الدنيا فإنها طريق إلى الآخرة.

وعندنا فى قوله تعالى إن الإنسان لظلوم كفّار، قيل ظلوم بالتسخط، كفّار بالمعاصى وبالنِعَم. وحُدّثتُ أن العباس رضى اللّه عنه لمّا توفى قعد ابنه عبد اللّه رضى اللّه عنه للتعزية، فدخل الناس أفواجا يعزونه فكان فيمن دخل أعرابى فأنشده:

إصبـر نكـنْ بك صـابرين فإنما * صبـرُ الـرعية بَعدَ صبـر الـراس

خيـرٌ مـن العبـاس أجـرُك بعـده * واللـّه خيـرٌ منـك للعبـاس

فقال ابن عباس ماعزّانى أحد تعزية الأعرابى واستحسن ذلك. وفى قوله تعالى إن الإنسان لربه لكنود قيل هو الذى يشكو المصائب وينسى النِعَم، ولو علم أن مع كل مُصيبة عشر نعم بحذائها وزيادة قلّت شكواه وبدّلها شكرا.

ثم إن المصائب لاتخلو من ثلاثة أقسام كلها نِعَم من اللّه تعالى، إما أن تكون درجة وهذا للمقرّبين والمحسنين، وإما أن تكون كفّارة وهذا لخصوص أصحاب اليمين وللأبرار، أو تكون عقوبة وهذا للكافة من المسلمين، فتعجيل العقوبة فى الدنيا رحمة ونِعْمة، ومعرفة هذه النعم طريق الشاكرين.

ومن أفضل النِعَم عند العلماء نعمة الإيمان ثم دوامه، لأن دوام الشىء نعمة ثانية، لأنه بحكمٍ ثانٍ عن مشيئة ثانية، لأن الإرادة منه تعالى بُحكم الإظهار لاتوجب دوام الشىء يَظهر بإرادته ثم يتلاشى كأن لم يكن، إلا أنْ يحكم سبحانه وتعالى حُكما ثانياً بنعمة ثانية بالثبات والدوام، إذ لو لم يرد دوام السموات والأرض ما داما، ولو لم يرد دوام ثبات الجبال ماثبتت. كذلك لو لم يرد دوام الإيمان وثباته فى القلوب بعد الكُتب لظهر بالكُتب ثم انمحى ورجع القلب إلى الكفر، ولكنه أنعم نِعَما لاتُحصى بدوامه وثباته فى القلب. ومنه قوله تعالى يمحو اللّه ما يشاء ويُثبت، أى يمحو ما لا يشاء ثبوته ويثبت ما يحب. ولا يستطيع العبد شكر نعمة الإيمان ومعرفة بداية التفضُّل به، وقديم الإحسان من غير قِدَمٍ من العبد ولا استحقاق بل بفضل اللّه وبرحمته، وهذا أحد الوجوه فى قوله تعالى كلاّ لمّا يقْضِ ما أمره، أى لايقضى العبد أبداً شكر

ماأمره اللّه تعالى من نعمة الإسلام التى هى أصول النعم فى الدنيا والآخرة، وهى سبب النجاة من النار ومفتاح دخول الجنة، ولا أوّل للعبد فيها ولا شفيع كان له إلى اللّه تعالى بها. ثم دوام ذلك وثباته مع الطَرْف والأنفاس بمَدَدٍ منه نِعَمٌ مترادفة. ومن هذا قوله تعالى كتَب فى قلوبهم الإيمان وأيّدهم بروح منه، أى قوّاهم بمدد يثبّته ويقّويه، وهو معنى قوله تعالى يثبت اللّه الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة. ومن ذلك قوله صلى اللّه عليه وسلم يامقلّب القلوب، أى عن الإيمان ومقلّبها فى الشك والشرك، ثبتْ قلبى على طاعتك. ومعرفة هذه النعمة اللطيفة العظيمة تَستخرج من القلب خوف سوء الخاتمة لمشاهدة سُرعة تقليب القلب بالمشيئة، وذلك مزيد شكرها، وهذا داخل فى معنى قوله صلى اللّه عليه وسلم أحبُوا اللّه تعالى لما أسدى اليكم من نِعَمه، ولما يغنوكم به أيضا، فمن أفضل ماغذّانا به نعمة الإيمان له والمعرفة به، وغذاؤه لنا منه دوام ذلك، ومدده بروح منه، وتثبيتا عليه فى تصريف الأحوال إذ هو أصل الأعمال التى هى مكان النوال، فلو قلّب قلوبنا عن التوحيد كما يُقلّب جوارحنا فى الذنوب، ولو قلّب قلوبنا فى الشك والضلال كما يقلّب نياّتنا فى الأعمال، أى شىء كنا نصنع، وعلى أى شىء كنا نُعوّل، وبأى شىء كنا نطمئن ونرجو؟ فهذا من كبائر النِعم، ومعرفته هو من شكر نعمةِ الإيمان، والجهل بهذا غفلة عن نعمة الإيمان يوجب العقوبة، وادعاء الايمان أنه عن كسب معقول أو استطاعة بقوّة وحول هو كفرُ نعمة الإيمان، وأخاف على من تَوهم ذلك أن يُسلب الإيمان لأنه بدّل شكر نعمة اللّه كفراً، وقد جعل اللّه تعالى الخيرات من كسب الإيمان، وليس لنا فيما يكسبنا الخيرات مكان، بل اللّه تعالى منّ علينا أن هدانا للإيمان وجعله سببا يكسب لنا بإحسانه الإحسان كما قال تعالى أو كسبَت فى إيمانها خيراً، قيل التوبة، وقيل الصالحات كلها كسب الإيمان.

ومن النعم بعد الإيمان توفيقنا للحسنى وتيسيرنا لليسرى، ثم صرْفُ الكفر وأخلاق الكفرة وأعمالهم، ثم تزيين الإيمان وتحبيبُه إلينّا وتكريه الفسوق والعصيان فضلاً منه ونعمة، إلى مالا يُحصى من نعمه، فشكر ذلك لايُقام به إلا بما وَهب أيضا وأنعم به من المعرفة بذلك والمعونة عليه. والحياء من تتابع النعم هو من الشكر، والمعرفة بالتقصير عن الشكر شكر، والاعتذار من قلة الشكر شكر، والمعرفة بعظيم الطِم وكثيف الستر شكر، والاعتراف بما أعطى من حُسن الثناء وجميل النَشْر أنه من النِعَم من غير استحقاقٍ من العبد بل هو مضافٌ إلى نعمه هو من الشكر، وحُسن التواضع بالنعم والتذلل فيها شكر، وشكر الخَلْق بالدعاء

وحُسن الثناء عليهم لأنهم ظروف العطاء وأسباب المُعطِي تخلّقا بأخلاق المولى جلّ وعلا هو من الشكر، وقلة الاعتراض وحُسن الأدب بين يدَي المنعم شكر، وتلقى النِعَم بحُسن القبول وتكثير صغيرها وتعظيم حقيرها من الشُكر، لأن طائفةً هلكت باستصغار الأشياء واستحقار وجود المنافع بهاجهلاً بحكمة اللّه تعالى واستصغاراً النِعَمه، فكان ذلك كفراً بالنِعَم.

ومن الناس من يقول إن الصبر أفضل من الشكر. وليس يمكن التفضيل بينهما عند أهل التحصيل من قِبَلِ أنّ الشكر مقام الجملة من المؤمنين. والترجيح بين جماعة على جماعة لايصح من قبل تفاوتهم فى اليقين فى المشاهدات، لأن بعض الصابرين أفضل من بعض الشاكرين لفضل معرفته وحسن صبره، وخصوص الشاكرين أفضل من عموم الصابرين لحُسن يقينه وعلّو مشاهدته، ولكن تفضيل ذلك من طريق الأحوال والمقامات. وإنّا نقول واللّه أعلم إن الصبر عن النِعَم أفضل لأن فيه الزهد والخوف وهما أعلى المقامات، وإن الشكر على المكاره أفضل لأن فيه البلاء والرضا، وإن الصبر على الشدائد والضرّاء أفضل من الشكر على النعم والسرّاء من قِبَلِ أنه أشق على النفس، وإن الصبر مع حال الغنى والمَقدِرَةِ أنْ يَعْصَى بذلك أفضل من الشكر على النعم من قِبَل أن الصبر عن المعاصى بالنعم أفضل من الطاعة بها لمن جاهد نفسه فيها، فإذا شكر على مايصبر عليه فقد صار البلاء عنده نعمة وهذا أفضل لأنها مشاهدة المقرّبين، وإذا صبر عما يشكر عليه من النعم كان أفضل لأنها حال المجاهدة، وقد قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل، يعنى الأقرب شَبَهاً بنا فالأقرب، فرفع أهل البلاء إليه ووصف نفسه به وجعلهم الأمثل فالأمثل منه، فمن كان برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أمثل كان هو الأفضل، وقد كان النبى صلى اللّه عليه وسلم شاكراً على شدة بلائه، كذلك الشاكر من الصابرين يكون أفضل لشُكره على البلاء إذ هو الأقرب والأمثل بالأنبياء، وكل مقام من مقامات المقربين يحتاج إلى صبر وشكر، وأحدهما لا يتم إلا بالآخر، لأن الصبر يحتاج إلى شكر عليه ليكمُل، والشكر يحتاج إلى صبر عليه ليستوجب المزيد، وقد قرن اللّه تعالى بينهما ووصف المؤمنين بهما فقال إن فى ذلك لآيات لكل صبّار شكور، فذكر الشكر بلفظ المبالغة فى الوصف على وزن فعول، كما ذكر الصبر على وزن فعّال وهو وصف للمبالغة أيضا، ولذلك اقتسما الإيمان نصفين كما جاء فى الخبر الصبر نصف الإيمان، والشكر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله، لأن اليقين أصلهما وهما ثمرتاه عنه يوجدان، لأن الشاكر أيقن بالنعمة أنها من المُنعِم، وأيقن بإنجاز

ماوَعَده من المزيد فشكَر، كما أيقن الصابر بمسّه بالبلاء لأنه هو المُبتلَى، وأيقن بثواب المُبلِي وحُسن ثنائه على الصابرين فصبر، فلا حول ولاقوّة إلا باللّه العلى العظيم، فهما حالا الموقن إذ لايخلو فى أدنى وقت من أحد اثنين بليّة وتحيّة، إذ فى كل شىء له آية، فحاله فى البلية الصبر، وحاله فى التحية الشكر، واللّه يحب الصابرين ويحب الشاكرين. وهذا آخر شرح مقام الشكر والحمد للّه رب العالمين.

شرح مقام الرجاء ووصف الراجين وهو الرابع من مقامات اليقين

قال اللّه تعالى اللّه لطيف بعباده يرزق من يشاء، وقال حلّت قدرته وكان بالمؤمنين رحيما، وقال تعالى ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة اللّه إن اللّه يغفر الذنوب جميعا. وروينا فى قراءة النبى صلى اللّه عليه وسلم ولايبالى إنه هو الغفور الرحيم. وفى الأخبار المشهورة فقبض قبضة فقال هؤلاء فى الجنة ولا أبالى، والمعنى واللّه أعلم إن رحمتى وسعت كل شىء فليس يضيق هؤلاء عنها ولا أبالى بدخولهم فيها، ويكون هؤلاء أيضا فى الجنة ولاأبالى بأعمالهم السيئة كلها. وقال سبحانه وتعالى فى وصف المتّقين والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا اللّه فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا اللّه. وقال عز وجل فى وصف المتوكلين إلاّ اللمم إن ربك واسع المغفرة، وقال تعالى مخبراً عن الملائكة الحافّين حول عرشه والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض، وأخبر عز وجل أن النار أعدّها لأعدائه وأنه خوّف بها أولياءه فقال تعالى لهم من فوقهم ظُلَل من النار ومن تَحتهم ظلل، ذلك يخوّف اللّه به عباده، ومثله قوله عز وجل واتقوا النار التى أُعدّت للكافرين، وقال فأنذرتكم ناراً تلّظى لايصلاها إلاّ الأشقى الذى كذّب وتولّى، وقال تعالى فى عفوه عن الظالمين وإنّ ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم.

وروينا أن النبى عليه السلام لم يزل يسأل فى أمته حتى قيل له أمَا ترضَى وقد أُنزلت عليك هذه الآية وإن ربك لذو مغفرةٍ للناس على ظلمهم، وفى تفسير قوله تعالى ولسوف يُعطيك ربُك فترضى، قال لايرضى محمد صلى اللّه عليه وسلم أن يدخل واحد من أمتّه النار. وكان أبو جعفر محمد بن علىّ رضى اللّه عنه يقول أنتم أهل العراق تقولون أرجَى آية فى كتاب اللّه قوله تعالى ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة اللّه الآية، ونحن أهل البيت نقول أرجَى آية فى كتاب اللّه تعالى ولسوف يُعطيك ربك فترضى، وعَدَه ربه عز وجل أن

يُرضيه فى أُمته. وروينا فى تفسير قوله تعالى يوم لايُخزى اللّه النبى والذين آمنوا معه، أن اللّه تبارك وتعالى أوْحى إلى نبيّه صلى اللّه عليه وسلم تريد أن أجعل حساب أمتك إليك، فقال لا يا رب أنت خير لهم منى، قال إذاً لا نخزيك فيهم. وقال سفيان الثورى رضى اللّه عنه ما أحب أن يُجعل حسابى إلى أبوّى لأنى أعلم أن اللّه تبارك وتعالى أرحم بى منهما. وروينا فى خبر سلمة بن وردان عن أنس بن مالك أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم سأل ربه تعالى فى ذنوب أمته، فقال يارب اجعل حسابهم إلىّ لئلا يطلّع على مساويهم غيرى، فأوحى اللّه تعالى إليه هُم أمتُك وهُم عبادى وأنا أرحم بهم منك، لا أجعل حسابهم إلى غيرى كيلا تنظر فى مساويهم أنت ولاغيرك.

وقد روينا عنه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال حياتى خير لكم وموتى خير لكم، أما حياتى فإنى أُبيّن لكم السُنن وأُشرّع الشرائع، وأما موتى فأعمالكم تُعرَض علىّ فما رأيت منها حَسنا حمدتُ اللّه عز وجل، ومارأيت منها شيأ استغفرت اللّه عز وجل لكم. وروينا فى الأثر إذا تاب العبد من ذنوبه أنسَى اللّه عز وجل ملائكته وبقاع الأرض معاصيه وبدّلها حسنات حتى يَرِدَ القيامة وليس شىء يشهد عليه. وكذلك يقال إن المؤمن إذا عصاه ستَرَه اللّه تعالى عن أبصار الملائكة كيْلا تراه فتشهد عليه. وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ذات يوم ياكريم العفو، فقال له جبريل عليه السلام تدرى ماتفسير ياكريم العفو هو أنه عفا عن السيآت برحمته ثم بدّلها حسنات بكرمه. وسمع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم رجلا يقول اللّهم إنى أسألك تمام النعمة، فقال هل تدرى ماتمام النعمة، قال لا، قال دخول الجنة. وقد أخبرنا اللّه تعالى أنه قد أتمّ نعمته علينا برضاه الإسلام لنا، فهذا دليل على دخول الجنة، فقال عز وجل اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا، وقد اشتركنا فى ذلك مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فنحن نرْجو المغفرة لذنوبنا بفضله، فقال عز من قائل ليغفر لك اللّه ماتقدّم من ذنبك وماتأخّر ويتم نعمته عليك. وفى خبر علّى رضى اللّه عنه مَنْ أذنب ذنبا فستره اللّه تعالى عليه فى الدنيا فاللّه تبارك وتعالى أكرم من أن يكشفَ ستره فى الآخرة، ومن أذنب ذنباً فعوقب عليه فى الدنيا فاللّه تعالى أعدل من أن يُثنىّ عقوبته على عبده فى الآخرة، وفى لفظ آخر لايذنب عبد فى الدنيا فيستره اللّه تعالى عليه إلا غفر له فى الآخرة.

وعن بعض السلف كل عاص فإنه يعصى تحت كنَف الرحمن، والكنف من الإنسان حِضنه

مابين يديه وصدره، قال:فمن ألقى عليه كنَفه ستَر عورته، ومن رفع عنه كنفه افتُضح. ويقال إن من فُضح فى الدنيا بذنب فهو كفّارته ولايُفضح به فى الآخرة. وفى الخبر إذا أذنب العبد فاستغفر اللّه يقول اللّه سبحانه و تعالى لملائكته انظروا إلى عبدى أذنب ذنبا فعلم أن له رباً يغفر الذنب فيأخذ بالذنب، أُشهدكم أنى قد غفرت له. وفى الحديث إذا أذنب العبد حتى تبلغ ذنوبه عَنان السماء غفرتُها له مااستغفرنى ورجانى. وفى حديث آخر لو لقينى عبدى بقُراب الأرض ذنوبا لقيته بقُرابها مغفرة مالم يشرك بى شيأ.

وروينا فى حديث أنس بن مالك الطويل إذا أذنب العبد ذنبا كُتب عليه، فقال الأعرابى فإن تاب، قال مُحِىَ من صحيفته، قال فإن عاد، قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يكتب عليه، قال الأعرابى فإن تاب، قال محى من صحيفته، قال إلى متى يارسول اللّه، قال إلى أن يستغفر ويتوب إلى اللّه تعالى، وإنّ اللّه لايمل من المغفرة حتى يمل العبد من الاستغفار، فإذا هَمّ العبد بحسَنة كتبها صاحب اليمين حسَنة قبل أن يعملها، فإذا عملها كتبها عشر حسنات، ثم ضاعفها اللّه عز وجل إلى سبعمائة ضعف، وإذا همّ بخطيئة لم تُكتب عليه، فإن عَمِلَها كُتبت خطيئة واحدة ووراءها حُسن عفو اللّه تعالى.

وجاء رجل إلى النبى صلى اللّه عليه وسلم فقال يارسول اللّه إنى لا أصوم إلاّ الشهر لاأزيد عليه، ولا أصلى إلا الخمس لاأزيد عليهن، وليس للّه تبارك وتعالى فى مالى صدقة ولاحج ولاأتطوع، أين أنا إذا مت؟ فقال النبى صلى اللّه عليه وسلم فى الجنة. قال يا رسول اللّه معك؟ فتبسّم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وقال نعم معى إنْ حفظتَ قلبك من اثنين **الغِل والحسد**، ولسانَك من اثنين **الغيبة والكذب**، وعينَك من اثنين **النظر إلى ماحرّم اللّه تعالى وأنْ تزدرى بهما مُسلما**، دخلتَ معى الجنة على راحتَى هاتين.

وروينا فى الخبر الطويل عن أنس رضى اللّه عنه أن الأعرابى قال يا رسول اللّه من يلى حساب الخلق؟ قال اللّه عز وجل، قال هو بنفسه؟ قال نعم، قال فتبسم الأعرابى، فقال النبى صلى اللّه عليه وسلم مِمَ ضحكتَ ياأعرابى؟ فقال إن الكريم إذا قدَر عفا، وروى تجاوز، وإذا حاسب سامح، فقال النبى صلى اللّه عليه وسلم صدَقَ ألاَ ولاكريمَ أكرم من اللّه عز وجل، هو أكرم الأكرمين، ثم قال عليه السلام فَقِهَ الأعرابى.

وفيه أيضا أن اللّه تبارك وتعالى شرّف الكعبة وعظّمها ولو أن عبداً هدَمها حجراً ثم

أحرقها مابلغ جُرْم من استخفّ بوَلِيٍ من أولياء اللّه تعالى، قال الأعرابى مَنْ أولياء اللّه؟ قال المؤمنون كلهم أولياء اللّه تعالى، أمَا سمعت اللّه تعالى يقول اللّه وَلىّ الذين آمنوا يُخرجهم من الظلمات إلى النور. وفى الخبر المُفرد عن النبىّ صلى اللّه عليه وسلم المؤمن أفضل من الكعبة، والمؤمن طيّب طاهر، والمؤمن أكرم على اللّه تعالى من الملائكة. وفى الخبر المشهور عن عبد اللّه بن عمرو وأبى هريرة رضى اللّه عنهما وكعب الأحبار أنه نظر إلى الكعبة فقال ماأشرفك ومأعظمك، وللّمؤمن أعظم حرمةً عند اللّه منك. وقد أمر اللّه سبحانه وتعالى أنبياءه بتطهير بيته لأوليائه إجلالاً لهم فشرّف البيت بهم. وفى الخبر عن اللّه تعالى من أهان لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة، وأنا الثائر لوليى فى الدنيا والآخرة.

وفى أخبار يعقوب عليه السلام أن اللّه تعالى أوحى إليه تدرى لِمَ فرّقتُ بينك وبين يوسف عليه السلام هذه المدة؟ قال لا، قال لقولك لإخوته أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون. لِمَ خفت الذئبَ عليه ولم ترْجُنى له؟ ولِمَ نظرتَ إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظى له؟ ومِنْ سبق عنايتى بك أنى جعلت نفسى عندك أرحم الراحمين فرجوتنى، ولولا ذلك لكنتُ أجعلُ نفسى عندك أبخل الباخلين. فالرجاء هو اسم لقوّة الطمع فى الشئ بمنزلة الخوف وهو اسم لقوّة الحذَر من الشئ، ولذلك أقام اللّه تعالي الطمع مقام الرجاء فى التسمية، وأقام الحذَر مقام الخوف فقال علّت كلمته يدعون ربهم خوفاً وطمعا، وقال تعالى يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، وهو وصف من أوصاف المؤمنين وخلُق من أخلاق الإيمان لا يصح إلاّ به كما لا يصح الإيمان إلا بالخوف، فالرجاء بمنزلة أحد جناحى الطير لا يطير إلا بجناحيه، كذلك لا يؤمن مَنْ لا يخافه. وهو أيضا مقام مِنْ حُسن الظن باللّه تعالى وجميل التأميل له، فلذلك أوصى رسول اللّه صلى اللّ عليه وسلم فقال لا يموتن أحدكم إلا وهو حَسَن الظن باللّه تعالى، لأنه قال عن اللّه تعالى أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ماشاء. وكان ابن مسعود رضى اللّه عنه يحلف باللّه تعالى ما أحسن عبدٌ باللّه تعالى ظنَه إلاّ أعطاه اللّه تعالى ذلك، لأن الخير كله بيده، أى فاذا أعطاه حُسن الظن باللّه تعالى فقد أعطاه ما يظُنه، لأن الذى حَسَنَ ظنُه به هو الذى أزاد أن يحققه له.

وروينا عن يوسف بن أسباط قال سمعت سفيان الثورى رضى اللّه عنه يقول فى قوله تعالى وأحسنوا إن اللّه يحب المحسنين، قال أى أحسنوا باللّه تعالى الظن. وكذلك دخل رسول

اللّه صلى اللّه عليه وسلم على الرجل وهو فى سياق الموت فقال كيف تجدك، فقال أجدنى أخاف ذنوبى وأرجو رحمة ربى، فقال عليه السلام ما اجتمعا فى قلب عبد فى هذا المَوْطن إلاّ أعطاه اللّه تعالى ما رجا وأمّنه مما يخاف. ولذلك قال علىّ كرّم اللّه وجهه للرجل الذى أطار الخوف عقله حتى أخرجه إلى القنوط، فقال له يا هذا إياسُك من رحمة اللّه تعالى أعظم من ذنبك. صَدَقَ رضى اللّه عنه لأن الإياس من روح اللّه تعالى الذى يستريح إليه المكروب من الذنوب، والقنوط من رحمة اللّه تعالى التى يرجوها المبْتَلَى بالذنوب، أعظم من ذنوبه وهو أشد من جميع ذنوبه، لأنه قطع بهواه علي صفات اللّه تعالى المرجّو، فكان ذلك من أكبر الكبائر وإن كانت ذنوبه كبائر. وهكذا جاء فى التفسير ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة، قال هو العبد يُذنب الكبائر ويلقى بيده ولا يتوب، ويقول قد هلكت لا ينفعنى عمل، فنهوا عن ذلك. إلاّ أن الرجاء مقام جليل وحال شريف نبيل لا يصلح إلا للكُرماء من أهل العلم والحياء، وهو حال يحول عليهم بعد مقام الخوف يُروّحون به من الكرب ويستريحون إليه من مقارفة الذنب، ومن لم يعرف الخوف لم يعرف الرجاء، ومن لم يقم فى مقام الخوف لم يرْفع إلى مقامات أهل الرجاء على صحة وصفاء.

ورجاء كل عبد من حيث خوفه ومكاشفته عن أخلاق مرجوّة من معنى ما كان كوشف به من صفات مخّوفة، فإن كان أقيم مقام المخوفات من الخلوقات مثل الذنوب والعيوب والأسباب رُفِعَ من حيث تلك المقامات إلى مقامات الرجاء بتحقيق الوعد وغفران الذنب وتشويق الجنان وما فيها من الأوصاف الحسان، وهذه مواجهات أصحاب اليمين. وإنْ كان أقيم مقام مخاوف الصفات عن مشاهدة معانى الذات، مثل سابق العلم وسوء الخاتمة وخفّى المكْر وباطن الاستدراج وبطْش القُدرة وحكُم الكِبر والجبروت، رفع من هذه المقامات إلى مقام المحبة والرضا، فرجا من معانى الأخلاق وأسماء الكرم والإحسان والفضل والعطف واللُطف والامتنان. وليس يصح أن نخبر بكل ما نعلم من شهادة أهل الرجاء في مقامات الرجاء من قِبَلِ أنه لا يصلح لعموم المؤمنين، وهو يُفسد من لم يُرزقه أشد الفساد، فليس يصلح بخصوصه، ولا يُجديه، ولا يَستجيب له، ولا يُستخرج إلاّ مِنْ المحبة، ولا محبة إلاّ بعد نصح القلب من الخوف، وأكثر النفوس لا يصلح إلاّ على الخوف، كعبيد السوء لا يستقيمون إلاّ بالسّوط والعصا، ثم يواجهون بالسيوف صلْتا.

ومن علامة صحة الرجاء فى العبد كون الخوف باطناً فى رجائه، لأنه لما تحقق برجاء شئ خاف فوته لعِظَم المرجّو فى قلبه وشدة اغتباطه به، فهو لا ينفك في حال رجائه من خوف فَوت الرجاء، والرجاء هو ترويحات الخائفين، ولذلك سمّت العرب الرجاء خوفا لأنهما وصفان لا ينفك أحدهما عن الآخر. ومن مذهبهم أن الشئ اذا كان لازما لشئ أو وصفا له أو سببا منه أنْ يعبروا عنه به، فقالوا مالَكَ لا ترجو كذا، وهم يريدون مالك لا تخاف، وعلى هذه اللغة جاء قول الله تعالى مالكم لا ترجون لله وقارا، أجمعوا على تفسيره مالكم لاتخافون لله عظمة، وهو أيضا أحد وجهى تفسير قوله تعالى فمن كان يرجو لقاء ربه أى يخاف من لقائه. ومثل الخوف من الرجاء مثل اليوم من الليلة، لماّ لم ينفك أحدهما عن الآخر جاز أن يُعَبر عن المدة بأحدهما فيقال ثلاثة أيام وثلاث ليال. ومنه قول الله تعالى مُخبرا عن قصة واحدة فقال عزوجل آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سويا، قال تعالى ثلاثة أيام إلا رمزا فلما لم يكن اليوم ينفك عن ليلته، والليلة لا تنفك عن يومها، أخبر عن أحدهما بالآخر لأن أحدهما يشبه الآخر مندرج فيه، ولا يظهر إلاّ أحدهما بحكمة الله تعالى وقدرته لتفاوت أحكامه فيهما وافتراق إنعامه بهما، فإذا ظهر النهار اندرج الليل فيه بقدرته تعالى، وإذا ظهر الليل استتر النهار بحكمة الله تعالى، وهو حقيقة إيلاجه أحدهما في الآخر وتحقيق تكويره أحدهما على صاحبه، فكذلك حقيقة الرجاء والخوف فى معانى الملكوت، إذا ظهر الخوف كان العبد خائفا وظهرت عليه أحكام الخوف عن مشاهدة التجلى بوصف مخوّف، فسمى العبد خائفاً لغلبته عليه وبَطَنَ الرجاء فى خوفه، وإذا ظهر الرجاء كان العبد راجياً وظهرت منه أحكام الرجاء عن مشاهدة تجلى الربوبية بوصف مرجّو فوُصِف العبد به، لأنه هو الأغلب عليه، وبَطَن الخوف فى رجائه لأنهما وصفات للإيمان، كالجناحين للطير، فالمؤمن بين الخوف والرجاء كالطائر بين جناحيه، وكلسان الميزان بين كفتيّه. ومنه قولُ مُطرَف لو وُزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا. فهذا أصلٌ فى معرفة حقيقة الرجاء وصِدْق الطمع فى المرجو فللمؤمنين فى اعتدال الخوف والرجاء مقامان أعلاهما مقام المقربين، وهو ماحال عليهم من مقام مشاهدة الصفات المخوّفة والأخلاق المرجُوّة، والثانى مقام أصحاب اليمين وهو ما عرفُوه من بدائع الأحكام وتفاوت الأقسام، من ذلك انه أنْعَم سبحانه وتعالى على الخلْق بفضله عن كرمه اختياراً لا إجبارا، فلما أعلمّهم ذلك رجوا تمام النعمة من حيث ابتداؤها، ومن ههنا طمع السحرة فى المغفرة لما ابتدؤا بالإيمان فقالوا إنا نطمع أن يغفر لنا ربُنا خطايانا أنْ كنا أول المؤمنين، أى من حيث جعلنا أوّل

المؤمنين، من هذا المكان نرجو أن يغفر لنا بأن جعلنا مؤمنين به فرجوه منه. وقد ذمّ الله تعالى عبداً أوجده نعمةً ثم سلبها فيئس من عودها عليه ، فقال تعالى ولَئِن أذقنا الإنسان منّا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤس كفور، ثم استثنى عباده الصابرين عليه الصالحين له فقال تعالى إلاّ الذين صبروا وعملوا الصالحات.

وروُى أن لقمان عليه السلام قال لابنه خف الله تعالى خوفاً لا تأمن فيه مكره وارجُه رجاءً أشدَ من خوفك، قال وكيف أستطيع ذلك وإنما لى قلب واحد، قال أماعلمت أن المؤمن كذى قلبين يخاف بأحدهما ويرجو بالآخر، والمعنى أن الخوف والرجاء وصف الإيمان لا يخلو منهما قلب مؤمن فصار كذى قلبين حينئذ. ثم إن الخلق خلقوا على أربع طبقات، فى كل طبقة طائفة، فمنهم من يعيش مؤمنا ويموت مؤمنا، فمن ههنا رجاؤهم لأنفسهم ولغيرهم من المؤمنين، إذ قد أعطاهم فرجوا أن يتم عليهم نعمته وأن لا يسلبهم بفضله ما به بدأهم. ومن الناس من يعيش مؤمنا ويموت كافرا، فهذا موضع خوفهم عليهم وعلى غيرهم. ومن الناس من يعيش كافرا ويموت مؤمنا، ومنهم من يعيش كافرا ويموت كافرا، فهذان الحكمان أوجبا رجاؤهم فلم يقنطوا بظاهره وخافوا أن يموتوا على تلك الحال، وأن يكون ذلك هو حقيقّتهم عند الله تعالى. وعلِمُ المؤمن بهذه الأحكام الأربعة ورثّه الخوف والرجاء معا، فاعتدل حاله بذلك لاعتدال إيمانه به، وحكَم على الخلق بالظاهر ووكّل إلى علاّم الغيوب السرائر، ولم يقطع على عبدٍ بظاهرِه من الشر بل يرجو له ما بطَن عند الله تعالى من الخير، ولم يشهد لنفسه ولا لغيره بظاهر الخير، بل يخاف أن يكون قد استتَرّ عند الله تعالى باطن شر، إلاّ أنّ حال التمام أن يخاف العبد على نفسه ويرجو لغيره، لأن ذلك هو وَجْد المؤمنين من قِبَل أنهم متعبدون بحُسن الظن، فهم يُحسنون الظن بالناس ويخرجون لهم المعاذير بسلامة الصدور وتسليم ما غاب إلى من إليه تصير الأمور، ثم هم فى ذلك يسيؤن الظن بنفوسهم لمعرفتهم بصفاتها ويوقعون الملاوم عليها، ولا يحتجّون لها لباطن الإشفاق منهم عليهم، ولخوف التزكية منهم لهم، فمَن قُلِبَ عليه هذان المعنيان فقد مُكِرَ به حتى يُحسن الظن بنفسه ويسيء ظنه بغيره، فيكون خائفا على الناس راجياً لنفسه، عاذرا لنفسه محتجاً لها، لائماً للناس ذاماً لهم، فهذه أخلاق المنافقين.

ثم إن للراجى حالا من مقامه ولحاله علامة من رجائه، فمن علامة الرجاء عن مشاهدة المرجو دوام المعاملة، وحُسن التقرب إليه، وكثرة التقرب بالنوافل لحُسن ظنه به وجميل أمله

منه، وأنه يتقبّل صالح ما أمر به تفضلاً منه، من حيث كرمه لا من حيث الواجب عليه ولا الاستحقاق منا، وأنه أيضا يكفّر سيئ ما عمله إحسانا منه ورحمةً من حيث لطفه بنا وعطفه علينا، لأخلاقه السنّية وألطافه الخفية، لا من حيث اللزوم له بل من حيث حسن الظن به، كما قال سفيان الثورى رضي اللّه عنه مَنْ أذنب ذنبا فعلم أن اللّه تعالى قدّرَه عليه ورجاغفرانه غَفر اللّه عز وجل له ذنبه، قال لأن اللّه تعالى عيّر قوما فقال تعالى وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم، وقد قال سبحانه وتعالى فى مثله وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا، أى هلكى، ففى دليل خطابه عز وجل أن من ظن حُسنا كان من أهل النجاة. وقد جاء فى الأثر أن من أذنب ذنبا فأحزنه ذلك غُفِر له ذنبه وإن لم يستغفر.

ومقام الرجاء كسائر مقامات اليقين منها فرض وفضل، فعلى العبد فرض أن يرجو مولاه وخالقه ومعبوده ورازقه من حيث كرمه وفضله لا من حيث نظره إلى صفات نفسه ولؤمه. وقد كان سهل رحمه اللّه تعالى يقول من سألَ اللّه تبارك وتعالى شيئاً فنظر إلى نفسه وإلى أعماله لا يرى الإجابة حتى يكون ناظراً إلى اللّه تبارك وتعالى وحده، وإلى لطفه وكرمه، ويكون موقناً بالإجابة. ولِعَمرى إنّ من سأل اللّه تعالى ورغب إليه فى شئ ورجاه ناظراً إلى نفسه وعمله، فإنه غير مخلص فى الرجاء له تعالى لِشْركه فى النظر إليه، وإذا لم يكن مخلصاً لم يكن موقنا، ولا يقبل اللّه تعالى عملا ولادعاء إلاّ من موقن بالإجابة مخلص، فإذا شهد التوحيد ونظر إلى الوحدانية فقد أخلّص وأيقن، وهكذا جاء فى الخبر إذا دعوتم فكونوا موقنين بالإجابة فإن اللّه تعالى لا يقبل إلاّ مِنْ موقن ومن داع دُعاءً بيناً من قلبه، لأن من استعمله اللّه تعالى بالدعاء له فقد فتح له بابا من العبادة. وفى الخبر الدعاء نصف العبادة. ولا يقبل اللّه تعالى من الدعاء إلا الناخلة بمعنى المنخول، وهو الخالص، فأقل ما يُعطيه من دعائه أن يكون ذلك حسنة منه يُضعّفه له عشراً إلى سبعمائة ضعف، وأعلاه أن يدخر له فى الآخرة ما هو خير له من جميع الدنيا وما فيها مما لم يخطر على قلبه قط، ويكون ذلك حُسن نظر من اللّه تعالى له واختيار. وأوسط ذلك أن يَصرف عنه من البلاء، الذى هو لو كان عَلِمَه، كان صرْفُه أهم عليه وأحب إليه مما سأل فيه.

وقد روينا عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ما من داع دعا موقنا بالإجابة فى غير معصية ولا قطيعة رحم إلاّ أعطاه اللّه تعالى إحدى ثلاث، إما أنْ يجيب دعوته فيما سأل، أو يصرف يصرف عنه من السوء مثله، أو يدخر له فى الآخرة ما هو خير له.

وفى أخبار موسى عليه السلام يارب أى خلقك أنت عليه أشد تسخطا، فقال تعالى مَنْ لمَ يرض بقضائى، ومن يستخيرُنى فى أمر فإذا قضيت له كَرِهَ ذلك. وفي الخبر الآخر أنه قال يارب أى الأشياء أحب إليك وأيها أبغض، فقال سبحانه وتعالى أحب الأشياء إلىّ الرضا بقضائى وأبغضها إلىّ أن تُطرى نفسك. وروينا عن نبينا صلى اللّه عليه وسلم أنه قال للرجل الذى قال أوصنى، فقال لا تتهم اللّه تعالى فى شئ قضاه عليك. وفى الخبر الآخر أنه نظر إلي السماء وضحك صلىّ اللّه عليه وسلم، فسُئل عن ذلك، فقال عجبتُ لقضاء اللّه تعالى للمؤمن، فى كل قضائه له خير، إنْ قَضى له بالسرّاء رضى وكان خيراً له، وإنْ قضى عليه بالضّراء رضى به وكان خيراً له.

والراجون يتفاوتون فى **فضائل الرجاء** فالمقرّبون منهم رجوا النصيب الأعلى من القُرب والمجالسة والتجلى بمعانى الصفات مما عرفوه وهذا عن علمهم به، وأصحاب اليمين من الراجين رجوا النصيب الأوفر من مزيده والفضل الأجزل من عطائه يقينا بما وعد. ومن الرجاء انشراح الصدر بأعمال البّر وسرعة السبق والمبادرة بها خوف فُوتها، ورجاء قبولها، ثم مهاجرة السوء ومجاهدة النفس رجاء انتجاز الموعود وتقرّباً إلى الرحيم الودود. ومنه قول أصدق القائلين إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل اللّه أولئك يرجون رحمة اللّه. وفسّر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم **المهاجرة والمجاهدة** فقال المهاجر من هجر السوء، والمجاهد من جاهد نفسه فى اللّه تعالى، وأقام الصلاة التى هى خدمة المعبود، وبذل المال سراً وعلانية، قليلاً وكثيراً، وأنْ لا يشتغل عن ذلك بتجارة الدنيا. كما وصف اللّه سبحانه وتعالى **المحققين من الراجين** إذ يقول عزّ من قائل إن الذين يتلون كتاب اللّه وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارةً لن تبور.

ومن الرجاء **القنوت** فى ساعات الليل وهو طول القيام للتهجد والدعاء عند تجافى الجنوب عن المضاجع لما وقر فى القلوب من المخاوف، ولذلك وصف اللّه الراجين بهذا فى قوله تعالى أمّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذَر الآخرة ويرجو رحمة ربه، قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون، فسمّى **أهل الرجاء والحذر وأهل التهجد** آناء الليل علماء. وحصل من دليل الكلام أنّ من لم يخف ولم يرج غير عالم، لنفيه المساواة بينهما، وهذا مما يُحذف خبره اكتفاءً بأحد وصفيه إذ فى الكلام دليل عليه. فالرجاء هو أوّل مقام من اليقين عند

المقرّبين، وهو ظاهر أوصاف الصدّيقين، ولا يكمُل فى قلب عبدٍ ولا يتحقق به صاحبه حتى يجتمع فيه هذه الأوصاف: الإيمان باللّه تعالى، والمهاجرة إليه سبحانه وتعالى، والمجاهدة فيه، وتلاوة القرآن، وإقامُ الصلاة، والإنفاقُ فى سبيل اللّه تعالى، ثم السجود آناء الليل والقيام، والحذر مع ذلك كله، فهذه **جملة صفات الراجين**، وهو أوّل أحوال الموقنين، ثم تتزايد الأعمال فى ذلك ظاهراً وباطنا بالجوارح والقلوب عن تزايد الأنوار والعلوم ومكاشفات الغيوب بالأوصاف الموجودة.

وفصل الخطاب أن **الخوف والرجاء** طريقان إلى مقامين، فالخوف طريق العلماء إلى مقام العلم، والرجاء طريق العمّال إلى مقام العاملين. وقد وصف اللّه عز وجل الراجين مع الأعمال الصالحة لقوة رجائهم بالخوف تكملة لصدق الرجاء وتتمة لعظيم الغبطة به، فقال تعالى وتقدّس والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة، وقال عز وجل مخبراً عنهم فى حال وفائهم وأعمال برّهم إنّا كنّا قبل فى أهلنا مشفقين فمنّ اللّه علينا، وقال عز وجل يوفون بالنّذْر ويخافون يوما، من قِبَل أن الخوف مرتبط بالرجاء، فمن تحقق بالرجاء صارعه الخوف أن يقطع به دون ما رجا. وقال أهل العربية فى معنى قوله تعالى قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام اللّه، أى للذين لا يخافون عقوبات اللّه تعالى، فإذا كان هذا أمره بالمغفرة لمن لا يرجو فكيف يكون غَفْره وفَضْله على من يرجو؟ وبعضهم يقول فى معنى قوله تعالى وترجون من اللّه مالا يرجون أى تخافون منه مالا يخافون، فلولا أنهما عند العلماء كشئ واحد مافُسِّر أحدهما بالآخر.

ومن الرجاء **الأُنس باللّه تعالى** فى الخلوات. ومن الأنس به **الأنس بالعلماء**، والتقرُّب من الأولياء، وارتفاع الوَحْشة بمجالسة أهل الخير، وسعة الصدر والروْح عندهم. ومن الرجاء سقوط ثُقْل المعاونة على البر والتقوى لوجود حلاوة الأعمال والمسارعة إليها، والحث لأهلها عليها والحزن على فوْتها والفرح بدْركها. ومن ذلك الخبر المأثور مَنْ سرّته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن. والخبر المأثور خيار أمتى الذين إذا أحسنوا استبشروا، وإذا أساؤا استغفروا، لأن المؤمن على يقين من أمره وبصيرة من دينه. والخوف والرجاء وصف الموقن باللّه تعالى فهو إذا عمل حسنة أيقن بثوابها لصدق الوعد وكرم الموُعد، وإذا عمل سيئة أيقن بالكراهة لها وخاف المقت عليها لخوف الوعيد وعَظَمة المتوعد، من قِبَل أن دخوله فى الطاعة

دخولٌ فى محبة اللّه تعالى ومرضاته لِمَا دلّ العلمُ عليه، فهذا رضا اللّه سبحانه وتعالى فى الدنيا فكيف لا يسرّه رضاه، ومِنْ قبَل أن دخوله فى المعصية دخول فى غضب اللّه تعالى ومكارهه بما دلّ العلم عليه، فذلك الذى يسوءه لأن مقت اللّه تعالى اليوم معاصيه، وسخطه غداً تعذيبه. ومن هذا قول اللّه عز وجل وهو أصدق القائلين يُنادوْن لَمقت اللّه أكبر من مقتكم أنفسك، قال لمّا نظروا إلى أنفسهم بتشويه خَلْقهم فى النار مَقَتُوها فنُوبوا لَمقت اللّه فى الدنيا على معاصيه أكبر من مقتكم أنفسكم اليوم فى العذاب. كما أن رضاه غدا تنعيمهم فى جنته، كذلك رضاه اليوم عملهم بطاعته ومرضاته. وهذا وْصفُ عبدٍ مُرادٍ مكاشَفٍ بعلم اليقين. ومن هذا حديث زيد الخيل إذ قال للنبى صلى اللّه عليه وسلم جئتك أسألك عن علامة اللّه تعالى فيمن يريد، وعلامته فيمن لا يريد، فقال كيف أصبحت، فقال أصبحت أحب الخير وأهله، وإذا قدِرتُ على شئ منه سارعت إليه وأيقنت بثوابه، وإذا فاتنى شئ منه حزِنتُ عليه وحننتُ إليه، فقال صلى اللّه عليه وسلم هذه علامه اللّه تعالى فيمن يريد، ولو أرادك للأخرى هيّأك لها ثم لم يبال فى أى أوديتها هلَكتَ.

ومن الرجاء التلذذ بدوام حُسن الإقبال، والتنّعم بمناجاة ذى الجلال، وحُسن الإصغاء إلى محادثة القريب، والتلطّف فى التملق للحبيب، وحُسن الظن به فى العفو الجميل ومنال الفضل الجزيل. وقال بعض العارفين للتوحيد نور وللشرك نار، ونور التوحيد أحرق لسيئات المؤمن من نار الشرك لحسنات المشرك. ولما احتّضر سليمان التيمى قال لابنه يابنى حدّثنى بالرخص واذكر لى الرجاء حتى ألقَى اللّه تعالى على حُسن الظن به. وكذلك لمّا حضر سفيان الثورى رضى اللّه عنه الوفاة جعل العلماء حوله يرجونه. وحُدّثنا عن أحمد بن حنبل رضى اللّه عنه أنه قال لابنه عند الموت انكرْ لى الأخبار التى فيها الرجاء وحُسن الظن. فلولا أن الرجاء وحُسن الظن من فواضل المقامات ماطلبه العلماء فى آخر الأوقات عند فراق العمر ولقاء المولى لتكون الخاتمة به. وهم يسألون اللّه حُسن الخاتمة طول الحياة، ولذلك قيل إنّ الخوف أفضل مادام حيا، فإذا حضر الموت فالرجاء أفضل.

وقد كان يحيى بن معاذ رحمه اللّه تعالى يقول فى مقامات الرجاء: إذا كان توحيد ساعة يُحبط ذنوب خمسين سنة، فتوحيد خمسين سنة ماذا يصنع بالذنوب؟ وقال أبو محمد سهل رضى اللّه عنه لا يصح الخوف إلاّ لأهل الرجاء. وقال مرة العلماء مقطوعن إلا الخائفين،

والخائفون مقطوعون إلاّ الراجين. وكان يجعل الرجاء مقاماً فى المحبة، وهو عند العلماء أوّل مقامات المحبة، ثم يعلو فى الحب على قدر ارتفاعه فى الرجاء وحُسن الظن.

وروينا عن النبى صلّى اللّه عليه وسلم أحاديث فى الرجاء لا يصلح ذكرها لعموم الناس، ولكن نذكر من ذلك يقول اللّه تعالى إنما خلقتُ الخلق ليربحوا علىّ ولم أخلقهم لأربح عليهم. وفى حديث عطاء بن يسارعن أبى سعيد الخدرى رضى اللّه عنه عن النبى صلّى اللّه عليه وسلم ما خلق اللّه تعالى شيأ إلاّ جعل له ما يغلبه وجعل رحمته تغلب غضبه. والخبر المشهور أن اللّه تعالى كتب على نفسه قبل أن يخلق الخلق إن رحمتى تغلب غضبى. والأخبار المشهورة عن معاذ بن جبل وأنس بن مالك رضى اللّه عنهما مَنْ قال لا إله إلاّ اللّه دخل الجنة، ومن كان آخر كلامه قول لا إله إلاّ اللّه لم تمسه النار، ومن لقى اللّه تعالى لا يُشرك به شيأ حرمت عليه النار، ولا يدخل النار مَنْ فى قلبه وزن ذرة من إيمان. وقد قال فى خبر آخر لو يعلم الكافر سعَة رحمة اللّه تعالى ما أيس من رحمته أحد. وقد قال اللّه تعالى فى حُسن عفوه عن أكبر الكبائر بعد ظهور الآيات ثم اتخذوا العجل من بعدما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك. وقال فى خطاب لطيف لأوليائه يُعرّفهم نفاذ أحكامه فيهم وجريان مشيئته عليهم فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن اللّه عزيز حكيم، عزيز لا يوُصل إليه إلاّ به، حكيم حكَم بمشيئته على عباده، ثم يغفر الذنوب جميعا فلا يبالى. كما أجرى على مَنْ فضلّه على العالمين مقالة الكافرين فلم يضربهم مع تفضيله لهم، إذ قالوا لموسى عليه السلام اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، فقال أغَيْر اللّه أبغيكم إلها وهو فضلّكم على العالمين. وبهذا المعنى عارَضَ علىّ كرّم اللّه وجهه رأس الجالوت لمّا قال له لم تلبثوا بعد نبيكم عليه السلام إلاّ ثلاثين سنة حتى ضرب بعضكم وجه بعض بالسيف، فقال علىّ كرّم اللّه وجهه أنتم لم تجف أقدامكم من ماء البحر حتى قلتم لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة. وروينا عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إذا حدّثتم الناس عن ربهم فلا تحدثوهم بما يفزعهم وينفّرهم. وقال فى حديث آخر بشّروا ولا تنفروا، ويسّروا ولا تعسّروا. ولمّا وعظهم النبى صلى اللّه عليه وسلم فقال لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا - الحديث، فهبط جبريل عليه السلام فقال إنّ اللّه تعالى يقول لِمَ تُقنط عبادى؟ فخرج إليهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فرجاهم وشوّقهم. ولمّاتلا الرسول صلى اللّه عليه وسلم هذه الآية إنّ زلزلة الساعة شئ عظيم، قال أتدرون أى يوم هذا؟ يوم يُقال لآدم عليه السلام قم فابعث نصيب النار من ذريّتك، فقال كم، قيل مِن كل ألف تسعمائة

وتسعة وتسعين إلى النار، وواحد إلى الجنة، قال فبكوا يومهم ذلك، وتركوا الأشغال والعمل، فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما بالكم؟ أنتم فى الأمم مثل شعرة بيضاء فى جلد ثور أسود. والخبر المشهور لو لم تذنبوا لخَلَق الله تعالى خلْقا يذنبون ليغفر لهم. وفى لفظ آخر لذهب بكم وجاء بقوم يذنبون فيغفر لهم إنه هو الغفور الرحيم، أى أن وصفه سبحانه وتعالى المغفرة والرحمة، فلا بد أن يخلق مقتضى وصفه حتى يحق وصفه عليه. وحكى لنا فى معناه عن إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه قال خلا لى الطواف ذات ليلة، وكانت ليلة مطيرة مظلمة، فوقفتُ فى الملتزم عند الباب، فقلت يارب اعصمنى حتى لا أعصيك أبدا، فهتف بى هاتف من البيت يا إبراهيم، أنت تسألنى العصمة وكل عبادى المؤمنين يطلبون ذلك، فإذا عصمتهم فعلى من أتفضل ولمن أغفر؟ وكان الحسن البصرى رضى الله عنه يقول لو لم يذنب المؤمن لكان يطير طيرا، ولكن الله تعالى قمَعَه بالذنوب. وفى الخبر مثله لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو شر من الذنوب، قيل وماهو، قال العُجب ولَعمْرى إنّ العُجب من صفات النفْس المتكبرة، وهو يحبط الأعمال، وهو من كبائر أعمال القلوب والذنوب من أخلاق النفسْ الشهوانية. ولأن يُبتلى العبد الشهوانى بعشر شهوات من شهوات النفس، خير له من أن يُبتلى بصفة من صفات النفس مثل الكِبْر والعُجب والبَغْى والحسد وحب المدح وطلب الذِكْر، لأن هذه منها معانى صفات الربوبية، ومنها أخلاق الأبالسة، وبها هلَك إبليس. وشهوات النفس من وصف الخلقة، وبها عصى آدم ربه فاجتباه بعدها وتاب عليه وهدَىَ. وقد قال بشر بن الحارث سكون النفس إلى المدح أضر عليها من المعاصى. ورأى يوسف بن الحسين مخنثًا فأعرض عنه إزراءً عليه، فالتفت إليه المخنّث وقال وأنت أيضا يكفيك مابك، ففزع من قوله فقال وأى شىء تعلم، قال لأن عندك أنك خير منى، فاعترف يوسف بقوله فتاب واستغفر.

وكان بعض الراجين من العارفين إذا تلا هذه الآية، آية الدين التى فى سورة البقرة، يُسَرّ بذلك ويستبشر لها ويَعظُم رجاؤه عندها، فقيل له فى ذلك أنها ليس فيها رجاء ولا مايوُجب الاستبشار، فقال بلَى فيها رجاء عظيم، قيل وكيف ذلك، فقال إن الدنيا كلها قليل ورزق الإنسان فيها قليل من قليل، وهذا الدين مَنْ رُزِقَه قليل. ثم إن الله تبارك وتعالى احتاط فى ذلك ورفَق النظر لى بأن وكّد دينى بالشهود والكّاب، وأنزل فيه أطول آية فى كتابه، ولو فاتنى ذلك لم أبال به، فكيف يكون فعله بى فى الآخرة التى لا عَوِض لى من نفسى فيها. وكذلك كان بعض الراجين يفهم من قوله تعالى إذا تلا وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون، يرجو من

ذلك بوادى الجود والكرم والإحسان مما لم يحسبه فى الدنيا قط. وقد كان الجنيد رحمه الله يقول إن بدت عين من الكرم ألحقت المسيئين بالمحسنين. وعلى ذلك جاء فى الخبر ليغفر الله تعالى يوم القيامة مغفرة ما خطرت قط على قلب أحد، حتى أن إبليس يتطاول رجاء أن تصيبه. وفى الخبر أن لله تعالى تسعا وتسعين رحمة، أظهر منها فى الدنيا رحمةً واحدة بها يتراحم الخلائق، فتحن الوالدة إلى ولدها، وتعطف البهيمة على ولدها، فإذا كان يوم القيامة ضمّ هذه الرحمة إلى تلك التسعة والتسعين، ثم بسطها على جميع خَلْقه، وكل رحمة منها طباق السموات والأرضين، قال فلا يهلك على الله تعالى إلاّ هالك.

وقد قال بعض العلماء إن الله تعالى إذا غفر لعبد فى موقف القيامة ذنبا غفر ذلك الذنب لكل من عمله. وقال النبى صلّى الله عليه وسلم إعملوا وأبشروا واعلموا أن أحداً لن ينجيه عمله. وفى الحديث الآخر ما منكم من أحد يُدخله عمله الجنة ولا ينُجيه من النار، قالوا ولا أنت يارسول الله، قال ولا أنا، إلاّ أن يتغمدنى الله تعالى برحمة وفضل. وروى عنه صلّى الله عليه وسلم إنى اختبأتُ شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى. وفى لفظٍ آخر أترونْها للمصفّين المتّقين بل هى للمخلصين المتلوّثين.وقال صلّى الله عليه وسلم لمعاذ وأبى موسى رضى الله عنهما وقد بعثهما واليين على اليمن فأوصاهما فيما أمرهما به، فقال يسّرا ولا تعسّرا، وبشّرا ولا تنفرا. فعلّم المؤمنين بكَرم الله تعالى وخَفى لطفه ولطيفٍ منه، لا يقعدهم عن تأميله، ولا يقصر بهم عن رجائه ولا حسن ظنهم به، ولا يقوّى الخوف فيخرجهم إلى الإياس من رحمته، لأجل علمهم بجبّريته وكبريائه، مِنْ قبَل أنّ المَهُوب هو المحبوب، فمحبته تؤنسهم وترّجيهم، وهيبته تزعجهم وتخيفهم، فخوفهم فى المهابة فى لذاذة، ونعيمهم بالحب فى مهابة، فهم فى مقام الخوف والمحبة معتدلون، وبقّوة العلم بهما متمكنون، وفى مشاهده الخوف والمحبوب مستقيمون. وهذا المقام هو وصف العارفين من الموقنين، وهم أهل كمال الإيمان وصفوة خصوص ذوى الإيقان، إذ قد عرفوا أن الله تبارك وتعالى كامل فى صفاته، لا يعتريه نقصان فى وصف دون وصف، وإنما الرحمة لسعة العلم، كما العلم لسَعة القُدرة، لمّا شهدوا من وصفه بما سمعوا من كلامه أنه كان عليما قديرا. كذلك قال تعالى وَسِعتُ كل شىء رحمة وعلما. وكذلك فهموا من قوله تعالى ورحمتى وسِعَت كل شىء، فدَخلتْ جهنم وغيرها فى توسْعة الرحمة من حيث كن شيأ. وقوله عز وجل فسأكتبها للذين يتقّون، معناه خصوص الرحمة، وَصفَها لا كنْهها، إذ لا نهاية للرحمة لأنها صفة الراحم الذى لا حدّ له، ولأنه لم يخرج من رحمته شىء كما لم يخرج من حكمته وقدرته شىء، لأن جهنم والنار الكبرى وغيرهما ليس كُنه عذابه ولا كلّية

تعذيبه، فمن ظن ذلك به لم يعرفه، ولأنه لما أظهر من عذابه مقدار طاقة الخلْق، كما أنه أظهر من مُلكه ونِعَمه مقدار مصالح الخلق، وما لا يصلح للخلق ولا يطيقون إظهاره أكثر مما أظهر من النعيم والعذاب، بل لا ينبغى لهم أن يعرفوا فوق ما أبدى لأن نهاية تعذيبه وتنعيمه من نهاية مُلكه الذى هو قائمٌ به، ومُلكه عن غاية قُدرته وسلطانه ولا نهاية لذلك، ولا يطيق الخلق كله إظهار ذلك، وذلك أيضا عن تعالى صفاته وبهاء أسمائه المتناهيات، ولا سبيل إلى كشف ذلك من الغيوب، فسبحان مَنْ لا نهاية لقدرته ولاحدّ لعظمته ولا أمَدَ لسلطانه. وكذلك شهدوا ما سمعوا من قوله عز وجل أنه كان حليما غفورا. وكان الله عليما حليما فعلموا أن المغفرة على سَعة الحلم كما أن الحلم سعَة العلم، فلما رأوْا عظيم حِلمه رجوا عظيم مغفرته، ولما شهدوا كثيف ستَره أملوا جميل عفوه. وكذلك يقال إن حملة العرش يتجاوبون بأصوات سبحانك على حِلمك بعد علمك، سبحانك على عفوك بعد قُدرتك. فللراجين من العارفين فهوم من السمع الكلام نحو علّو نظرهم عن سمّو علومهم بمعانى الصفات، وكل صاحب مقام يشهد من مقامه ويسمع من حيث شهادته، فأعلاهم شهادة الصدّيقون، ثم الشهداء، ثم الصالحون، ثم خصوص المؤمنين، فبه تبارك وتعالى استدلّوا عليه، ومنه إليه نظروا. هم درجات عند الله، والله بصير بما يعملون. وكان سهل رضى الله عنه يقول المحسن يعيش فى سعة الرحمة، والمسئ يعيش فى سعة الحلم. وصفاته تبارك وتعالى كاملات، فمن شهد ترجيح بعضها على بعض دخل عليه النقص من مشاهدته لقصور علمه عن تمام علم من فوقه من الشهداء، ولأجل مقامه المراد به دون طريق الصدّيقين من الأقوياء، فعاد ذلك على العبد فصار ذلك مقاما له فى القُرب والبُعد، تعالى وصف المشهود عن النقصان والحد.

ومثل الرجاء من الخوف مثل الرخصة فى الدين من العزائم. وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم إن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه. وفى لفظ آخر أبلغ من هذا وأوكد إن الله يحب أن يُقبل رخصه كما يَكره أن يُؤتى معاصيه. وروى عن النبى صلّى الله عليه وسلم إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، ولا تبغّض إلى نفسك عبادة الله تعالى، وخير الدين أيسره. وقال هلك المتعمقون، هلك المتنطعون. وقال عليه الصلاة والسلام بُعثت بالحنيفية السهلة السمحة. وقال صلّى الله عليه وسلم أُحِبُ أن يعلَم أهل الكتاب أن فى ديننا سماحة. وقال الله عز وجل ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم، واستجاب للمؤمنين فى قولهم ربنّا ولا تحمل علينا إصْرا كما حملته على الذين من قبلنا، فقال عز وجل قد فعلت.

فهذه العلوم هى أسباب قوّة الرجاء في أولى الألباب، كيف وقد جاء ما يُغلِّب حكم الرجاء من غير اغترار، ما رُوِى عن اللّه تعالى أنا إلى الرحمة والعفو أقرب منى إلى العقوبة. وفى الخبر إذا حدّثتم الناس عن ربهم فلا تُحَدثوهم بما يُفزعهم ويشق عليهم . وفى كلام لعلىّ رضى اللّه عنه إنما العالِم الذى لا يُقنط الناس من رحمة اللّه تعالى ولا يُؤمنهم مكر اللّه تعالى. وأوحى اللّه سبحانه وتعالى إلى داود عليه السلام مالك وحدانيا، قال عاديتُ الخلق فيك، قال أما علمت أن محبتى أنْ تعطف على عبادى وتأخذ عليهم بالفضل؟ هنالك أكتبُك من أوليائى وأحبابى. ولا تنظر إلى عبيدى نظرة جفاء ولا قسوة فإذا أنت قد أبطلت أجرك، فاحفظ عنى ثلاثا: خالصْ حبيبى مخالصة، وخالفْ أهل الدنيا مُخالفة، ودينك فقلدنيه. وعن داود وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أحبنى وأحب من يحبنى، وحببنى إلى خلقى. قال يارب هذا أحبُكَ وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى خلْقك، فقال عز وجل اذكرنى بالحَسَن الجميل، واذكر آلائى وإحسانى، وذكّرهم ذلك فإنهم لا يعرفون منى إلاّ الجميل. وروى عن يزيد الرقاشى عن أنس أن **النبى صلى اللّه عليه وسلم** قال ألاَ أخبركم عن أقوام ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء بمنازلهم من اللّه تعالى على منابر من نور يُعرفون عليها، قالوا من هم، قال الذين يحببون عباد اللّه إلى اللّه تعالى، ويحببون اللّه عز وجل إلى عباده، ويمشون فى الأرض نُصحاء. فقلنا هذا حببّوا اللّه إلى عباده فكيف يحببون عباد اللّه إلى اللّه، قال يأمرونهم بما يُحب اللّه وينهونهم عما حرّم اللّه، فإذا أطاعوهم أحبهم اللّه.

ورئى أبّان بن عيّاش فى النوم بعد موته، وكان من أكثر الناس حديثاً بالرُخَص وأبواب الرجاء، فقال أوقفنى ربى عز وجل بين يديه فقال ما حملك على أنْ حدّثت عنى بما حدثت به من الرخص، قال فقلت يارب أردتُ أن أُحببك إلى خلقك، قال قد غفرت لك. وحُدّثت عن مالك بن دينار أنه لقى أبّانا فقال إلى كم تُحدّث للناس بالرخص، فقال يا أبا يحيى إنى لأرجو أن ترى من عفو اللّه تعالى يوم القيامة ما تخرق له كساك هذا من الفرح. وفى حديث ربعىّ بن حرّاش عن أخيه وكان من خيار التابعين، وهو ممن تكلم بعد الموت، قال لمّا مات أخى سُجّى بثوبه وألقيناه على نعشه، فكشف الثوب عن وجهه واستوى قاعدا، وقال إنى لقيت ربى عز وجل فحيّانى بروْح وريْحان وربٍ غير غضبان، وإنى رأيت الأمر أيسر مما تظنون. وقال بكر بن سليمان دخلنا على مالك رحمه اللّه تعالى فى العشية التى قُبض فيها، فقلنا كيف تجدك، قال ما أدرى ما أقول لكم إلاّ أنكم ستعاينون غدا من عفو اللّه تعالى مالم يكن لكم فى

حساب، قال فما برحنا حتى أغمضناه ودفناه. ورؤى يحى بن أكثم فى النوم فقيل ما فعل الله تعالى بك، فقال أوقفنى بين يديّه وقال يا شيخ السوء فعلت وفعلت، قال فأخذنى من الرعب والفزع ما يعلم الله تعالى، ثم قلت يارب ما هكذا حُدّثتُ عنك، فقال وما حُدّثتُ عنى، فقلت حدثّنا عبد الرزاق عن معمّر عن الزهرى عن أنس بن مالك عن نبيّك صلّى الله عليه وسلم عنك، أنك قلت تباركت وتعاليتَ، أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ماشاء. وقد كنت أظن بك أن لا تعذبنى، فقال عزّ وجلّ صدَق نبيى، وصدق أنس، وصدق الزهرى، وصدق معمر، وصدق عبد الرزاق، وصدقت. قال فُغُلّفت وخُلِعَ علىّ، وأُلبست ومشَى بين يدَى الوِلدان إلى الجنة، فقلت يا لها من فرحة.

وفى الخبر أن رجلا من بنى إسرائيل كان يشدّد على الناس ويُقنطهم من رحمة الله تعالى، فيقول الله تعالى له يوم القيامة اليوم أؤ يّسك من رحمتى كما كنت تقنط عبادى منها. وفى الحديث أن رجلين تواخيا فى الله تعالى من بنى إسرائيل فكان أحدهما عابدا والآخر مسرفا على نفسه، فكان هذا العابد ينهاه ويزجره فيقول له دعنى وربى، أبُعثتَ علىّ رقيبا، حتى رآه ذات يوم علَى كبيرة فغضب، فقال لا يغفر الله لك، قال فيقول الله تعالى له يوم القيامة أتستطيع أن تحظر رحمتى على عبادى. إذهب فقد غفرت له. ثم قال للعابد وأنت فقد أوجبت لك النار، قال فوالذى نفسى بيده لقد تكلمت بكلمة أهلكت دنياك. وآخرتك. وروينا فى معناه أن لصاً كان يقطع الطريق أربعين سنة فى بنى إسرائيل، فمر عليه عيسى عليه السلام وخلفه عابد من عبّاد بنى إسرائيل من الحواريين، فقال اللص فى نفسه هذا نبى الله يمر وإلى جنبه حَواريه، لو نزلت فكنت معهما ثالثا، قال فنزل فجعل يريد أن يدنو من الحَوَارىّ، ويزدرى نفسه تعظيما للحوارى، ويقول فى نفسه مثلى لا يمشى إلى جنب هذا العابد، قال وأحس به الحوارى فقال فى نفسه هذا يمشى إلى جانبى، قال فضّم نفسه وتقّدم إلى عيسى عليه السلام فمشى إلى جانبه، فبقى اللص خلفه، قال فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام قل لهما يستأنفان العمل فقد أحبطتُ ما سلف من أعمالهما. أما الحوارى فقد أحبطتُ حسناته لعُجبه بنفسه، وأما الآخر فقد أحبطتُ سيآته بما ازدرَى على نفسه، قال فأخبرهما بذلك وضمّ اللص إليه فى سياحته وجعله من حَوارييه. وروينا عن مسروق بن الأجدع أن نبيا من الأنبياء كان ساجداً فوَطىء بعض العتاة على عنقه حتى ألْزَق الحصَى بجبهته، قال فرفع النبى عليه السلام رأسه مغضبًا، فقال اذهب فلن يغفر الله لك، قال فأوحى الله تعالى إليه

تتألىّ علىّ فى عبادى، إنى قد غفرتُ له. قال ابن عباس رضى الله عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يَقنتُ يدعو على المشركين ويلعنهم فى صلاته، فنزلت ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم إلى قوله ليس لك من الأمر شئ أو يتوب عليهم أو يعذبهم، قال فترك الدعاء عليهم، قال فهدَى الله تعالى عامة أولئك إلى الإسلام.

والأخبار فيما يوجب الرجاء وحُسن الظن أكثر من أن تُجمع، ولم نقصد جمعها وإنما دلّنا بقليل على كثير، ونبّهنا عقول نوى التبصير، وقد قال سبحانه وتعالى يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم، فنبّه العبد مع غِرّته على كرمه، وذكّره مع جهله حُسن تسويته إياه بتعديله يدّل على نعمته. وروينا عن الضحّاك إن العبد ليدنو من ربه تبارك وتعالى عند العَرْض فيقول عبدى أتحصىِ عملك، فيقول إلهى كيف أُحصيه من دونك وأنت حافظ للأشياء، فيذكّره الله تعالى جميع ذنوبه فى الدنيا فى ساعاتها، فيقول أنت عبدى فَقّر بما عرفتُك وذكّرتك، فيقول نعم سيْدى، فيقول الله سبحانه أنا الذى ستَرتها عليك فى الدنيا فلم أجعل للذنوب رائحة توجد منك، ولم أجعل فى وجهك شيْنها، وأنا أغفرها لك اليوم على ما كان منك بإيمانك بى، وتصديقك المرسلين. وروينا عن محمد بن الحنفية عن أبيه علىّ كرّم الله وجهه، قال لمّا نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاصفح الصفح الجميل، قال يا جبريل وما الصفح الجميل، قال يا محمد إذا عفوْت عمّن ظلمك فلا تعاتبه، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا جبريل فالله مع كرمه تعالى أوْلَى أن لا يُعاتِب مَنْ عفا عنه، قال فبكى جبريل وبكى النبى صلى الله عليه وسلم، فبعث الله عز وجل إليهما ميكائيل، فقال إنّ ربكما يُقرئكما السلام ويقول لكما كيف أعاتب مَنْ عفوْتُ عنه، هذا ما لا يشبه كرمى.

ومن الرجاء شدة الشوق إلى ما شوّق إليه الكريم، وسرعة التنافس فى كل نفَس ندَب إليه الرحيم. فأمّا الرجاء الذى هو همِّة جُملة الناس، من الإقامة فى المعاصى والانهماك فى الخطايا، وهو يرجو المغفرة وينتظر الكرامة، فليس هذا برجاء عند العلماء، لأن الرجاء مقام من اليقين وليس هذا وصف الموقنين، لأن هذا هو اغترار بالله تعالى، وغَفْلة عن الله تعالى، وجَهْل بأحكام الله تعالى. وقد تهدّد الله تعالى قوما ظنّوا مثل هذا وأصرّوا على حب الدنيا والرضا بها وتمنوْا المغفرة على ذلك، فسمّاهم خَلْفاً، والخَلْف الردىء من الناس، وتوعدّهم بشديد البأس فى قوله عز وجل فخلَف من بعدهم خَلْفٌ وَرِثُوا الكتاب يأخذون عَرَض هذا الأدنى ويقولون سيُغفر لنا.

والأخبار فى حقيقة الرجاء تزيد المغترّين اغترارا، وتزيد المستدرَجين بالستر والنعيم خَساراً. وهى مزيد للتوّابين الصادقين، وقُرة عيْن المحبين المخلصين، وسرورٌ لأهل الكرم والحياء، ورَوْح ارتياح لذوى العصمة والوفاء، يُنتفع به ويَشتد عنده حياؤهم، ويُروّح به كروبهم، وترتاح إليه عقولهم، فهؤلاء يَستخرج منهم الرجاء وحُسن الظن من العبادات ما لا يستروْحه الخوف، إذ المخاوف تقطع عن أكثر المعاملات، فصار الرجاء طريقا لأهله، وصاروا رائجين به كما قال عمر رضى الله عنه رَحِمَ اللّهُ صهيبا، لو لم يخف الله تعالى لم يعصه، أى يترك المعاصى للرجاء لا للخوف، فصار الرجاء طريقه، فهؤلاء هم الراجون حقا وهذه علامتهم، ولمثل هذا ذكرنا الأسباب التى توجب الرجاء، وتولّد حُسن الظن فى قلوب أهل الصفاء.

ومن الرجاء تحسين الأخلاق مع الخلْق، وجميل الصبر عليهم، وحُسن الصفح ولطيف المدارة لهم، تقرّباً إلى الله عز جل بذلك، وتخلّقاً بأخلاقه، رجاء ثوابه، وطمعا فى تنجيز وَعده، واتّباعا لسُنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومن الرجاء ترك الأهواء الرديئة والشهوات المُطغية، ومنه افتعال الطاعات وحُسن الموافقات، يَنوى بها، ويسأل مولاه الكريم عظيم الرغائب وجليل المواهب لما وُهب له من حُسن الظن به، كما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم إذا سألتم الله تعالى فأعظموا الرغبة وسلُوا الفردوس الأعلى، فإن الله عز وجل لا يتعاظمه شئ. وفى حديثٍ آخر فاكثروا وسلُوا الدرجات العُلى فإنما تَسألون جوادا كريما. وفى الآثار أن رجلين كانا من العابدين متساويين فى العبادة، فإذا دخلا الجنة رُفع أحدهما فى الدرجات العُلَى على صاحبه، فيقول الآخر يا رب ما كان هذا فى الدنيا بأكثر عبادة لك منى، فرفعتَه علىّ فى علِيّين، فيقول الله سبحانه وتعالى إنه كان يسألنى فى الدنيا الدرجات العُلَى، وكنت أنت تسألنى النجاة من النار، فأعطيت كل عبد سؤلَه.

وروينا فى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رجلا يخرج من النار فيوقف بين يدىّ الله تعالى، فيقول له كيف وجدت مكانك، فيقول يا رب شرّ مكان، فيقول ردُّوه إلى مكانه، قال فيمشى ويلتفت إلى ورائه فيقول الله عز جل إلى أى معنى تلَفّت، فيقول له يا رب قد رجوت أن لا تعيدنى إليها بعد إذ أخرجتنى منها، فيقول تعالى إذهبوا به إلى الجنة فقد صار الرجاء طريقه إلى الجنة، كما كان الخوف طريق صاحبه فى الدنيا إليها. كما روينا أنّ الآخر

سعى مبادراً إلى النار لمّا قال ربّه، فقيل له فى ذلك، فقال لقد ذقتُ من وَبال معصيتك فى الدنيا ما خِفتُ من عذابه فى الآخرة، فقيل اصرفوه إلى الجنة. وقال اللّه سبحانه فى وصف قوم أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب، ويرجون رحمته ويخافون عذابه، فطرق لأوليائه من القرب والوسيلة الرجاء، كما طرق الخوف منه إليها، وهذا أحد الوجهين فى الآية لمن لم يجعله وصفا للأصنام، لأنها قرئت بالتاء تدعون، قرأها طلحة بن مصرف، فكذلك نَدَب المؤمنين إلى طلب القرب منه فى قوله عز وجل يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللّه وابتغوا إليه الوسيلة.

فهذه جملة **أحكام الرجاء وأوصاف الراجين**، فمن تحقق بجميعها فقد استحق درجات أهل الرجاء، وهو عند اللّه تعالى من المقرّبين، ومن كان فيه وصف من هذه الأوصاف فله مَقام من الرجاء.

واعلم أن **مقامات اليقين** لا يزيل بعضها بعضا ولكن يندرج بعضها فى بعض، فمن غلَب عليه حال مشاهدته وُصِف بما غُلِبَ عليه واستمر بما سِوَىَ ذلك من المقامات فيه. ومَنْ عَمِلَ بشرط مقام منها، وقام بحكم اللّه تعالى فيه، نُقِلَ إلى ما سواه. وكان المقام الأول له علما، والثانى الذى أقيم فيه له وجداً، فكتم الوجْدَ لأنه سِرُّه، وعبّر عن العلم لأنه قد جاوزه فصار له علانية. ومقام الرجاء هو جُندٌ من جنود اللّه عز وجل يَستخرج من بعض العباد ما لا يستخرج غيره، لأن بعض القلوب تلين وتستجيب عن مشاهدة الكرم والإحسان، وتقبل وتطمئن بمعاملة النِعَم والإحسان، ما لا يوجِد ذلك منها عند التخويف والترهيب، بل قد يقطعها ذلك ويوحشها، إذ قد جعل الرجاء طريقها فوَجَدت فيه قلوبها.

ومثل الرجاء فى الأحوال مثل العوافى والغنى فى الإنسان، فمِن الناس من يُقبل قلبه ويَجتمع هَمّه عندهما، ويوجد نشاطه وتَحسُن معاملته بهما، كما روينا عن اللّه سبحانه وتعالى إن من عبادى من لا يصلحه إلاّ الغنى، ولو أفقرته لأفسده ذلك، ومن عبادى من لا يصلحه إلاّ الصحة، ولو أسقمته لأفسده ذلك. إنى أدبر عبادى بعلمى، إنى بهم خبير، فكذلك من عبادى من لا يصلحه إلاّ الرجاء، ولا يستقيم قلبه إلاّ عليه، ولا تحسُن معاملته إلاّ بوجود حُسن الظن، فهو طريقه إليه، ومقامه منه، ومنه علمه به، وعنده يجد قلبه معه. إلاّ أنه وإن كان طريقا يخرج إلى اللّه عز وجل فإن الخوف أقرب منه، وما كان أقرب فهو أعلى، كما أن الغنى والعوافى

طريقان إلى الله تعالى، إلاّ أن الفقر والبلاء عندى أقرب منهما وأعلى، والله غالب على أمره. وقد روينا عن معمر عن الحسن أنه قال إنما عَمل الناس على قدر ظنونهم بربهم، فأما المؤمن فأحسَنَ بالله الظن وأحسن العمل، وأما الكافر والمنافق فأساء بالله الظن ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

شرح مقام الخوف ووصف الخائفين وهو الخامس من مقامات اليقين

قال الله عزّ وجلّ وما يعقلها إلاّ العالمون،فرفع العلم على العقل وجعله مقاما فيه، وقد قال سبحانه وتعالى إنما يخشى الله من عباده العلماء فجعل الخشية مقاما فى العلم حققّه بها، والخشية حال من مقام الخوف، والخوف اسم لحقيقة التقوى، والتقوى معنى جامع للعبادة، وهى رحمة الله تعالى للأوّلين والآخرين، ينظم هذين المعنيين قوله تعالى يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون، وقوله تعالى ولقد وصّينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله، وهذه الآية قُطب القرآن مداره عليها. والتقوى السبب أضافه تعالى إليه تشريفاً له، ومعنى وصلّه به وأكرمَ عباده عليه تعظيماً له، فقال لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم، وقال إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم. وفى الخبر إذا جمع الله الأوّلين والآخرين لميقات يوم معلوم ناداهم بصوت يُسمع أقصاهم كما يُسمع أدناهم ، يقول يا أيها الناس إنى قد أنصتُّ لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا، فأنصتوا إلىّ اليوم فإما هى أعمالكم تُرَدّ عليكم. أيها الناس إنى جعلت نسَباً وجعلتم نسبا، فوضعتم نسبى. ورفعتم نسبكم، قلت إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم وأبيتم إلاّ فلان بن فلان أغنى من فلان، فاليوم أضع نسبكم وأرفع نسبى أين المتقون؟ قال فيُنصب للقوم لواء، فيتبع القوم لواءهم إلى منازلهم فيُدخلهم الجنة بغير حساب.

والخوف حال من مقام العلم وقد جمع الله تعالى للخائفين ما فرّقه على المؤمنين، وهو الهدى والرحمة والعلم والرضوان، وهذه جُمَل مقامات أهل الجِنان، فقال تعالى هُدىً ورحمة للذين هم لربهم يرهبون، وقال إنما يخشى الله من عباده العلماء، وقال جلّ ذكرُه رضى الله عنهم ورضوا عنه، ذلك لمن خشى ربه. وفى خبر موسى عليه السلام وأما الخائفون فلهم الرفيق الأعلى لا يشاركون فيه، فأفردهم من غير مشاركة بالرفيق الأعلى كما حققهم اليوم بشهادة التصديق، وهذا مقام من النبوّة، فهم مع الأنبياء فى المزيّة من قِبَل أنهم ورثة الأنبياء،

لأنهم هم العلماء، قال تعالى فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصدّيقين، ثم قال تعالى فى وصف منازلهم وحَسُنَ أولئك رفيقاً، بمعنى رفقاً، عبّر عن جماعتهم بالواحد لأنهم كانوا كأنهم واحد، وقد يكون رفيقاً فى الجنة لقول الرسول صلى الله عليه وسلم عند الموت،، وقد خُيّر بين البقاء فى الدنيا وبين القدوم على الله تعالى، فقال اسألك الرفيق الأعلى. وفى خبر موسى عليه السلام فأولئك لهم الرفيق الأعلى، فدلّ أنهم مع الأنبياء بتفسير النبى صلى الله عليه وسلم لذلك، وشرّف مقامهم فوق كل مقام لطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك.

فالخوف اسم جامع لحقيقة الإيمان، وهو علم الوجود والإيقان، وهو سبب اجتناب كل نَهىٍ ومفتاح كل أمر. وليس شئ يحرق شهوات النفوس فيزيل آثار آفاتها إلاّ مقام الخوف. وقال **أبو محمد سهل** رحمه الله تعالى كمال الإيمان العلم، وكمال العلم الخوف. وقال مرةً العلم كسْب الإيمان، والخوف كسب المعرفة. وقال **أبو الفيض المصرى** لا يُسقى المحب كأس المحبة إلاّ مِنْ بعد أن يُنضيج الخوف قلبه. وقال خوْف النار عند خوف الفراق بمنزلة قطرة قُطِرت فى بحر لجىّ، وكل مؤمن بالله تعالى خائف منه ولكن خوفه على قدر قُربه، فخوف الإسلام اعتقاد العزة والجبرية لله وتعالى وتسليم القُدرة والسطوة له، والتصديق لما أخبَر بهِ من عذابه وما تهدّد من عقابه. وقال **الفضيل بن عياض** إذا قيل لك تخاف الله فاسكتْ، لأنك إن قلت لا كَفَرت، وإنْ قلت نعم فليس وصفك وصف مَن يخاف. وشكا واعظ إلى بعض الحكماء فقال ألاَ ترى إلى هؤلاء أعظهم وأذكّرهم فلا يَرقّون، فقال وكيف تنفع الموعظة مَن لم يكن فى قلبه لله تعالى مخافة. وقد قال الله تعالى فى تصدّيق ذلك سيذّكر من يخشى ويتجنبها الأشقى، أى يتجنب التذْكّرة الشَقّى، فجعل من عدم الخوف شَقّيا وحَرَمه التذْكّرة. فخوف **عموم المؤمنين** بظاهر القلب عن باطن العلم بالعَقد، وخوف **خصوصهم** وهم الموقنون بباطن القلب عن باطن العلم بالوَجد، فأمّا **خوْف اليقين** فهو للصدّيقين من شهداء العارفين عن مشاهدة ما آمن به من الصفات المخوفة.

وأول خوف اليقين الموصوف الذى هو نعت الموصوفين من المؤمنين المحاسبة للنفس فى كل وقت، والمراقبة للرب فى كل حين، والورع عن الإقدام على الشُبهات من كل شئ من العلوم بغير يقين بها، ومن الأعمال بغير فِقْه فيها. وفى خبر **موسى عليه السلام** وأما الورعون فإنه

لا يبقى أحد إلا ناقشتُه بالحساب وفتشتُه عمّا فى يدّيه إلاّ الورعين فإنى استحييهم وأُجلّهم أن أوقفهم للحساب. فالورع حال من الخوف، ثم كف الجوارح عن الشبهات وفضول الحلال من كل شىء بخشوع قلب ووجود إخبات، ثم سجن اللسان وخزن الكلام لئلا يدخل فى دين اللّه عز وجل، ولا فى العلم مالم يشرعه اللّه فى كتابه، أو لم ينكره رسوله صلى اللهّ عليه وسلم فى سنته، أو لم ينطق به الأئمة من السلَف فى سيَرهم مما لم يكن أصله موجوداً فى الكتاب والسنة، وتسميته واضحة فى العلم، فيجتنب ذلك كله، ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم خوفاً من المساطة، ولا يدخل فيه لدقيق هوى يدخل عليه، ولا لعظيم حظ دنيا يدخل فيه، وأن ينصح نفسه للهّ تعالى لأنها أولى الخلق، ثم ينصح الخلْق فى اللّه تعالى، فيبتدىء بالنصح فى أمور الدين والآخرة، ثم يعقبه فى أسباب الدنيا، لأن أمور الآخرة أهمّ، والغش فى الدين أعظم، والتزوّد للمنقلب أثر. وروينا عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال من غشّ أمتى فعليه لعنة اللّه، قيل وما غش أمتك يارسول، قال أنْ يبتدع لهم بدعة فيُتّبع عليها، فإذا فعل ذلك فقد غشّهم.

وثمرة الخوف العلم باللّه عز وجل، والحياء من اللّه عز وجل، وهو أعلى سريرات أهل المزيد، يستبين أحكام ذلك فى معنيين هما جملة العبد، أنْ يحفظ رأسه وما حواه من السمع والبصر واللسان، وأنْ يحفظ بطنه وما وعاه وهو القلب والفرْج واليد والرجل، وهذا **خوف العموم** وهو أول الحياء، فأمّا **خوف الخصوص** فهو أنّ لا يجمع مالا يُأكل، ولا يبنى مالا يُسكن، ولا يكاثر فيما عنه ينتقل، ولا يغفل ولا يُفرّط عمّا إليه يرتحل، وهذا هو الزهد، وهو حياء مزيد أهل الحياء من تقوى أصحاب اليمين.

وأعلى الخوف أنْ يكون قلبه معلقا بخوف الخاتمة لا يسكن إلى علم ولا عمل، ولا يقطع على النجاة بشىء من العلوم وإنْ علت، ولا لسبب من أعماله وإن جلّت، لعدم علمه تحقيق الخواتم، فقد قيل إنما يوزن من الأعمال خواتمها. وعن النبى صلى اللّه عليه وسلم أن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى يقال إنه من أهل الجنة، وفى خبر حتى ما يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر، ثم يسبق عليه الكتاب فيُختم له بعمل أهل النار. ولا يتأتى فى هذا المقدار من الوقت شىء من عمل الجسم بالجوارح، إنما هو من أعمال القلوب بمشاهدة العقول، وهو شرِك التوحيد الذى لم يكن متحققا به، وشك فى اليقين الذى لم يكن فى الحياة الدنيا مشاهداً له فظهر له بيان ذلك عند كشف الغطاء، فغلب عليه وصفه وبدت فيه حاله، كما يظهر

له أعماله السيئة فيستحليها قلبه، أو ينطق بها لسانه، أو يخامرها وَجْده، فتكون هى خاتمته التى تخرج عليها روحه، وذلك فى سابقته التى سبقت له من الكتاب كما قال تعالى أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب، تكون عند مفارقة الروح من الجسد، وإنّالموفوهم نصيبهم غير منقوص. وقد جاء فى خبر حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلاّ فُواق ناقة فيُختم له بعمل أهل النار، وهذا يكون عند بلوغ الروح التراقى، وتكون النفس قد خرجت من جميع الجسد واجتمعت فى القلب إلى الحلقوم، فهذا هو شِبْر، وفُواَق ناقة هو ما بين الحلبتين، وقيل هو شَوْط من عَدْوِها بين سيْرِيْن، وهذا من تقلبات القلوب عند حقيقة وجهة التوحيد إلى وجهة الضلال والشرك، عندما يبدو له من زوال عقل الدنيا وذهاب علم المعقول، فيبدو له من اللّه مالم يكن يحتسب. وأكثر ما يقع سوء الخاتمة لثلاث طوائف من الناس - **أهل البدع والزيغ فى** الدين لأن إيمانهم مرتبط بالمعقول، فأول آيه تظهر لهم من قدرة اللّه تعالى أن يطيخ عقله عند شهودها، فيذهب إيمانه ولا يثبت لمعاينتها، كما تحترق الفتيلة فيسقط المصباح، **والطبقة الثانية أهل الكبر والإنكار** لآيات اللّه عز وجل وكراماته لأوليائه فى الحياة الدنيا لأنهم لم يكن لهم يقين يمده الإيمان، فيعتورهم الشك ويَقوَى عليهم لفقد اليقين، **والطبقة الثالثة** ثلاثة أصناف متفرقون متفاوتون فى سوء الخاتمة وجميعهم دون تَيْنك الطائفتين فى سوء الخاتمة، لأن سوء الختم على مقامات أيضا كمقامات اليقين والشرك فى عمر الحياة، منهم **المدّعى المتظاهر** الذى لم يزل إلى نفسه وعمله ناظرا، **والفاسق المعلِن، والمُصِرّ المدمن**، يتصل بهم المعاصى إلى آخر العمر، ويدوم تقلبهم فيها إلى كشف الغطاء، فإذا رأوا الآيات تابوا إلى اللّه تعالى بقلوبهم، وقد انقطعت أعمال الجوارح فليس يتأتى منهم، فلا تقبل توبتهم، ولا تُقال عثرتهم، ولا تُرحم عبرتهم، وهم من أهل هذه الآية وليست التوبة للذين يعملون السيآت حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن، فهم مقصودون بقوله عز وجل وحيل بينهم وبين ما يشتهون، وهم معنيون بمعنى قوله تعالى فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا باللّه وحده، فنصوص الآية للكفار، ومعناها ومقام منها لأهل الكبائر وذوى الإصرار من الفاسقين الزائغين من حيث اشتركوا فى سوء الخاتمة، ثم تفاوتوا فى مقامات منها تُظهر لهم شهوات معاصيهم، ويعاد عليهم تذكّرها لخلو قلبهم من الذكر والخوف، حتى يُختم لهم بشهادتها، فهذه الأسباب تُجنّب الخوف وتقطع قلوب ذوى الألباب.

وقد كان أبو محمد سهل رحمه الله يقول المريد يخاف أنْ يُبتلى بالمعاصى، والعارف يخاف أن يبتلى بالكفر وكذلك قال أبو يزيد رحمه الله تعالى قبله إذا توجهتُ إلى المسجد كان فى وسطى زنار أخاف أن يذهب بى إلى البيْعة وبيت النار، حتى أدخل المسجد فيُقطع عنى الزنار، فهذا لى فى كل يوم خمس مرات... هَذا لعلمهم بسرعة تقلب القلوب فى قُدرة علاّم الغيوب. وقد روينا معنى ذلك عن عيسى عليه السلام أنه قال يا معشر الحَواريين، أنتم تخافون المعاصى، ونحن معشر الأنبياء نخاف الكُفر. وقد كان عبد الواحد بن زيد إمام الزاهدين يقول ما صَدَق خائف قط ظن أنه لا يدخل النار، وما ظن أن يدخل النار إلاّ خاف أن لا يخرج منها أبداً.

ويدخل الخوف على العارفين من طريق الإلحاد فى التوحيد والتشبيه فى اليقين والوسوسة فى صفات الذات، ويدخل على المريدين من طريق الآفات والشهوات، فلذلك كان خوف العارفين أعظم، فأرواحهم معلقة بالسابقة، ماذا سبق لهم من الكلمة هناك، ومن ثم فزعهم لا يدرون أسبق لهم قَدَم صدق عند ربهم فيُختم لهم بمقعد صدْق، فيكونون ممن قال تعالى إن الذين سبقت لهم منا الحُسنى أولئك عنها مبعدون، ويخافون أن يكونوا قد حقّت عليهم الكلمة، فيكونون ممن قال فيهم الرسول صلّى الله عليه وسلم بقول الله سبحانه وتعالى هؤلاء فى النار ولا أبالى، فلا ينفعهم شفاعة شافع، ولا ينقذهم من النار دافع، كما قال مولاهم الحق أفَمن حقّت عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ مَنْ فى النار، وكقوله تعالى ولكن حقّ القول منى لأملأن جهنم، فهذه الآية ومعناها تخويف لأولى الأبصار. وقال عالمنا رحمه الله فى قوله تعالى وإياى فاتقّون، عموم أى فيما نهيت عنه، وقوله تعالى وإياى فارهبون، أى فى السابقة وهذا خصوص. وقد نوّع بعض العارفين خوف المؤمنين على مقامين، فقال قلوب الأبرار معلّقة بالخاتمة، يقولون ليت شعرى ماذا يختُم لنا به، وقلوب المقرّبين معلّقة بالسابقة، يقولون ليت شعرى ماذا سبق لنا به، وهذان المقامان عن مشاهدتين إحداهما أعلى وأنفذ من الأخرى، لحالين أحدهما أتم وأكمل، فهذا كما قيل ذنوب المقربين حسنات الأبرار، أى ما يرغب فيه الأبرار فهو عندهم فضائل قد زهد فيه المقرّبون، فهو عندهم حجاب. ومن حقّت عليه كلمة العذاب، وسبَق له من مولاه الختم بسوء الاكتساب لم ينفعه شىء، فهو يعمل فى بِطالة لا أجر له ولا عاقبة. وقد روينا فى الخبر واللهِ لا يقبل اللّهُ تعالى من مبتدع عملاً أنه ردّ على الله تعالى سُنّته فردّ عليه عمله، كلما ازداد اجتهادا ازداد من الله تعالى بُعدا، كما قال الحكيم:

مَن غُصَّ داوىَ بشُرب الماء غصته * بل كيف يصنع مَنْ أقصاه مالكُه

فكيف يصنع من قد غص بالماء * فليس ينفعه طبُ الأطبـــاء

وعن مشاهدة هذا المعنى كان خوف **الحسن البصرى** رحمه الله تعالى، وحزنه، لعلمه بأنه عزّ وجّل لا يبالى ما فعل، فخاف أن يقع بوصف الجبرية فى ترك المبالاة، وأن يجعله نَكالا لأصحابه وموعظةً لأهل طبقته، ويقال إنه ما ضحك أربعين سنة، وكنت إذا رأيته قاعداً كأنه أسير قَدِمَ ليُضرَب عنقُه، وإذا تكلم كأنه يعاين الآخرة فيخبر عن مشاهدتها، وإذا سكت كأن النار تسعّر بين عينيه. وعوتب فى شدة حزنه فقال ما يؤمننى أن يكون قد اطّلع علىّ فى بعض ما يكره فمقّتنى فقال اذهَب فلا غفرتُ لك، فأنا أعمل فى غير معمل. فنحن أحق بهذا من الحَسَن رحمه الله، ولكن ليس الخوف يكون لكثرة الذنوب فلو كان كذلك لكنا أكثر خوفا منه، إنما يكون لصفاء القلب وشدّة التعظيم لله تعالى. وقد بُشِّر **العلاء بن زياد العدوى** بالجنة وكان من العبّاد، فغلّق عليه بابه سبعاً ولم يذق طعاما وجعل يبكى ويقول أنا أنا فى قصة طويلة، حتى دخل عليه الحسن فجعل يعذله فى شدة خوفه وكثرة بكائه، فقال يا أخى من أهل الجنة إن شاء الله تعالى، أقاتَلٌ نفسك؟ فما ظنك برجل يعذله الحسن فى الخوف؟ وقد كان مَن فوقهم مِن علْية الصحابة يتمنون أنهم لم يُخلقوا بشراً وقد بُشِّروا بالجنة يقينا فى غير خبر. من ذلك قول **أبى بكر** رضى الله عنه ليتنى مثلك يا طير، وأنى لم أُخلق بشراً، وقول **عمر** رضى الله عنه ودَدتُ أنى كنتُ كبشاذبحنى أهلى لضيفهم، **وأبوذر** رضى الله عنه يقول وددتُ أنى شجرة تعضد، **وطلحة والزبير** رضى الله عنهما يقولان وددنا أنألم نخُلق، **وعثمان** رضى الله عنه يقول وددت أنى إذا مت لا أُبعث، **وعائشة** رضى الله عنها تقول ودِدْت أنى كنت نسياً منسيا، **وابن مسعود** رضى الله عنه يقول ليتنى أنى أكون رمادا. وفى رواية عنه ليتنى كنت بعرة، ليتنى لم أك شيأ! هذا ما كان من أمر هؤلاء بينما نحن فى ارتكاب الكبائر، وتحدثنا نفوسنا بالدرجات العلى والقُرب من سدرة المنتهى، ونسينا أن أبانا آدم صلوات الله عليه أُخرج من الجنة بعد أن دخلها بذنب واحد. وها نحن لم نرها بعد فإنما نضرب فى حديد بارد!

وروينا فى خبر أن رجلا من أهل الصُفّة استُشهد فقالت أمه هنيأً لك عصفور من عصافير الجنة، هاجرتَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقُتلتَ فى سبيل الله تعالى، فقال النبى

صلى اللّه عليه وسلم وما يدريك فلعله كان يتكلم فيما لا يعنيه ويمنع مالا يضره. وفى حديث آخر بمثل هذه القصة أنه دخَل على بعض أصحابه وهو عليل، فسمع أمه تقول هنيأً لك الجنة، فقال من هذه المُتألّية على اللّه عز وجل، فقال الرجل هى أمى يا رسول الله، فقال وما يدريك لعل فلاناً كان يتكلم بما لا يعنيه ويبخل بما لا يُغنيه. وروينا بمثل معنى هذا أن النبى صلى اللّه عليه وسلم صلّى على طفل منفوس، ففى رواية أنه سُمع يقول له فى دعائه.. اللّهم قِه عذاب القبر وعذاب جهنم. وفى رواية ثانية أنه سَمَع قائلةً تقول هنيأ لك عصفورٌ من عصافير الجنة، فغضب وقال ما يدريك أنه كذلك، واللّه إنى رسول اللّه وما أدرى ما يصنَع بى. إن اللّه عزّ وجّل خلَق الجنة وخلَق لها أهلاً، وخلق النار وخلق لها أهلاً. لا يُزاد فيهم ولا يُنقص منهم. وقد قاله رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فى جنازة عثمان بن مظعون، وكان من المهاجرين الأوَل واستشُهد، لمّا قالت أم سلَمة رضى اللّه عنها ذلك. وكانت تقول واللّه لا أزكّى أحدا بعد عثمان رضى اللّه عنه. وأعجب من ذلك أنّا روينا عن **محمد بن الحنفية** رضى اللّه عنه أنه قال واللّه لا أزكّى أحدا غير رسول اللّه عليه وسلم، ولا أبى الذى ولدنى.

فهذه المعانى هى التى أحرقت قلوب الخائفين. ولعل ذِكْر البُعد فى الإبعاد الذى شيّب الحبيب القريب فى قوله صلى اللّه عليه وسلم شيبّتنى هود وأخواتها، سورة الواقعة، واذا الشمس كوّرت، وعمّ يتساطون. لأن فى سورة **هود** ألا بُعْداً لثمود. ألاَ بعُداً لعاد قوم هود. ألاَ بُعداً لمدين كما بَعُدت ثمود. وفى سورة **الواقعة** ليس لوقعتها كاذبة، يعنى وقَعَت السابقة لمن سبقت له وحقّت الحاقّة بمن حقّت عليه. خافضةٌ رافعة، خفضّت قوما فى الآخرة كانوا مرفوعين فى الدنيا حين ظهرت الحقائق، وكُشفت عواقب الخلائق. وأما سورة **التكوير** ففيها خواتم المصير، وهى صفة القيامة لمن أيقن، وفيها تَجلّى معانى الغضب لمن عاين. آخر ذلك وإذا الجحيم سُعرت، وإذا الجنة أُزلفت، علمت نفس ما أحضرت، هذا فصل الخطاب، أى عند تسعير النيران واقتراب الجنان، حينئذ يتبين للنفس ما أحضرت من شر يصلح له الجحيم، أو خير يصلح له النعيم، وتعلم إنذاك من أى أهل الدارين تكون، وفى أى منزلين تحل، فكم من قلوب قد تقطّعت حسرات على الإبعاد من الجنان بعد اقترابها، وكم من نفوس تصاعدت زفرات عن يقينها بمعاينة النيران أنها تصيبها. وكم من أبصار ذليلةٍ خاضعة لمشاهدة الأهوال. وكم من عقول طائشة لمعاينة الزلزال.

وحُدّثنا عن **أبى محمد سهل** رحمه اللّه تعالى، قال رأيت كأنى أُدخلت الجنة فلقيت فيها ثلثمائة نبى،فسألتهم ما أخوف ما كنتم تخافون فى الدنيا، فقالوا لى **سوء الخاتمة**، فالخاتمة هى من مكر اللّه تعالى الذى لا يوصف ولا يُفطن له، ولا عليه يوقف. ولا نهاية لمكره لأن مشيئته وأحكامه لا غاية لها. ومن ذلك الخبر المشهور أن النبى صلى اللّه عليه وسلم وجبريل بكيا خوفاً من اللّه تعالى، فأوحى اللّه إليهما لِمَ تبكيان وقد أمّنتكما، فقالا ومَن يأمن مكرك. فلولا أنهما علما أن مكره لا نهاية له، لأن حكمه لا غاية له، لم يقولا ومن يأمن مكرك مع قوله قد أمّنتكما،ولكان قد انتهى مكره بقوله، ولكانا قد وقفا على آخر مكره، ولكن خافا من بقية المكر الذى هو غيْب عنهما. وعلما أنهما لا يقفان على غيْب اللّه تعالى إذ هو علاّم الغيوب، فلا نهاية للعلاّم فى علم، ولا غاية للغيوب بوصف، فكأنهما خافا أن يكون قوله تعالى قد أمّنتكما مكرى مكراً منه أيضا بالقول على وصف مخصوص، عن حكمة قد استأثر بعلمها، يختبر بذلك حالهما، وينظر كيف يعملان تعبُّداً منه لهما به، كما اختبر خليله عليه السلام لمّاهوى به المنجنيق فى الهواء فقال حسبى اللّه ربى، فعارضه جبريل عليه السلام فقال ألك حاجة، قال لا، وفاءً بقوله حسبى اللّه، فصدق القول بالعمل، فقال اللّه تعالى وإبراهيم الذى وفىّ، أى بقوله حسبى اللّه. وبمثل هذا المعنى وصَف صفيّه موسى فى قوله تعالى فأوجس فى نفسه خيفةً موسى، بعد قوله تعالى لا تخافا إننى معكما الآية، فلم يأمن موسى أن يكون قد أسرّ عنه فى غيبه واستثنى فى نفسه سبحانه مالم يظهره له فى القول، لمعرفة موسى عليه السلام بخفّى المكر، ولعلمه أنه لم يعطه الحُكم إذ هو محكوم عليه مقهور، فخاف خوفاً ثانياً حتى أمّنه أمناً ثانيا بحكم ثان فقال لا تخف إنك أنت الأعلى، فاطمأن إلى القائل، ولم يسكن إلى الإظهار الأول لعلمه بسَعة علمه أنه هو علاّم الغيوب التى لا نهاية لها، ولأن القول أحكام، والحاكم لا تحكم عليه الأحكام، كما لا تعود عليه الأحكام، وإنما تُفصّل الأحكام من الحاكم العلاّم، ثم تعود على المحكومات أبداً، ولأنه جلّت قدرته لا يلزمه ما لزم الخلق الذين هم تحت الحكم، ولا يدخل تحت معيار العقل والعلم، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا عند من عرفه فأجلّه وعظّمه عن معارف مَن جَهله. ومِن هذا قول عيسى عليه السلام إن كنت قلتُه فقد علمتَه تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك، لمّا قال له أأنت قلتَ للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون اللّه. ومثل هذا قوله فى يوم القيامة إنْ تعذبهم فإنهم عبادك الآية، فجعلهم فى مشيئته لعزّته وحِكمته. ولا يصلح أن نكشف حقيقة ما فصّلناه فى كتاب، ولا ينبغى أن نرسم مارمزناه من الخطاب،

خشية الإنكار، وكراهة تفاوت علم أهل المعقول والمعيار، إلاّ أن يَسأل عنه من أُقيم فيه وأُريد به من نوى القوة والإبصار، فينُقل من قلب إلى قلب فحينئذ يتلوه شاهدٌ منه، أو يكشفه علاّم الغيوب فى سرائر القلوب بوحى الإلهام، ويقذفه بنور الهدى للإعلام، واللّه الموفق لمن شاء من العباد لما شاء من الحيْطة بالعلم، وهو الفتاّح العليم إذا فتح القلبَ علمُه، وإذا نوّره باليقين وألهمه.

ومَنْ خَوف العارفين علمُهم بأن اللّه تعالى يخوّف عباده بمن شاء من عباده الأعلين، يجعلهم نَكالا للأدنين، ويُخوّف العموم من خلقه بالتنكيل ببعض الخصوص من عباده، حكمةً له وحُكما منه،فعند الخائفين فى علِمهم أن اللّه تعالى قد أخرج طائفة من الصالحين نَكالا خوّف بهم المؤمنين، ونكل طائفة من الشهداء خوّف بهم الصالحين،وأخرج جماعة من الصدّيقين خوّف بهم الشهداء، واللّه تعالى أعلم بما وراء ذلك، وقد أخرج جماعة من الملائكة وعَظَ بهم النبيّين، خوّف بهم الملائكة المقربين، فصار من أهل كل مقام عِبرة لَمن دونهم، وموعظة لمن فوقهم، وتخويف وتهديد لأولى الأبصار، وهذا داخل فى بعض تفسير قوله عز وجل آتيناه آياتنا فانسلخ منها، قال بعض أهل التفسير فى أخبار بلعم بن باعوراء أنه أوتى النبوة، والمشهور أنه أوتى الاسم الأكبر فكان سبب هلاكه، وهو مقتضى وصفٍ من أوصافه، وهو ترك المبالاة بما أظهر من العلوم والأعمال، فلم يسَكن عند ذلك أحد من أهل المقامات فى مقام، ولا نظَر أحد من أهل الأحوال إلى حال، ولا أمِنَ مكر اللهّ تعالى عالمٌ به فى كل حال. كيف وقد سمعوه تبارك وتعالى يقول إن عذاب ربهم غير مأمون، فأجهل الناس مَنْ أمِنَ غيَر مأمون، وأعلمُهم مَنْ **خاف فى الأمن** حتى يَخرج من دار الخوف إلى مقام أمين، وهذا خوفٌ لا يقوم له شىء، وكربٌ لا يوازيه مقام ولا عمل، ولولا أن الله تعالى عدّله بالرجاء لأُخرِج إلى القنوط، ولولا أنهّ روّحه بروْح الأنس بحُسن الظن لأدُخل فى الإياس، ولكن إذا كان هو المعُدِّل وهو المروِّح، فكيف لا يعتدل الخوف والرجاء، ولا يمتزج الكرب بالروْح فالرضا؟ حكمةٌ بالغة وحُكمٌ نافذٌ لعلم سابق وقَدَرٍ جارٍ ما شاء اللّه تعالى، ولا قوة إلاّ باللّه. وفى شهود ماذكرناه علمٌ عن مشاهدة توحيد لمن أشُهده. فأقل ما يفيد علم هذا الخائفين ترك النظر إلى أعمالهم، ورفع السكون إلى علومهم، وصِدْقَ الافتقار فى كل حال. ودوام الانقطاع بكل همّ، والإزراء على النفس فى كل وصف، وهذه مقامات لقوم فيكون هذا الخوف سبب نجاتهم من هذه الوقائع، إذ قد جعل اللّه تعالى التخويف أمْنةً من الأخذ بالمفاجأة، وسبباً للرأفة والرحمة لمن ألبسه

إياه، وهو أحد الوجهين فى قوله تعالى أَفَأَمِنَ الذين مكروا السيآت أنْ يخسف اللّه بهم الأرض الآية، ثم قال تعالى أو يأخذهم على تخوّف فإن ربكم لرؤف رحيم. وليس يصلح أيضا أن نكشف سر المخاوف من الخاتمة والسابقة، لأن ذلك يكون عن حقائق معانى الصفات التى ظهرت عن حقيقة الذات فأظهرت بدائع الأفعال.

هذا غير مأمور به ولا مأذون فيه، لأنه لا يجب فلم يؤمر به، ولأنه لم يُبَح فلم يؤذَن فيه، وهو من سر القَدَر وقد نُهى عن إفشائه فى غير خبر، ولو لم يطّلع الأولياء عليه لما قيل، فلا تفشوه.

ولا يحل للعلماء أيضا كشف **علامات سوء الخاتمة** فيمن رأوها فيه لأن لها علامات جلية عند المكاشفين بها، وأدلة خفية عند العارفين المشرف بهم عليها، ولكنها من سر المعبود فى العبد خبيئةٌ فى خزائن النفوس، وسيخرج ذلك الخباء يوم تُبلى السرائر عند غضبه وعظيم سطوته، فماله من قوةٍ من عمل ولا ناصر من علم، لا قوّة له فينتصر بها لأن النصرة عزة وهو ذليل، ولا ناصر لأن الناصر هو الخاذل والمقوّى هو المضعف، فما أسوأ حال من لا ينصر نفسه وليست له من مولاه صحبة، ولو صحبه لنصره، ولو نصره لأعزّه، ولو وَليه لهرب منه عدوّه، قال تعالى لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منها يُصحبون، وقال تعالى قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض الآية، فمن حكمته غَفَره، ومن رحمته سَتَره، وقال تعالى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون، فهذه العلوم التى ذكرناها توجب حقائق المخاوف، وهى من سر الملك وخِباء الملكوت .

وللعبد عند الموت علامات ليس يخفى على العارف بسوء الخاتمة بها لمشاهدته لها، وللأحياء علامات عند المكاشفين على الاطلاع يعرفون بها سوء الخاتمة منهم، وهذا علم مخصوص بمن أقيم مقام المكاشفات وهو سرّ علاّم الغيوب عند من أطلعه عليه من أهل القلوب، لأن الكشف يتنوّع أنواعاً من المعانى، فمنه كشف معانى الآخرة، ومنه كشف بواطن الدنيا، ومنه الاطّلاع على حقائق الأشياء المستورة لظواهر الأحكام، فهذا من سر الملكوت ومن معانى كشوف الجبروت. وقد جاء فى خبر القدرُ سرُّ اللّه فلا تفشوه، فهذا خطاب لمن كوشف به. وفى خبر آخر سِتْرُ اللّه فلا تكشفوه، فهذا خطاب لمن لم يكُاشف به، وهذا نهى عن السؤال عنه، وهو داخل فى قوله تعالى ولا تَقْفُ ماليس لك به علم، أى لا تتبع نفسُك علَم ما لم تُكلّف، ولا تسأل عمّا لم يُجعل من علمِك ولم يوكل إليك، ولأنه إذا علِمه لم ينفعه علمُه شيأ،

وإنما ينفعه علم الأحكام والأسباب لأنها طرقات. وبمثل مخاطبة المؤمنين خاطب أنبياءه عليهم السلام في هذا المعنى، في قوله تعالى لنوح عليه السلام حين قال إن ابني من أهلي وإن وعْدَك الحق، لأنه قد كان وعَدَه نجاة أهله، فقال سبحانه وتعالى إنه ليس من أهلك، إنه عمل غير صالح، فلا تسألني ماليس لك به علم، أي دعاءك ومسألتك لي مالم أجعله من علمك ولم أكِلْهُ إليك عَمَلٌ غير صالح، فعندها استغفر ربه واسترحمه.

والعبد عند موته في آخر ساعة من عمره يُكشف له عند كشف الغطاء عن بصره وجوه كثيرة قد اتخذت آلهة من دون الله أو أشرك بها مع الله تعالى، وكلها تزيين وغرور، فإنْ وقف القلب مع أحدها، أو زُيِّن له بعضها، أو تقلّب قلبه في شيء منها عند آخر أنفاسه، خُتِم له بذلك فخرجت روحه على الشك أو الشرك، وهذا هو سوء الخاتمة، وهو نصيب العبد من الكتاب في السابقة، عند خلق الأرواح معدومةً لها في الأشباح في الآباد والآزال قبل إظهار الأكوار والأدوار، فشهدتها الأرواح هناك غرورا ومن ذلك جاء في الأثر يأخذ ملَكَ الأرحام النُطفة في يده فيقول يا رب أذكرٌ أم أنثى، أسَوّى أم مُعْوّج، ما رزقُه وما عمله، ما أثرُه، وما خُلُقه ؟ قال ثم يخلق الله تعالى على يده كما قال، فإذا صوّره قال يارب أنفخ فيه بالسعادة أو بالشقاوة؟ فلذلك خرجت الروح بما دخلت به، فأما إنْ كان من المقربين فروْح وريحان وجنةُ نعيم، وأمّا إنْ كان من أصحاب اليمين فسلامٌ لك من أصحاب اليمين، وأمّا إنْ كان من المكذّبين الضّالين فنُزلٌ من حميم وتصلْيةُ جحيم، كما بدأ كم تعودون، فريقاً هدى وفريقا حقّ عليهم الضلالة، كما بدأنا أوّل خلق نعيده، ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني، وقال سبحانه وتعالى إن الذين سبقت لهم منا الحسنى، إنّ الذين حقّت عليهم كلمةُ ربك، ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس، ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون، وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون، إن في هذا لبلاغا لقوم عابدين. فهذه الآى ونظائرها وردت في السوابق الأُوَل والخواتم الأُخَر، وفيها سرائر الغيوب وغرائب الفهوم، وهي من آى المطلع لأهل الأشراف على شرفات العرش والأعراف.

وقال بعض العارفين لو علمتُ أحداً على التوحيد خمسين سنة، ثم حالت بيني وبينه اسطوانة فمات، لم أقطع له بالتوحيد لأني لا أدري ما ظهر من التقليب. وقد كان أبو محمد سهل رحمه الله يقول خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل حركة وكل خطرة وهِمّة،

يخافون البعد من الله تعالى وهم الذين مدح الله تبارك وتعالى وقلوبهم وجلة. وقال لا يصح خوفه حتى يخاف من الحسنات كما يخاف من السيآت. وقال أيضا أعلى الخوف أن يخاف سابق علم الله تعالى فيه، ويحذر أن يكون منه حدث خلاف السنّة يجرّه إلى الكفر. وقال خوف التعظيم ميزان خوف السابقة. وكان بعض العارفين يقول لو كانت الشهادة على باب الدار، والموت على الإسلام عند باب الحجرة، لاخترت الموت على الشهادة، قيل ولِمَ، قال لأنى لا أدرى ما يعرض بقلبى من المشاهدة فيما بين باب الحجرة وباب الدار فيغير التوحيد.

وروينا عن **زهير بن نعيم البانى** قال ما أكبر همى ذنوبى، إنما أخاف ماهو أعظم علىّ من الذنوب وهو أن **أسلب التوحيد** وأموت على غيره. وروى ابن المبارك عن أبى لهيعة عن **بكر بن سوادة** قال كان رجل يعتزل الناس، أينما كان يكون وحده، فجاء أبو الدرداء فقال أنشدك الله تعالى ما يحملك على أن تعتزل الناس، قال إنى أخشى أن أُسلب دينى وأنا لا أشعر، قال أترىَ فى الحىّ مائة يخافون ما تخاف، فلم يزل يُنقص حتى بلغ عشرة، قال فحدثت بذلك رجلا من أهل الشام، فقال ذلك شرحبيل بن سمط، يعنى من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم. وقد كان **أبو الدرداء** يحلف بالله تعالى ويقول ما أحدٌ أمنَ على إيمانه أن يُسلَبه عند الموت إلا سُلِبه. وقد كان بعض علمائنا يقول من أُعطىَ التوحيد أُعطَيَ بكماله، ومن مُنِعه مُنِعه بكماله، إذ التوحيد لا يتبعض. ولمّا احتضرّ **سفيان الثورى** رضى الله عنه جعل يبكى، فقيل له يا أبا عبد الله عليك بالرجاء فإن عفو الله أعظم من ذنوبك، فقال أوَ علّى ذنوبى أبكى؟ لو علمت أنى أموت على التوحيد لم أُبال أن ألقى الله تعالى بأمثال الجبال من الخطايا. وقال مرة ذنوبى أهون من هذه، ورفع حبةً من الأرض، إنما أخاف أنْ أُسلب التوحيد فى آخر الوقت. وقد كان رحمه الله أحد الخائفين، وكان يبول الدم من شدة الخوف، وكان يمرض المرْضَة من المخافة، وعُرِض بوْله على بعض الكتابين فقال هذا بوْل راهب من الرهبان، وكان يلتفت إلى حمّاد بن سلَمة فيقول يا أبا سلمة ترجو لمثلى العفو أوَ يُغفر لمثلى، فيقول له حمّاد نعم أرجو له. وقد كان بعض العلماء يقول لو أنىّ أيقنتُ أن يُختم لى بالسعادة كان أحب إلىّ مما طلعت عليه الشمس فى حياتى أجعله فى سبيل الله تعالى. وحدثنى بعض إخوانى عن بعض الصادقين وكان خائفاً، أنه أوصى بعض إخوانه فقال، إذا حضرتنى الوفاة فاقعدْ عند رأسى، فإذا عاينتُ فانظر إلىّ فإنْ رأيتنى متُّ على التوحيد فاعمد إلى جميع ما أملكه فاشتر به لوْزاً وسُكّراً وانثره على صبيان أهل المدينة، وقل هذا عُرْس المُنفلت. وإن

رأيتنى متّ على غير التوحيد فأعْلِم الناس أنى قد متّ على غير التوحيد حتى لا يغترّوا بشهود جنازتى، ليَحضر جنازَتى من أحبّ على بصيرة، لئلا يلحقنى الرياء فأكون قد خدعتُ المسلمين. قال فنفّذت وصيته كما أمر، ولم أحدّث بذلك إلاّ خصوص إخوانى من العلماء، وذلك أن العبد مهما عمل فى حياته من سوء أعيد نِكْره عليه عند فراق الحياة، ووقعت مشاهدته فيه عند آخر ساعة من عُمره، فإن استحلى ذلك بقلبه أو استهواه بنفسه وقف معه، فإذا وقف معه حُسِب عليه عملا له وإنْ قل، وكان ذلك خاتمته، وكذلك ماعمل من خير أعيد نِكْره ومشاهدتُه عليه، فإنْ عقدَ عليه بقلبه أو أحّب، وقَفَ معه فُحِسبَ عملاً له، وكان ذلك حُسن خاتمته.

وقال بعض هذه الطائفة فى قول اللّه تعالى خلق الموت والحياة ليبلوكم، قال يبلوكم بتقليب القلوب فى حال الحياة بخواطر الذنوب، وفى حال الموت بإلحاد عن التوحيد، فمن خرجت روحه على التوحيد وجاوزت البلاوى كلها إلى المُبلِي فهو المؤمن، وذلك هو البلاء الحَسن كما قال اللّه تعالى وليُبلى المؤمنين منه بلاءً حسنا .فهذه المعانى من العلوم أوجبت خوف الخائفين من علم اللّه تعالى فيهم، فلم ينظروا معها إلى محاسن أعمالهم لحقيقة معرفتهم بربهم. وهذا الخوف هو الثواب لعلمهم بما يعلمون، فلما سلِموا من مطالبه بما يعلمون ظهر لهم خوف علم اللّه تعالى فيهم نعمتُمن اللّه تعالى عليهم، فكان ذلك مقاماً لهم، كما قال اللّه تعالى قال رجلان من الذين يخافون أنْعم اللّه عليهما، قيل بالخوف.

والمقام الآخر لأصحاب اليمين دون هؤلاء خوف الجنايات والاكتساب، وخوف الوعيد وسر العقاب، وخوف التقصير فى الأمر، وخوف مجاوزة الحد، وخوف سلب المزيد، وخوف حجاب اليقظة بالغفلة، وخوف حدوث الفترة بعد الاجتهاد عن المعاملة، وخوف وَهَن العزم بعد القوّة، وخوف نكث العهد بنقص التوبة، وخوف الوقوع فى الابتلاء بالسبب الذى وقَعَت منه التوبة، وخوف عوْد الاعوجاج عن الاستقامة، وخوف العادة بالشهوة، وخوف الحور بعد الكور وهو الرجوع عن الحُجة إلى طريق الهوى وحرث الدنيا، وخوف اطّلاع اللّه تعالى عليهم عندما سلف من ذنوبهم، ونظره إليهم على قبيح فعلهم فيعرض عنهم ويمقتهم، وهذه كلها مخاوف وطرْقات لأهل المعارف، وبعضهما أعلى من بعض، وبعضهم أشد خوفا من بعض.

ومن المخاوف **خوف النفاق**، وقد كان السلف الصالح من الصحابة رضى اللّه عنهم وخيار التابعين يخافون ذلك، وكان حذيْفة رضى اللّه عنه يقول كان الرجل ليتكلم بالكلمة على

عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصير بها منافقا حتى يلقى الله تعالى وكان يقول تأتى على القلب ساعة يمتلىء بالإيمان حتى لا يكون للنفاق فيه مَغْرَز إبرة، وتأتى عليه ساعة يمتلىء بالنفاق حتى لا يكون للإيمان فيه مغرز إبرة. وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون إنكم لتعملون أعمالا هى أدق فى أعينكم من الشعر، كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر، وفى لفظ آخر من الموبقات. وقد كان الحسن رحمه الله يقول لو أنى أعلم أنى برىء من النفاق كان أحبّ إلىّ مما طلعت عليه الشمس. وقيل لا يَعْرَى من النفاق إلا ثلاث طبقات من المؤمنين: **الصدّيقون والشهداء والصالحون**، وهؤلاء الذين مدحهم الله تعالى بكمال النعمة عليهم، وألحقهم بمقامات أنبيائه، لكمال الإيمان وحقيقة اليقين فيهم. وقيل من أمِن من النفاق فهو منافق. وكان بعضهم يقول **علامة النفاق** أن يكره من الناس ما يأتى مثله، وأن يحب على شىء من الجور، وأن يبغض على شىء من الحق. ومن النفاق من إذا مُدِح بما ليس فيه أعجبه ذلك. وعلامات النفاق أكثر من أن تحصى، يقال هى **سبعون علامة**. والحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أربع من أصولها تتشعب منها الفروع، فقال عليه السلام أربع من كن فيه فهو منافق خالص وإنْ صام وصلى وزعم أنه مسلم، وإن كانت فيه خصلة منهن ففيه شُعبة من نفاق حتى يدَعها: من إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، واذا أئتُمن خان، وإذا خاصم فجر. وفى لفظ آخر إذا عاهد غدر فصارت خمسا. وقال رجل لابن عمر رضى الله عنهما إنّا ندخل على هؤلاء الأمراء ونصدقّهم بما يقولون، فإذا خرجنا تكلمنّا فيهم، فقال كنّا نعدّ هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وروينا عنه من طريق آخر أنه سمع رجلا يذم الحجّاج ويقع فيه، فقال له أرأيت لو كان الحجاج حاضرا أكنت تتكلم بما تكلمت به، قال لا، قال كنّا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأشدّ من ذلك أنّ نفراً قعدوا على باب حُذَيْفة رضى الله عنه ينتظرونه، فكانوا يتكلمون فى شىء من شأنه، فلما خرج عليهم سكتوا حياءً منه، فقال تكلموا فيما كنتم تقولون، فسكتوا فقال كنا نعدّ هذا نفاقا على عهد رسول اللهّ صلى الله عليه وسلم. وأعظم من هذا ما كان **الحسن** رحمه الله يذهب إليه، كان يقول إنّ من النفاق اختلاف السرّ والعلانية، واختلاف اللسان والقلب، والمدخل والمخرج.

فدقائق النفاق وخفايا الشّرك عن نقصان التوحيد وضعف اليقين أوجبت المخاوف على المؤمنين، خشية مَقْت الله تعالى، وخوْف حبوط الأعمال. من ذلك ما كان **ابن مسعود** رضى

اللّه عنه يقول إن الرجل ليخرج من منزله ومعه دينه فيرجع إلى منزله وليس معه من دينه شيء، يلقى الرجل فيقول إنك لذيت وذيت، ويلقى الآخر فيقول لأنت وأنت، وقد سخط اللّه تعالى به التزكية لما لا يعلم، والمدح لمن يستحق الذم، واختلاف قلبه ولسانه، ففى هذا مقت من اللّه تعالى.

وفوق هذه المخاوف **خوف سلب الإيمان** الذى هو عندك فى خزانة المؤمن يُظهره كيف شاء، ويأخذه متى شاء، لا يدرى أهبةً وهبه لك فيبقيه عليك لكرمه، أو وديعةً وعارية أودعك إياه وأعارك فيأخذه لعدله وحكمته، وقد أخفى عنك حقيقة ذلك واستأثر بعاقبته. وقال أبو الدرداء ما أحدٌ أمِنَ من أن يُسلب إيمانه إلا سُلِبه. أفرأيت الوقتَ الذى قال حُنيفةُ يأتى على القلب ساعة فيمتلىء نفاقا حتى لا يكون فيه للإيمان مغرز إبرة، إنْ صادف الموت ذلك الوقت وكان هو آخر وقت أليس تخرج روحه على النفاق، وكذلك تقليبات القلوب فى معانى الشرك وتلويحات الشك، إنْ وافق وقت الوفاة كان خاتمته عند لقاء مولاه. وإنما سُميت الخاتمة لأنها آخر عمله، وآخر ساعة من العمر، وخاتم الشئ آخره، ومن ذلك قوله تعالى وخاتم النبيين أى آخرهم، ومثله ختامه مسك، وخاتمه مسك، أى آخر الكأس بدلاً من الثُفْلِ يكون مسكا.

ومن المخاوف **خوف قطع المزيد من علم الإيمان** مع بقية المعرفة المبتدأة ليكون مستدرَجا بها، كما قال بعض العلماء إن اللّه تبارك وتعالى إذا أعطى عبداً معرفة فلم يعامله بها لم يسلبه تلك المعرفة، ولكن بقاؤها فيه حجة عليه ليحاسبه على قدرها، وإنما يقطع عنه المزيد، وقد يُقسّى قلبه ويُجرى عينه. وقال **مالك بن دينار** قرأت فى التوراة إذا استكمل العبد النفاق ملك عينيّه فيبكى متى شاء. وقد كانوا يستعينون باللّه عز وجل من **بكاء النفاق** وهو أن يُفتح للعبد ألوان البكاء ويُغلق عنه باب الذل والخشوع. وقد قال اللّه عز وجل وجاؤا أباهم عشاءً يبكون. وكان السلف أيضا يقولون استعينوا باللّه من **خشوع النفاق**، قيل وما هو، قال أن تبكى العين والقلب قاس، فلأن يُعطَى الإنسان رقة القلب فى جمود عينٍ خيرٌ من أن يُعطَى دموع عين فى قسوة قلب. ورقة القلب عند أهل القلوب هو خشوعه وخوفه وذُله وانكساره وإخباته، فمَن أُعطَاه هذا فى قلبه لم يضُره ما منعه من بكاء عينه، فإنْ رجِح له بفيض العين فهو فضلٌ، ومَن أعطاه بكاء العين وحرمَه خشوع القلب وذُله وخضوعه وإخباته فهو مَكر به، وهذا هو حقيقة المنع وعدم النفع. وجُملة بكاء العين إنما هو فى علم العقل، فأمّا

علم التوحيد بمشاهدة اليقين فلا بكاء فيه، وقد وصف اللّه تعالى الباكين أنّ البكاء يزيدهم خشوعا فى قوله تعالى يبكون ويزيدهم خشوعا، فإذا زادنا البكاء كِبْراً وفخرا علمنا بذلك عدم الخشوع فى القلب فكان تصنيعاً وعُجبا.

وهذا الذى ذكرناه هو جُمل خوف العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، وهم أبدال النبيين وأئمة المتقين أولو القوّة والتمكين. وسئل **أبو محمد** رحمه اللّه هل يعطى اللّه أحدا من الخوف مثقالاً، فقال من المؤمنين مَن يُعطَى من الخوف وزن الجبل، قيل فكيف يكون حالهم؟ يأكلون وينامون وينكحون؟ قال نعم يفعلون ذلك، والمشاهدة لا تفارقهم، والمأوى يُظلِهم، قيل فأين الخوف؟ قال يحملُه حجابُ القُدرة بلطيف الحكمة، ويُستَر القلب تحت الحجاب فى التصريف بصفات البشرية، فيكون مثل هذا العبد مثل المرسلين، فسبحان من ستر القدرة ومعانيها بالحكمة وأسبابها، حِلماً منه ورحمة، وتطريقا للخلق إليه للمنفعة.

وقد كان سهل رحمه اللّه تعالى يقول الخوف مباينة للنهى، والخشية الورع، والإشفاق الزهد. وكان يقول دخول الخوف على الجاهل يدعوه إلى العلم، ودخوله على العالم يدعوه إلى الزهد، ودخوله على العامل يدعوه إلى الإخلاص. وقال أيضا الإخلاص فريضة لا تُنال إلاّ بالخوف، ولا يُنال الخوف إلاّ بالزهد، فقد صار الخوف يصلح للكافة، إذ دخوله على العامة يُخرجهم عن الحرام، ودخوله على الخاصة يُدخلهم فى الورع والزهد، لأن من خاف ترك. وقال أيضا من أحب أن يرى خوف اللّه تعالى فى قلبه فلا يأكل إلاّ حلالا، ولا يَصلح علمُ الرجاء إلاّ للخائف.

واعلم أن الخوف عند **العلماء** على غير ما يتصوّر فى أوهام **العامة**، وخلاف ما يعدّونه من القلق والاحتراق أو الوله والانزعاج، لأن هذه خطَرات وأحوال ومواجيد للوالهين، وبمنزلة المواجيد عند بعض الصوفية من العارفين فى أحوال المحبة، من احتراقهم وولههم، وليست من العلم فى شئ، والخوف عند العلماء إنما هو اسم لصحيح العلم وصدق المشاهدة، فإذا أُعطى عبدٌ حقيقة العلم وصدق اليقين سُمى هذا خائفاً، فلذلك كان النبى صلى اللّه عليه وسلم من أخوف الخلق لأنه كان على حقيقة العلم، ومن أشدهم حباً للّه تعالى لأنه كان فى نهاية القرب، وقد كان حاله السكينة والوقار فى المقامين معا، والتمكين والتثبيت فى الأحوال كلها، ولم يكن وصفُه القلق والانزعاج، ولا الوله والاستهتار، وقد أُعطَى أضعاف عقول الخليقة وعلومهم،

ووَسَع قلبه لهم، وشرح صدره للصبر عليهم، فكان صلى الله عليه وسلم مع الأعرابى كأنه أعرابى، ومع الصبى بمعناه، ومع المرأة فى نحوها، يقاربهم فى علومهم، ويخاطبهم بعقولهم، ويَظهر منه مثلُ وَجْدِهم ليعطيهم نصيبهم من الأُنس به، ويوفيهم حقوقهم من الدَرْك منه،ولئلا تعظم هيبته فى صدورهم فينقطعون عن السؤال له والأُنس به، حكمةً منه لا يفطنون لها، ورحمة منه قد جُبِل عليها، قد أُلبس مواجيدهم لِبسة، وأُدخل ذلك عليه صبغة، بغير تكلّف ولا تصنّع، تَعلّم ذلك من الحكيم العليم، فلذلك وصفه عز وجل بخُلُقه، وتعجّب من وصفه، فقال تعالى وإنك لعلى خُلُق عظيم، قيل على أخلاق الربوبية، وقرئت بالإضافة ليكون عِظَم اسم الله سبحانه، بحيث لا يُظهر حاله من قوة التمكين وفضل العقلاء، فلا يتظاهر بشئ لحقيقة الزهد ونهاية الخشوع والتواضع، ولا يَظهر عليه شئ لمكانة القوة ورسوخ العلم والحكمة. وعلى منهاجه وسُنّته وُصِفَ العارفون من أهل البلاء الذين هم الأمثل بالأنبياء.

ومما يدلك أن الخوف اسم لحقيقة العلم أن فى قراءة أبىّ بن كعب فى قوله تعالى فخشينا أن يرهقهما، فخاف ربك أن يرهقهما، وقال يحيى بن زياد النحوى ومعناه فعلِمَ ربك، وقال الخوف من أسماء العلم والله أعلم.

بيان آخر فى معنى الخوف

والخوف أيضا من أسماء المعانى، فوجوده بانتفاء ضدّه، فإذا عَدِم من القلب الأمن من كل وجه من أحوال الدنيا وأمور الآخرة، فلم يأمن مكر الله تعالى فى كل الأحوال فى تصريف أحكام الدنيا وتقليب حركات القلوب والنفوس، وجوانب الشهوات وإثارة طبائع العادات، ولم يسكن إلى عرف ولا اعتياد، ولم يقطع بسلامته وبراءته فى شئ، كان هذا خوفاً، وسمى العبد بفقد الأمن من جميع ذلك خائفاً، فهذا مستعملٌ فاشٍ فى كلام العرب ومذهبهم، يقول أحدهم أخاف من كذا إذا لم يأمنه، وأخاف أن يكون ذا إذا تحقق علمه. وقيل لبعض العلماء ما بال العارف يخاف فى كل حال، فقال لعلمه أن الله تعالى قد يأخذ فى جميع الأحوال. ثم إن للخائفين بعد هذا طرقاً ووجهةً من قِبَل الخوف المقلق والإشفاق المزعج والوَجل المحرق، هى مجاوزات للطرق السابلة التى هى محاج للأئمة المختارة الفاضلة، وفيها متاوه ومهالك نقلت عنها العلماء السادة والصفوة المختارة.

واعلم أن للخوف سبع مفائض تفيض إليها من القلب، فقد يفيض الخوف من القلب إلى

المرارة فيحرقها فيقتل العبد، وهؤلاءهم الذين يموتون من الغَشْى والصعق وبداوة الوجه، وهم ضعفاء العمال. وقد يطير الخوف من القلب إلى الدماغ فيحرق العقل فيتيه العبد فيذهب الحال ويسقط المقام. وقد يحل الخوف الرئة فينقبها فيذهب الأكل والشُراب حتى يُسَلّ الجسم وينشف الدم، وهذا لأهل الجوع والطَىّ والاصفرار. وقد يسكن الخوف الكبد فيورث الكَمد اللازم والحزن الدائم، ويحدث الفكر الطويل والسهو الذاهب، وفى هذا المقام يذهب النوم ويدوم السهر وهذا من أفضلها، وفى هذا الخوف العلم والمشاهدة وهو من خوف العاملين. وقد يقدح الخوف فى الفرائص، والفريصة هى اللّحمة التى تكون على الكتف، يقال للحمتى الكتفين الفريصتان وجمعها الفرائص، ومنه الخبر أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كان يعجبه الفريصتان من اللحم، وهو أرق لحم الحيوان وأعذبه، فمن هذا الخوف يكون الاضطراب والارتعاش واختلاف الحركة. وقد يبدو الخوف من القلب فيغشى العقل فيمحّى سلطانه، فيضطرب لضعفه الجسم فلا يتمكن العبد من القرار لضعف صفته، وذلك أن أجزاء الجسم وإن كانت متفرقة فى البنيان للحكمة والإتقان، فهى كشئ واحد، فأسفل البنية منوط بأعلاها، فإذا اضطرب أعلاها مال أسفلها، وإذا وصل الداء أو الدواء إلى عضو منها تداعى له سائرها، وقد سلك فى هذا الطريق أكابر العلماء وأفاضل أهل القلوب، وقد كان هؤلاء فى التابعين كثير، منهم **الربيع بن خيثم وأويس القرنى وزرارة بن أوفى** ونظرائهم من الأخيار رضى اللّه عنهم، ولم يُنكِر هذا عِلْية الصحابة مثل عمر وابن مسعود رضى اللّه عنهم، وقد كان **عمر** رضى اللّه عنه يغشى عليه حتى يضطرب مثل البعير ويسقط من قيام. وقد كان ذلك يلحق **سعيد بن جُدَيْم**، وكان من زهّاد أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ومن أمراء الأجناد، بعثه عمر رضى اللّه عنه والياً على أهل الشام، وكان يوصف له من زهده وشدة فاقته ما يعاتبه عمر فى ذلك، ويبعث إليه بالمائة دينار وأربعمائة دينار ليستنفقها على أهله، فيفرّق ذلك على الغُزاة فى قصة طويلة، فكتب إليه أهل الشام يَذكُرون شأنه، وكان يغشى عليه فى مجلسه، فخشوا عليه من دخيلة فى عقله، ولم يعرف ذلك أهل الشام، فسأله عمر لمّا لقيه عن الذى يصيبه إذا تحدث، فأخبره بما يجد من مشاهدته، وهو وجد الصوفية من أهل الأحوال، فعرف عمر ذلك وعذَره، وما زاده ذلك عنده إلاّ خيرا، فكان يُكرمه ويَعرف له فضلَه، وكتبَ إلى أهل الشام أن لا تعنفوا فى أمره ودعُوه. وقد كان أقوى الأقوياء وهادى

الهُداة رسول رب العالمين صلى الله عليه وسلم يغشى عليه عند نزول الوحى، إذا لبسه أزال العقل منه، ورفع مكان الكون عنه، ويغط ويتربد وجهه وينحدر منه مثل الجُمان من العَرَق فى اليوم الشاتى، إلاّ أن هذاكان يصيبه فى ضرب من الوحى إذا تغشّاه، لأن الوحى على أربعة أضرب، ضربان متصلان هذا أحدهما، وضربان منفصلان، ومن كل واحد يلحق العلماء بالله تعالى أهل القلوب، وشرحُ هذا يطول، وليس يعرفه إلاّ مَن سلك طريقه وذاق حقيقته، إلاّ أنّ هذا فى أهل مقامات ثلاث من المقربين، مقام المعرفة والمحبة والخوف.

وقد يفيض الخوف من القلب إلى النفس فيحرق الشهوات ويمحو العادات، ويخمد الطبع ويطفئ شُعَل الهوى، وهذا أحد المخاوف وأعلاها عند أهل المعارف، وهؤلاء أفضل الخائفين وأرفعهم مقاماً، وهو خوف الأنبياء والصدّيقين وخصوص الشهداء. ثم إنْ يُعصَم العبد من مجاوزة حد الخوف خرج به الخوف إلى أحد ثلاثة معان، خيرها أن يسرى إلى النفس فيحرقها فيتلف العبد فتكون له شهادة، وليس هذا محمودا عند علماء الخائفين من أرباب العلوم والمشاهدات، إلاّ أنه قد قال بعض العلماء ما شهداء بدر بأعظم أجراً ممن مات وجْداً، وهذه أوصاف ضعاف المريدين، إذ للعلماء الموقنين بكل شهادة من اليقين أجر شهيد، وأوسطها أن يعلو إلى الدماغ فتنحل عقدة العقل فتضطرب الطبائع ثم تختلط المزاجات لاضطرابها، فتحترق الصفراء فتحوّل سوداء، فيكون من ذلك الوسواس والهذيان والتوَه والوله، وهذا مكروه عند العلماء. وقد أصاب ذلك بعض المحبين فى مقام المحبة فانطبق عليهم فولهوا بوجده، ومنهم من فزع ذلك عن قلوبهم فسرى عنهم فنطقوا بعلمه، وقد كان أبو محمد رحمه الله تعالى يقول لإهل التقلل الطاوين المتقشفين احفظوا عقولكم فإنه لم يكن ولى الله ناقص العقل.

ومعنى آخر وهو شرّها فى مجاوزة الخوف، هو أن يعظم الخوف ويقوى فيذهب الرجاء، فيخرجه ذلك إلى القنوط من رحمة الله، والإياس من روح الله تعالى. وأكثر هذه المخاوف كانت فى البصريين وأهل عبادان والعسكريين، فكان مذهبهم القدر والقول باللطف وتفويض المشيئة وتقديم الاستطاعة، منهم العمرية أصحاب عمرو، والعبادية شيعة عبّاد، والفوطية والعطوية أصحاب هشام الفوطى وابن عطاء الغزالى، ومنهم التيمية نفوا نصف القدر، ومنهم

المنازلية أصحاب المنزلة بين المنزلتين والقول بمقدور من قادرين، وفعل من فاعلين، فابتلوا بالاعتماد على الأسباب وبالنظر إلى أولية الاكتساب، فحجبهم ذلك عن المقدِّر الوهاب، فهرب هؤلاء من الأمن والاغترار فوقعوا فى أعظم منهما من القنوط والإياس، فصارو فى كبائر المعاصى من خوفهم منها، فمثلهم مثل الخوارج خرجوا على الأئمة بالسيف لإنكار المنكر، فوقعوا فى أنكر المنكر، من تكفير الأئمة وإنكارهم السلطان، وتكفيرهم الأمة بالصغائر، وهذا من أبدع البدع، وهؤلاء كلاب أهل النار. ومثلهم أيضا مثل المعتزلة هربوا من طريق المُرجئة أنْ الموحدين لايدخلون النار، فحققوا الوعيد على الموحدين، وخلّدوا الفاسقين فى النار، فجازوا حدّ المرجئة وزادوا عليهم، كما جاوزت المرجئة طريق أهل السنة وقصرت عنهم. وكان شيخنا أبو محمد رحمه الله تعالى يقول أهل البدع كلهم يرون الخروج على السلطان، ويرون السيف على الأمة، ويكفّرون الأئمة، فهذا أضر الوجوه فى مجاوزة الخوف عن قدْره، وهو من التعدى لحدود الله تعالى وأمره، قد جعل الله لكل شئ قدرا، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه. فصِدْقُ الرجاء واعتدال الخوف به من حقيّة العلم بالله تعالى، ومجاوزة الشئ كالتقصير عنه، والمؤمن حقا هو المعتدِّل بين الخوف والرجاء، فالخوف المُتلِف للنفس بالموت، أو المُزيل للعقل بالفوت، خير من هذا الوصف الذى هو القنوط، لأن هذا مزيل للعلم ومُسقط للمقام، مُوقع فى الكبائر.

وعلماء الموقنين يُنقلون فى مقامات اليقين بمقتضى أحكامها، من مقام خوف إلى مقام رجاء مثله، فإذا عملوا فى هذه المقامات بما يقتضيهم رُفعوا إلى ما فوقها من مقام رجاء إلى مقام رجاء هو خير منه، ومن حال خوف إلى حال خوف أشرف منه، ثم ينتقلون من مقامات الإشفاق إلى حال الاشتياق، ومن أحوال الوَجل والاحتراق إلى مقام التملق والطمأنينة، ومن حال الفزع إلى مقام الأنس، ومن الإبعاد والوحشة والتهويل إلى الرضا والمحبة والتأميل، فهذا مكان فضلهم على من وقف فى مقامه لم يجاوزه من العموم. وأصل الرجاء وتفضيله أن عند العلماء بالله تعالى من عظيم الرجاء ما يضاهى عظيم الخوف، فلا يطرأ على قلوبهم طارئ من الخوف يهربون منه إلاّ بدا عليهم باد من الرجاء يأنسون إليه، فتعتدل صفاتهم وتستوى مقاماتهم عن معاينة معنى من معانى صفاته لاستواء كمال ذاته، فتكون كلمات

الميزان بين الخوف والرجاء، وتكون كالطائر مقوّما بين جناحيه، فيحمل الخوف الرجاء، ويستولى الرجاء على الخوف، ويفيضان معا فى سعة القلب وقوّته، فيغيبان فيه لأنه قُوِّيَ بقَوِيٍّ، ووُسّع بواسع، وقادر بمقتدر، وينفرد الهّم عن المعنيين، ومن هذا قول النبى صلى الله عليه وسلم بك أحول وبك أقول وبك أصول، ومن ذلك قوله أعوذ بك منك، ومثله قوله ألا كل شئ ماخلا الله باطل، فهذا نطق عن وجْد فى مقام البقاء بعد فقْد حال الفناء، ومن ذلك الأثر المشهور عن الله سبحانه وتعالى لم تسعنى سمائى ولا أرضى ووسعنى قلب عبدى.

وقال بعض علماء السلف ما أُلبس المؤمن لِبْسَةً أحسن من سكينة فى خشوع وذِلّة فى خضوع، فهذان حالان من الخوف، وهى لبسة الأنبياء وسيما علماء الأولياء. وقال لقمان لابنه يابنى خفْ الله تعالى خوفا لاتيأس فيه من رحمته، وارجُه رجاًء لا تأمن فيه مكره، ثم فسّره مجملا، فقال المؤمن كذى قلبين يخاف بأحدهما ويرجو بالآخر، ومعنى ذلك أن المؤمن نو وصفين عن مشاهدتين، لأن المؤمن الأول الشاهد الأعلى نو وصف مخوف مثل البطش والسطوة والعزة والنقمة، فإذا شهد العبد ما آمن به من هذه الصفات خاف إذ عرفه بها وتجلى له بشاهدها، والمعروف أيضا هو المألوف نو أخلاق مرجوة من الكرم والرفق والرحمة واللطف، فإذا شهد القلب ما آمن به من هذه الأخلاق رجا من شهده بها، فصار العبد لوصفيْه الرجاء والخوف كذى قلبين، كأنه يرجو بقلب ويخاف بآخر، وإنما هما شهادتان فى قلب واحد لأنهما مقامان لقلب واحد، إلاّ أنّ الخائف يوصف بما غلب عليه من الحال عما قوى عليه من المشاهدة، ويندرج الرجاء فى مقامه، ويوصف الراجى بما قوى عليه من الحال عن غلبة شهادته وينطوى الخوف فى مقامه، فأما الشهيد الموقن العالم المقرب فبالحالين جميعا يوصف مع اعتدالهما، وبالوصفين جميعا يُعرف مع استوائهما، ثم يغلب عليه الوصف التام والحال الكامل، فإذا عُرف به أُدرج الوصفان فيه، فيقال صدّيق لأنه قد تحقق بالصدق فأغنى عن أن يقال مخلص، ثم يقال عارف لأنه قد رسخ فى العلم فكُفِىَ أن يقال صادق، ثم يقال مقرّب لأنه قد أُشهد القرب فاقترب ولم يحتج إلى أن يقال عامل، وهذه أسماء الكمال وأحوال التمام لايفتقر إلى ذكر حال دونها، ولا يوصف بوصف كوصف خائفٍ أو راجٍ لوجودهما فيه واعتدالهما عنده، لأن الخوف والرجاء فاضا عليه ثم غاضا فيه، فإذا قلتَ عارف أو مقرب أو صدّيق فقد دخل فيه وصف محب خائف راج عامل لامحالة، كما إذا قلت فلان هاشمى استغنيت أن تقول قرشى أو عربى، لأن كل هاشمى يكون عربيا قرشياً لا محالة، ثم تصفه

بوصف التمام أيضا فيندرج الوصفان فيه، فيقول فلان حسنّى أو حسينّى فاكتفيت أن تقول هاشميّ أو قرشى أو علويّ وإن كان هاشميا قرشيا علويا، لأنه قد عُرِف أنّ كل حسينى فهو هاشمى قرشى علوى لا محالة.

ومن أفضل طرقات الخائفين ما سرى خوفه إلى النفس قاطعاً شُغل الهوى، وأخمد نار الشهوات فسقطت له أثقال المجاهدة، وخفّت عنده مؤنة المكابدة، ووجدت معه حلاوة الطاعة لفقد حلاوة المعصية، واجتمع لهم بالحق عند زوال التشتت بالهوى والخلْق، وسكنت النفس بالطمأنينة، وظهر نعيم الزهد والرضا، ثم سكن الخوف فى القلب بعد ذلك ولم يجاوزه فيتعدى الحد إلى بعض المفائض التى ذكرناها، بل كان منه الحزن الدائم والهمّ اللازم والخشوع القائم، وهذا هو وصف القلب المنكسر وحال العبد المنجبر الذى يوجد عنده الجبار، فجَبَره بعد كسْرِه فصَلُح له بعد أن عُطّل من غيره، وصار مزيد العالم الخائف من الله تعالى كشوْف اليقين، وتنقيله لديه فى شهادة المقربين، فكان القريب لديه موجودا، وصار الحبيب عنده مطلوبا، لأنه من المنكسرة قلوبهم من أجله، وبأنه صار عنده من أهله. واعلم أن الذى قطع الخلق عن هذه حلاوة الهوى، ولا يخرجها إلاّ أحد كأسين، تجرّع مرارة الخوف فيغلب حلاوة الهوى فيخرجه، أو غلبة حلاوة المحبة فيستغرق حلاوة الهوى فيغمره، فإنْ عَدِم أحد هذين فهو من المذبذبين بين ذلك. وروينا أن علياً رضى الله عنه قال لبعض الخائفين وقد تاه عقله فأخرجه الخوف إلى القنوط، ما أصارك إلى ما أرى، فقال ذنوبى العظيمة، فقال ويحك إن رحمة الله تعالى أعظم من ذنوبك، فقال إن ذنوبى أعظم من أن يكفّرها شئ، فقال إن قنوطك من رحمة الله تعالى أعظم من ذنوبك.

والخوف جند من جنود اللّه تعالى قد يستخرج من قلوب المريدين والعابدين ما لا يستخرجه الرجاء، فتستجيب له القلوب المرادة به بنهايات الزهد وحقائق التوبة وشدة المراقبة، وقد يفعل اللّه تعالى جميع ذلك بأهل الرجاء فى المحبة. والخوف اسم جامع لمقامات الخائفين، ثم يشتمل على خمس طبقات، فى كل طبقة ثلاث مقامات، **فالمقام الأوّل** من الخوف هو التقوى، وفى هذا المقام المتقون والصالحون والعاملون، **والمقام الثانى** من الخوف هو الحذَر وفى هذا المقام الزاهدون والورعون والخاشعون، **والمقام الثالث** هو الخشية وفى هذا طبقات العالمين والعابدين والمحسنين، **والمقام الرابع** هو الوجل وهذا للذاكرين والمُخبتين والعارفين،

والمقام الخامس هو الإشفاق وهو للصدّيقين وهم الشهداء والمحبون وخصوص المقربين. وخوف هؤلاء عن معرفة الصفات لأجل الموصوف لا عن مشاهدة الاكتساب لأجل العقوبات. كما جاء فى الخبر أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام يا داود خِفنى كما تخاف السبع الضارى. فالسبع إنما يُخاف لوصفه بالبطش والسطوة، ولِمَا ألبس وجهه من الهيبة والكِبر، لا لأجل ذنب كان من الإنسان إليه، وكذلك لهؤلاء من الرجاء العظيم والنصيب الأوفر على معنى خوفهم ما لا يسع للعموم أن ينكر، فطلبهم برجائهم وحُسن ظنهم بما هو لهم لا يصفه إلاّ هم، ولا يعرفه سواهم، جُمْل ذلك أنصبة القرب، ونعيم الأنس، وروْح اللقاء، وسرور التملق، وحلاوة الخدمة، وفرح المناجاة، وروْح الخَلوة، وارتياح المحاورة، فلهم منه تجلى معانى الصفات وظهور معانى محاسن الأوصاف، فلا تعلم نفْسٌ ما أُخفى لهم من قُرة أعين، وقد كان يحيى بن معاذ يقول مَن عَبَد الله تعالى بالخوف دون الرجاء غرق فى بحار الأنكار، ومن عبده بالرجاء دون الخوف تاه فى مفاوز الاغترار، ومن عبده بالخوف والرجاء معا استقام فى محَجة الأنكار. وقال مكحول النسفى رحمه الله تعالى فى معناه إلاّ أنه جاوز فيه الحد فقال، مَن عَبد الله تعالى بالخوف فهو حرورى، ومن عبده بالرجاء فهو مرجئ، ومن عبده بالمحبة فهو زنديق، ومن عبده بالخوف والرجاء فهو موّحد والله سبحانه وتعالى أعلم.

شرح مقام الزهد ووصف أحوال الزاهدين وهو المقام السادس من مقامات اليقين

قد سمّى الله تعالى **أهل الزهد** علماء بقوله تعالى إذ وصف قارون فخرج على قومه فى زينته، إلى قوله تعالى وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن، قيل هم الزاهدون فى الدنيا، وقال عز وجل أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا، وجاء فى التفسير صبروا على الزهد فى الدنيا. وقال جل وعلا والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم، قيل على الفقر. ويشهد للصبر فى الدنيا فى هاتين الآيتين قوله عز وجل فى وصف العلماء الزاهدين لَمّا قال وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير، قال عقيْب ذلك فى بقية ثنائه عليهم ولا يُلقّاها إلا الصابرون، أى عن زينة الدنيا، ثم قال فى مدحهم بوصفٍ آخر يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا، فقد حصل للزاهد أجران، بصبره على الفقر وبوجود زهده، وللفقير المعدم أجر واحد على الغنى لوجود فقره وعدم زهده. وعلى ذلك تأويل الخبريْن عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى أحدهما يدخل فقراء أمتى الجنة قبل أغنيائهم بأربعين

خريفا، وقال فى الخبر الآخر يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام، لأن **الفقير الزاهد** يدخل الجنة قبل الغنى المصلح بخمسمائة عام وهؤلاء **خصوص الفقراء**، وأنّ **الفقير غير الزاهد** يدخل الجنة قبل الأغنياء بأربعين خريفاً لأجل فقره فقط وهم **عموم الفقراء**، فصار الأغنياء مفضولين فى الحالين معا، وأنّ جملة الفقراء يدخلون الجنة قبلهم لمكان غناهم فى الدنيا، وأنّ عموم الأغنياء من أهل الدنيا وأبنائها موقوفون للحساب ومطالبون بالإنفاق والاكتساب بالخبر الثالث اطّلعتُ فى الجنة فإذا أكثر أهلها الفقراء، واطّلعتُ فى النار فإذا أكثر أهلها الأغنياء، وفى معناه الخبر الآخر فقلت أين الأغنياء، فقال حبَسهم الجِّد أى الحظ.

وقد **سمّى اللّه تعالى الفقراء الزاهدين محسنين** ووضع عنهم السبيل، فقال تعالى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج، ثم قال ما على المحسنين من سبيل، ثم نصّ على ذكر مَن عَلَيْه الحُجة والمطالبة، فقال جلّ وعلا إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء، رضوا بأن يكونوا مع الخوالف، يعنى النساء. وعلى هذا المعنى جاء تأويل قوله تعالى إنّا جعلنا ما على الأرض زينةً لها لِنبلوَهم أيهم أحسن عملا، قيل أزهد فى الدنيا فصار **الإحسان مقام الزاهدين**، وهو وصف اليقين. وكذلك فسّره رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لما سئل ما الإحسان، فقال أن تعبد اللّه كأنك تراه، يعنى على اليقين وهو المشاهدة. ولعمرى إن الزهد حال الموقن لأنه مقتضى يقينه. وقد يحتج متوَهم بفضل الأغنياء على الفقراء عنده لقوله تعالى مُخبِراً عن الفقراء تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا، أنْ لا يجدوا ما ينفقون، ولا يعلم أن هذا عند أهل التدبر للقرآن مزيداً للفقراء لتمام حالهم لمّا كانوا محسنين، كما قال سبحانه وتعالى وسنزيد المحسنين، فكان مزيدهم الحزن والإشفاق وخوْف التقصير لمشاهدة عِظَم حق الربوبية عليهم، حتى كأنهم مُسيؤن، حتى بشّرهم اللّه تعالى بأنهم محسنون لما قال عز وجل ما على المحسنين من سبيل،لأنه ضمّهم إليهم فى الوصف وعطفهم عليهم فى المعنى.

وأيضا فلم يكن بكاؤهم على فوْت الدنيا ولا على طلب الغنى، واللّه تعالى يمدحهم بصبرهم عن الدنيا ويذم الدنيا إليهم، بل حزنُهم على طلب المزيد من الفقر، ليجدوا الإنفاق فيخرجوه، فيفتقروا منه، فيزدادون فقراً ببذله إلى فقرهم. فعلى كثرة الإنفاق وحقيقة الفقر فى الدنيا كان حزنهم، فهذا فضل ثان للفقراء لا على الجمع والادخار والموضع الأعلى الذى هو فضْل الفقراء من هذه الآية عند أهل الاستنباط والتفكر، وهو مشاركتهم لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم

فى حاله. ووصف الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بمثل حالهم فى قوله تعالى قلت لا أجد ما أحملكم عليه، ثم نعتهم بمثله لأنهم هم الأمثل فالأمثل به فقال تعالى أن لا يجدوا ما ينفقون، فمن كان برسول الله صلّى الله عليه وسلم أمثل فهو أفضل. كيف وقد روينا عن النبى صلى الله عليه وسلم تُحفة المؤمن فى الدنيا الفقر، فجعل الفقر تحية له من ذى التحيات المباركات، مع الخبر المشهور الفقر على المؤمن أزين من العِذَار على خد الفرس الجواد. والفقر اختيار رسول الله صلى الله عليه وسلم وشعار الأنبياء وطريقة عِلْية الصحابة والأصفياء، وروينا فى الخبر - آخر الأنبياء دخولاً الجنة سليمان بن داود لمكان مُلكه، وآخر أصحابى دخولاً الجنة عبد الرحمن بن عوف لأجل غناه فى الدنيا. وفى الخبر الآخر- رأيته يدخل الجنة زحفاً.

ولا نعلم فى الأمة أفضل من طائفتين: المهاجرون وأهل الصُفّة، وجميعا مدَح الله تعالى بالفقر، فقال للفقراء المهاجرين الذين أُحصروا فى سبيل الله، فقدّم وصفهم بالفقر على أعمالهم، الهجرة والحَصْر. والله تعالى لا يمدح من يحب إلاّ بما يحب، ولا يصفه حتى يحبه. وروينا فى قوله تعالى وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لمّا صبروا، قيل عن الدنيا. وفى خبرٍ العلماء أمناء الرسل ما لم يدخلوا فى الدنيا، فإذا دخلوا فى الدنيا فاحذروهم على دينكم. وجاء فى الأثر لا يزال لا إله إلاّ الله تَرفع عن العباد سُخط الله تعالى ما لم ينالوا ما نقص من دنياهم، وفى خبر آخر مالم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم، فإذا فعلوا ذلك وقالوا لا إله إلاّ الله قال الله عز وجل كذبتم لستم بها صادقين. وقد روينا فى خبر عن أهل البيت إذا أحبّ الله تعالى عبداً ابتلاه، فإذا أحبه الحب البالغ اقتناه، قيل وما اقتناؤه، قال لم يترك له أهلاً ولا مالاً. وفى أخبار أهل الكُتب أوحى الله تعالى إلى بعض أوليائه إحذر إذا مقتُّك فتسقط من عينى فأصب عليك الدنيا صباً. ويقال ليس عمل من أعمال البِرّ يجمع الطاعات كلها إلاّ الزهد فى الدنيا. وعن بعض الصحابة رضى الله عنهم تابعنا الأعمال كلها فلم نر أبلغ فى أمرالآخرة من زهدٍ فى الدنيا. وقال بعض الصحابة لصدر التابعين أنتم أكثر أعمالا واجتهادا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم كانوا خيرا منكم، قيل ولِمَ ذلك، قالوا كانوا أزهد منكم فى الدنيا. وفى وصية لقمان لابنه واعلم أن أعون الأشياء على الدين زهَادة فى الدنيا ويقال من زهد فى الدنيا أربعين يوما أجرى الله تعالى ينابيع الحكمة فى قلبه وأنطَق بها لسانه. وفى خبر آخر إذا رأيتم العبد قد أُعطى صمتا وزُهدا فى الدنيا فاقتربوا منه فإنه يُلَقّى الحكمة. وقد قال الله تعالى ومن يُؤتَ الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا.

وروينا فى الآثار جُمْل هذه الأخبار مَن أصبح وهمُّه الدنيا شتّت اللّه تعالى عليه أمره، وفرّق عليه ضيعته، وجعل فقره بين عينيه، ولم ينل من الدنيا إلاّ ما كتَب له، ومن أصبح وهمُّه الآخرة جمَع اللّه همّه وحفظ عليه ضيعته وجعل غناه فى قلبه وأتته الدنيا وهى راغمة، وقال اللّه تعالى فى معنى ذلك من كان يريد حرْث الآخرة نُزِد له فى حرثه، ومن كان يريد حرث الدنيا نُؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب. وقد روينا فى خبرٍ قلنا يا رسول اللّه أىّ الناس خير، قال مجموم القلب صدُوق اللسان، قلنا يا رسول اللّه وما مجموم القلب، قال التقى النقى الذى لا غِلّ فيه ولا غِش ولا حسد ولا بغْى، قيل يا رسول اللّه فمَنْ على أثره، قال الذى يشنأ الدنيا ويحب الآخرة، والشئ يُعرف بضده كما يُعرف بمثله، وضد الشنآن المحبة، **وضد الزهد الرغبة**. وفى دليل خطابه أن شرّ الناس الذى يحب الدنيا وأن الراغب فيها هو المحب لها. والاقتناء لها والاستكثار منها علامة الرغبة فيها. كيف وقد جاء أيضا إنْ أردت أن يحبك اللّه تعالى فازهد فى الدنيا، فجعل الزهد سبب محبة اللّه تعالى، فصار **الزاهد حبيب اللّه تعالى**، فينبغى أن يكون الزهد من أفضل الأحوال إذ المحبة أعلى المقامات.

وفى دليل الكلام أنّ مَن رغب فى الدنيا فقد تعرّض لبغْض اللّه تعالى الذى لا شئ أعظم منه، وأن المحب للدنيا بغيضُ اللّه تعالى. وكان أبو محمد رحمه اللّه تعالى يقول اجعلوا أعمال البرّ كلها فى موازين الزهاد، ويكون ثواب زهدهم زيادة لهم. وقال أيضا العُبّاد فى موازين العلماء، والعلماء فى موازين الزُهّاد يوم القيامة، فلا يطمعن طامع فى محبة اللّه تعالى وهو محب للدنيا، لأن اللّه تعالى يمقتُها. وفى خبرٍ ما نَظر إليها منذ خلقَها، يقول لها اسكنى يا لاشى، أنتِ وأهلك إلى النار. وفى الخبر يقول اللّه تعالى يوم القيامة للدنيا مَيّزوا ما كان منها لى والقُوا سائرها فى النار. وكذلك روينا فى الأثر الدنيا ملعونة ملعونٌ ما فيها إلاّ ذكر اللّه تعالى وما والاه. وفى لفظ آخر فمثل الدنيا مثل إبليس خلقه اللّه تعالى للبُعد واللعنة ليبتليه ويُبتلى به ويُهلكه ويُهلك به، وقد شهد ذلك بعض المكاشفين فقال رأيت **الدنيا فى صورة جيفة**، ورأيت إبليس فى صورة كلب وهو جاثم عليها، ومنادٍ ينادى من فوق أنت كلب من كلابى وهذ جيفة من خَلْقي، وقد جعلتها نصيبك منى فمن نازعك شيأً منها فقد سلّطتُك عليه، فجاء من هذا أنها مكانُه فمن تمكّن فى شئ منها تسلّط العدو بالمكانة منه بقدر ما أصاب منها. وقد كوشف بها بعض الأولياء فى صورة امرأة، ورأى أكُفّ الخلْق ممدودة إليها وهى تجعل فى أيديهم شيأ، قال فقلت له ما هو، قال شئ يُلْتَذ، وطائفه تمرّ عليها مكتوفى الأيدى لا

تعطيهم شيأ. وكوشف بها مورق العجلى فى صورة عجوز شمطاء بِدْانية مُسْمَجة عليها ألوان المُصبّغات وأنوع الزينة، قال فقلت أعوذ باللّه منك، فقالت إنْ أردتَ أن يعيذك اللّه تعالى منى فابغض الدرهم.

وكذلك جاء فى الخبر الدنيا موقوفة منذ خلقها اللّه تعالى بين السماء والأرض لا ينظر إليها، فتقول يوم القيامة يا رب اجعلنى لأدنى أوليائك نصيباً اليوم، فيقول اسكتى يا لاشى، أنا لم أرضك لهم فى الدنيا أرضاك لهم اليوم. وقال بعض السلف الدنيا دنيئة وأدنى منها قلب من يحبها. وروى عن علىّ كَرّم اللّه وجهه الدنيا جيفة فمن أرادها فليصبر على مُزاحمة الكلاب. وفى أخبار موسى عليه السلام إن لم تَلق الفقير بمثل ما تلقى به الغنى فاجعل كل علم علّمتُك تحت التراب، وإذا رأيت الفقر مقبلا فقُل مرحبا بشعار الصالحين، وإذا رأيت الغنى مقبلا فقل ذنْب عُجّلتْ عقوبته. وكان عيسى عليه السلام يقول للدنيا إليك عنى يا خنزيرة. وقد روينا هذا القول عن يزيد بن ميسرة وكان من علماء الشام، قال كان أشياخنا **يسمون الدنيا خنزيرة**. ولو وجدوا لها اسماً شراً من هذا سمّوها به، قال وكانت إذا أقبلت على أحدهم الدنيا قال لها إليك عنا يا خنزيرة، لا حاجة لنا بك، إنّا قد عرفنا إلهنا عزّ وجلّ، معناه قد عرفناه بالابتلاء بك لينظر كيف نعمل فى الزهد فيك والأثرة له سبحانه وتعالى، وعرفناه أيضا بالمَقْت لك فوافقناه فى ذلك، وعرفناه أيضا فتألّهت قلوبنا إليه وأعرضنا عما سواه، وكذلك كان الحسن رحمه اللّه تعالى يصف أشياخه، كان أحدهم يُعرَض عليه المال الحلال فيقال خذه فاستغن به، فيقول لا حاجة لى فيه، أخاف أن يُفسِد علىّ قلبى. فهذا كان له قلب صالح راعاه فخاف تغيّره.

كذلك روينا عن **رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم** أنه مرّ بجدْيٍ ميّتٍ أجرب، فقال أترون هذا هان على أهله، قلنا يا رسول اللّه من هوانه ألقوه، فقال لَلدنيا أهون على اللّه تعالى من هذا على أهله، وفى لفظ آخر أنه قال أيُكم يحب أنّ هذا له بدرهم، قلنا لا أينا، وأىِ شئ يساوى هذا، قال صلّى اللّه عليه وسلم الدنيا أهون على اللّه سبحانه وتعالى من هذا عليكم. وكذلك أخبر بالغاية فى قِلّتها وعدم قيمتها بقوله لو كانت الدنيا تزن عند اللّه تعالى جَناح بعوضة ما سقَى كافراً منها شَربة ماء. وضرب المثل فى نتنها وانقلابها على أهلها بقوله للأعرابى أرأيتَ ما تأكلون وتشربون، ألستم تتغوطون وتبولون، قال بلى، قال فإلى أى شئ

يصير، قال إلى ما علمتَ يا رسول الله، قال أليس يقعد أحدكم خلف بيته فيجعل يده على أنفه من نَتَن ريحه، قال نعم، قال فإن الله تعالى جعل الدنيا مَثَلا لما يَخرج من ابن آدم. وكذلك روينا فى تأويل قوله تعالى وفى أنفسكم أفلا تبصرون، قيل مواضع الغائط والبول. وقال سبحانه وتعالى وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلاّ متاع، قال بعض أهل اللغة متاع أى جيفة، سمعتُ عن الأصمعى قال بعض العرب يقول متَعَ اللحمُ إذا تغير وأنتن. وقد كان الحسن رحمه الله تعالى يقول لمّا هبط آدم عليه السلام إلى الدنيا كان أوّل شئ عمل فيها أنه أحدَث. وروينا عن **ابن عباس** رضى الله عنهما قال إنه نظر إلى ما خرج منه فآذاه ريحه فاغتّم لذلك، فقال له جبريل هذه رائحة خطيئتك. فشهد العقلاء عن الله تعالى الدنيا فى **صورة كنيف** فلم يدخلوا فيها إلاّ ضرورةً، فكلما استغنيتَ عن دخولك الكنيف كان أفضل، وشهدها بعضهم **جيفة** فلم ينالوا منها الا بلّغة، فكلما تقللتَ من الجيفة كان خيرا.

وقال بعض المخبرين عن الله سبحانه وتعالى أنه أوحى إلى الدنيا اخدمى مَن خدمنى، واتعبى مَن خدمك. وقال آخر وقد رويناه مُسنداً أن الله تعالى أوحى إلى الدنيا تمرّرى لأوليائى حتى تكون رغبتهم فيما عندى. واحلُولى لإعدائى حتي يكرهوا لقائى. وفى حديث عائشة رضى الله عنها من أحب لقاء الله تعالى أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله تعالى كره الله لقاءه. فهذه الآثار كلها قاصمة لظهر أبناء الدنيا، مسخنة لعين محبيها، وأضدادها من الأخبار الحُسنى فى فضل الزهد وشرف الفقر، رافعةً لرؤس الفقراء الصادقين، وقُرة عين الصالحين لله عز وجل الزاهدين، فلا تعلم نفس ما أُخفىِ لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون.

وأصل **الرغبة فى الدنيا** من ضعف اليقين، لأن العبد لو قَوىَ يقينه نظر بنوره إلى الآجل فغاب فى نظره العاجل، فزَهَد فيما غاب وأحبّ الحاضر، فآثر ماهو أعْود عليه وأبقى وأنفع له، ولمولاء أرضى، وهذا هو صورة الزهد وشهادة الموقن، وأنّ الحاضر لا يحُب ما غاب وانتقل، ألَم تر إلى وصْفه عز وجل لإبراهيم وليكون من الموقنين، قال لا أحب الآفلين. والموقن مأمور باتباع ملّة إبراهيم بقوله تعالى ملة أبيكم إبراهيم، أى عليكم ملة أبيكم إبراهيم واتبعوا ملته. وليس يشهد الوعد والوعيد الآجل بنور العقل إنما يشهد بنور اليقين، وضعف اليقين قد يدخل فى كل شىء، وقوة اليقين تحتاج إليه فى كل عمل وإلاّ فهو دنيا يهُتدَى إليه بنور العقل، فمن لم يُعط نور اليقين لم ير الله تعالى فاستهوته الدنيا فأحب لا شىء ، فلم تكن همته فى العلو ولا عنده الأعلى شيأ.

ذكر ماهية الزهد أى شيء هو

ليس يمكن عبد أن يعرف الزهد حتى يعرف الدنيا أى شيء هى، فقد قال الناس فى الزهد أشياء كثيرة ونحن غير محتاجين إلى ذكر أقوالهم بما بيّن الله تعالى وأغنى بكتابه الذى جعل فيه الشفاء والغنى، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الحبل المتين والصراط المستقيم. من طلب الهدى فى غيره أضلّه الله. وقال سبحانه وتعالى وما اختلفتم فيه من شيء فحكمُه إلى الله، وقال عز وعلا فهدَى الله الذين آمنوا لماِ اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فقد ذكر الله جل اسمه فى كتابه أن الدنيا سبعة أشياء، وهو قوله تعالى زُيّن للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث، ثم قال تعالى فى آخرها ذلك متاع الحياة الدنيا، ووصف حب الشهوات بالتزيّن، ثم نسّق الأوصاف السبعة على الحب لها، ثم أشارلها بقوله تعالى ذلك، فذا إشارة إلى الكاف، والكاف كناية عن المذكور المتقدم المنسوق، واللام بين ذا والكاف للتمكين والتوكيد فحصل من تدبر الخطاب أنّ هذه السبعة جملة الدنيا، وأنّ هذه الدنيا هذه الأوصاف السبعة، وما تفرع من الشهوات رُدّ إلى أصلٍ من هذه الجُمْل، فمن أحب جميعها فقد أحب جُملة الدنيا نهاية الحب، ومَن أحب أصلاً منها أو فرعا من أصل فقدْ أحب بعض الدنيا، فعلمنا بنص الكلام أن الشهوة دنيا، وفهمنا من دليله أنّ الحاجات ليست بدنيا لأنها تقع ضرورات، فإذا لم تكن الحاجة دنيا دلّ أنها لا تُسمّى شهوة وإنْ كانت قد تشتُهى، لأن الشهوة دنيا لتفرقة الأسماء لإيقاع الأحكام عليها، واستند ذلك إلى خبر رويناه عن الله سبحانه وتعالى فى الإسرائيليات أن إبراهيم صلوات الله عليه أصابته حاجة فذهب إلى صديق يستقرض منه شيأ فلم يقرضه، فرجع مغموماً، فأوحى الله تعالى إليه لوسألتَ خليلك لأعطاك، فقال يارب عرفتُ مقتكَ للدنيا فخشيتُ أن أسألك منها فتمقتنى، فأوحى الله إليه ليس الحاجة من الدنيا، ثم سمعناه تعالى وجّل قد ردّ هذه السبعة الأوصاف فى مكان آخر إلى خمسة معان، فقال جّل من قائل اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر، فهذه الخمسة هى وصف من أحب تلك السبعة، ثم اختصر الخمسة فى معنيين منها هما جامعان للسبعة، فقال إنما الحياة الدنيا لعب ولهو، ثم ردّ الاثنين إلى وصف واحد وعبّر عنه بمعنيين، فصارت الدنيا ترجع إلى شيئين جامعين مختصرين يصلح أن يكون كل واحد منهما هو الدنيا، فالوصف الواحد الذى ردّ الاثنين إليه اللذان هما اللعب واللهو هو الهوى، اندرجت السبعة فيه فقال عز وجل ونهَى

النفس عن الهوى فإن الجنّة هى المأوى، فصارت الدنيا طاعة النفس للهوى بدليل قوله تعالى فأمّا من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى، فلما كانت الجنة ضد الجحيم كان الهوى هو الدنيا، لأن النهىّ عنه ضد الإيثار له، فمن نهَى نفسه عن الهوى فإنه لم يؤثر الدنيا، وإذا لم يؤثر الدنيا فهذا هو الزهد، وكانت له الجنة التى هى ضد الجحيم التى هى لم ينه نفسه عن الهوى بإيثاره الدنيا، فصارت الدنيا هى طاعة الهوى وإيثاره فى كل شىء، فينبغى أن يكون الزهد مخالفة الهوى من كل شيء.

وأما المعنى الآخر الذى عبّر به عن هذا الوصف الذى هو الهوى فجعله دنيا أيضا، فهو **حب البقاء** لمتعة النفس، استنبطنا ذلك من قوله تعالى وقالوا ربنا لِمَ كتبتَ علينا القتال لولا أخّرتنا إلى أجل قريب، فالقتال هو فراق الحياة الدنيا لأنه المشى بالسيف إلى السيف، والفناء بين السيفين، فقالوا هلاّ أبقيتنا إلى وقت آخر وهو أجلنا بالموت لا بالقتل، وهذا هو حب البقاء، ففسّر حب البقاء بأنه هو الدنيا فقال تعالى قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى، فانكشف الناس وافتضح المنافقون، وابتلى المؤمنون الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص، وعندها ربح الذين هم لأنفسهم وأموالهم بائعون، وخسر الذين هم للحياة الدنيا بالآخرة مشترون، لمّا قال اللهّ تعالى إن اللّه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة، فلمّا اشتراها باعوها، وقال فى المشترين الخاسرين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ويعنى رغبوا فى البقاء الأدنى لمّا اشتروه ببيع البقاء الآخرة إذ باعوه، فمن اشترى ثلاثين سنة وأربعين سنة بألفِ ألفٍ وبأبد الأبد فما ربحت تجارته ولاهُدِىَ سبيله، فقد صار بائعاً للحياة العالية بما استبدل به من اشتّراء ضدها، فهذا تدبُّر قوله تعالى اشتروا الحياة الدنيا، أى باعوا الحياة العليا فهذا ربحْ تجّار الآخرة الزاهدين فى الدنيا، وذلك خُسر تجّار الدنيا الراغبين فى الهوى، فشتّان بين التجارتين، فما أعظم حسرة الفوْت على من خسر ماربحه الزاهدون بعد الموت.

وقد كان الناس مستورين بإظهار الزهد فى البقاء، ومظنوناً بهم حب الباقى الأعلى، حتى نزلت ألم تر إلى الذين قيل لهم كفّوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، فلما كُتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية اللّه أو أشد خشية الآية، وحتى نزل يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون مالا تفعلون، كانوا قالوا إنا نحب ربنا ولو علمنا فى أى شىء محبته

لفعلناه. فلذلك قال تعالى كبر مقتا عند الله أنْ تقولوا مالا تفعلون، إنّ الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا، ولذلك قال ابن مسعود رضى الله عنه ما كنت أحسب أن فينا أحدا يريد الدنيا حتى نزلت منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة، وكذلك قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نزلت ولو أنّا كتبنا عليهم أنْ اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلاّ قليل منهم.قال ابن مسعود قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم قيل لى أنت منهم، أى من القليل الذى كان يفعل ذلك، فإذا كان حب البقاء هو الدنيا فينبغى أن يكون حب بقاء الباقى هو الزهد، فصار الزهد فى الدنيا هو الزهد فى البقاء، فمن زهد فى الحياة الفانية وفى ماله المجموع، بالجهاد للنفس والإنفاق فى سبيل الله، فقد زهد فى الدنيا، ومن زهد فى الدنيا أحبه الله تعالى كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولذلك صار **الجهاد أفضل الأعمال لأنه حقيقة الزهد فى الدنيا**، ولأن الله تعالى يحب مَن زَهد فى الدنيا. ثم كان مخالفة الهوى أفضل الجهاد لأنه هو حقيقة الرغبة فى الدنيا، وقد عبّر به رسول اللّ صلى الله عليه وسلم عن الزهد فى الدنيا إذ قال فى الحديث الأول إزهد فى الدنيا يحبُك الله تعالى، ثم قال فى الخبر الثانى بمعناه اجتنبْ المحارم يحبك الله تعالى. واجتنابها زهدٌ فى الدنيا، **فالزاهد فى الدنيا حبيب ربه تعالى**، والراغب فى حب البقاء لنفسه منافق فى دين ربه تعالى. ومنه الخبر الذى جاء من مات ولم يغز ولم يحدّث نفسه بغزو مات على شعبة من نفاق، وبه كشف الله تعالى الكاذبين ووصفهم بمرض القلوب، فقال سبحانه وتعالى فإذا أنزلت سورة محكمة وذُكر فيها القتال رأيتَ الذين فى قلوبهم مرض، يعنى نفاقاً، ينظرون إليك نظر المَغشىّ عليه من الموت، فأولى لهم تهددٌ ووعيد، أى وَلِيهَم العذاب وقرُب منهم، ثم قال طاعةٌ وقولٌ معروف، أى يظهر منهم طاعة وقول معروف، فإذا عزم الأمر وحقّت الحقائق كذّبوا ونكثوا فلو صدقوا الله، أى فى الوفاء، لكان خيراً لهم، وهذا من الكلام المضمر فلذلك أُشكل.

والبقاء والحياة اسمان لمعنى، ولذلك جعل الله تعالى الدنيا وصفاً للحياة فتكون الدنيا هى الحياة، ونعتَها بالدنيا نعتَ مؤنث لدخول الهاء فى الاسم التى هى إحدى علامات التأنيث، فصارت الحياة هى الدنيا، وصار قوله الدنيا نعتَها بالدناءة، ولو كان الاسم مذكراً مثل البقاء نعته بمذكّر فقال الأدنى، وقد قال فى مثله يأخذون عرَض هذا الأدنى، فالأدنى تذكير الدنيا، والدنيا تأنيث أدنى، كالأعْيَن والأقنى والأشعث تذكير عيناء وقنواء وشعثاء والعَرض اسم لما يعَرض ويقل بقاؤه، فمن أحب ذلك فقد أحب الدنيا بحبه الأدنى، وهذا يرجع إلى حب حياة

الأصل، لأنه إنَما يريد العَرض الأدنى لأجل الحياة، فصار حب البقاء الذى لأجله يريد عرَض الأدنى هو الدنيا، وصار حب العَرض لأجل البقاء من الدنيا، فجاء من هذا الذى ذكرناه أن حقيقة الدنيا حب البقاء لطاعةالهوى، وموافقة الهوى فى حب العرَض لأجل البقاء، فدخل أحد هذين فى الآخر، لأن حبّ البقاء لأجل المتعة هو من الهوى الذى هو صفة النفس الأمّارة بالسوء، وطاعة الهوى الذى هو عيش النفس إنما يكون لحب البقاء، لأن العبد لو أيقن بالموت ساعته لآثر الحق على الهوى، ولو أيس من البقاء لما رغب فى العرَض الأدنى، فصار حب البقاء من الهوى، وصار إيثار الهوى إنما هو لحب البقاء، فكان ذلك حقيقة الدنيا وكان أقصر الناس أملا للبقاء أزهدهم فى الدنيا حتى لا يدّخر شيأ لغد، لأنه عنده غير باق إلى غد، وصار أرغب الناس فى الدنيا أطولهم أملاً لأن رغبته اشتدّت فيها وحرصه كثرُ عليها لامتداد أمله للحياة فيها، إذ لو قَصرُ أمله لغدٍ لاختار الفقر حينئذ، واختيار الفقر هو الزهد.

بيان آخر من الزهد اى شىء هو

قال اللّه سبحانه وتعالى وشرُوه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين، فهذه تسمية لهم بالزهد لتحققهم بالمعنى نحتاج أن نكشفه ليكون من يتحقق بمعنى ذلك زاهداً. قوله تعالى وشرُوه باعوه، العرب تقول شريْت بمعنى بعت لأنهم يقولون ابتعت بمعنى اشتريت، فلما باعوه وخرج من أيديهم صاروا زاهدين. كذلك العبد إذا باع نفسه وماله من اللّه تعالى وخرج من هواه إلى سبيل مولاه فهو من الزاهدين. وكذلك قال المولى عز وعلا إن اللّه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، كما قال عزّ من قائل ونهىَ النفس عن الهوى، فإن الجنة هى المأوى، فإذا كان العوَض واحدا وهو الجنة كما ذُكِر فى المعنيين كان بيع النفس والمال وإخراجهما للّه تعالى بمعنى النَهىْ عن الهوى فيهما الذى هو الحياة الدنيا، وهو اقتناؤه النفس وحبس النفس عليه أعنى المال، فاستبدال ذلك بضده من إخراج الهوى من النفس وإدخال الفقر على المال هو الزهد فى الدنيا.

وصف آخر من البيان والتفصيل للزهد

لماّ حقق اللّه تعالى الزهد بغنى النفس وإخراج المال فى ذكر المبيع والمشترى فى قوله تعالى يقاتلون فى سبيل الله فيَقتلُون ويُقتَلون، وكان الزهد هو ترك طاعة الهوى وبيع النفس بنهيها عنه من المولى، وكان العوض من ذلك الجنة، كان الزاهد هو الخائف مقام ربه البائع

نفسه طوعا قبل أن يخرج نفسه إليه كرها، وكان الله تبارك وتعالى هو المحبوب له القريب منه، فصار العبد محباً له، فجعله من المقربين عنده تعالى. وإذا كانت الدنيا هى طاعة الهوى، وحب الحياة الدنية لمتعة النفس الشهوانية، كان الراغب فى ذلك آمنا لمكر الله تعالى، مشترياً للحياة الدنيا، بائعاً بذلك الحياة العليا، فلم يكن محباً له، وكان من المبعدين عنه بسوء اختياره، وحق عليه الخُسران والجحيم فى الآخرة، لأنه ضد الزاهد المقرّب الظافر بدار القرب فى جوار الحبيب القريب.

ذكر بيان حقيقة الزهد وتفصيل أحكامه ووصف الزاهد

إعلم أنّ الزهد يكون بمعنيين، إنْ كان الشىء موجوداً فالزهد فيه إخراجه وخروج القلب منه، ولا يصح الزهد فيه مع تبقيته للنفس لأن ذلك دليل الرغبة فيه، وهذا **زهد الأغنياء**، وإن لم يكن موجودا وكان العدم هو الحال فالزهد هو الغبطة به والرضا بالفقد، وهذا هو **زهد الفقراء**، وكذلك القول فى الزهد فى ترك الهوى لا يصح إلا بعد الابتلاء به والقُدرة عليه،ألَم تر أن إخوة يوسف عليهم السلام همّوا بالزهد فيه بقولهم لَيوسف وأخوه أحب إلى أبينا منّا، ولم يُسمهم الله تعالى زاهدين. وتكلموا بالزهد فيه بقولهم اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يَخْلُ لكم وجهُ أبيكم، ولم يُسمّوا زاهدين. وأرادوا الزهد فيه بقولهم أرْسله معنا غداً نرتع ونلعب ولم يتحققوا بالزهد فيه. وعزموا على الزهد فيه وأجمعوا عليه ولم يسمهم الله تعالى زاهدين، مع قوله تعالى مخبرا عنهم، فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب، لأن هذا كله من أسباب الزهد ومقدماته قد يلتبس ويُشكِل على من لا يعرف حقيقة الزهد فيظنه زهدا وليس هو زهداً، لأنه فى أيديهم فلما خَرج من أيديهم واعتاضوا منه سواه حقّ زهدُهم فيه، فقال تعالى مخبراً عن حقيقتهم وشروه، أى باعوه وكانوا فيه من الزاهدين. وكذلك الثوب تهمّ ببيعه تريد بيعه ويغلب عليك بيعه ولا تكون زاهداً، ولكن تكون موصوفا بالإرادة للزهد حى تبيعه وتعتاض منه فحينئذ حقّ زهدك فيه. ففى تدبر الخطاب من قوله وكانوا فيه من الزاهدين أنّ مَن أخرج الشىء من يده طوعاً ونفسه تتبعه فله مقام فى الزهد بالمجاهدة، ومن أمسك الشىء وأظهرت نفسه الزهد فيه بالإرادة والهِمّة فلا مقام له فى الزهد، لأن الإمساك علامة الرغبة، والرغبة ضد الزهد، فكيف يوصف بالشىء وضده فى حال قائمة، فالممسك للشىء المتوهم للزهد فيه بإظهار نفسه ذلك بأحد وصفين، إما أنْ لا يعرفه الزهد أو لايعرف خَفَى شهوة النفس، هذا إنْ

لم يمّوه على الراغبين. والمخرج لقلبه عنه هو المتحقق بالزهد فيه وهذا هو الذى وصف اللّه تعالى به إخوة يوسف. والممسك للشيء المغتبط به الذى همّ فيه وقلبه عاكف عليه هو المتحقق بالرغبة فيه وهذا وصف عزيز مصر فى يوسف لمّا اشتراه، فحققه اللّه تبارك وتعالى بالرغبة فيه لاقتنائه له، فقال مخبرا عنه بعد ما اشتراه أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا. وكذلك وصف امرأة فرعون فى رغبتها فى موسى عليه السلام بقولها قُرّة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا، فكذلك كل من أملَ شيأ ادخّره لنفسه لا يكون زاهدا فيه حتى يخرجه عن يده وقلبه، إذ لم يكن ذلك وصف إخوة يوسف الزاهدين فيه إلاّ بعد أن أخرجوه استصغاراً له وتعوّضوا منه.

بيان آخر مستنبط من الكتاب

إعلم أنّ زهد إخوة يوسف عليهم السلام فى أخيهم قد كان يقارب زهدهم فى يوسف عليه السلام لأنه كان نظيره عند أبيه، وقد كانوا همّوا بالزهد فيه أيضا ليخلو لهم وجه أبيهم منهما. ألمَ تسمع إلى قولهم ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا. وكذلك جاء فى الخبر أنهم أرادوا أن يلقوا أخاه معه فى الجب حتى ألقى نفسه عليه يهوذا فشفع فيه فرحمه ومنعهم منه، وكان شديدا منهم منيعا مهيبا فيهم، وقد قيل إنه استوهبه منهم وقال دعوه يكون فيه سلوةً للشيخ الكبير، لا تفجعوه بهما ولا تفقدوه إياهما معا، فوهبوه له. ثم إنّ اللّه تعالى لم يقل مع إرادتهم لذلك وهمّهم به وكانوا فيهما من الزاهدين من قِبَل أنهم لم يتحققوا بالزهد فيه كالزهد فى أخيه، لأنه كان فى أيديهم لم يخرجوه، فكذلك أنت إذا كان الشيء موجودا عندك وأنت ممسكه لنفسك، ثم توهمت أنك زاهد فيه لخواطر الإرادة أو لإرادة الزهد فقد كذّبت على نفسك بتمسكك إياها زاهداً، وكذّبتك نفسُك بوجودها جهلاً منها بالعلم زهداً، أو كذَبَ وجْدُك على العلم جهلاً منك بربك عز وجل، أو وموّهت على نفس غيرك ممن لا يعرف الزهد. وهذا زهد منك فى الزهد ورغبة منك أيضا فى الدنيا حتى يخرج الشيء الذى تظن أنك زهدت فيه، وتعتاض منه محبة اللّه تعالى وطلب مرضاته تبارك وتعالى، أو ما عنده من ثوابه، فحينئذ يصح زهدك فيه على العلم وعند العلماء، فتكون صادقا، فهناك وصفَك الزاهد بالزهد، وسمّاك الزاهدون زاهداً. فأما إذا لم يكن الشيء موجودا لك فإن زهدك فيما لا تملك لا يصح، والزهد فى معدوم باطل من قِبَل أن تصرفك لا يصح فيما لا تملك، فكذلك لا يصح زهدك فيه، ولعله لو كان موجودا تغيّر قلبك به وتقلّب فيه، إذ ليس الخبر كالمعاينة، لأن الخبر قد يشبته ويوهم،

والمعاينة تكشف الحقيقة وتحكُم على الخِلْقة، ولأن النفس ذات بَنَوات لما طُبعت عليه من حب المتعة بالرفاهية، فكذلك لا يجعل ظنا معدوما كيقين موجود، إذ لو كان كيف كان الأمر، ولكن قد يكون لك مقام من الزهد فى المعدوم بقيامك بشرطه وهو أن لا تحب وجود الشيء ولا تأسى على فقده، أو تكون مغتبطا بعدمك مسرورا بفقرك، يعلم الله تعالى ذلك من غيبك ويطلّع على سرّك، أنك لا تفرح بوجوده لو وجدته، وتُخرجه إنْ دخَل عليك وأنّ قلبك قانع بالله سبحانه وتعالى راض عن اللهّ تعالى بحالك التى هى العدم من الدنيا، غير محب للاستبدال بها من الغِنَى بصدق يقينك بفضيلة الزهد، فإذا كنت بهذا الوصف حُسِبَ لك جميع ذلك زهدا، وكان لك بأحد هذه المعانى ثواب الزاهدين وإن لم تكن للدنيا واجدا، وهذا **زهد الفقراء الصادقين**، وهو التحقق بالفقر. وقد قال بعضهم حقيقة الفقر أن يكون مغتبطا بفقره خائفا أن يسلب الفقر، كما يكون الغنى مغتبطا بغناه يخاف الفقر.

وقد كان **مالك بن دينار** رحمه الله تعالى يقول إذا قيل له إنك زاهد، قال **إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز**، جاءته الدنيا وملَكَها فزهد فيها، فأما أنا ففى أى شئ زهدت؟ وقد يصح الزهد للعارف فى الشئ مع وجوده عنده إذا لم يقتنيه لمتعة نفسه ولم يتملكه ويسكن إليه، بل كان موقوفا فى خزانة الله سبحانه وتعالى التى هى يده منتظرا حكم الله تعالى فيه، ومحنة ذلك استواء وجوده وعدمه، والمسارعة إذا رأى حكم الله تعالى إلى تنفيذه فيكون فى ذلك كأنه لغيره من عيلته أو إخوانه، أو سبيل من سبيل الله تعالى، وهذا المقام زائد على الزهد، فكذلك لم يخرج منه بل كان مخصوصا فيه بخصوص، وهو أيضا مقام من التوكل.

بيان آخر مستنبط من السنّة فى ماهية الزهد أى شئ هو

الزهد أيضا تقليل الدنيا وتقريبها واحتقارها بالقلب واستصغارها، ومن ذلك الخبر الذى جاء فى ساعة يوم الجمعة أنّ النبى صلّى الله عليه وسلم قال هى فى آخر ساعة، قال وجعل يُزهّدها أى يقللها، أى يقرّب وقتها ويدنيه من الغروب. والمعنى الآخر فى الخبر الثانى من قول النبى صلى الله عليه وسلم لعلىّ رضى الله عنه لّما نزلت آية الأمر بالصدقة لمناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم، فقال له كم ترى أن نجعل عليهم من الصدقة مقدّمَةً للمناجاة، فقال شعيْرة من ذهب، قال إنك لزهيد أى مقلل مصغّر للدنيا، ولكن نجعل عليهم ديناراً. وزهيد كأنه معدول من زاهد للمبالغة فى الوصف بالزهد، كما عدل شهيد من شاهد، ومجيد من ماجد، وكما عدل عليم وقدير ورحيم من عالم وقادر وراحم للمبالغة فى العلم والقدرة والرحمة.

ذكر وصف الزهد وفضل الزاهد

وقوت الزهد الذى لابد منه وبه تظهر صفة الزاهد وينفصل به عن الراغب هو أن لا يفرح بعاجل موجود من حظ النفس، ولا يحزن على مفقود من ذلك، وأن يأخذ الحاجة من كل شئ عند الحاجة إلى الشئ ولا يتناول عند الحاجة إلاّ سدّ الفاقة، ولا يطلب الشئ قبل الحاجة. **وأوّل الزهد** دخول غمّ الآخره فى القلب، ثم وجود حلاوة المعاملة للّه تعالى. ولا يدخل غمّ الآخرة حتى يخرج همّ الدنيا، ولا تدخل حلاوة المعاملة حتى تخرج حلاوة الهوى. وكل من تاب من ذنب ولم يجد حلاوة الطاعة لم يُؤمَن عليه الرجوع فيه، وكل من ترك الدنيا ولم يذق حلاوة الزهد رجع فى الدنيا، ولا يدخل حلاوة المعاملة حتى يخرج حلاوة الهوى. **وخالص الزهد** إخراج الموجود من القلب، ثم إخراج ما خرج من القلب عن اليد، وهو عدم الموجود على الاستصغار له والاحتقار والتقالل، لهوان الدنيا عنده وصغرها فى عينه، فبهذا يتم الزهد، ثم ينسى زهده فى زهده فيكون حينئذ زاهداً فى زهده لرغبته فى مُزْهِده، وبهذا يكمل الزهد، وهذا لُبّه وحقيقته، وهو أعز الأحوال فى مقامات اليقين، وهو **الزهد فى النفس** لا الزهد لأجل النفس ولا للرغبة فى الزهد للزهد، وهذه مشاهدة الصدّيقين، وزهد المقربين عند وجْد عيْن اليقين. ودون هذا مقامات إخراج المرغوب فيه عن اليد مع نظره إليه، وعلى مجاهدة النفس فيه وهو زهد المؤمنين.

وذلك العمل بالزهد **عقد وعمل**، إذ كان الزهد عن الإيمان، والإيمان قول وعمل، وكذلك الزهد **عقد وعمل**. فعقده خروج حب الدنيا من القلب بدخول حب الآخرة فى القلب، والعمل بالزهد إخراج المحبوب من اليد فى سبيل اللّه تعالى، معتاضا منه ما عنده سبحانه وتعالى من وجهه الكريم جلّ وتعالى أو قُرْب جواره فى داره، وإن لم تكن الدنيا موجودة فإنّ ترك الأسف عليها، وقلة الحرص فيها، وترك الطلب والتمنى لها، وسكون القلب مع العدم ورضاه بيسير القَسْم، يُحسب للعبد زهداً لأن ذلك حال الفقير، فإذا قام بحكمه لم يجب عليه أكثر من القيام به.

والورع هو من الزهد كما الزهد من الإيمان، والحياء والإيمان فى قَرْن واحد كما جاء فى الخبر، إذا نزع أحدهم تبعه الآخر، وروينا فى ذلك حديثا من طريق أهل البيت الزهد والورع يجولان فى القلب كل ليلة، فإنْ صادفا قلبا فيه الإيمان والحياء أقاما فيه وإلاّ ارتحلا.

والقناعة باب من الزهد أيضا. والرضا باليسير من الأشياء حال من الزهد. والتقلل فى الأشياء مفتاح الزهد. وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله قد حُجبت قلوبنا بثلاثة أغطية، فلن يُكشف للعبد اليقين حتى تُرفع هذه الحُجب: الفرح بالموجود، والحزن على المفقود، والسرور بالمدح. فإذا فرحت بالموجود فأنت حريص والحريص محروم، وإذا حزنت على المفقود فأنت ساخط والساخط معذب، وإذا سررت بالمدح فأنت معجب والعُجب يحبُط العمل. وقال الله تعالى لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم، أى منهما، وهذان الوصفان هما أتّم حال فى الزهد، مَن أعطى أحدهما تبعه الآخر، لأن الذى لا يأسى على ما فاته من الدنيا هو الذى لا يفرح بما أتاه منها، لأنه مثله، والذى لا يفرح بما أتاه منها هو الذى لا يحزن على ما فاته، وهذا وصف عبد قائم بحكم ربه قد شغلته مشاهدة الآخرة عن التفرغ لمتعة الدنيا، وفرّغته من الاشتغال بما يفنى. وفى أحد الوجوه من قوله تعالى وأنه هو أغنى وأقنى، قيل أغنى أهل الآخرة بالله عن الدنيا، وأقنى أهل الدنيا من الدنيا، أى جعل لهم قُنْية ومُدّخرا وعُدّة، كما وصف من ذمه من قوله تعالى جمع مالاً وعدّده، أى قال هذا عُدّة لكذا، وهذه عدة لكذا فهدده بالويل فحصل من ذلك أن الزاهد فى المال عُدّته الله تعالى فى كل الأحوال، وكنزه وذخره، وطوبى له وحُسن مآب.

وروينا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال كفى باليقين غنىً، وكفى بالعبادة شُغلا، وكفى بالموت واعظا، وهذا جملة وصف الزاهد الموقن الذى هو للموت مُرتَقِب، مع الخبر المشهور ليس الغنى عن كثرة العرَض، إنما الغنى غنى النفس. وقد جعل النبى صلّى الله عليه وسلم الزهد فى الدنيا علَماً لحقيقة الإيمان، وقرّبه بمشاهدة الإيقان فى قوله عليه الصلاة والسلام لحارثة عَزَفَت فالزم، عبدٌ نوّر الله قلبه، لمّا قال أنا مؤمن حقا، قال وما حقيقة إيمانك، فابتدأ بالزهد فقال عَزَفَتْ نفسى عن الدنيا فاستوى عندى حجرُها وذَهبُها، وكأنّى بالجنة والنار، وكأنى بعرش ربى بارزاً.

وأشدّ من هذا الخبر الآخر الذى جعل النبى صلى الله عليه وسلم الزهد من علامة شرح

الصدر بالنور، وهو نور التصديق الذى هو عموم وصف المؤمنين، لأنه هو فى التحقيق الإسلام، ففسّر قوله تعالى فمن يُرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، قيل يا رسول الله ما هذا الشرح، قال إن النور إذا دخل القلب انشرح له الصدر وانفتح، قيل يا رسول الله هل لذلك من علامة، قال نعم، التجافى عن دار الغرور، والإنابه إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله. فهذا هو الزهد جعله شرطا لحقيقة الإسلام.

وأشدّ من هذين الخبرين الخبر الثالث الذى فسّر الحياء من الله تعالى بالزهد فى الدنيا، فقال استحيوا من الله تعالى حقّ الحياء، قلنا إنّا لنستحيِ، قال تبنون مالا تسكنون، وتجمعون مالا تأكلون. وبمعنى هذا تممّ إيمان الوفد الذين سألهم ما أنتم، فقالوا مؤمنون. قال وما علامة إيمانكم، فذكروا الصبر على البلاء، والشكر عند الرخاء، والرضا بمواقع القضاء، وترك الشماتة بالمصيبة إذا نزلت بالأعداء. فقال عليه الصلاة والسلام إن كنتم كذلك فلا تجمعوا مالا تأكلون، ولا تبنوا مالا تسكنون، ولا تنافسوا فيما عنه ترحلون. فهذا هو الزهد جعله تكملة إيمانهم وعلوّ مقامهم وتماماً على إحسانهم.

وأعظم من هذه كلها الخبر الرابع الذى جعل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم الزهد من شرط إخلاص التوحيد فى حديث رويناه عن ابن المنكدر عن جابر، قال خَطَبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال مَن جاء بلا إله إلا الله، لا يخلط معها غيرها، وجبت له الجنة، فقام إليه علىّ كرّم الله وجهه فقال بأبى أنت وأمى يارسول الله مالا يخلط بها غيرها صفْه لنا، فسرّه لنا، فقال حبّ الدنيا وطلباً لها واتباعاً لها، وقومٌ يقولون قول الأنبياء ويعملون أعمال الجبابرة، فمن جاء بلا إله إلا الله ليس شىء فيها من هذا وجبت له الجنة. فلذلك كان علىّ رضى الله عنه يجعل الزهد مقاما فى الصبر، ويجعل الصبر عُمدة الإيمان فى حديثين رويناهما عنه، أوّلهما قوله فى الحديث الطويل الذى رواه عِكْرمة وعُتبة بن حميْد والحْرث الأعور وقُبيصةْ بن جابر الأسدى فى مبانى الإيمان، أنه قال **الإيمان على أربع دعائم**، على الصبر واليقين والعدل والجهاد، ثم قال فيه **والصبر منها على أربع شُعَب**، على الشوق والشفَق والزهادة والترقّب، فمن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات، ومن أشفق من النار رجع عن المحْرمات، ومن زهد فى الدنيا هانت عليه المصيبات، ومن ترقّب الموت سارع فى الخيرات. والخبر الآخر فى الصبر الذى جعله عمود الإيمان ينهدم الإيمان بهدمه، هو قوله

والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، لا جسد لمن لا رأس له، ولا إيمان لمن لا صبر له. وروينا في خبر مقطوع السخاءُ من اليقين ولا يدخل النار موقن. والبخل من الشك ولا يدخل الجنة من شكّ. فكان هذا الحديث مفسِّراً للخبر المجمَل السخيُّ قريبٌ من الله قريبٌ من الناس قريبٌ من الجنة، بعيدٌ من النار. والبخيل بعيدٌ من الله، بعيدٌ من الناس، قريبٌ من النار. فسِّر في ذلك الخبر بأي معنى يكون السخيّ قريباً من الله تعالى قريباً من الجنة، لأن السخاء من اليقين، وبأي معنى يكون البخيل بعيداً من الله تعالى قريباً من النار، لأن البُخل من الشكّ، فالسخاء وصف الزاهد ولا يكون الزاهد إلاّ سخيًا، والبخل وصف الراغب ولا يكون الحريص إلاّ بخيلا. ولا يكون البخيل زاهداً لأن الزهد يدعو إلى إخراج الشيء والبخل يدعو إلى إمساكه، فنفس السخاء زهد، فلذلك ذُمّ البخل لأنه رغبة في الدنيا.

ثم إن الحرص علامة البخل لأنه دليل الرغبة، والقناعة علامة السخاء لأنها باب الزهد، فلذلك قيل سخاء النفس عما في أيدي النفس أفضل من سخاء البذل. ثم يفترقان في الحُكم بعد اجتماعهما في الاسم، فمن جاد بملُكه لله تعالى كان زاهداً فيه لله تعالى ووقع أجره على الله، ومَنْ جاد بماله لأجل الناس كان أيضا زاهداً في ذلك موصوفا بالسخاء ولكن ذلك لنفسه ولأجل هواه، ولا أجر له عند الله تعالى إذ لم يكن من عمّال الله تعالى، فبطُل أجره لأنه عمِل لنفسه وحَصّل شكرَه وذِكْرَه في الدنيا، لأنه عمِلَ لأجل الناس كما قال ابن المبارك رحمه الله – ما رأيت بين الفتوة والقراءة فَرْقا إلاّ في شيء واحد ما حظَرَت القراءة شيئاً إلا قبّحته الفتوة، وإنما يفترقان في أن القراءة يُراد بها وجه الله تعالى، والفتوة يُراد بها وجوه الناس ومدحهم. وقد كان أستاذه سفيان الثوري رحمه الله يقول مَن لم يُحسن يتَفتّى لم يُحسن يتقرّى، أي من لم يعرف أحكام التَفتّى فيقوم بها حتى يستحق وصف فَتَى لم يُحكِم أوصاف التَقرّى حتى يوصف بأنه قارئ.

ثم إن العبد قد يجاهد نفسه على الزهد كما يجاهدها على مخالفة الهوى، وكما يجاهدها بالصبر على الحق، بأن يُخرج المرغوب وينُفق المحبوب على كراهة النفس وحملٍ بالزهد عليها، فيكون له مقامٌ في الزهد ينال البرّ ويستوجب مدحاً من البرّ. والمتزهد غير الزاهد، وهو الذي يتصنّع للزهد ويعمل في أسبابه من التقلّل ورثاثة الحال في كل شيء، فمثله مثل المتصبّر من الصابر الذي يجهل على نفسه بالصبر ويصابرها على العلم فيكون له مقام من الصبر.

وصفوة الزهد انتظار الموت وقصْر الأمل لأن فيهما ترك الادخار وتحسين الأعمال. وقال ابن عيّينة حد الزاهد أن يكون شاكرا عند الرخاء صابرا عند البلاء. وقال بشر بن الحارث رحمه اللّه الزهد فى الدنيا هو الزهد فى الناس. مَن زهد فيهم فقد زهد فى الدنيا. وكذلك قال بعض الحكماء إذا طلب الزاهدَ الناس فاهرب منه، وإذا هرب من الناس فاطلبه. وقيل ليحيى بن معاذ رحمه اللّه متى يكون الرجل زاهدا، فقال إذا بلغ حرصه فى ترك الدنيا حرص الطالب لها كان زاهدا. وقال قاسم الجوعى الزهد فى الدنيا هو الزهد فى الجوْف. بقدر ما تملك من بطنك كذلك تملك من الزهد. فكانت الدنيا عنده الشبع وأكل الشهوات. وقال فضيل بن عياض رحمه اللّه الزهد هو القناعة. فكانت الدنيا عنده هى الحرص والشره. وقال الثورى الزهد هو قصر الأمل، فكانت الدنيا عنده طول الأمل. وكان أبو سليمان الدارانى رحمه اللّه تعالى يقول الدنيا كل ما يشغلك عن اللّه تعالى، فكان الزهد عنده التفرغ للّه تعالى. وقد قال إنما الزاهد من تخلى عن الدنيا واشتغل بالعبادة والاجتهاد، فأمّا من تركها وتبطّل فإنما طلب الراحة لنفسه. وكان داود الطائى رحمه اللّه تعالى يقول كل ما شغلك عن اللّه تعالى من أهل أو مال فهو عليك شُؤم. وقال أبو سليمان مَن تزوّج أو كتب الحديث أو طلب معاشا فقد ركن إلى الدنيا. وقرأ قوله تعالى إلاّ مَن أتى اللّه بقلب سليم، قال هو القلب الذى ليس فيه غير اللّه تعالى. وقال إنما زهدوا فى الدنيا لتَفْرَغَ قلوبهم من همومها للآخرة.

وكان إمامنا وشيخ شيخنا أبو محمد سهل بن عبد اللّه رحمه اللّه تعالى يقول أوّل الزهد التوكل، وأوسطه إظهار القُدرة. وقال لا يزهد العبد زهداً حقيقيا لا رجعة بعده إلاّ بعد مشاهدة قدرة، فإنّ أوّل القُدرة عندى أن يَشهد ما سمع من كلام القادر المُزْهِد، إذ يقول تبارك وتعالى ومما توقدون عليه فى النار ابتغاءَ حِلْيةٍ أو متاعٍ زَبَدٌ مِثْلُه، فالحلية الذهب والفضة وهما قِيَم الأشياء اللذان ملَكا النفوس ونَكسا الرؤس، فالمتاع ما سواهما من معادن الأرض، فإذا شهد العبد الذهب الذى هو سبب الدنيا، ولأجله أشرَك مَن أشرك، وبحبائله ارتبك من ارتبك، وأوقوع حلاوته فى القلب وقع من وقع، فإذا شهد جوهر الذهب والفضة زَبَداً طافياً على وجه الماء لا نفعَ فيه ولا غُنية به ولا قيمة له، زَهَد فيه حينئذ زُهداً صادقا فكان زهده معاينةً لا خبرا، وكان من المؤمنين حقاً الذين وصفهم الحق بالحق فى قوله تعالى إذا ذُكِرَ اللّه وَجِلَت قلوبهم، وإذا تُليت عليهم آياتُه زادتهم إيمانا، فالزهد مزيد الإيمان، ثم قال وعلى ربهم يتوكلون، فالزهد يُدخل فى التوكل، ثم قال فاتخذْه وكيلا واصبر على ما يقولون، فالتوكل

يُوقِف على الصبر. ومن سمع كلام الله تعالى فيعقله يُبلغه الله تعالى مأمنه فى المقام الأمين فى جنات وعيون، ويستحق وصف الله تعالى بالإيمان إذا تلا القرآن بحقيقة الإيقان، قال عزّ وجلّ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به، وذلك أن هذا الزَبَد تشبيهٌ من الله تعالى لِمَثَل ضَرَبه للحق والباطل، فالمَثَل هو الماء والزبَد، فمَثَل الحق فى نفعه وبقائه بالماء، ومثَل الباطل فى ذهابه وقلة نفعه بالزبد، ثم شبّه الذهب لذهابه عن الحقيقة بالزبد تشبيه مماثله لا تشبيه مجاز، لقوله زيدٌ مِثْله، والمماثلة مستقصاة، ثم قال كذلك يضرب الله الأمثال، للذين استجابوا لربهم الحُسنى، أى الجنة والبقاء. وقال تعالى للذين لا يؤمنون بالآخرة مَثَلُ السَوْء، هم المريدين للحياة الدنيا وزينتها، الراضون المطمئنون بها، ليس لهم فى الآخرة إلاّ النار.

فسبحان من نفذ بصره الأبصار، وسبحان مقلب الليل والنهار، وسبحان مَن كل شئ عنده بمقدار، يبصر ما لا نبصر كما يَقْدر على ما لانقدر، خصّ المشاهدين بمعنى مشاهدته كما خصّهم بالإحاطة بشئ من علمه، فأحاط عليهم بما شاء لمّا أحاط لهم ما شاء، فكان الذهب والفضة عندهم زبداً طافياتُفرّقُه الرياح فيكون فوق الماء متجافيا وهما من معادن الجبال. وهذه شهادة أهل الله تعالى، أولى المطلع فى القرآن، من أهل البيان، كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون فى الدنيا والآخرة، أى تتفكرون فى فناء الدنيا وزوالها وبقاء الآخرة ودوامها، فتؤثرون الباقى الدائم وترغبون فيه على الزائل الفانى، وتزهدون فيه لأن ما يكون آخره فناء يُشبه آخرُه أول أمره، وكذلك قال العليم الحكيم والآخرة خير وأبقى، فوصفها لبقائها فى المآل بوصفين من صفاته كما قال تعالى والله خير وأبقى، ولأنه قال تعالى ما عندكم ينفد وما عند الله باق، فنسب الدنيا إلينا ليُذلّنا بها لأنّا أهل الفناء، وأُيزهّدنا فيها، وأضاف الآخرة إليه ليُعزّها به لأنه أهل البقاء، وليُرغّبنا فيها، فإذا شهد العبد بعين قلبه ويقين إيمانه ما صدّق به مما عَقَله، ما يفْنَى آخرُه كأنه لم يكن، وما يَبقَى آخره كأنه لم يزل، كان من المتفكرين فى هذه الآية المشاهدين لها، وممن تلاها حق تلاوتها فآمن حقيقة الإيمان، وزَهَد فى الدنيا حقيقة الزهد، ورغب فى الآخرة حق الرغبة، وكان من أولى الأيدى والأبصار، أى من

ذوى القُوَى فى الدين والبصائر فى اليقين، فلمّا أبصر بقواه عَبْر الدنيا إلى اللّه تعالى، وكان زادة تقواه كما قال تعالى ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكّرون، أى تذكرون الفرد، ففِروا إلى اللّه، أى من الأشكال والأضداد، وكما قال فاعتبروا يا أولى الأبصار، فعَبَر لمّا أبصر، وكان ممن أخذ الكتاب بقوّة، قيل بعمل فيه، وقيل بيقين فيه، ويقال بجد واجتهاد، فكان من المحسنين الذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة.

وتلا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم الذين يذكرون اللّه قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض الآية، وقال ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها. ويل لمن تلاها ومسح بها سَبَلَتَه - وذلك أن السموات والأرض عبّر بهما عمّا وراءهما من درجات الجنان ودركات النيران، فكشف هذان عما علا وسَفُل وأحاط بهما من العرش والثرَى لمن تفكّر فيهما، ثم كشف ذلك له وراءه من العزة، وجاوزت الأفكار الملكوت لما شُرِحَت القلوب بأنوار اليقين إلى الأفق الأعلى، فنفذت أبصار المتفكرين بقواها إلى مشاهدة ذلك، وبقيت أنوار يقينهم مُعاينة ما أحاط بذلك، بما يشهدون إلى ما وراءه مما به أيقنوا. وللمؤمنين مشاهدة للدنيا قريبة دون هذه من طريق العقول يشهدون أنها عقوبة، كما قيل ما فُتِحتْ الدنيا على عبدٍ إلاّ مكراً به، ولا رُوِيّت عنه إلاّ نظراً له. وسمعنا فى أخبار داود عليه السلام أن اللّه تعالى أوحى إليه تدرى لِمَ ابتليتُ آدم بأكل الشجرة، لأنى جعلت معصيته سبباً لعمارة الدنيا. فينبغى فى دليل الخطاب أن تكون الطاعة سبب خرابها وهو الزهد فيها، فصحّ بذلك الخبر المشهور حبُّ الدنيا رأسُ كل خطيئة، لأنه كان أساسها. ولكن لا يسع ذلك العامة لأنهم مرادون بالعمارة، وَصَلُحَ لنفر من الخاصة لأن نقصان عددهم من الكافة لا يُنقِص عمارة الدنيا، إذ المراد عمارتها بأهلها.

ويقال عن آدم عليه السلام لمّا أكل من الشجرة تحركت معدته لخروج الثُّفْل، ولم يكن ذلك مجعولا فى شئ من أطعمة الجنة إلاّ فى هذه الشجرة، فلذلك نُهِيَا عن أكلها، قال فجعل يدور فى الجنة، فأمر اللّه تعالى مَلَكاً يُخاطبه، فقال أى شئ تريد، فقال آدم عليه السلام أريد أن أضع ما فى بطنى من أذى، فقيل للملَك قل له فى أى مكان تضعه، على الفُرُش أم على السُّرُر أم على الأنهار أم تحت ظلال الأشجار؟ هل ترى ههنا موضعا يصلح لذلك، ولكن اهبط إلى الدنيا. قال وتلطّف اللّه تعالى له بهذا المعنى فأهبطَه إلى الأرض. وقد نغّص اللّه تعالى فاكهة الدنيا وغيّرها بحَشو العَجْم والثُّفْل ليزهّد فيها، وأخبر أنها مقطوعة ممنوعة ليرغب فى الدائم الموهوب.

وكان بعض العلماء يقول ما سطع لى زينة من زُخرف الدنيا إلاّ كُشِفَ لى باطنه، فظهر لى عزوفٌ عنه، فهذه عناية من اللّه تعالى بمن وَلِيَهُ من أوليائه المقرّبين منه، فمن شهد الدنيا بأوّل وصفها لم يغترّ بآخره، ومَن عرفها بباطن حقيقتها لم يُعجَبَ بظاهرها، ومن كوشف بعاقبتها لم يستهوه زخرفها، وكان عيسى عليه السلام يقول ويلكم علماء السوء، مَثَلكم مَثَل قناة حُشَّ، ظاهرُها جَصّ وباطنها نتن. وقال **مالك بن دينار** رحمه اللّه اتقوا السحّارة فإنها تسحر قلوب العلماء، يعنى الدنيا، فمن حرص على الدنيا بالباطل فقد قتل نفسه، فإنْ قَوِيَ حرصُها عليها واشتد عشقه لها قتل غيره. قال اللّه تعالى ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ولا تقتلوا أنفسكم. وقال فى قتل غيره بصدّه إياه عن سبيل اللّه إنّ كثيرا من الأحبار والرُهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدّون عن سبيل الله. وروينا فى أخبار عيسى عليه السلام أنه مر فى سياحته ومعه طائفة من الحَواريّين بذهبٍ مصبوب فى الأرض فوقف عليه، ثم قال هذا القاتول فاحذروه، ثم عبر وأصحابه فتخلّف ثلاثة لأجل الذهب، فأقام اثنان ودفعا إلى واحد شيئاً منه يشترى لهم من الطيبات مِن أقرب الأمصار إليهم، فوسوس إليهما العدّو ترضيان أن يكون هذا المال بينكم أثلاثاً، اقتلوا هذا فيكون المال بينكم نصفين، فأجمعا على قتله إذا رجع إليهما، قال وجاء الشيطان إلى الثالث فوسوس إليه أرضيت لنفسك أن تأخذ ثلث المال، اقتلهما فيكون المال كله لك، قال فاشترى سُمّاً فجعله فى الطعام، فلّما جاءهما به وثبا عليه فقتلاه، ثم قعدا يأكلان الطعام، فلّما فرغا ماتا، فرجع عيسى عليه السلام من سياحته فنظر إليهم حول الذهب صرْعى والذهب بحاله، فعَجب أصحابه وقالوا ماشأن هؤلاء، فأخبرهم بهذه القصة.

وقيل **لابن المبارك** مَن الناس؟ قال العلماء، قيل فمَن الملوك؟ قال **الزاهدون**. وروينا عن ابن المسيب عن أبى ذر قال، قال رسول الله صلى اللّه عليه وسلم مَن زَهد فى الدنيا أدخَل اللّه تبارك وتعالى الحكمة قلبه، وأنطق بها لسانه، وبصّره داء الدنيا ودواءها، وأخرجه منها سالما إلى دار السلام. وروينا فى الخبر الدنيا دارُ مَن لادار له، ومال من لامال له، ولها يجمع مَن لاعقل له. وكان **الحسن البصرى** رحمه اللّه تعالى يقول رأيت سبعين بدريا كانوا واللّه فيما أحل اللّه تعالى لهم أزهد منكم فيما حرّم اللّه تعالى عليكم. وفى حديث آخر كانوا بالبلاء والشدّة تصيبهم أشدّ فرحا منكم بالخِصْب والرخاء، لو رأيتموهم قلتم مجانين، ولو رأوا خياركُم قالوا مالهؤلاء مِنْ خَلاَق، ولو رأوا شراركم قالوا ما يؤمِن هؤلاء بيوم الحساب. قال

وكان أحدهم يعرض له المال الحلال فلا يأخذه، ويقول أخاف أن يُفسد علىّ قلبى، فمن كان له قلب حفظه من فساده وخاف من تغيّره وإبعاده، وعمل فى صلاحه وإرشاده، ومن لم يكن له قلب فهو يتقلّب فى ظلمات الهوى، فربما انقلب على وجهه خَسِرَ الدنيا والآخرة، أو يكون من أهل الرضا بالدنيا وأهل الغفلة عن آيات اللّه تعالى، فيكون قد رضى بلا شىء وآثره على من ليس كمِثله شىء، كوْصف من أخبر اللّه تعالى عنه فى قوله تعالى ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون، فيستحق الإعراض من الحبيب، ويستوجب المَقْت من القريب، كمِثل من أمر اللّه تعالى بالإعراض عنهم وترْك القبول منهم إذ يقول عزّ مِن قائل فأعرضْ عمن تولى عن ذِكْرنا ولم يرد إلاّ الحياة الدنيا، ذلك مبلغهم من العلم، قال عز وجل ولاتطع مَن أغفلنا قلبه عن ذكرِنا واتبّع هواه وكان أمره فُرطا، أى مجاوزا لما نَهى عنه مقصّرا عما أُمر به، وقيل مقدِما إلى الهلاك.

وقد نهى اللّه تعالى رسوله أن يوسّع نظره إلى أهل الدنيا مقْتاً لهم، وأخبر أن ماأظهره من زَهرة الدنيا فتنةٌ لهم، وأعلمه أن القناعة والزهد خير وأبقى. تنتظم هذه المعانى فى قوله تعالى ولاتمدّن عينيْك إلى مامتّعنا به أزواجا منهم، زهرة الحياة الدنيا، لنفتنهم فيه، ورزقُ ربك خير وأبقى، قيل القناعة، وقيل قُوت يوم بيوم، ويقال الزهد فى الدنيا، وهذا الوجه أشبه بكتاب اللّه تعالى بدليل قوله تعالى والآخرة خير وأبقى، وكذلك قوله تعالى ورزق بك خير وأبقى، يعنى الزهد فى الدنيا. وقال أيضا فى مِثله بقيةُ اللّه خير لكم، يعنى القناعة، وقيل الحلال، وفى خبر أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مرّ فى أصحابه بعِشَار من النوق حُفّل وهى الحوامل، وكانت من أحب أموالهم إليهم وأنفسه عندهم، لأنها تجمع الظهر واللحم واللبن والولد والوبر، وهى الرواحل من الإبل التى ضرب النبى عليه السلام بها مَثَل خيار الناس، فقال عليه السلام الناس كإبل مائة، لاتكاد تجد فيها راحلة، أى الإبل كثيرة والراحلة التى تجمع هذه الأوصاف الخمسة من الإبل قليل، وهى العِشار التى ذكر اللّه تعالى فى قوله وإذا العِشار عُطّلت، أى تركها أهلها وهربوا لهول قيام الساعة شُغلاً بنفوسهم عنها، قال فأعرَضَ عنها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وغضّ بصره، فقيل له يارسول اللّه هذه أنفَس أموالنا، لِمَا لاتنظر إليها، فقال قد نهانى اللّه تعالى عن ذلك، ثم تلا هذه الآية ولاتَمدّن عينيك الآية. وفى حديث عمر رضى اللّه عنه لمّا نزلت هذه الآية والذين يكنزون الذهب والفضة، قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم تَباً للدينار والدرهم. قال فقلنا نهانا اللّه تعالى عن كنز الذهب والفضة

فأى شيء ندخر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتخذ أحدكم لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً وزوجة صالحة تُعينه على أمر الآخرة. وفى حديث حذيفة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من آثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله تعالى بثلاث، هَمّاً لايفارق قلبه أبدا، وفقراً لايستغنى أبدا، وحرصاً لايشبع أبدا. وروينا حديثا مرسلا عن علىّ بن معبد عن علىّ بن أبى طلحة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لايستكمل العبد الإيمان حتى يكون أنْ لايعرف أحَبّ إليه مِنْ أنْ يَعرِف، وحتى يكون قلةُ الشيء أحَبّ إليه من كثرة الشيء.

وروينا عن عيسى عليه السلام الدنيا قنطرةٌ خُلِقت يُعبَر عليها إلى الآخرة، فاعبروها ولاتُعمّروها. وقال له رجل احملنى معك فى سياحتك، فقال أخرِجْ مالك وألحقنى، قال لاأستطيع، فقال عيسى عليه السلام بشدةً يدخل الغَنِىُّ الجنة، أو قال بعُجْبْ، وقالوا له لو أمرتنا يانبى الله أن نبنى بيتا نعبد الله فيه، فقال اذهبوا فابنوا بيتا على الماء، قالوا كيف يستقيم بُنيانٌ على الماء، قال فكيف تستقيم عبادةٌ على حب الدنيا. وقال لايبلغ أحدكم حقيقة الإيمان حتى لا يُحب أن يُحمد بعبادة الله تعالى، ولايبالى من أكْل الدنيا. وكان بشر بن الحارث يقول لاتَحسُن التقوى إلاّ بزهد. وقال مرة العبادة لاتليق بالأغنياء. مَثَلُ العبادة على الغنى مَثَلُ روْضةٍ على المزبلة، ومَثَلُ العبادةِ على الفقير مَثَلُ عِقْد الجوهر فى جيد الحسناء. وقد استنبطنا ذلك من كتاب الله، ثم قال تراهم ركّعا سجّدا، فحسُنت لِبسة العبادة عليهم لحُسْنِ سيماهم بالفقر. وروينا فى وصية لقمان لابنه وهو يحذره مداخل العدو، قال وإذا جاك مِن قِبل الفقر فاخبره أن الغنىّ من أطاع الله تعالى، والفقير من انتهك معصيته، وإذا شهّى إليك الغِنَى فاخبره أنه لايحسُن جمع الغِنى والقراءة. وقال بعض السلف أبَى أهل العلم بالله تعالى أن يسمعوا الحكمة والوعظ إلاّ من الزاهدين فى الدنيا، قالوا ليس أهل الدنيا لذلك أهلاً ولايليق بهم.

وروينا عن عيسى عليه السلام فيما أوحى الله تعالى إليه يا ابن آدم، ابْكِ أيام الحياة بُكاء مَنْ ودّع الدنيا وارتفعت رغبته إلى ماعند الله تعالى. اكتف بالبُلْغَة من الدنيا ليكفك منها الجَشِب والخَشِن. بحقٍ أقول لك ماأنت إلاّ بيومك وساعتك. مكتوب عليك ماأخذت من الدنيا وفيما أنفقته، فاعمَلْ على حسَب هذا فإنك مسئول عنه. وكان عيسى عليه السلام يقول

حلاوة الدنيا مرارة الآخرة، وجوْدة الثياب خُيَلاء القلب، يعنى إعجابه وكِبْره، وملءُ البطن جُمَام النفس، يعنى قوّتها واجتماعها. بحق أقول لكم كما لا يُلذ المريض بطيب الطعام كذلك لايجد حلاوة العبادة من أحب الدنيا.

ومن الزُهد فى الدنيا **ترك الملبس الناعم، والمنظور إليه المرتفع، واجتناب النزهات من لطائف الطعام، والتفتق فى الشهوات** التى يرغب فيها المتنعّمون، **وترك الزينة والمفاخر من الآلة والأثاث** الذى يَستأنس فيه المُترفون. ومن الزهد أن يكون الشىء الواحد يُستعمل فى أشياء كثيرة. كذلك كانت سيرة السلف فى **الأثاث** وهو التقلل. كما أن أبناء الدنيا يستعملون للشىء الواحد أشياء كثيرة. وهو وصفٌ مَن التكاثر، وذلك من أبواب الدنيا قال بعض السلف أول النُسك **الزى**. وقال بعض العلماء من رّق ثوبه رقّ دينه. وقال ابن مسعود رضى اللّه عنه لايشبه الزى الزى حتى يشبه القلب القلب. وفى الخبر المشهور والبذاذة من الإيمان، قيل هو التقارب فى اللباس. والحديث المفسّر مَن ترك ثوب جمال وهو يَقدر عليه تواضعاً للّه تعالى خيّره اللّه تعالى من حُلل الإيمان أيها شاء. وفى لفظ آخر مَن ترك زينةً للّه تعالى ووضَعَ ثياباً حسنة تواضعاً للّه تعالى وابتغاءَ وجهه، كان حقا على اللّه تعالى أن يدّخر له من عبقرىّ الجنة فى تخات الياقوت. ولما أتى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أهل قبا أتوه بِشَربةٍ من لبن مشوبةٍ بعسل، فوضع القدح من يده، قال أما أنى لستُ أحرّمه، ولكنى أتركه تواضعاً للّه تعالى. وأُتِىَ عمر رضى اللّه عنه بشَربةٍ من ماء باردٍ عسل فى يومٍ صائف، فقال اعزلوا عنى حِسَابها. وأوحى اللّه تعالى إلى نبىّ من أنبيائه قُلْ لأوليائى لاتلبسوا ملابس أعدائى، ولاتدخلوا مداخل أعدائى فتكونوا أعدائى كما هم أعدائى. ولما خطَب بشر بن مروان على منبر الكوفة قال بعض الصحابة انظروا إلى أميركم يعظ الناس وعليه ثياب الفُسّاق، قلت وماكان عليه، قال ثياب رِقاق. وجاء عامر بن عبد اللّه بن ربيعة إلى أبى ذر رضى اللّه عنه فى بِزّته فجعل يتكلم فى الزهد، فوضع أبو ذر راحته على فيه، وجعل يَضْرط به، فغضب عامر فأتى ابن عمر رضى اللّه عنهما، فقال ألم تر مالقيت من أخيك أبى ذر، قال وماذاك، قال جعلت أقول فى الزهد فأخذ يهزأ بى، فقال ابن عمر أنت صنعت بنفسك، تأتى أبا ذر فى هذه البِزّة وتتكلم فى الزهد!

وقال علىّ كرم اللّه وجهه إن اللّه تعالى أخذ علَى أئمة الهدى أن يكونوا فى مثل أدنى

أحوال الناس ليَقتدِيَ بهم الغنى ولا يُزرى بالفقير فقرُه. وقد عوتب عمر رضى الله عنه فى لباسه، وكان يلبس الخشن من القطن، قيمةُ قميصه ثلاثة دراهم وخمسةُ دراهم، ويقطع مافضل عن أطراف أصابعه. وقال هذا أدنى إلى التواضع وأجدر أن يَقتدى بى المسلم. وأتت برود من اليمن إلى عمر رضى الله عنه فقسّمها على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بُرداً بُردا، ثم صعد المنبر يوم الجمعة فخطب الناس فى حلّة منها، والحلة عند العرب ثوبان من جنس واحد، وكان ذلك من أحسن زيهم، فقال ألا اسمعوا، ألا اسمعوا، ثم وعظ، فقام سلمان فقال والله لانسمع والله ولانسمع. قال وماذاك، قال لأنك قد أعطيتنا ثوبا ثوبا ورُحت فى حُلة، فقد تفضلت علينا بالدنيا، فتبسم ثم قال عَجِلتَ ياأبا عبد الله رحمك الله، إنى كنتُ غسلت ثوبى الخَلِق فاستعرت بُردَ عبد الله بن عمر، فلبستُه مع بردى، فقال سلمان قل الآن حتى نسمع.

ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التنعُّم، وقال إن عباد الله تعالى ليسوا بالمتنعمين. ورؤى فضالة بن عبيد وهو والى مصر أشعث حافيا، فقيل له أنت الأمير وأنت هكذا، فقال نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإرفاد وأمرنا أن نحتفى أحيانا. ورووا أن عمر رضى الله عنه خطب الناس فقال أنشد الله رجلا علِمَ فىّ عيْبا إلاّ أخبرنى به، فقام شاب فقال فيك عيبان اثنان، قال وما هما رحمك الله، قال تُذيّل بين البُردين وتجمع بين الأدمين، قال فما أذال بين البردين وماجمع بين الأدمين حتى لقى الله تعالى. هكذا حدّثنا به، قال الشيخ بإسناده يذيّل بالذال فمعناه تجمع بين نيليهما، فيتفق ذيل الأعلى على ذيل الأسفل من طول البُرد الأعلى، وأنا أحسب أن معناه تذّيل بالدال أى تبدل أحدهما بآخر، ويصلح أن يكون بالذال من الإذالة أى الوضع، يقال أشلّ هذا وأذلّ هذا، مثل قول الناس من إذالة العلم أن يجيب العالم عن كل مايُسأل عنه كأنه أراد تضعهما عندك معا. وقال علىّ لعمر رضى الله تعالى عنهما إنْ أردت أن تلحق بصاحبيك فارفعْ القميص ونكّس الإزار واخصِف النعل وكُلْ دون الشبع. وكان عمر رضى الله تعالى عنه يقول اخلُولقوا واخشوْشنوا وتمَعْددوا وإياكم وزى العَجَمَ كسرى وقيصر. وقال علىّ رضى الله عنه من تزيا بزى قوم فهو منهم.

وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد من هذا، إن من شرار أمتى الذين غُذُّوا بالنعيم، الذين يطلبون ألوان الطعام وألوان الثياب ويتشدّقون فى الكلام. ولما قدم عمير بن

ـ سعد أمير حمص على عمر رضى الله عنه قال له مامعك من الدنيا ياعمير، قال معى عصاى أتوكأ عليها وأقتل بها حيةً إنْ لقيتها، ومعى جرابى أحمل فيه طعامى، ومعى قَصْعتى آكل فيها وأغسل فيها رأسى وثوبى، ومعى مِطْهرتى أحمل فيها شرابى وَوَضوءً للصلاة يعنى السطيحة، فما كان بعد هذا من الدنيا فهو تبَعٌ لما معى، فقال له عمر صدقت رحمك الله. وكان عمر رضى الله عنه قد كتب إلى أهل حمص أن عدّوا إلىّ فقراءكم، فسمّوا له فى الكتاب نفراً وذكروا فيهم سعيد بن جذيم، ويقال بل عمير بن سعد، فقال عمر مَنْ سعيد بن جذيم، فقالوا أميرنا ياأمير المؤمنين، قال أوَ فقيرٌ هو، قالوا نعم مافينا أفقر منه، قال فما فعل عطاؤه، قالوا يُخرجه كله، لايترك لنفسه ولا لأهله شيأً منه، فوجّه إليه عمر رضى الله عنه بأربعمائة دينار وسأله أن ينفقها على نفسه وأهله، فلّما وصل إليه دخل على زوجته وهو يبكى، فقالت له ماشأنك مات أمير المؤمنين، قال أعظم من ذلك، قالت فتق فتقاً فى المسلمين، قال أشد من ذلك، قالت فما هو، قال أتتنى الدنيا، قد كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم تفتح الدنيا علىّ، وكنت فى أيام أبى بكر رضى الله عنه فلم تفتح الدنيا علىّ، وخُلّفت إلى أيام عمر رضى الله عنه. ألا وشرّ أيامى أيام عمر! ثم حدّثها، فقالت نفسى فداؤك فاصنع بها مابدا لك، فقال أوَ تساعدينى على ماأريد، قالت نعم، قال اعطينى خلَقَ ذلك البُرد، قال فجعل يمزقه ويصرّهافيه صُرراً مابين العشرة والخمسة والثلاثة حتى أفناها، ثم جعلها فى مخلاة وتأبطّها وخرج، فاعترض جيشاً من المسلمين يريدون الغزو، فجعل يدفع إليهم صرة صرة على نحو مايرى من حالهم، ثم رجع ولم يترك لأهله منها ديناراً. فهذه كانت شمائل جملة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين لهم بإحسان رضى الله تعالى عنهم.

وروينا فى حديث عياض بن غنم عن النبى صلى الله عليه وسلم فى وصف الأخيار: مِن خيار أمتى فيما أنبأنى الملأ الأعلى قوم يضحكون جهراً من سَعة رحمة بهم، ويبكون سراً من خوف عذابه، مُؤْنتهم على الناس خفيفة وعلى أنفسهم ثقيلة، يلبسون الخُلّقان ويتبعون الرهبان، أجسامهم فى الأرض وأفئدتهم عند العرش. وفى حديث أبى الدرداء رضى الله عنه لمّا وصف الأبدال، قال فقلت له فكيف لى أن أكون بهذا الوصف وأنّى لى أن أكون مثلهم، فقال ياابن أخى مابينك وبين أن تكون فى أوّل ذلك وأوسطه إلاّ أن تزهد فى الدنيا فتعاين الآخرة بقلبك فتعمل لها. وروينا فى الخبر أن الله تعالى يحب المتبذّل الذى لا يبالى مالبس. وقال الثورى وفضيل رحمهما الله تعالى جُعل الشر كله فى بيت وجُعل مفتاحه الرغبة فى

الدنيا، وجُعل الخير كله فى بيت وجُعل مفتاحه الزهد فى الدنيا. وسئل يوسف بن أسباط وسفيان الثورى رحمهما الله أى الأعمال أفضل فقالا الزهد فى الدنيا. وهذا موجود فى ظاهر الخبر المنقول عن عيسى عليه السلام. ورويناه عن نبيّنا صلى الله عليه وسلم: حب الدنيا رأس كل خطيئة. ففى تدبره أن بغضها رأس كل طاعة. كذلك كان بعض السلف يقول كفى به ذنبا لايُستغفر منه حب الدنيا. وأشد من ذلك مارواه سفيان عن يحيى بن سليم الطائفى، رفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أن عبداً عبَد الله تعالى عبادة أهل السموات والأرض ولقيه محباً للدنيا، لأقامه الله تعالى فى الموقف مقاماً شهّره فيه بين الخلائق، ألا إنّ فلان بن فلان قد أحبَّ ماأبغضَ الله تعالى. وقال يحيى بن جابر الطائى، قال عمرو بن الأسود العنسى لاألبس مشهوراً أبداً، ولاأنام بليل على دِثار أبدا، ولاأركب على مأبور أبدا، ولاأملأ جوفى من طعام أبدا، فقال عمر رضى الله عنه من سرّه أن ينظر إلى هَدْى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر إلى عمرو بن الأسود. وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر فدخل على فاطمة رضى الله عنها فرأى على بابها سِتراً وفى يديّها قلبين من فضة فرجع، فدخل عليها أبو رافع وهى تبكى فأخبرته برجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله، فقال من أجل السِتر والسوارين، فهتكَتْ الستر ونزعَتْ السوارين فأرسلت بهما بلالاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالت تصدّقت به فضعه حيث ترى، فقال إذهبْ فبِعْه وادفعه إلى أهل الصفّة، فباع القلبين بدرهمين ونصف وتصدق به عليهم، فدخل عليها وقال بأبى أنت قد أحسنت. وفى الخبر مامن عبد لبس ثوب شُهرة إلاّ أعرض الله تعالى عنه حتى ينزعه وإن كان عنده حبيبا. وقال سفيان الثورى وغيره إلبس من الثياب مالم يُشْهَرك عند العلماء ولايُحقرْك عند الجُهّال. وكان يقول إن الفقير ليمر بى وأنا أصلى فأدعه يجوز، ويمر بعض هؤلاء من أبناء الدنيا وعليه هذه البِزّة فأمقته فلا أدعه يجوز. قال بعضهم مارأيت الغنىّ فى مجلس قط أذلّ منه فى مجلس الثورى رحمه الله تعالى، ولارأيت الفقير أعزّ منه فى مجلس الثورى. وقال آخر كنا إذا جلسنا إلى سفيان تمنينا أنّا كنّا فقراء لِمَا نرى من إقباله عليهم وإعظامه لهم. وقال بعضهم إنما العالم هو الذى يقوم الفقير من عنده غنياً والغنى من عنده فقيرا. وقال بعضهم قوّمت ثوبىّ سفيان ونعليْه بدرهم وأربعة دوانيق.

وقال ابن شبرمة خير الثياب ماخدمنى وشرّها ماخدمته. وقال بعض السلف أحب الثياب إلىّ مالا يستخدمنى، وأحب الطعام إلىّ مالا أغسل يدىّ منه. وقال بعض العلماء إلبس من

الثياب مايخلطك بالسُوقة، ولاتلبس منها مايُشهّرك فيُنظَر إليك. قال وعَدَدْنا فى قميص عمر رضى اللّه عنه أربع عشرة رُقعة بعضها من أدَم. وكان بعض العلماء يقول كثرة الثياب على ظهر ابن آدم عقوبة من اللّه تعالى له. وكان **الخوّاص** رحمه اللّه تعالى لايلبس أكثر من قطعتين، إزارين أو قميص ومئزر تحته، ويعطف ذيل قميصه على رأسه يُحله فى وسطه فيغطى به رأسه. وكذلك استُحب للفقير وهو حد اللباس. وقال **سليمان الدرانى** رحمه اللّه تعالى الثياب ثلاثة، ثوب للّه تعالى، وثوب للنفس، وثوب للناس، فالذى للّه تعالى ماستر العورة وأديت فيه الفريضة، والذى للنفس ماطلبتَ لينه ونقاءه، والذى للناس ماطلبتَ جوهره وحُسنه. ثم قال وقد يكون الثوب الواحد للّه تعالى وللنفس. وقد كان بعض العلماء يكره أن يكون على الرجل من الثياب مايجاوز قيمة أربعين درهماً، وبعضهم يقول إلى المائة وبعده سرَفا فيما جاوزها. وكان **جمهور العلماء وخيار التابعين** قيمة ثيابهم مابين العشرين إلى الثلاثين. وكان المتقدمون من **الصحابة** أثمان إزارهم إثنا عشر درهماً، فكانوا يلبسون ثوبين قيمة نيّف وعشرين درهما.

واشترى **رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم** ثوبا بأربعة دراهم، وكان قيمة ثوبيْه عشرة إلى دينار. وكان طول إزاره أربعة أذرع ونصف. واشترى سراويل بثلاثة دراهم. وكان يلبس شملتين بيضاوين من صوف. وكانت تُسمى حلّة لأنهم ثوبان من جنس واحد. وربما لبس ثوبين من جنس واحد، وربما لبس بردتين أو سحوليين من هذه الغلاظ. وفى الخبر كان قميص رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كأنه قميص زيّات. وقد لبس عليه السلام يوماً واحداً ثوب سيراء من سندس قيمته مائتا درهم، فكان أصحابه يلمسون ويقولون أُنزل عليك هذا من الجنّة، تعجباً منه. وكان قد أهداه إليه المقوقس ملك الإسكندرية فأراد أن يكرمه بقبول هديته ويلبسه، ثم نزعه وأرسل به إلى رجل من المشركين وصله به، ثم حرّم لبس الحرير والديباج. وقد يكون لبسه إياه توكيدا للتحريم بعده، كما لبس خاتما من ذهب يوما واحدا ثم نزعه فحرّم لبسه على الرجال، كما أباح المتعة ثلاثاً ثم حرّمها لتوكيد أمر النكاح. وقد يحتج بمثل هذا علماء الدنيا ويطرقون به لنفوسهم ويدْعُون الناس منه إليهم ويُظهرون الدعوة إلى اللّه تعالى تأوّلاً بمتشابه الحديث، كما تأوّل أهل الزيغ متشابه القرآن على أهوائهم ابتغَاء الفتنة وطلباً للدنيا، لأن حديث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على معانى كلام اللّه تعالى فيه ناسخ ومنسوخ، ومُحكم ومتشابه، وخاص وعام. وعَدَل علماء الدنيا وأهل الأهواء عن المُحكم السائر

من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله إلى مانكرناه، وقد صلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خميصة لها عَلَم، فلما سلّم قال شغلنى النظر إلى هذه. إذهبوا بها إلى أبى جهم وأتونى بأنبجانيته يعنى كساءه، فاختار لبس الكساء على الثوب الناعم. ورأى على باب عائشة رضى الله عنها سِتْرًا فهتكه وقال كلما رأيته ذكرت الدنيا، أرسلى به إلى آل فلان، وفرَشَت له عائشة رضى الله عنها ذات ليلة فراشا جديدا وكان ينام على عباءة مَثْنيّة، فما زال يتقلب ليلته، فلما أصبح قال أعيدى العباءة الخَلِقَة ونحّى هذا الفراش عنى. قد أسهرنى الليلة. وكذلك أتته دنانير خمسة أو ستة عشاءً فبيّتها، فسهر ليلته حتى أخرجها من آخر الليل، قالت عائشة فنام حينئذ حتى سمعتُ غطيطه، ثم قال ماظنُّ محمدٍ بربه لو لقىَ الله تعالى وهذه عنده. وكان شِراك نعله العربى قد أخْلَقَ فأبدل بسيْر جديد فصلّى فيه، فلما سلّم قال أعيدوا الشراك الخلق، وانزعوا هذا الجديد فإنى نظرت إليه فى الصلاة. ولبس خاتما فنظر إليه وهو على المنبر بنظرة فرمى به، وقال شغلنى هذا عنكم، نظرةً إليه ونظرةً إليكم.

وقد قال تعالى قل إن كنتم تحبون الله فاتبّعونى يُحببكم الله. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحبنى فليستن بسُنتى. وقال فى الخبر المشهور عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى، عضّوا عليها بالنواجذ. وقد كان أبو محمد سهل رحمه الله يقول من علامة حب الله تعالى حب النبى عليه السلام، ومن علامة حب النبى صلى الله عليه وسلم حب السنة، ومن علامة حب السُنة بُغض الدنيا، وعلامة بغضها أن لايأخذ منها إلاّ زاداً وبُلْغَة. وقال النبى صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله عنها إنْ أردتِ اللحوق بى فإياك ومجالسة الأغنياء، ولاتتزعى ثوبا حتى ترقّعيه. وكان صلى الله عليه وسلم قد احتذى نعلين جديدين فأعجبه حسنهما فخرّ ساجداً، وقال أعجبنى حسنهما فتواضعتُ لربى خشية أن يمقتنى. ثم خرج بهما فدفعهما إلى أول مسكين رآه، وأمر علياً رضى الله عنه فاحتذى له نعلين سنديتين، قال فرأيته وقد لبسهما يعنى جَرْداوين، أى معطوفتين. وقال صلّى الله عليه وسلم إنّ أقرب الناس منى مجلسا يوم القيامة مَن كان علَى مثل ماأنا عليه من الدنيا. وكان صلى الله عليه وسلم يقول اللّهم اجعل رزق آل محمد قوتًا. وقال عليه السلام لايعذب الله عبداً جعل رزقه فى

الدنيا قُوت يوم بيوم. وقال عليه السلام طوبى لمن هُدى إلى الإسلام وكان رزقه فى الدنيا قوتا وقنع به، وفى لفظ آخر وصبَر عليه. وقال عليه السلام مامِن أحد غنى ولافقير إلا وَدّ يوم القيامة أنّ رزقه كان فى الدنيا قوتا. وروينا عنه صلى الله عليه وسلم اللّهم مَن أحبّنى وأجاب دعوتى فاقلِلْ ماله وولده، ومن أبغضنى ولم يُجب دعوتى فاكثر ماله وولده وأوطىء عَقِبَيه، يعنى كثرة الأتباع. وكانت هذه دعوة الصحابة على مَنْ مقتوه.

وروينا فى الخبر نقصان الدنيا زيادة الآخرة، وزيادة الدنيا نقصان الآخرة. وفى الأثر مامِنْ أحد أُعطى من الدنيا شيأ إلاّ نقَص من درجته وإنْ كان على الله تعالى كريما. وقال **إبراهيم بن أحمد الخوّاص** رحمه الله تعالى فى وصف المدّعين، وقومٌ ادّعوا الزهد ولبسوا الفاخر من الثياب، يموهون بذلك على الناس ليهدُوا إليهم مِثْلَ لباسهم، ولئلا يُنظر إليهم بالعين التى يُنظر بها إلى الفقراء فيُحتقرون فيُعطون كما يُعطى المساكين، ويَحتجون لنفوسهم باتسّاع العلم وأنهم على السُنّة، وأن الأشياء داخلةٌ عليهم وهم خارجون منها، وإنما يأخذون بعلّة غيرهم. هذا إذا طولبوا بالحقائق وأُلجؤا إلى المضايق. وكل هؤلاء أكَلَة الدنيا بالدين، لم يعنوا بتصفية أسرارهم ولابتهذيب أخلاق نفوسهم، فظهرت عليهم صفاتهم فغلبتهم فادّعوا حالاً لهم، مائلون إلى الدنيا متبّعون الهوى. وكان الخواص رحمه الله تعالى لا يلبس أكثر من قطعتين، إزارين وقميص، ومئزر تحته، ويعطف ذيل قميصه على رأسه يُغطِى به رأسه. وكذلك استحب للفقير هذا اللباس.

والأخبار فى فضائل الفقر وفضل الفقراء وفى ذم الدنيا ونقص الأغنياء أكثر من أن تُذكر، ولم نقصد جمعها ولاكثرة الاستدلال بها. ومن الزُهد ترك فضول البنيان وأن لايُبنى عالياً ولامشيداً ولامن الطين إلاّ مايُحتاج إليه. وقيل **أوّل بدعة حدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم** المناخل والموائد، وأوّل شىء ظهر من طول الأمل التدريز والتشييد، يعنى دروز الثياب، وإنما كانت تُشلّ شلاً، والبنيان بالجَص والآجر وهو التشييد، وإنما كانوا يبنون بالسعَف والجَريد. وقد جاء فى الأثر يأتى على الناس زمانٌ يوّشون بنيانهم كما تُوشّىَ البرود اليمانية. ونظر عمر رضى الله عنه فى طريق الشام إلى صَرح قد بُنِىَ بجَص وآجر فكبّر، وقال

ماكنت أظن أن فى هذه الأمة من يبنى بنيان هامان لفرعون، يعنى قولْ فرعون فأوقد لى يا هامان على الطين يعنى به الآجر. يقال أوّل من بنَى بالجَص والآجر فرعون وهامان ثم تبعهما الجبابرة، فهذا هو الزُخرف. وذكر بعض السلَف جامعاً فى بعض الأمصار، فقال أدركتُ هذا المسجد مبنياً من الجريد والسعف، ثم رأيته مبنيا من رهُوص، ثم رأيته الآن مبنيا باللَّبِن، فكان أصحابُ السعف خيرا من أصحاب الرهوص، وكان أصحاب الرهوص خيرا من أصحاب اللبن. وقد كان فى السلف من بنى داره مرارا فى مدة عُمره، لضعف بنائه وقِصَر أمله ولزهده فى إتقان البنيان، وكان منهم مَن إذا حجّ أو غزا نزع بيته أو وهبَه لجيرانه، فإذا رجع أعاده. وكانت بيوتهم من الحشيش والثُمام والجلود، وعلى ذلك العرب ببلاد اليمن إلى اليوم. وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم العباس رضى الله عنه أن يهدم علّية كان قد علا بها. ومر عليه السلام بُجنْبُذة مُعَلاّة فقال لمن هذه، قالوا لفلان فلما جاء الرجل أعرض عنه فلم يكن يُقبِل عليه كما كان، فسأل الرجل أصحابه عن تغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه فرجع فهدَمها، فمرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالموضع فلم يرها فسأل عنها، فأُخبر أنه هدَمها فدعا له بخير.

وكان سُمكُ بناء السلف قامة وبَسْطَة. وقال الحسن كنت إذا دخلت بيوت أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ضربت بيدى إلى السقف. وقال عمرو بن دينار إذا أعلى العبد البناء فوق ستة أذرع ناداه ملك إلى أين يافاسق الفاسقين. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من بنى فوق مايكفيه كُلّف أنْ يحمله يوم القيامة. ومر عمر رضى الله عنه ببيت عالٍ فقال أَبَتْ الدراهم إلاّ أنْ تُخرج رؤسها. ومر بعاملٍ له فرآه قد علّى وشيّد فقال علَى كل خائنٍ أمينان، الماء والطين، ثم شاطره ماله فجعله فى بيت المال. وفى الخبر كل نفقة يؤجَر عليها العبد إلاّ ما أنفقته على الماء والطين. وقد روينا عن بعض السلف إذا مقَت الله تعالى مالَ عبدٍ سلّط عليه الماء والطين. وقال يحيى بن يمان رحمه الله كنت أمشى مع الثورى فى طريق فنظرت إلى باب مُشيّد، قال لاتنظر إليه، فقلت يا أبا عبد الله ماتكره من النظر، قال إذا نظرت إليه كنتَ عوناً له على بنائه، لأنه إنما بناه ليُنظَر إليه، ولو كان كل مَنْ مرّ به لم ينظر إليه ماعَمِله.

وقد قال بعض السلف قبله ولاتنظر إلى بنيانهم فإنهم إنما زخرفوه لأجلكم، وفى قول الله تعالى تلك الدّار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علّواً فى الأرض ولافسادا، قيل حب الكثرة

والرياسة والتطاول فى البنيان. وكذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كُل بناءٍ وبالٌ على صاحبه يوم القيامة إلاّ ماأكَنّ من حَرٍ أو بَردٍ. وقال للرجل الذى شكا إليه ضيق منزله اتسعْ فى السماء أى فى الجنة، وهذا أحد التأويلين، والثانى اتسعْ فى المعرفة ولاتطلب اتساع المكان.

واعلم أن الزهد لايُنقص من الرزق ولكنه يزيد فى الصبر ويُديم الجوع والفقر، فيكون هذا رزقاً للزاهد من الآخرة على هذا الوصف من حرمان نصيبه من الدنيا وحمايته عن التكثّر منها والتوّسع فيها، ويكون الزهد سببه، فيكون ماصرفه عنه ومنعه من الغِنَى والتوسع رزُقه من الآخرة والدرجات العلى بحُسن اختيار من الله تعالى وحيطةِ نظرٍ. كما حُدِّثنا عن بعض العلماء أن بقّالاً جاءه فقال إنى كنت أبيع فى محلةٍ لا بقّال فيها غيرى، فكنت أبيع الكثير، ثم قد فَتح علّى بقالٌ آخر، فهل يُنقص ذلك من رزقى فى شيأ، فقال لا ولكن يزيد فى بطالتك عن البيع. فلعّل بطّالا لاعبا يحتّج لتوسعه وهواه ويُمّوه على أبناء الدنيا ممن يتولاه، فيقول بأن الزهد فى الدنيا لمّا لم يُنقصِ من رزقى شيأً قد صح مقاماً لى مع التوسع والاستكثار، وعلى التنعم والرفاهية والاستئثار، لأنى إنما آكل رزقى وآخذ قِسْمى. فلى فى الزهد مقام، ومن الرضا والتوكل حال. أو يقول إنّ الزهد قد يصبح مع التكاثر والزينة، يُزَخرِف بقوله علَى مَن لايعرف الزهد، ويَغُرّ بمقالته من لايعرف طريق الزاهدين، ولعله ممن يأكل الدنيا بالدِين، أو يُزخرف القول ويُشبّه العلم على الغافلين، فمثلُه كما قال علىّ رضى الله عنه للخوارج حين قالوا لاحُكْمَ إلاّ لله، فقال كلمة حق أُريد بها باطل. وَصَدقَ رضوانَ الله عليه لأنهم أرادوا بذلك إسقاط حُكم الأئمة وترك الطاعة للإمام العادل، كما أراد القائل إنما آكل رزقى وآخذ من الأشياء قِسْمى الاحتجاج لنفسه بهواه، والاعتذار عند الجاهلين خيفةً لومهم إياه. ولايعلم المغرور بداء الغرور أنه وإنْ كان يأكل رزقه من الدنيا ويأخذ قِسْمه من العطاء فبحكم النَقْص والبُعد، بوصف الرغبة والحرص، لأن السارق والغاصب أيضا يأكل رزقه ويأخذ قِسْمه ولكن بحكم المقْتْ وسوء الاختيار، إذ كان الله سبحانه وتعالى يرزق الحرام للظالمين كما يرزق الحلال للمتّقين، وإنما بينهما سوء القضاء ودَرْك الشقاء للأعداء، وحُسن التوفيق والاختيار بالسعادة للأولياء من المولّى الكريم. فقد حُرِم المدّعِي لذلك رزقه من الزهد، وبخَسَ نصيبه الأوفر من حب الفقر، ونَقّص حظه الأفضل من الآخرة، وجَعَلَ ماصرَف فيه وماصُرِف إليه سببا لنقصان مرتبته من طرائق الزاهدين. ولقد أُختبر بالدنيا وبما فُتِح عليه من السرّاء

ليَظهر صدقه من كذبه فوقع فى الفتنة ولم يفطن للابتلاء، وصارت مشاهدته هذه إذا كان صادقا فيها غير كاذب على وَجْده حجاباً له عن علوم العارفين المعصومين. واستُدرج بطمه هذا، لأنه علم من علوم الدنيا، يَفنَى بفنائها لا ثمرة له فى الباقية، مُكِرَ به فيه وعُدِلَ به إليه عن علوم الخائفين ومشاهدة الورعين الزاهدين الذين نظروا من الحلال فى الدقيق، وصدقوا القول فى ترك الرغبة بالعمل بالزهد للتحقيق. وإنْ كان كاذبا فى مشاهدته ظالما لنفسه بما ادّعاه من وجْده فهو من أولياء الشياطين ومن أئمة المضلين، قُيِّض للاعبين وسيق إليهم فتنةً لهم، ليس إماما للمتّقين بل من الأئمة المضلّين المحرومين أبناء الدنيا الغافلين، رغبةً فى الدنيا وزهداً فى طرائق السلف، لوجود الطمع وعدم اليقين. فقد مُكِرَ بهذا المعدول به عن علوم الموقنين وحقائق مشاهدتهم على هذا الوصف الذى أُريد به بالذى تقلّب فيه، وهو لايشعر بالمكر ولايعرف الاستدراج بالنِعَم. وأنّى له بعلم ذلك والله تبارك وتعالى يقول سنستدرجهم من حيث لايعلمون. وقال تعالى ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لايشعرون. فهيهات أن يفطن الممكور لما مُكِرَ به أو يعلم المُستدرَج مادُرِجَ فيه، لأن الماكر ألطف الماكرين والمُدرِج أحكم الحاكمين. نعوذ بالله تعالى من الاغترار بعلم الإظهار، ونسأله الصلاة على نبيه محمد وآله أجمعين، وحُسن التوفيق لمشاهدة علم التحقيق.

وبمثل ماقلناه جاءت الآثار وكثُرت الأخبار أنّ مَثَل **الدنيا والآخرة** كضُرّتين، رِضَا إحداهما فى سُخْط الأخرى، وأنهما بمنزلة المشرق والمغرب من استقبل أحدهما استدبر الآخر، وأنهما بمنزلة كَفتَى الميزان رُجحان إحداهما بنقصان الأخرى. وكان **عمر رضى الله** عنه يقول والله إنْ هما إلاّ بمنزلة قَدَحيْن لك مُلِيء أحدهما فما هو إلاّ أنْ تُفرغ أحدهما فى الآخر، يعنى أنك إنْ إمتلأت من الدنيا تفرّغتَ من الآخرة، وإنْ امتلأت من الآخرة تفرّغت من الدنيا، وإنْ كان لك ثُلث قدح الآخرة أدركتَ ثلثىّ قدح الدنيا، وإن كان لك ثُلثا قدَح الآخرة يكون لك ثلث قدح الدنيا. وهذا تمثيل حَسَن إلاّ أن فيه شدّة وتدقيقاً.

وقال بعض السلف مَثَل مَن زَهد فى الدنيا مع التَنعّم فيها كمثَل مَن يغسل يدّيه من الغَمْر بسمَك. وقال آخر مَثَل مَن زهد وهو يطلب الدنيا مَثَل من يطفىء النار بالحَلْفاء. وكان بعض الزاهدين من أهل الشام يتكلم فى الزهد فكان رجاء بن حيوة فقيه أهل الشام يحضر مجلسه، فاحتبس الزاهد يوما عنهم وقد اجتمعوا، فتكلم مؤذن الجامع فى الزهد، فأنكر صوته

رجاء بن حيوة فقال اسكت عافاك الله، إنّا نكره أن نسمع الزهد إلاّ من أهله. وفى لفظ آخر إنّا نكره أن نسمع الوعظ إلاّ مِن أهل الزهد. وقال **عيسى عليه السلام لاتنظروا إلى أموال** أهل الدنيا فإنّ بريق أموالهم يذهب بنور إيمانكم. وقال بعض العلماء تقليب الأموال يمُص حلاوة الإيمان. وروينا فى الخبر لكل أمةٍ عجْل، وعِجل هذه الأمة الدينار والدرهم. وكان أصل العجل من الحلية. وقال عز وجل ابتغاء حلية أو متاع زبدٌ مِثْله، فكان فهم هذه السُنّة عن سمع هذه الآية.

ويقال مامِن يوم ذى شارقة إلاّ وأربعة أملاك ينادون فى الآفاق بأربعة أصوات، ملَكَان بالمشرق وملَكَان بالمغرب، يقول أحدهما من المشرق ياباغىَ الخير هلّم ويا باغى الشر أقْصِر، ويقول الآخر اللهّم أعط مُنفقا خلفاً واعط ممسكاً تلفا. ويقول أحد اللذّين فى المغرب لِدُوا للموت وابنوا للخراب، ويقول الآخر كُلوا وتمتعوا لطول الحساب. وقال بعض العلماء إن الله تعالى وَسَم الدنيا بالوحشة ليجعل أُنس المطيعين به. وبلغنا أن من دعاء **أبى بكر الصدّيق** رضى الله عنه – أللّهم إنى أسألك الذُل عند النِصْف من نفسى، والزهد فيما جاوز الكفاف.

وقال بعض العارفين مامن شىء إلاّ وهو مطروح فى الخزائن، إلاّ الفقر مع المعرفة فإنه مخزوم مختوم عليه لايُعطاه إلاّ من طُبِعَ بطابع الشهداء. وقد يحتج بعض علماء الدنيا لأنفسهم بتفضيل الغِنَى على الفقر، بتأويل الخبر من قوله تعالى «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»، وهذا عند أولى الألباب فى تدبر الخطاب مَعْنىّ به الفقراء، وقد رجع به الفقراء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يستفتون منه ماأخبر به فقال لاتعجلوا فإن الذى قلت لكم كما قلت هو «فضل الله تعالى يؤتيه من يشاء»، وأنتم ممن يشاء أن يؤتيه فضله. فصّح تأويلنا هذا بدليل قول الرسول صلى الله عليه وسلم. وفى الحديث المفسر الذى رويناه عن زيد بن أسلم عن أنس رضى الله عنه قال بعث الفقراء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولاً فقال إنى رسول الفقراء إليك، فقال مرحباً بك وبمن جئتَ من عندهم، من عند قوم أحبهم. قال قالوا يا رسول الله إنّ الأغنياء ذهبوا بالجنّة، يحجون ولانقدر عليه، ويعتمرن ولانقدر عليه، وإذا مرضوا بعثوا بفضل أموالهم نخيرةً لهم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أبلغْ عنى الفقراء أنه لمن صبَر واحتسب منكم **ثلاث خصال** ليست للأغنياء. أما خصلة **واحدة** فإنّ فى الجنة غُرفا يَنظر إليها أهل الجنة كما ينظر أهل الأرض إلى نجوم السماء، لايدخلها إلاّ نبى فقير، أو

شهيد فقير، أو مؤمن فقير. **والثانية** يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام، **والثالثة** إذا قال الغنى سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر، وقال الفقير مثل ذلك، لم يلحق الغنى الفقير وإنْ أنفق فيها عشرة آلاف درهم، وكذلك أعمال البر كلها. فَرجع إليهم فقالوا رضينا رضينا، فهذا يدل على صحة تأويلنا. وقد روينا معنى هذا مجملاً فى الخبر الذى رويناه عن إسمعيل بن عياش عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر رضى الله عنهما، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه أى الناس خير، قالوا موسر من المال يُعطِى حق الله فى نفسه وماله، فقال نِعْم الرجل هذا وليس به. قالوا فَمن خيرُ الناس، قال مؤمن فقير يُعطِى جُهده. فذهب القوم إلى **علْم العقل** فردّهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى **علم اليقين**. فكذلك من فضّل حال الغِنَى على حال الفقر فإنه ينظر فى العلم بعين العقل، وإنما تُشْهَد الآخرة والحقيقة بعين اليقين. وهذا نص فى تفضيل حال الفقر، فمَنْ فضّل الغنى بعده فقد عاند السُنّة إنْ كَان عالما، وإنْ كان جاهلا فمقامه فى الجهل أضرّ عليه من نُطقه بالعلم بهوى. وفى الخبر الآخر خير هذه الأمة فقراؤها، وأسرعها تضجّعا فى الجنة ضعفاؤها. وقال صلّى الله عليه وسلم لبلال إلْق الله تعالى فقيرا ولاتلقه غنيا. قال وكيف لى بذلك، قال إذا سئلت فلا تمنع، وإذا أُعطيت فلا تَخْبَأ. أفَتُراه كان يأمر بلالاً بأدنى الحالين فكيف وهو من أعلى الصحابة. فأشبه الفقر فى الأحوال اليقين فى الإيمان، كما قال لابن عمر إعمل لله بالرضا واليقين فإن لم يكن فإن فى الصبر على ماتكره خيراً كثيراً. فرفعه إلى اليقين لفضله كما رفع بلالاً إلى الفقر لشرفه فى الأحوال، فلم يكن صلى الله عليه وسلم يرضى لبلال إلاّ مايرضاه لنفسه، فصار الفقر حال الموقن لأنه يكشف الآخرة، وصار الشكر فى الغنى حال المؤمن لأنه يوجد الدنيا، ففضل الفقير الزاهد على الغنى الشاكر كفضل الموقن الشاهد على الموقن المجاهد. وكذلك روينا فى حديث عطاء عن أبى سعيدٍ الخُدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اللّهم تَوفنى فقيراً ولاتَوفنى غنياً. ولم يكن ليأمر بلالاً بأدنى الحالين فيقول إلْق الله تعالى فقيرا، كما لم يندب ابن عمر إلى أخفض المقامين لقوله إعْملْ لله تعالى بالرضا فى اليقين. وكذلك جاء فى الخبر المشهور الذى دعا فيه صلى الله عليه وسلم لنفسه أن يحييه الله تعالى مسكينا ويتوفاه مسكينا ويحشره فى زُمرة المساكين. كل ذلك لتفضيل الفقر وتشريف الفقراء مع قوله صلى الله عليه وسلم يدخل فقراء أمتى الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم خمسمائة عام. وروينا عن **عيسى عليه السلام** أنه قال إنى لأحب المَسْكَنة وأبغض المال

للغنىّ، وإنّ فى المال داءً كثيراً، قيل ياروح الله وإنْ كان يكتسبه من حلال؟ قال يشغله كسبه عن ذكر الله تعالى. وقال وهب بن منبه لابن عباس إنّا نجد فى التوراة أن الفقير المصلح خير من الغنى المصلح. قال ابن عباس أما علمت أنه لاشىء أحب إلى الله تعالى من الفقير إذا كان صالحا؟ وقيل كان أحب الأسماء إلى عيسى عليه السلام أنْ يُدعَى به أنْ يقال له يامسكين. وكان يقول من شَرّ الغِنَى أنّ العبد يعصِى ليستغنِى ولايعصى ليفتقر. وقد قال بعض حكمائنا فى كلام منظوم:

ياعاتبـا الفقــر تبغــى الغِنــَى * عيــبُ الغنــى أعظــمُ لو تَعتبــر

إنــك تعصــِى لتنـــالَ الغنـــى * ولســتَ تعصــِى الــّه كى تفتقر

وروينا فى حديث عطاء عن أبى سعيد الخدرى ياأيها الناس لاتَحملكم العُسْرَة والفاقة على أن تطلبوا الرزق من غير حلّه فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اللّهم توفنى فقيراً ولاتوفنى غنيا، واحشرنى فى زُمْرة المساكين. وقال لقمان لابنه يابنى إنّ مِن أعوَن الأخلاق على صلاح الدين زهداً فى الدنيا، مَنْ يزهد فى الدنيا يرغب فيما عند الله تعالى، ومَن يرغب فيما عند الله تعالى يعمل لله تعالى، ومَن يعمل لله تعالى يَأْجره الله تعالى. وقال الحَواريون ياروح الله نحن نصلى كما تصلى، ونصوم كما تصوم، ونذكر الله تعالى كما أمرتنا، ولا نقدر أن نمشى على الماء كما تمشى أنت، فقال أخبرونى كيف حبكم للدنيا، قالوا إنّا لَنُحبها، فقال إن حبّها يُفسد الدين، لكنها عندى بمنزلة الحجَر والمَدر. وفى خبر آخر أنه رفع حجراً فقال أيهما أحب إليكم هذا أو الدينار والدرهم، قالوا الدينار، قال فإنهما عندى سواء.ويُقال إنّ مَنْ صحّ زهده فى الدنيا حتى يستوى عنده الذهب والحجر مشى على الماء، وقد اشتَهَر ذلك فى العامة حتى قال الشاعر:

لو كان زُهدُك فى الدنيا كزُهدِك فِى * وَصْلِى مَشيْتَ بلا شك على الماء

وروينا عن موسى عليه السلام أنه مرّ برجل نائم على التراب وتحت رأسه لَبِنَة ووجهه ولحيته فى التراب، وهو متّزر بشَمَل عباءة، فقال يارب عبدك هذا فى الدنيا ضائع. فأوحى الله تعالى إليه يا موسى أما علمتَ أنّى إذا نظرت إلى عبدى بوجهى كله زَوَيْتُ عنه الدنيا كلها. وأوحى الله سبحانه وتعالى إلى نبيّه إسمعيل عليه السلام اطلبنى عند المنكسرةِ قلوبهم، قال يارب ومن هم، قال الفقراء الصادقون. فهذا كأنه مفسّر لخبر موسى عليه السلام فى قوله أين

أجدُك، قال عند المُنكسرة قلوبهم. وقد كان أحمد بن عطاء وهو من المتأخرين يفضّل حال الغنى على الفقر لشُبْهة دخلت عليه، وهو أن بعض الشيوخ سأله عن الوصفين أيهما أفضل، قال الغنى لأنه صفة الحق، فقال له الشيخ فالله غنى بالأعراض والأسباب فانقطعْ. ولم ينطق بحرف. وهذا كما قال الشيخ لأن الله تعالى غنىٌ بوصفه، فالفقير أحق بهذا المعنى لأنه غنىٌ بوصفه بالإيمان لا بالأسباب لانفرادها عنه، فهو الأفضل. فأمّا الغنى فإنه مشتّت مُجتمع بالأسباب، فهو مفضول بالارتياب. وقد خالفه الخوّاص فوفّق للصواب وكان فوقه فى المعرفة، فقال فى كتاب شرف الفقر: والفقر صفة الحق أى صفةٌ منه يصف به الفقراء. فوافقَنا فى التأويل، يعنى أنه تعالى متخلٍ عن الأشياء منفرد عنها. ووجه آخر من الغلط الذى دخل عليه من جهة الغِنَى الذى ذكره، لأنه إنْ كان فضّل الغِنَى على الفقر لأنه صفة الحق فينبغى أن يُفضّل المتكبّر الجبار. ومَنْ أحبّ المدح والعز والحمد لأن ذلك كله صفة الحق فلما أجمع أهل القِبْلة على ذَمّ مَن كان هذا وصفه، كان مَن وَصْفُه الغنى فى معناه، لأن وَصْفَ الغِنَى صفة الحق مقترن بالعز والكبر، وينبغى أن يُسلِم صفات الحق للحق ولاينازع إياها ولايشارك فيها، فبطل قول ابن عطاء لصحة قول الرسول صلّى الله عليه وسلم، يقول الله تعالى العزّ إزارى، والكبرياء ردائى، من نازعنى أحدهما قصَمتُه فى النار. وقد خالفه أيضا ووافقنا مَن لايشك الخاص والعام فى فضل معرفته عليه أبو محمد سهل بن عبد الله فقال: مَن أحبّ الغِنَى والبقاء والعز فقد نازع الله تعالى صفاته، وهذه صفات الربوبيّة، يخاف عليه الهلكة. فإذا ثبت ذلك كان الفقر أفضل لأنه وَصْف العبودية، فمن جعله وصفه فقد تحقق بالعبودية. وأوصاف العبودية هى أخلاق الإيمان، وهى التى أحبها الله تعالى من المؤمنين، مثل الخوف والذل والتواضع، والفقر مضافٌ إليها. وأوصاف الربوبية ابتلى به قلوب أعدائه الجبّارين والمتكبّرين مثل العز والكبر والبقاء، والغِنَى مضموم إليها. وكان الحسن رحمه الله يقول مارأيت الله تعالى جعل البقاء إلاّ لأبغض خلقه إليه وهو إبليس. وكذلك كان العلماء يقولون لاترغبوا فى البقاء فى هذه الدنيا فإن شرار الخلْق أطولهم بقاءً، وهم الشياطين. والغِنَى إنما يُراد للبقاء. ويقال إن الجنيد رحمه الله تعالى باهَلَ ابن عطاء فى هذه المسئلة ودعا عليه لأنه أنكر قوله أشد الإنكار، وكان يقول الفقير الصابر أفضل من الغنىّ الشاكر وإنْ تساويا فى القيام بحُكم حالهما، لأن الغنىّ يمتّع نفسه وينعّم صفته، والفقير الصابر قد أدخل على صفته الآلام والمكاره فقد زاد عليه بذلك. وهذا كما قال. وكذلك كان أحمد بن حنبل يقول ماأعدل بالفقر

شيأ. وكان يفضل حال الفقر ويعظّم شأن الفقير الصابر. وقال المروزى وذكَرَ بعض الفقراء فجَعَل يُمجّده ويكثر السؤال عنه، قال فقلت له يحتاج إلى علم، فقال ويحك اسكت. صبره على الفقر ومُقاساتهُ للضُرّ فيه خير من كثير من العلم. ثم قال هؤلاء خيرٌ منا بكثير. وأقول إنّ مَن فضّل حال الغنى على الفقر فإنه لم يذق مرارة الفقر ولاحلاوته، فهو غِرٌ بشدته فاقدٌ لحلاوته، لأنه لو ذاق مرارته من الضُرّ والهّم لفضلّه، ولو أُذيق حلاوته من الزهد والرضا لما فضّل عليه. وقد روينا فى الخبر يقول إبليس لم ينج الغنىّ منى من إحدى ثلاث خصال، أنْ أُحَبّب إليه المال فيكتسبه من غير حقه، أو يضعه فى غير حقه، أو يمنعه من حقه. فلو لم يعلم العدو أنّ الفقر من أفضل الأحوال ماقَعَد على طريقه. وقد قال لأَقْعدنّ لهم صراطك المستقيم، فأخبر الخبر عنه فقال الشيطان يعدكم الفقر، أى يُخوّفكم به. فجاء الفقير الصادق فسلك الطريق المستقيم إلى الآخرة واطّرَحَ تخويف العدوّ بحول اللّه وقوّته. وقَبِلَ الأغنياءُ المغتبطون بغناهم تخويف العدوّ فجانبوا الفقر فحاق بهم مَثَل السوء. من ذلك قوله إنما ذلكم الشيطان يُخوّف أولياءه فلا تخافوهم وخافون، فقبلوا تخويف الشيطان وخالفوا ندب الرحمن، فكانوا كمن قيل فيهم ومن الناس من يعبد اللّه على حرف فإنْ أصابه الآية. فلو لم يكن من فضل الزاهدين إلاّ أنهم تَوسّطوا الطريق الذى هرب الناس منه، وأمِنوا بالتوكل على اللّه والرضا عنه ماخافه أبناء الدنيا، لكفاهم.

ذِكرُ ماهية الدنيا وكيفية الزهد فيها وتفاوت الزّهاد فى مقاماتهم

ثم إن الدنيا هى نصيب كل عبد من الهوى وما دنا من قلبه من الشهوات، فمن زهد فى نصيبه وملْكه من هواه المذموم فهذا هو **الزهد المفترض**، ومن زهد فى نصيبه من المباح وهو فضول الحاجة من كل شىء فهذا هو **الزهد المُفَضّل**. يرجع ذلك إلى حظوظ جوارحه التى هى أبواب الدنيا منه وطرقها إليه. فالزهد فى محرماتها هو **زهد المسلمين**، به يحَسُن إسلامهم. والزهد فى شبهاتها هو **زهد الورعين**، به يكمل إيمانهم. والزهد فى حلالها من فضل حاجات النفس هو **زهد الزاهدين**، به يصفو يقينهم.

وروينا فى حديث عمرو بن ميمون عن الزبير بن العوّام أن النبى صلى اللّه عليه وسلم قال له يازبير أجهد نفسك عند نزول الشهوات والشبهات بالورع الصادق من محارم اللّه عز وجل، تدخل الجنة بغير حساب. وكان **سهل** يقول فى فضائل الزهد وأعلى مقاماته، لايتم زهد عبد

حتى يزهد فى هذه الثلاث. فى الدرهم الذى يريد أن ينفقه فى أبواب البّر يتقرّب بذلك إلى اللّه تعالى، ويزهد فى الثياب التى تستر بدنه فى الطاعات، ويزهد فى قُوته الذى يستعين به على العبادة. وإنما قال هذا لأن عنده حقيقة الزهد من أفضل المقامات كلها، لأنه كان يقول يُعطى الزاهد جميع ثواب العلماء والعُبّاد، ثم يُقسّم على المؤمنين ثواب أعماله. وقال لا يوافى القيامة أحد أفضل من ذى زهد وعالمٍ وورع. وقال أيضا لايُنَال الزهد إلا بالخوف لأن من خاف ترك، فجعل الزهد مقاما فى الخوف رفعه مزيد الهَمّ عليه. وقد روى مسروق عن ابن مسعود ركعتان من زاهدٍ قلبه خيرٌ له وأحب إلى اللّه تعالى من عبادة المتعبدين المجتهدين إلى آخر الدهر أبدا سرمداً.

ولانهاية للزهد عند طائفة من العارفين لأنه يقع عند نهاية معارفهم بدقائق أبواب الدنيا وخفايا لوائح الهوى. وقال بعضهم نهاية الزهد أن تزهد فى كل شىء وتتورع عن كل شىء للنفس فيه متعة وبه راحة، فهذا كما روى عن عيسى عليه السلام أنه وضع تحت رأسه حجراً فكأنه لمّا ارتفع رأسه عن الأرض استراح بذلك، فعارضه إبليس فقال يا ابن مريم ألست تزعم أنك قد زهدت فى الدنيا، قال نعم، قال فهذا الذى وطئته تحت رأسك من أى شىء هو، قال فرمى عيسى عليه السلام بالحجر وقال هذا لك مع ماتركت منك. وروينا عن يحيى بن زكريا عليهما السلام أنه لبس المسُوح حتى نقب جلده فسألته أمه أن ينزع مِدْرعته الشعر ويلبس مكانها جُبّة من صوف ففعل، فأوحى اللّه تعالى إليه يايحيى أثرت علىّ الدنيا، قال فبكى ونزعَ الصوف وردّ مدرعته الشعر على جسده. وكان الحسن يقول أدركت سبعين من الأخيار ما لأحدهم إلاّ ثوبه، وماوضع أحدهم بينه وبين الأرض ثوبا قط. كان إذا أراد النوم باشر الأرض بجسمه وجعل ثوبه فوقه.

واعلم أنى رأيت جُمْل النِعَم ثلاثا وتمامها بالزهد، وذلك أن أصل النِعَم كلها الإسلام لأن من ورائه مقامات كثيرة أخطئوا فيها حقيقة التوحيد. ثم النعمة الثانية السُنّة إذ من ورائها بِدَع كثيرة كلهم أخطئوا حقيقة السنة. والنعمة الثالثة العلم باللّه تعالى لأن من ورائه جهلاً كثيراً بعظمة اللّه تعالى وقدرته. ثم الزهد فى الدنيا فمن أعطيه مع الثلاث تمّت عليه النعم فكان مع الذين أنعم اللّه تعالى عليهم من النبّيين والصديقّين والشهداء والصالحين، أى تمت نعمة اللّه عليهم، لأن من ورائه حرصاً كثيراً على الشبهات ورغبة عظيمة فى الشهوات. وقد

كان سهل رحمه الله تعالى يجعل **الزهد من شرط السُنّة والاتّباع** بقوله تعالى قل إن كنتم تحبون الله فاتبّعونى، قال فمن السُنّة اتّباع الرسول صلى الله عليه وسلم وكان زاهدا. ثم تفاوت الزاهدون لأى شىء زَهَدُوا مقامات، فمنهم من زهد إجلالاً لله تعالى، ومنهم من زهد حياءً من الله تعالى، ومنهم من زهد خوفاً من الله تعالى، ومنهم من زهد رجاءً موعوداً لله تعالى، ومنهم من زهد مُسارعةً منه لأمر الله تعالى، ومنهم من زهد حباً لله تعالى وهو أعلاهم، وأدناهم من زهد مخافَة طول الوقوف ومناقشة الحساب، كما قيل نو الدرهمين أشدُ حساباً يوم القيامة من ذى الدرهم، ولأن طريق المتقين لايسلكه من مَلَكَ فى الدنيا زوجين من شىء، وما أحدٌ يُعطى من الدنيا شيأً إلاّ قيل خذه على ثلاثة أثلاث، ثلثٌ هَمٌ، وثلثٌ شُغْلٌ، وثلثٌ حسابٌ. وإنّ الرجل من الأغنياء ليُوقَف للحساب ما لو وَرَدَ مائة بعير عِطاش على عَرَقِه لصدرن رواء، وإنه ليَرَى منازله من الجنة. فلما وَقَر هذا فى قلوب الورعين أشفقوا من طول الحساب فزهدوا فى الجمع والمنع، وفارقوا فضول الآمال طلباً لخفة السؤال وسرعة الوقوف فى الأهوال.

ومن الزهد فى الدنيا حب **الفقر وأهله**، ومجالسة **المساكين** فى أوطانهم، والتذلل لهم كما كان مطرف رحمه الله تعالى يجالس المساكين فى بِزّته يتقرب بذلك إلى ربه. وكان **محمد بن يوسف الأصفهانى** عالما زاهدا، ومن الناس من كان يُفضله على الثورى رحمه الله تعالى، إلاّ أنه كان يؤثر الخمول فلم يكن يعرفه إلاّ العلماء. وكان من حسن رعايته وشدة يَقظَتِه يعمل فى كل وقت أفضل مايقدر عليه فى ذلك الوقت، فلما طلبه ابن المبارك قال له بعض مَنْ يعرف حاله أنّ ذاك لايكون فى المِصْر إلاّ فى أفضل موضع فيه، قال فهو إذاً فى الجامع فطلبه فقيل له إنه لايقعد إلاّ فى أفضل مكان، قال فطلبه عند الفقراء فإذا هو دسّ رأسه وأخْمَل نفسه مع المساكين، فكان عنده أنّ أفضل وَطَن فى المصر الجامع، لأنه يُقال إن الصلاة بخمسين صلاة، وأنّ أفضل الأماكن موضع الفقراء من الجامع، وأنّ أفضل الأحوال الخمول، فلذلك أخمل نفسه فيما بين الفقراء فى الجامع ليحوز فواضل الأعمال. ومن الزهد أن يكون بفقره مغتبطا مشاهداً لعظيم نعمة الله تعالى عليه به، يخاف أنْ يُسلب فقره ويُحوّل عن زهده، كما يكون الغنى مغتبطا بغناه يخاف الفقر. ثم وجود حلاوة الزهد حتى يعلم الله من قلبه أن القِلّة أحب إليه من الكثرة، وأنّ الذل أحب إليه من العز، وأنّ الوحدة آثر عنده من الجماعة، وأن الخمول أعجب إليه من الاشتهار، فهذا من إخلاصه فى زهده.

وروينا عن عيسى عليه السلام وعن نبينا عليه السلام أربعٌ لايُدرَكن إلا بِعَجَبٍ: الصمت وهو أوّل العبادة، والتواضع، وكثرة الذِكْر، وقلة الشيء، وقال الثوري رحمه الله تعالى لايكون الرجل عالماً حتى يَعُدّ البلاء نعمة والرخاء عقوبة. قال بعض السلف لايفقه العبد كل الفقه حتى يكون الفقر أحب إليه من الغنى، والذل أثر عنده من العز. وقد روينا خبرا مقطوعا لايبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يكون «أن لايعرف» أحب إليه من «أن يعرف»، وحتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته. وكان السلف الصالح يقولون نعمة الله علينا فيما صرف عنا من الدنيا أعظم من نعمته فيما صرف إلينا. وكان الثوري رحمه الله تعالى يقول الدنيا دار التواء لا دار استواء، ودار ترَح لامنزل فرح، من عرَفها لم يفرح برخاء ولم يحزن على شقاء. وكان سهل بن عبد الله رحمه الله يقول لايصح التعبد لأحد، ولايخلص له عمل حتى لايجزع، ولايفر من أربعة أشياء: الجوع والعرى والفقر والذل. كما روينا أن إبراهيم التيمي رحمه الله تعالى دُفع إليه خمسون درهم فردّها، فقيل له لِمَ رددتها، فقال أكره أن أمحو اسمي من ديوان الفقراء بخمسين ألفا.

ومن الزهد عند الزاهدين ترك فضول العلوم التي معلوماتها تُؤَل إلى الدنيا وتدعو إلى الجاه والمنزلة عند أبنائها، وفيما لانفع فيه في الآخرة ولاقُربة به عند الله تعالى، وقد تَشغَل عن عبادة الله تعالى، وتُفرِّق الهَمّ عن اجتماعه بين يدي الله تعالى، وتُقَسّي القلب عن ذكر الله تعالى، وتحجُبُ عن التَفَكّر في آلائه وعظمته. وقد أحدثت علوم كثيرة لم تكن تُعرف فيما سلف اتخذها الغافلون علما، وجعلها البطّالون شُغْلاً، انقطعوا بها عن الله تعالى، وحُجِبوا بها عن مشاهدة علم الحقيقة، لانستطيع ذكرها لكثرة أهلها إلاّ أنْ نُسئل عن شيء منها أعِلمٌ هو أم كلام، أم حق أو تشبيه، أو صدق وحكمة، أو زُخرف وغرور أمْ سُنّة هو، عتيقٌ أو محدثٌ وتشديق، فحينئذ نخبر بصواب ذلك.

ومن أفضل الزهد الزهد في الرياسة على الناس وفي المنزلة والجاه عندهم، والزهد في حب الثناء والمدح منهم، لأن هذه المعاني هي من أكبر أبواب الدنيا عند العلماء، فالزهد فيها هو زهد العلماء. وكان الثوري رحمه الله تعالى يقول الزهد في الرياسة. ومدح الخلْق أشد من الزهد في الدينار والدرهم، قال لأن الدينار والدرهم قد يُبذَلان في طلب ذلك. وكان يقول هذا باب غامض لا يُبصره إلاّ سماسرة العلماء. وقال الفضيل رحمة الله تعالى نقْل

الصخور من الجبال أيسر من إزالة رياسة قد ثبتَت فى قلب جاهل. وذهب **أويس القرنى** رحمه الله تعالى إلى أن الزهد هو ترك الطلب للمضمون. قال هَرِم بن حبّان لقيته على شاطئ الفرات يغسل كِسَراً وخِرَقاً قد التقطها من المنبوذ، وكان ذلك أكله ولباسه. قال فسألته عن الزهد أى شئ هو؟ فقال فى أى شئ خرجت؟ قلت أطلب المعاش، فقال إذا وقع الطلب ذهَب الزهد. وكان **أحمد بن حنبل** رضى الله عنه يقول لا زهد إلاّ زُهد أويس، بلَغ به العُرى حتى قعد فى قوْصرة.

وكان **أبو سليمان الدارانى** رحمه الله تعالى يقول الزهد **فى النساء** أنْ تختار المرأة الدُون أو اليتيمة على المرأة الجميلة والمرأة الشريفة. وذهب إلى هذا مالك بن دينار. وقال **سهل بن عبد الله** رحمه الله تعالى لا يصح الزهد فى النساء لأنهن قد حُبِّبن إلى سيد الزاهدين. ووافقه **ابن عيينة** فقال ليس فى كثرة النساء ذنب لأن أزهد الصحابة **علىّ بن أبى طالب** رضى الله عنه وكان له أربع نسوة وبضع عشر سرية. وكان **الجنيد** يقول أُحِبُ للمريد المبتدى أن لا يشغل قلبه بهذه **الثلاث** وإلاّ تغيّر حاله: التكسب وطلب الحديث والتزوج. وقال أُحبُ للصوفى أن لا يقرأ ولا يكتب لأنه أجْمَعَ لهَمّه. وفى الخبر إنما الزهد أن تكون بما فى يد الله سبحانه وتعالى أوثق منك بما فى يديك، فهذا **مقام التوكل**. وذهب قوم إلى أن الزهد **ترك الادخار**. وقال بعضهم الدنيا هو ما شغل القلب واهتّم به، فجعلوا الزهد **ترك الاهتمام وطرح النفس** تحت تصريف الأحكام، وهذا هو **التفويض والرضا**. وقال **أحمد بن أبى الحوارى** قلت لأبى سليمان الدارانى أنّ **مالك بن دينار** قال للمُغيرة إذْهب الى البيت فخذ الرَكْوة التى كنتَ أهديتَها لى فإنّ العدو يوسوس إلىّ أنّ اللص قد أخذها، فقال أبو سليمان هذا من ضعف قلوب الصوفيين، هو قد زهد فى الدنيا ما عليه من أخْذِها. فأراد **أبوسليمان** منه حقيقة الرضا بجريان الأحكام، وأراد **مالك** من نفسه حقيقة الزهد بأن يصرف عن قلبه الاهتمام.

وقال بعض العلماء الدنيا هو العمل بالرأى والمعقول، والزهد هو إنما اتباع العلم ولزوم السُنّة، وهذه **طريقة أهل الحديث**، وهذا القول من الظواهر يُشبه قول علماء الظاهر. كما

روينا عن **سفيان** قال قالوا **للزهرى** ما الزهد، قال ما لا يغلب الحرام صبره، ولا يمنع الحلال شكره، يعنى أن يكون العبد صابرا عن الحرام حتى لا تغلبه شهوة الحرام، ويكون شاكراً فى الحلال حتى لا يغلبه الحلال فيشغله عن الشكر. أمّا **الحسن** فإنه قال الزاهد هو الذى إذا رأى أحدا قال هذا أفضل منى، فذهب إلى أن الزهد هو **التواضع**. وكان **الفضيل** يقول القناعة هو الزهد. وقال أبو سليمان الورع هو أوّل الزهد. وقال **أحمد بن أبى الحوارى** قلت لأبى هشام المغازلى أى شئ الزهد، قال **قطع الآمال وإعطاء المجهود وخلع الراحة**. وكان **يوسف بن أسباط** يقول من صَبَر على الأذى وترَك الشهوات وأكَل الخبز من حلاله فقد أخَذ بأصل الزهد، وقال أحمد قلت **لأبى صفوان الرعينى** ما الدنيا التى نمّها اللّه تعالى فى القرآن وينبغى للعاقل أن يجتنبها، قال كل ما عملت فى الدنيا تريد به الدنيا فهو مذموم، وكل ما أصبت فيها تريد به الآخرة فليس منها. فحدّثت به مروان فقال الفقه ما قال أبو صفوان. إنما قال ذلك لأن الدنيا كل شئ إلاّ الإخلاص، فما وافق العلم فهو مباح، وما خالفه فهوى. والهوى حظ النفس، والإخلاص حظ الرب عز وجل، فالمخلصون بيّنةُ اللّه عز وجل من عباده على عدوّه، وهم أهل الآخرة فى الدنيا.

وكان **ابن السماك** يقول الزاهد قد خرجت الأفراح والأحزان من قلبه فهو لا يفرح بشئ من الدنيا أتاه، ولا يحزن على شئ منها، فإنه لا يبالى على عُسْر أصبح أم على يُسر. وقال **أبو سعيد بن الأعرابى** عن أشياخه الصوفية إنما الزهد عندهم خروج قدْر الدنيا من القلب إذ هى لا شئ، ولا يكون فى نفسه زاهداً لأنه لم يترك شيأ إذ كانت لا شئ. وهذا لعمرى هو **الزهد فى الزهد** لأنه زَهَدَ ثم لم ينظر إلى زُهده فزَهَدَه، إذ لم ير شيأ لأنه زَهَدَ فى لا شئ. وهذا يشبه ما نقول إن حقيقة الزهد هو **الزهد فى النفس**، لأنه قد يزهد فى الدنيا لنفسه طلبا للعِوَض، فيكون ذلك رغبة على صفةٍ، فإذا زَهَد فى النفس التى لا يريد لها الأعواض على الزهد فهو حقيقة الزهد. وهذا يشبه قول من قال إن حقيقة الزهد فى الفناء هو الزهد فى البقاء، لأن العبد ربما زهد فى الفناء فلم يزهد فى البقاء فيكون فيه بقية من الرغبة، فإذا زهد فى البقاء فهو حقيقة الزهد فى الفناء إذ كان الفناء يراد للبقاء.

فصل آخر

إن الرغبة فى الهوى حقيقة الدنيا. وإنْ كان العبد زاهداً فى المال من قِبَل أنه يُعطَى الزهد فى شئ دون شئ، كما يزهد فى الثناء ولا يزهد فى المال ولا يُعطى الزهد فى الأطعمة، وقد يُعطى الزهد فى المال ولا يُعطى الزهد فى منصبه لغلبة الهوى، فإذا أُعطى الزهد فى الهوى كائناً ما كان فقد أُعطى حقيقة الزهد فى الدنيا وهذا هو **الزهد فى النفس**، لأن النفس عين الرغبة، والهوى روح النفس، فاعرف هذا. وكان **يونس بن ميسرة الجيلانى** يقول ليست الزهادة فى الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال، ولكن الزهادة فى الدنيا أن تكون بما فى يد الله تعالى أوثق منك بما فى يديك، وأن يكون حالك فى المصيبة وحالك إذا لم تُصَب بها سواء، وأن يكون ذامُّك ومادِحُك فى الحق سواء.

وقال سلاّم بن أبى مُطيع رحمهما الله الزهد على ثلاثة أوجه، **واحد** أن تُخلص العمل لله عز وجل والقول فلا يراد بشئ منه الدنيا، **والثانى** ترك ما لا يصلح والعمل بما يصلح، **والثالث** الحلال أن يزهد فيه وهو تطوّع. وكان إمامنا فى هذا العلم **إبراهيم بن أدهم** رحمه الله يقول الزهد ثلاثة أصناف، **زهد فرْض، وزهد فضل، وزهد سلامة**، فالزهد الفرض فى الحرام، والفضل الزهد فى الحلال، والسلامة الزهد فى الشبهات. وأما **أيوب السختيانى** رحمه الله فكان يقول الزهد أن يقعد أحدكم فى منزله، فإن كان قعوده لله تعالى رضا وإلاّ خرج، وإنْ يخرج فإنْ كان خروجه لله تعالى رضا وإلاّ رجع، فإنْ كان رجوعه لله تعالى رضا وإلاّ ساح، ويُخرج درهمه فإنْ كان إخراجه لله رضا وإلاّ حبسه، ويحبسه فإن كان حبسه لله تعالى رضا وإلاّ رمَى به، ويتكلم فإنْ كان كلامه لله تعالى رضا وإلاّ سكت، فإنْ كان سكوته لله تعالى رضا وإلاّ تكلم، فقيل هذا صعب، فقال هذا الطريق إلى الله عز وجل وإلاّ فلا تلعبوا. فقد ذهب إلى أن **الزهد هو المراقبة، والمراقبة هى الإخلاص**.

وسئل **حاتم الأصم** صاحب شقيق البلخى رحمهما الله تعالى عن الزهد فقال أوّله الثقة، وأوسطه الصبر، وآخره الإخلاص. وذهبت طائفة إلى أن الزهد فى الدنيا فريضة على المؤمنين لأن حقيقة الإخلاص هو الزهد عندهم، فأوجبوه من حيث أوجبوا على المؤمنين الإخلاص، ومال إلى هذا القول عبد الرحيم بن يحيى الأسود. وقد روينا معناه عن الإمام **أحمد بن حنبل** رحمه الله، قيل لأحمد بأى شئ ذُكِر القوم وصاروا أئمة، فقال بالصدق، قالوا وما الصدق،

قال الإخلاص، قيل وما الإخلاص، قال هو الزهد، قيل وما الزهد يا أبا عبد الله، فطرق ثم قال سلوا الزهّاد، سلوا بشر بن الحارث. وقال قوم الزهد فى الدنيا طلب الحلال، وإنه واجب مُفترض فى مثل زماننا هذا لاختلاط الأشياء وغلبة الشبهات، قالوا فقد تعين فرض الزهد وهذا مذهب إبراهيم بن أدهم ووهيْب بن الورد وسليمان الخوّاص وجماعة من أهل الشام. وقد كان سهل يقول أزهد الناس فى الدنيا أصفاهم مطعما، وقال أقصى مقام فى الورع أدنى مقام من الزهد. وقد روينا عن يوسف بن أسباط ووكيع رحمهما الله، قالا لو زهد عبد فى زماننا هذا حتى يكون كأبى ذرّ وأبى الدرداء ما سمّيناه زاهداً، لأن الزهد عندنا إنما هو فى الحلال المحض، ولا نعرف الحلال المحض اليوم. وكذلك كان الحسن البصرى رحمه الله إمام الأئمة يقول لا شئ أفضل من رفض الدنيا، وكان الحارث بن أسد المحاسبى رحمه الله يقول إنما الزهد إسقاط قيمة الدنيا من القلب، وأن لا يكون لشئ عاجل فى القلب وزن، فإذا سقطت قيم الأشياء واستوت فى القلب فهو الزهد.

فأما أبو يزيد البسطامى رحمه الله فإنه كان يقول ليس الزاهد من لا يملك شيأ، إنما الزاهد من لا يملكه شئ. وقال عالم مثله فى معناه الزاهد من لا يتملك الأشياء ولم يسكن إليها، وكان يقول الزاهد قُوته ماوَجد، وثوبه ما ستَر، وبيته ما أوَاه، وحاله وقته. وقال بعض العارفين الزُهد إنما هو ترك التدبير والاختيار، والرضا والتسليم لاختياره، شدةً كان أو رخاء، وهذا طريق الخوّاص والثورى وذى النون رحمهم الله تعالى. وقال أبو يزيد رحمه الله مرة إنما الزاهد من لا يملك شيأ ولا يملكه شئ، وقال حقيقة الزهد لا يكون إلاّ عند ظهور القُدرة، والعاجز لا يصبح زهده هو أن يعطيه كن ويطلعُه على الاسم ويُقدرُه على الأشياء، وإنما زهده أن يزهد فى ذلك حياءً من الله تعالى ويتركه حباً له. وكان يستعيذ بالله من أربعة وعشرين مقاما من إظهار القدرة. وقال لأبى موسى عبد الرحيم فى أى شئ تتكلم، قلت فى الزهد، قال فى أى شئ قلت فى الدنيا، قال فنفض يده، وقال ظننتُ أنه يتكلم فى الزهد فى شئ، الدنيا لا شئ، إيش تزهد فيه؟ وذهب إلى هذا المعنى سهل وغيره. وقال سبعة عشر مقاما فى المعرفة أدناها المشى على الماء وفى الهواء وظهور كنوز الأرض، وهذا كله من زخرف الدنيا.

وقد حُكى لنا معنى هذا عن الجنيد، قال اجتمع أربعة من الأبدال فى جامع المنصور ليلة العيد، فلما أسحروا قال أحدهم أما أنا فقد نويت أن أصلى العيد فى بيت المقدس، وقال الآخر أما أنا فقد نويت أن أصلى العيد بطرسوس، وقال الثالث أما أنا فقد نويت أن أصلى

العيد بمكة، وسكت الرابع وكان أعرفهم، فقيل له أنت أي شئ نويت، فقال أما أنا فقد نويت اليوم ترك الشهوات لا أصلى إلاّ فى هذا المسجد الذى بتّ فيه، فقالوا أنت أعلمنا فقعدوا عنده، فصار عند هؤلاء كما ذكرناه آنفا. وهذه الآيات من الشهوات وليست حاجات مقامات، والشهوات من الدنيا، وعند الزهّاد العارفين والمحبين ربما كانت مكراً وخداعاً يُبتلون به ليُنظَر كيف يعملون، إذ ابتلاء كل عبد على قدر مرتبته وحاله، فيلزمه الزهد فيه. ويقال هى فى المقام السابع عشر من المعرفة، فمن سلك به الطريق رآها فيه، وفوقها نيف وسبعون مقاما أفضل من ذلك.

وقد سئل **الجنيد** عن الزهد فقال: معنيان، ظاهر وباطن، فالظاهر بُغض ما فى الأيدى من الأملاك وترك طلب المفقود، والباطن زوال الرغبة عن القلب ووجود العزوف والانصراف عن ذكر ذلك، فإذا تحقق بذلك رزقه اللّه تعالى الإشراف على الآخرة والنظر إليها بقلبه، فحينئذ يجِّد فى العمل بتقصير الأمل وتقريب الأجل، لأن الأسباب عن قلبه منقطعة والقلب منفرد بالآخرة وقد خلُصت حقيقة الزهد إلى قلبه، فامتلأ من الذكرالخالص لربه سبحانه وتعالى، فالزهد عن حقيقة الإيمان والمشاهدة للآخرة يكون بعد الزهد واستواء الأشياء، فيكون عدمها كوجودها بعد المشاهدة، لاستواء القلب ومعه يستوى المدح والذم، لسقوط النفس وذهاب رؤية الخلق، فعندها خلُص الإخلاص إلى قلبه لصفاء الزهد، وثبت الزهد لسقوط النفس. ودليل ذلك الخبر الذى رويناه عن **النبى صلى اللّه عليه وسلم** قال لرجل هل استويت، قال وكيف أستوى، قال يستوى عندك المدح والذم.

وقد نوّع أهل المعرفة الإيمان فى القلب على مقامين، فجعلوا لهما زهدين، فقالوا إذا تعلق الإيمان بظاهر القلب أحب العبد الدنيا وأحب الآخرة وعمل لهما، فإذا بطن الإيمان فى سويداء القلب وباشره أبغض الدنيا فلم ينظر إليها ولم يعمل لها. وقد كان **أبو سليمان** يقول مَنْ شُغِل بنفسه شُغِلَ عن الناس وهذا مقام العاملين، ومن شُغِلَ بربه سبحانه وتعالى شُغِلَ عن نفسه وهذا مقام العارفين، ولهذين المقامين دليل من السنّة أن **النبى صلى اللّه عليه وسلم** سئل أى الناس خير، فقال من يشنأ الدنيا ويحب الآخرة. فأوْقع الشنآن للدنيا لوقوع ضدِّه من حب الآخرة. والمقام الأعلى دليله مَن جعَل الهموم هَمّاً واحدا كفاه اللّه تعالى أمر آخرته ودنياه، وألْهَمَ الواحد بوُجد واحد لربٍ واحد، هو وصفُ عبدٍ متوحد لواحد، مقاله إلى واحد، وقد وهَب له خُلُقا من أخلاقه، فهو الأحد بوحدانية صفته، وعبدٍ متوحد بوَجْده بين خَلْقه، فهو منفرد الهَمّ مجتمع القلب، وانفراد الهَمّ يكون بعد الهَوى، ومحوه بعد امتحان القلب

للتقوى، واجتماع القلب يكون مع طيب النفس وطمأنينتها بالإيمان، أو فلاحها بالتزكية والرضا كما قال الرسول الله صلى الله عليه وسلم طيب النفس من النعيم. وقال الله تعالى قد أفلح من زكّاها. وقال تعالى راضية مرضية، فيكون متوّحداً بالروح مُخَلّقةٍ بأخلاق الإيمان، مواطِنَة للقلب بمشاهدة اليقين. وقال وهب بن منبّه وجدت فيما أنزل الله تعالى على موسى عليه السلام من أحبّ الدنيا أبغضه الله تعالى، ومن أبغضَها أحبّه الله تعالى، ومن أكرم الدنيا أهانه الله تعالى، ومن أهانها أكرمه الله تعالى.

وأما علماء الظاهر فقالوا الزهد فى الدنيا هو موافقة العلم، والقيام بأحكام الشرع، وأخذ الشئ من وجهه ووضعه فى حقه، وماخالف العلم فهو هوىً كله، فذكروا فرْض الزهد وظاهره، ولم يعرفوا دقائقه وبواطنه. وقد روينا عن **سفيان بن عيينة والثورى** معنى هذا أنهما سُئلا أيكون الرجل زاهدا وله مال، قالا نعم إذا كان إذا ابتُلى فصبر، وإذا أُنعم عليه شكَر، قال ابن أبى الحَوارى فقلت له يا أبا محمد، يعنى ابن عيينة، قد أُنعم عليه فشكر وابتُلى فصبر، وحبَسَ النعمة، فكيف يكون زاهداً؟ فضربنى بيده وقال اسكت. من لم تمنعه النعماء من الشكر ولا البلوى عن الصبر فذلك هو الزاهد. ووافقهما الزهرى فقال كذلك. وقد فصّل ذلك أبو سليمان فقال ابن أبى الحوارى، قلت له أكان داود الطائى رحمه الله تعالى زاهدا، قال نعم قلت بلغنى أنه ورث من أبيه عشرين دينارا فأنفقها فى عشرين سنة، فكيف يكون زاهدا وهو يمسك الدنانير، فقال أردت منه أن يَبْلغ حقيق الزهد. ولعمرى إنّا روينا عن رسول اللهّ صلى الله عليه وسلم نِعمًا بالمال الصالح للمرء الصالح. والمال الصالح هو الحلال، والمرء الصالح المنفق ماله بالليل والنهار، سراً وعلانيةً فى سبيل الله ابتغاء مرضاته، كما وصفه الله تعالى ومدحه.

وقد روينا عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** أن الله تعالى يُعطى الدنيا من يُحب ومن لا يحب، ولا يعطى الدين إلاّ من يحب. والذى يحبه الله تعالى ممن أعطاه الدنيا لا يخالف حبيبه إلى هواه، ولا يؤثر نفسه على محبة مولاه تبارك وتعالى، إذ قد تولاه فيما أعطاه. وقد روينا عن النبى صلى الله عليه وسلم قال الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر. والطاعم الشاكر هو الذى يستعين بطَعمتِه على خدمة مولاه ويعبده شكراً لما أولاه. وقد قالوا فى الزهد وصفان جامعان لأحوال القلوب: قال مضاء بن عيسى قلت **للسبّاع الموصلّى** يا

أبا محمد إلى أى شئ أفضَى بهم الزهد؟ قال إلى الأنس باللّه تعالى. وقال **عثمان بن عمارة:** كان يقال الورع يَبْلغ بالعبد إلى الزهد، والزهد يبلغ به حبّ اللّه تعالى. فهذان الحالان غاية الطالبين. الحب للجليل والأنس باللطيف، فمن لم يتحقق بالزهد لم يبلغ مقام الحب ولم يدرك حال الأنس. ثم إنّ سرائر الغيوب فى مقام الحُب والخُلّة، وفى حال الأنس والقُربة.

وفقنا اللّه وإياكم لما يحب، وبلّغنا مانؤمّل بفضله ورحمته، ولا حول ولا قوة إلاّ باللّه العظيم. وهذا آخر كتاب الزهد.

شرح مقام التوكل ووصف أحوال المتوكلين وهو المقام السابع من مقامات اليقين

التوكل من أعلى مقامات اليقين وأشرف أحوال المقرّبين. قال اللّه الحق المبين إنّ اللّه يحب المتوكلين، فجعل المتوكل حبيبه وألقى عليه محبته. وقال اللّه عز وجل وعلَى اللّه فليتوكل المتوكلون، فرفع المتوكلين إليه وجعل مزيدهم منه. وقال جلّت قدرته ومن يتوكل على اللّه فهو حَسْبُهُ، أى كافيه مما سواه، فمن كان اللّه تعالى كافيه فهو شافيه ومعافيه ولا يَسأل عما هو فيه، فقد صار المتوكل على اللّه تعالى من عباد الرحمن الذين أضافهم إلى وصف الرحمة، ومن عباد التخصيص الذين ضمن لهم الكفاية، وهم الذين وصفهم فى الكتاب بقوله سبحانه وعبادُ الرحمن الذين يمشون على الأرض هَوْنا إلى آخر أوصافهم، وهم الذين كفاهم فى هذه الدار المهمات، ووقاهم بتفويضهم إليه السيآت، بقوله تعالى أليس اللّه بكافٍ عبده، وقوله تعالى وأفوّض أمرىَ إلى اللّه إن اللّه بصير بالعباد، فوقاه اللّه سيآت ما مكروا. وليس هؤلاء من عباد العدد فقط الذين قال اللّه عز وجل إنّ كل من فى السموات والأرض إلاّ آتى الرحمن عبدا، لقد أحصاهم وعدّهم عدّا.

وقال بعض **الصحابة** وغيره من التابعين التوكل نظام التوحيد وجِمَاع الأمر. وقال **أبو الدرداء** ذروة الإيمان الإخلاص والتوكل والاستسلام للرب عز وجل. وكان أبو **محمد سهل** رحمه اللّه يقول ليس فى المقامات أعز من التوكل، وقد ذهب الأنبياء بحقيقته وبقى منه صبابة انتشقها الصدّيقون والشهداء، فمن تعلّق بشىء منه فهو صدّيق أو شهيد. وقال بعض العارفين وهو **أبو سليمان الدارانى** فى كل المقامات لى قَدَم إلاّ هذا التوكل المبارك فما لى منه إلاّ مشامّ الريح. وقال **لقمان** فى وصيته لابنه ومن الإيمان باللّه عز وجل التوكل على اللّه فإن التوكل على اللّه يحبب العبد، وإن التفويض إلى اللّه مِن هَدْى اللّه، وبهدى اللّه يوافق العبد

رضوان الله، وبموافقة رضوان الله يستوجب العبد كرامة الله. وقال لقمان أيضا ومن يتوكل على الله ويُسلم لقضاء الله ويفوّض إلى الله ويَرْضَ بقدر الله فقد أقام الدين وفرّع يديه ورجليه لكسب الخير، وأقام الأخلاق الصالحة التى تُصلح للعبد أمره. وقال بعض علماء الأبدال وهو أبو محمد سهل العلم كله باب من التعبد، والتعبد كله باب من الورع، والورع كله باب من الزهد، والزهد كله باب من التوكل. قال فليس للتوكل حد ولا غاية تنتهى إليه. وقال أيضاً فى قول اللهّ عز وجل ليبلُوَكم أيكم أحسن عملاقال أصدقُ توكلاً. وقال التقوى واليقين مثل كفتّى الميزان، والتوكل لسانه، به تُعرف الزيادة والنقصان. وسُئل عن قول الله عز وجل فاتقوا الله ما استطعتم، قال بإظهار الفقر والفاقة إليه، وسئل عن قوله تعالى اتقوا الله حقّ تُقاته، فقال اعبدوه بالتوكل.

وقال أبو يعقوب السوسى لا تطعنوا على أهل التوكل فإنهم خاصة الله الذين خُصّوا بالخصوصية فسكنوا إلى الله واكتفوا به واستراحوا من هموم الدنيا والآخرة. وقال من طعن فى التوكل فقد طعن فى الإيمان لأنه مقرون به. ومن أحبّ أهل التوكل فقد أحبّ الله تعالى، فأوّل التوكل المعرفة بالوكيل وأنه عزيز حكيم، يعطى لعزه ويمنع لحكُمه، فيعتز العبد بعزه ويرضى بحُكمه. وكذلك أخبر عن نفسه ونبّه المتوكلين عليه، فقال سبحانه ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم، عزّ من أعزّ بعطيته، ونظَر لمن منَعه بحكمته، فإذا شهد العبد الذليل الملك الجليل قائماً بالقسط والتدبير والتقدير، عنده خزائن كل شىءوكل شىء عنده بمقدار لا يُنزله إلاّ بقَدْر معلوم، عندها نظر العبد الذليل إلى سيده العزيز فَقَوِىَ بنظره إليه، وعزّ بقوّته به، واستغنى بقربه منه، وشَرُفَ بحضوره عنده، وحينئذ نظر إليه فى كل شىء ووثق به واعتمد عليه دون كل شىء، وقنع منه بأدنى شىء، وصبر عليه ورضى عنه إذ لا بد له منه، فثم لا يطمع فى سواه ولا يرجو إلاّ إياه، ولا يشهد فى العطاء إلاّ يده، ولا يرى فى المنع إلاّ حكمته، ولا يعاين فى القبض والبسط إلاّ قدرته، هناك حقّت عبادته وخلُص توحيده، فعرف الخلق من معرفة خالقه، وطلب الرزق عند معبوده ورازقه، وقام بشهادة ما قال تعالى إنّ الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم، إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا، فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه، فعندها لم يحمد خلقا ولم يذمه، ولم يمدحه لأجل أنه منعه أو أنه أعطاه، فالله هو الأول المعطى، فإن شكر أو مدح أو ذمّ فإنما لأن مولاه مدحه وأمره بالشكر له تخلّقا بأخلاقه، واتباعاً لسُنّة رسوله صلى الله عليه وسلم، لأنه تعالى قد مدح المنفقين وذم الباخلين،

والفَرق بين الحمد والشكر أنّ الحمد مفرد لا ينبغى إلاّ لله، وهو الاعتراف بأن النعمة من الله عز وجل ولذلك قال الحمد لله رب العالمين، أى الحمد كله لا يكون ولا ينبغى إلاّ لله لأنه رب العالمين. وفى الخبر الحمد رداء الرحمن عز وجل، والشكر إظهار الثناء وإسرار الدعاء للأواسط، فهذا مشترك يدخل فيه الوالدان، وهو أيضا مخصوص لمن هو أهل أنْ يشكر من الناس.

وروى بعض العلماء عن الله تعالى لو أن ابن آدم لم يخف غيرى ما أخفته من غيرى، ولو أن ابن آدم لم يرج غيرى ماوكّلتُه إلى غيرى. وقال **الفضيل بن عياض** من خاف الله خاف منه كل شىء. ويقال إن الخوف من المخلوقات عقوبة نقصان الخوف من الخالق، وأنّ ذلك من قلة الفقه عن الله تعالى. وقد قال الله أحسن القائلين فى معناه لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون، فكان العبد إذا تم خوفه من الله تعالى أزال ذلك الخوف خوف المخلوقين عن قلبه، وحوّل ذلك فى قلوب المخلوقات فصارت هى تخافه إنْ لم يخفها هو.

ويقال إن قوْل العبد «**لولا كذا ما كان كذا**» من الشرك. وقال فى الخبر إياكم «**ولو**» فإنه يفتح عمل الشيطان. وقال بعض العلماء «**سوف**» جندٌ من جنود إبليس. وقد جاء فى الخبر لو توكلتم على اللهّ حقّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو وخماصا وتروح بطانا، ولزالت بدعائكم الجبال. وقد كان **عيسى عليه السلام** يقول انظروا إلى الطير لاتزرع ولا تحصد ولا تدخر، والله يرزقها يوما بيوم. فإن قلتم نحن أكبر بطونا من الطير فانظروا إلى الأنعام كيف قَيّض الله لها هذا الخلْق. ويقال لايدخر من الدواب إلاّ ثلاثة النملة والفارة وابن آدم. وقال **أبو يعقوب السوسى** المتوكلون على الله تجرى أرزاقهم بعلم الله واختياره على يد خصُوص عباده بلا شُغل ولا تعب، وغيرهم مكدودون مشغولون. وقال أيضا المتوكل إذا رأى السبب أوذمّ أو مدح فهو مدّع لا يصح له التوكل.

وأوّل التوكل ترك الاختيار. وقيل **لسهل** ما أدنى التوكل، قال ترك الأمانى، وأوسطه ترك الاختيار، قيل فما أعلاه، قال لا يعرفه إلاّ من توّسط التوكل وترك الاختيار. وقال بعض هذه الطائفة العبيد كلهم يأكلون أرزاقهم من المولى ثم يفترقون فى المشاهدات، فمنهم من يأكل رزقه بذُلّ، ومنهم من يأكل رزقه بامتهان، ومنهم من يأكل رزقه بانتظار، ومنهم من يأكل رزقه بعِزّ بلا مهنة ولا انتظار ولاذلّة، فأما الذين يأكلون أرزاقهم بذُلّ السؤال فهؤلاء يشهدون أيدى

الخلق فيذلّون لهم، والذين يأكلون بامتهان فالصنّاع يأكل أحدهم رزقه بمهنة وكُره، والذين يأكلون أرزاقهم بانتظار فالتجّار ينتظر أحدهم نِفاق سلعته فهو متعوب القلب معذّب بانتظاره. والذين يأكلون أرزاقهم بعزّ من غير مهنة ولا انتظار ولا ذُلّ فالصوفية يشهدون العزيز فيأخذون قِسْمَهَم من يده بعزّة، فأمّا الذين يأكلون من أرباب السلاطين فباعوا أرواحهم فتلك قسْمة خاسرة وقعوا فى الذل الواضح. وسُئل بعض العلماء عن معنى الخبر المأثور الخَلْق عيال الله، فأحبّهُم إلى الله أنفعهم لعياله، فقال هذا مخصوص وعيال الله خاصته، قيل كيف، قال لأن الناس أربعة أقسام، تُجّار وتجارة وصنّاع وزراعة، فمن لم يكن منهم فهو من عيال الله، فأحبَ الخلْق إلى الله أنفعهم لهؤلاء، وهذا كما قال لأن الله سبحانه وتعالى أوجب الحقوق وفرَضَ الزكاة فى الأموال لهؤلاء، لأنه جعل من عياله من لا تجارة له ولا صنعة، فجعل معاشهم على التُجّار والصنّاع. ألا ترى أنّ الزكاة لا تجوز على تاجر ولا صانع لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تحل الصدقة لغنى ولا لِقَوِى مكتسب، فأقام الاكتساب مقام الغِنى. وقال عامر بن عبد الله قرأت ثلاث آيات من كتاب الله عز وجل استعنت بهن على ما أنا فيه. فاستعنت قوله تعالى وإنْ يمسسك الله بضُرّ فلا كاشف له إلاّ هو، وإن يردك بخير فلا رادّ لفضله، فقلت إنْ أراد أنْ يضرنى لم يقدر أحد أن ينفعنى، وإن أعطانى لم يقدر أحد أن يمنعنى، وقوله فاذكرونى أذكركم فاشتغلت بذكره عن ذكْر من سواه، وقوله تعالى وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها فوالله مااهتممت برزقى منذ قرأتُها فاسترحت.

وقد كان سهل بن عبد الله يقول المتوكل إذا رأى السبب فهو مدّعٍ. وقال ليس مع الإيمان أسباب، إنما الأسباب فى الإسلام معناه ليس فى حقيقة الإيمان رؤية الأسباب والسكون إليها، إنما رؤيتها والطمع فى الخلْق يوجَد فى مقام الإسلام. ومن ذلك ماقال لقمان لابنه للإيمان أربعة أركان لا يصلح إلاّ بهن كمالا يصلح الجسد إلا باليدين والرجلين. التوكل على الله، والتسليم لقضائه، والتفويض إلى الله، والرضا بقَدَر الله. فحال المتوكل سكون القلب عن الاستشراف إلى العبيد والتطلع وقطع الهَمّ عن الفكرة فيما بأيديهم من التطمُّع، عاكف القلب على المُقَلّب المدبّر، مشغول الفكر بقدرة المُصرّف المُقَدّر، لا يحمله عدم الأسباب على ماحظره العلم عليه وذمّه، ولا يمنعه أن يقول الحق وأن يعمل به، أو يوالى فى الله ويعادى فيه جريان الأسباب على أيدى الخلق، فيترك الحق حياءً منهم، أو طمعاً فيهم، أو خشية قطْع المنافع المعتادة. ولا تدخله نوازل الحاجات وطوارق الفاقات فى الانحطاط فى أهواء الناس والميل إلى

الباطل، أو الصمت عن حق لَزِمَه، ولا يسكنْ إلى عادة من خُلُق، ولا يثق بمعتاد من مخلوق، إذ قد أيقن برزقه ونفعه وضُرّه من واحد. فهذه المعانى من فرض التوكل، فإنْ وجدت فى عبد خرج بها عن حد التوكل دون فضائله وتدُخله فى ضعف اليقين. وقد كان الأقوياء إذا دخل عليهم شىء من هذه الأهواء المفسدة لتوكلهم قطعوا تلك الأسباب وحسموا أصولها، واعتقدوا تركها، وعملوا فى مفارقة الأمصار، والتغرّب عن الأوطان، وترك الآلاف والإيلاف، فأخرجوا ذلك من حيث دخَل عليهم، ووضعوا عليه دواءه وضده من حيث تطرّق إليهم، حتى ربما فارقوا ظاهر العلم وخالفوا علم أهل الظاهر إلى علوم الباطن، وحُكْم مشاهدتهم وقيامهم بحق أحوالهم إذ ليس أهل الظاهر حجة عليهم فى شىء إلاّ وهم عليهم حجة فى مثله، لأن الإيمان ظاهر وباطن، والعلم محكم ومتشابه، ولأن أهل الحق أقرب إلى التوفيق وأوفق لإصابة الحقيقة. كل ذلك رعايةً لصحة توكلهم، ووفاءً بحسن عهدهم، وعملاً بأحكام حالهم، لئلا تسكن قلوبهم لغير الله، ولا تقف هِمَمهم مع سوى الله، ولا تطمئن نفوسهم إلى غيره، ولا يتخذوا سكنا سواه، ولا يسكنوا إلى أهواء النفوس وينخدعوا لسكونها عن سكون القلب، فيسىء ذلك يقينهم ويوهن إيمانهم الذى هو الأصل، ويستأسر قلبوهم التى هى المكان للكشف والشهادة، فيخسروا رأس المال فتفوتهم حقيقة الحال، فماذا يرتجون وبأى شىء يقومون؟ وهذا لا يفطن له إلاّ العاقلون ولا تشهده العيون.

وقد قال بعض المتقربين فى **حقيقة التوكل** لمّا سُئِل عنه، فقال هو الفرار من التوكل، يعنى ترك السكون إلى المقام من التوكل، أى يتوكل ولا ينظر إلى توكلهم أنه لأجله يُكْفَى أو يُعافَى أو يُوَفّى، فجعل نظره إلى توكله علّة فى توكله يلزمه الفرار منها حتى يدوم نظره إلى الوكيل وحده بلا خلل، ويقوم له بشهادة منه بلا ملل، فلا يكون بينه وبين الوكيل شىء ينظر إليه أو يعوّل عليه أو يدلّ به، حتى التوكل أيضا الذى هو طريقه. وكذلك قال قبله بعض العارفين فى معنى قوله عز وجل أمّنْ يجيب المضطر إذا دعاه، فقال المضطر الذى يقف بين يدىّ مولاه فيرفع إليه يديه بالمسئلة فلا يرى بينه وبين الله حَسَنَةً يستحق بها شيأ، فيقول هَبَ لى مولاى بلا شىء فتكون بضاعته عند مولاه الإفلاس، ويصير حاله مع كل الأعمال الإفلاس، فهذا هو المضطر. فهؤلاء القوم من الذين وصفهم الله عز وجل بالتوقى والمخافة، وجعلهم أهلا للدعوة والنذارة، وأخبر أنهم لا يرون بينه وبينهم سبباً يليهم ولا شفاعة، فقال تعالى يأمر رسوله بإنذارهم بكلامه فجعلهم وُجْهَةً لخلْقه ومكاناً لِكَلمه، كما جعل رسوله وُجهةً لهم ومكانا

لتكليمهم، فقال تعالى وأنذرْ به الذين يخافون أنْ يحشروا إلى ربهم، ليس لهم من دونه ولىّ ولا شفيع لعلهم يتقون، ثم قال تعالى فى وصف أمثالنا من أهل اللعب واللهو والغِرّة والسَهْوة، متهدداً لنا متوعداً، وذرْ الذين اتخنوادينهم لَعباً ولهواً وغرّتهم الحياة الدنيا.

وقيل لبعض علمائنا ما التوكل؟ قال التبرى من الحْول والقوّة، والحول أشد من القوّة، يعنى بالحول الحركة، والقوّة الثبات على الحركة وهو أوّل الفعل، يعنى بهذا ألاّ تنظر إلى حركتك مع المحرّك إذ هو الأول، ولا إلى ثباتك أيضا بعد الحركة فى تثبيته إذ هو المُثبت الآخر، فتكون الأوّلية والآخرية حقيقة شهادتك له به أنه الأول الآخر بعين اليقين، أى فعندها صح توكلك بشهادة الوكيل. وقال التوكل ترك التدبير، وأصل كل تدبير من الرغبة، وأصل كل رغبة من طول الأمل، وطول الأمل من حب البقاء وهذا هو الشرك، يعنى أنك شاركت الربوبية فى وصف البقاء. واللّه سبحانه خلَقَ الخَلْق ولم يحجبْهم عن نفسه وإنما جعل حجابهم تدبيرهم، وليس يعنى بترك التدبير ترك التصرف فيما وُجِّه العبد فيه وأبيح له، ومن طعن على التكسب فقد طعن على السُنّة، ومن طعن فى ترك التكسب فقد طعن على التوحيد، وإنمّا يعنى بترك التدبير ترك الأمانى وقوله لِمَ كان كذا إذا وقع، ولِمَ لا يكون كذا، أو لو كان كذا فيما لا يقع لأن ذلك اعتراض وجهل بسبق العلم، وذهاب عن نفاذ القدرة وشهادة الحكمة، وغفلة عن رؤية المشيئة وجريان الحكم بها. ويعنى ترك التدبير فيما بقى وما يأتى بعد، أى لا تشتغل بالفكر فيه بعقلك وعلمك فيقطعك عن حالك فى الوقت الذى هو ألزم لك وأوجب عليك للقطع فيما يأتى من الأحكام، لأن اللّه أحكم الحاكمين، ولأن العبد مسلم للأحكام والأفعال، راضٍ عن مولاه فى الأقدار مع جهله بعواقب المآل. وترك التدبير بهذه المعانى هو اليقين، واليقين هو مكان المعرفة إذ جعل اللّه تعالى قلب الموقن مكانا يمكُن فيه على قدر المكان ما يليق به. وهذا هو حال المتوكلين

والمتوكل لا يهتم بما قد كُفِىَ كما لا يهتم الصحيح بالدواء إذا عُوفِىَ، ولكن قد يحتمى قبل النزال كما يحتمى المعُافى قبل ورود العِلَل. قال اللّه سبحانه وما من دابة فى الأرض إلاّ على اللّه رزقها. وكَأَيِّنْ من دابة لا تحمل رزقها، اللّه يرزقها وإياكم. فالمتوكل قد علم بيقينه إذ كل ما يناله من العطاء من ذرّة فما فوقها أنّ ذلك رزقه من خالقه، وأنّ رزقه هو له، وأن ما له واصلٌ إليه لا محالة على أى حال كان، وأن ما له لا يكون لغيره أبداً، وكذلك مالغيره من

القسْم والعطاء لا يكون لهذا أبدا، فقد نظر إلى قسمه ونصيبه من مولاه لا بعين يقينه الذى به تولاّه من إحدى ثلاث مشاهدات. فإنْ دنَت مشاهدته نظر إلى قسمه من العطاء فى الصحيفة التى كتبت له عند تصوير خَلْقه فكُتب فيها رزقه وأجله وأثره وشَقّى أو سعيد، فكما لا يقدر أحد من الخَلْق أنْ يجعله سعيداً إنْ كانِ قسْمه شقياً فلا يقدر أحد أن يجعله شقياً إنْ كان قسمه سعيدا. كذلك لا يقدر أحد أن يمنعه ما أعطاه مولاه من القِسْم فيجعله محروما ولا يعطيه ما منعه من الحُكم فيجعله مرزوقا، لأنّ ذلك قد كُتب كَتْباً واحداً وُجعِل مجعلاً سواء. فإن ارتفعت مشاهدته نظر إلى هذا فى اللوح المحفوظ مفروغاً له منه، وهو أمّ الكتاب الذى استُنسخ منه هذه الصحيفة، فكان يقينه أن رِزْقه فى اللوح قد كُتِب لا يزاد فيه بحْول ولا حيلة، ولا يُنقَص منه لعجز ولا سكينة، كيقينه بما كُتب فيه من أنه من أهل الجنة، فهو داخلها لا محالة وإنْ عَمِلَ أى عمل بعد أنْ يكون قد كُتب اسمه فى اللوح وجُعِلَ له فيها أثر، كقوله تعالى ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذِكر أنّ الأرض يرثها عبادى الصالحون، فقد كُتِبتَ الآثار والأرزاق من كل شىء كَتْباً واحداً فى ثلاث مواضع توكيداً للعلم وتسكيناً للقلب فى القِسْم. كُتِبَ ذلك فى الذِكْر الأول وهو اللوح المحفوظ، ثم فى الزُبُر الأولى وهى الصحف، ثم أُنزِل ذلك فى كتابنا هذا الذى به عرفنا ما سلَف من ذلك. وإنْ علَت مشاهدة كل عبد عن مقامه ومن معبوده ومن مكانه فى دُنُوه وعُلُوه، يشهد هذا الذى ذكرنا معلوما فى علم اللّه تعالى قبل خلْق اللوح، فسكَنَ قلبه واطمأن إلى علم اللّه سبحانه وتعالى وما سبق له منه. ولهذا جاء فى الأثر أن الزهد فى الدنيا أنْ تكون بما فى يد اللّه أوثق منك بمافى يدك، وأنْ يكون ثواب المصيبة أرغب منك فيها لو أنها بقيت لك، أى فيقل حرصك لنفاذ شهادتك ويذهب فى الخَلْق طمعُك، فهذا هو الرضا والزهد، قد جمع التوكل المقامين معا، فما فى يد اللّه سبحانه وتعالى هو رزقك الواصل إليك لاشك فيه على أى حال، وهو الذى لك عند اللّه، وهو معلوم علْم اللّه تعالى الذى لا ينقلب، وذلك أحد ثلاثة أشياء. ما أكلتَ فأفنيت. أو لَبِسْت فأبليت، أو تصدّقت فأمضيْت، فهذا هو الذى لك فى الدنيا والآخرة، ولذلك قال صلّى اللّه عليه وسلم يقول ابن آدم مالى. ثم قال إنما لك من مالك فذكَر هذه الثلاث واشترط مع كل واحدة آخر غايتها فقال ماأكلت فأفنيت أولبست فأبليت أو تصدّقت فأمضيت، فاشترط الإفناء والإبلاء والإمضاء، ثم قال بعد ذلك وما سوَى ذلك فهو مال الوارث. فهذه الثلاث على هذه الأوصاف هى رزق العبد وهى التى فى يد اللّه عز وجل له الواصلة إليه، فأما ماجعله فى يد

العبد فقد لا يكون له وإنما هو مستودَعٌ إياه ومستخلَفٌ فيه وإنْ تملّكه وحازه خمسين سنة، وإنما للعبد ما فرغ له منه، فإنْ تملّك سوى هذا وادّعاه لأجل أنه فى خزانته أو قبْض يده فذلك لجهله بالله تعالى وقِلّة فقهه عن الله سبحانه وغفلته عن حكمة الله تعالى، لأنه لو عرف حكمة اللهّ وقُدرته علِمَ أن صندوقه وخزانته ويده من خزائن الله تعالى فى أرضه يودِعُها من يشاء إلى الوقت الذى يشاء حتى يستقر إلى كيف يشاء، فقد قال تعالى فمستقرٌ ومستودعٌ، وقال لكِل نبأ مستقر، وقال سبحانه ولِلهّ خزائن السموات والأرض.

وهكذا روينا عن نبينّا صلى الله عليه وسلم أن الرزق لَيَطلب العبد كما يطلبه أجَله. وقال صلى الله عليه وسلم وإنّ لكل عبد رزقاً هو آتيه لا محالة، فَمن قَنِع به ورَضى بورك له فيه، ومَن لم يقنع به ولم يرض لم يبُارَك له فيه ولم يَسَعْه. ويقال لو هرب العبد من رزقه كما لو هرب من الموت لأدركه. وفى وصية النبى صلى الله عليه وسلم لابن عباس إذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعْن بالله، واعلْم أنّ الخلائق لو جَهدوا أنْ ينفعوك بما لم يكتبه الله لك ماقدَروا على ذلك، ولو جَهدوا أنْ يضروك بشىء لم يكتبه الله سبحانه لك لم يقدروا على ذلك. طُوِيَت الصحف وجفّت الأقلام. فمن كانت هذه مشاهدته فى القِسْم المعلوم سقطَ عنه جملةٌ من الهموم واستراح من النظر إلى الخلْق، واستراح الخلْق من أذاه، وشُغِلَ عنهم بخدمة مولاه، وكان قد فَهِمَ شيأ من الخطاب، وممن أقبَل على الله الكريم بصالح ما دعاه إليه واستجاب. كما روى أنّ رجلاً لزِمَ باب عمر بن الخطاب رضى الله عنه كل غداة فشَهِد عمر منه مجيئه لأجْل الطلب، فقال له ياهذا هاجرتَ إلى عمر أو إلى الله، إذهب فتعلّم القرآن فإنه سيُغنيك عن باب عمر، فذهب الرجل فغاب زمانا حتى افتقده عمر، فسأل عنه فدلّ عليه فأتاه، فإذا هو قد اعتزل الناس وأقبل على العبادة، فقال له عمر رضى الله عنه إنى قد افتقدتك حتى اشتقتُ إليك فما الذى شغلك عنا، فقال إنى قد قرأت القرآن فأغنانى عن عمر وعن آل عمر، فقال له عمر رحمك الله فما الذى وجدت فيه، فقال وجدت فيه وفى السماء رزقُكم وماتوعدون، فقلت رزقى فى السماء وأنا أطلبُه فى الأرض، فبكى عمر، وكانت موعظةٌ له منه، فكان عمر بعد ذلك يُشابه فى الأحايين فيجلس إليه ويستمع منه.

وجاء رجل الى **بشر بن الحارث** فقال إنى قد عزمت على سفر إلى الشام وليس عندى زاد فما ترى، فقال ياهذا أخرجْ فيما قصدت له فإن لم يُعطك ماليس لك لم يمنعك مالك.

وشكا رجل إلى فضيل حاله، فقال ياهذا مدبرٌ غير اللّه تريد. وكان الحسن يقول التوكل هو الرضا. وفى تفسير قوله عز وجل وقدّر فيها أقواتها، قال خلَق الأرزاق قبل الأجسام، فالمتوكل لا يُطالب مولاه برزقِ غدٍ كمالا يطالبه مولاه بعملِ غد.فأمّا المتوكل فى المضمون من الرزق المعلوم من القِسْم فهو توكل العموم يستحيى الخصوصُ من ذكره ويتكرمون عن نَشْره إذ كان اللّه تعالى قد أقسَم بنفسه أنّ الرزق فى السماء حق، كما أقسَم بنفسه أنّ كلامه حق، فجمع بينهما فى الحقيقة بالقَسَم بالذات دون سائر الأفعال، لتسكن بذلك نفوس الخليقة عن النظر إلى الأدوات، ليرتفع الشك فيهما ويحصل اليقين بحقيقتهما، فقال سبحانه فَوَرَب السماء والأرض إنّه الحق، كما قال تعالى ويستنبؤنك أحقٌ هو، أى الرزق، قلْ إنه الحق. وقد وَكَلَ من يقوم له برزقه من الخلق، فإن لم يُرزَق مِن كَسْبه وعن يدهُ رزق من كسْب غيره ويده. وأمّا توكل الخصوص فشُغلهم بأعمال الآخرة وما يفوتهم من القُربات إلى اللّه عز وجل وبالخدمة للمولى الذى وكّل إليهم، فإنْ لم يقوموا به لم يقم به غيرهم لهم ولم يُنِبْ غيره من الدنيا مَنَابه، لقوله تعالى وأنْ ليس للإنسان إلاّ ما سعى، وقوله تعالى وجوهٌ يومئذ ناعمة لِسَعْيها راضية، ولقوله تعالى والآخرةُ خيرٌ وأبقى، وقوله تعالى واللّه يريدُ الآخرة، ولقوله تعالى من كان يريد حَرْث الآخرة نُزِد له فى حرثه، ولم يقل هذا فى أرزاق الدنيا، ومعنى الزيادة أنْ لا يحاسبه على ما يعطيه من الدنيا إذ لا زيادة فى القِسْم. وقد قيل إنّ اللّه تعالى يُعطى الدنيا على نيّة الآخرة ولا يعطى الآخرة على نيّة الدنيا، وهذا لعلّو الآخرة ودناءة الدنيا. وكان علىّ رضى اللّه عنه يقول ألاَ إنّ حرْث الدنيا المال، وحرث الآخرة العمل الصالح. وقد قيل إنّ الزيادة فى الآخرة رِفعةُ الدرجات لمن كانت نيّته وقصده ولها يعمل، فشُغْل الخصوص بما وُكِلَ إليهم، وبما لا يعمله غيرهم لهم.

وتوكل الخصوص أيضا فى الصبر على الأذى من القول والفعل، إذ بذلك أمَرَ الرسول فى قوله تعالى فاتخذه وكيلا واصبر على ما يقولون، مع قول الرُسُل عليهم السلام ولنَصبرنّ على ما آذيتمونا وعلى اللّه فليتوكل المتوكلون. وكذلك أُمِرَ نبيّه عليه السلام لمّا قال تعالى أولئك الذين هدَى اللّه فبهداهم اقْتَده، فأمره باتباعهم. وقال ودع أذاهم وتوكل على اللّه، إلى قوله فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم. وقال بعض العارفين لا يثبت لأحد مقام فى التوكل حتى يستوى عنده المدح والذم من الخلْق فيسقطان، وحتى يُؤذَى فيصبر على الأذى، يستخرج بذلك منه رفع السكون إلى الخلْق والنظر إلى علم الخالق الذى سبق، ثم

التوكل فى الصبر على حُسن المعاملة وترك الطلب للمعارضة حياءً من الله وإجلالاً له وتخوفاً منه وحباً له، فقد وصفهم بذلك ظاهراً وباطناً، فالظاهر قوله تعالى نِعْمَ أجر العاملين الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون، فلما عَلِموا صبروا على عِلْمهم ثم توكلوا عليه فى جميع ذلك فأنعم أجرهم وأجزل ذُخرهم، والباطن فيما أخبر عنهم إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شُكُورا، أى لا نريد من عندكم جزاء أى مكافأة، ولا شكورا أى حُسن ثناء، فلمّا لم يطلبوا العِوَض من أجلهم ولا المكافأة من عندهم وقالوا إنّا نخاف من ربنا، جزاهم أفضل الجزاء وأحسَنَ لهم غاية العطاء فقال تعالى وسقاهم ربُهم شرابا طَهورا، إنّ هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا، إذ لم يطلبوا جزاءً ولا شُكوراً، فجعل جزاهم شرابا طَهورا وجعل سعيَهم لديه مشكورا.

ثم التوكل عليه فى تسليم الحكم والرضا به، ومن قول يعقوب عليه السلام حين سلّم الحكم توكلاً على الوكيل الحاكم، إنْ الحُكم إلاّ لله عليه توكلت، لأن العبد إذا كان مريداً لمراد نفسه من الأشياء قد لا يوجد فى كل شئ إرادته، ثم هو على يقين من إرادة مولاه لكل شئ وأنّ كل شئ مراد لوكيله، فينبغى أن يريد ما يريد مولاه إذ لم يتفق له ما يريد، بل ينبغى أن يكون مراد مولاه أحب إليه وأبرّ عنده، لأن ما أراده مولاه مما لا عقوبة على العبد فيه ولا مسخطة لمولاه فإنه محبوبٌ لله مختارٌ له، فلتكن محبة الله عز وجل مُقدَّمة إليه على محبته هو واختياره، إذ لله عاقبة الأمور. وقد شرّف المتقين ونزّههم عن أمور العاجلة الدنية بقوله عز وجل والعاقبة للمتقين. وكما روى فى أخبار موسى عليه السلام إذا لم يكن ما تُريد فَرِدْ ما يكون، فإنْ أبيتَ إلاّ ما تريد أتعبتُك فيما تريد ولا يكون إلاّ ما أُريد. وقد كان وهيب بن الورد المكى يقول لو كانت السماء نُحاساً والأرض رَصاصا ثم اهتممت برزقى لظننت أنى مشرك. ويُقال من اهتم برزق غد وعنده اليوم قوتُ غدٍ فهى خطيئة تُكتب عليه. وقال سفيان الصائم إذا اهتّم فى أوّل النهار بعشائه كُتب عليه خطيئة. وكان سهل يقول إنّ ذلك يُنقص من صومه. وقال أعرف فى البصرة مقبرةً عظيمة يغدو على موتاهم برزقهم من الجنة بكرةً وعشية، يرون منازلهم من الجنان. وهذه المقامات من فضائل التوكل وفوقها من مكاشفات الصديقين ومشاهدات العارفين ما لا يصلح رسمه فى كتاب، لأن تدبيره عندهم أحكم وأيقن، وهم بالعواقب أعلم وأخبر، وهم له أشد إجلالاً وإعظاماً مما نقدّر نحن ونعلم. فأما التوكل عليه فى القوت فإنه عندهم فرض التوكل، يستحيون من ذِكره مع الوكيل، وكذلك التوكل عليه فى

تسليم الأقدار حلوها ومُرّها، خيرها وشرها من الله حكمةً وعدلا، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلُّ شئ بقضاء وقَدَر حتى العجز والكَيْس، وكما قال تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليُصيبك، وأن ما أصابك لم يكن ليُخطئك. وكذلك قال الله عزّ وجلّ وكل صغير وكبير مُسْتَطَر، فالعلم بهذه الأشياء وطُمأنينة القلب بها وسكينة العقل عند ورودها، وأن لا يضطرب بالرأى والمعقول، ولا ينازع بالتشبيه والتمثيل، فإن هذا عندهم من فرائض الإيمان، لا يصح إيمان عبد حتى يسلّم بذلك كله. ومنه قول ابن عباس القدر نظام التوحيد، فمَنْ وحّد الله وكذّب بالقدر كان تكذيبه بالقدر نقصا لتوحيده، فجعل الإيمان بالأقدار كلها أنها من الله مشيئةً وحكماً بمنزلة الخيط الذى ينتظم عليه الحَبّ، وأنّ التوحيد منتظم فيه يقول إذا انقطع الخيط سقَط الحَبّ، قال كذلك إذا كذّب بالقدر ذهب الإيمان. فالتوكل فرض وفضل، ففرضُه منوط بالإيمان وهو تسليم الأقدار كلها للقادر واعتقاد أن جميعها قضاؤه وقدره. ألم تر إلى ربك كيف أقسَم بنفسه فى نفى الإيمان عمّن لم يُحكّم الرسول فيما اختلف عليه من حاله، فقال تعالى فلا وربك لا يؤمنون حتى يُحكّموك فيما شجَر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرَجا مما قَضَيْت ويسلموا تسليما، فكيف بالحاكم الأوّل والقاضى الأجل. فأما فضل التوكل فإنه يكون عن مشاهدة الوكيل فإنه فى مقام المعرفة يَنظُر عينَ اليقين، كما قال العبد الصالح فكِيدُونى جميعا ثمّ لا تُنظِرون، فظهرت منه قوّة عظيمة بقَوىّ، وأخبر عن عزيز بعزٍ، فكأنه قيل ولِمَ ذاك وأنت بشر مثلنا ضعيف، فقال إنى توكلتُ على الله ربى وربكم، فكأنه سئل عن تفسير توكله كيف سببه فأخبر بمشاهدة يد الوكيل آخذةً بنواصى دواب الأرض، فقال ما من دابة إلاّ هو آخذ بناصيتها، ثم أخبر عن عدله فى ذلك وقيام حكمته، وأنه وإنْ كان آخذا بنواصى العبد فى الخير والشر والنفع والضُّر فإن ذلك مستقيمٌ فى عدله، فقال إنّ ربى على صراط مستقيم، وقال تعالى فى فرض التوكل وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين، وقال تعالى فى مثله إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين، وقال تعالى فى فضله وعلى الله فليتوكل المتوكلون، وقال تعالى إن الله يحب المتوكلين.

* * * * *

انتهى الجزء الثالث ويبدأ الجزء الرابع إن شاء الله وأوله «ذكر إثبات الأسباب والأواسط لمعانى الحكمة ونفى أنها تحكُم وتُجعل لثبوت الحُكْم والقُدرة.

ذكر إثبات الأسباب والأواسط لمعانى الحكمة ونفى أنها تحكم وتجعل لثبوت الحكم والقدرة

واعلم أن الله عزّ وجلّ نو قُدرة وحِكمة، فأظهر أشياء عن وصف القدرة، وأجرى أشياء عن معانى الحكمة، فلا يُسقط المتوكل ما أثبتَ من حكمته لقاء ما شهد من قدرته، ولا يُثبت المتوكل الأشياء حاكمةً نافعةً ضارةً فيشرك فى توحيده، كما قال عز وجل إنْ الحُكم إلاّ لله ولا يُشرِك فى حكمه أحدا، وكما قال تعالى وما لهم فيهما من شِرْكٍ وما لهم منهم من ظهير، والظهير هو المُعين على الشئ، فالمتوكل مع مشاهدته قُدرة الله على الأشياء، وأنه منفرد بالتقدير والتدبير وقائم بالمُلك والمملوك، هو أيضا عالم بوجوه الحكمة فى التصريف والتقليب، بإظهار الأسباب والأواسط لإيقاع الأحكام على المحكوم، والثواب والعقاب على المرسوم، من حيث أن المتوكل قائم بأحكام الشريعة مع تسليمه الحُكم الأوّل لله، واعترافه أن كلاً بقَدَر الله، كما قال تعالى لا يُسئل عما يَفعل وهم يُسألون، والله تعالى فى جميع ما أظهر أخفى قُدرته فى حُكمه، فظهرت حكمته وبَطُنَت قدرته، لرجوع الأمر كله إليه، ولذلك قال عزّ وجلّ صُنْع الله الذى أتقن كل شئ، أى صُنْعه الباطن أتقن صُنْعه الظاهر، ثم قال وإليه يُرجع الأمر كله، من الظاهر والباطن، فاعبدْه وتوكل عليه، فى جميع ذلك، **والعارف المتوكل** شهادة من الصُنع الباطن، وله من الحكمة الظاهرة عِلمُ شَرْعٍ هو عاملٌ به، وهو مقام العلماء الربانيين.

وكل مؤمن بالله متوكل على الله، ولكن توكل كل عبد على قدر يقينه، **فتوكل الخصوص** ما قدمناه من ذكر المشاهدة ومعانى الرضا، **وتوكل العموم** ما عقّبناه من الإيمان بالأقدار خيرها وشرها. وقد أخبر الله تعالى أنه هو الرزّاق كما هو الخالق كما هو المحيى المميت، فقرن بين هذه الأربع فى قرن واحد مع ترتيب الحكمة والقدرة، فكيف يختلف حكمها أو يتبعض وصفها لظهور الأسباب ووجود الأواسط، فقال سبحانه وتعالى الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم، فكما ليس فى الثلاث الأُخَر جاعلٌ ومُظهِرٌ إلاّ الواحد، فكذا ليس فى الرابعة من الرزق إلاّ هو. ألا ترى أنك لا تقول خلقنى أبى وإنْ كان هو سبب خَلْقك، ولا تقول أحيانى وأماتنى فلان وإن كان هو أواسط فى الإحياء والقتل، لأن هذا شرك ظاهر اشتَهر قُبحُه فتُرِك، ولذلك قال الله تعالى أفرأيتم ما تمنون، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون، وكذلك قال تعالى أفرأيتم ما تحرثون، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون، فأضاف الإمناء

والحرث إلينا لأنها أعمال ونحن عبيد عُمّال، ولأنها صفاتنا وأحكامها عائدة علينا. وأضاف الخَلْق والزرع إليه لأنها آيات عن قُدرته وحكمته والله هو القادر الحكيم. وكذلك كل ما ذُكر فى الكتاب من الأعمال والاكتساب أضيف إلى الجوارح المجترحة ونُسب إلى الأدوات المكتسبة، وما كان من القُدرة والإرادة وصَفَ نفسه به لأنه المريد الأوّل والقادر الأعلى. فافهم عن الله خطابه كيلاَ يَزيغ قلبك فيما تشابه. ثم قد يقول العبد أعطانى ومنعنى فلان لأن هذا شِرْك خفى، ولأن الأسباب تَظهر على أيديهم وتجرى بأواسطهم فَحُجِبوا بها عن المُسَبّب واستتر عنهم المُعطى المانع، فقُبْح هذا أيضا عند الموقنين كقُبح ذاك، لأن الله تعالى نَفَى الرزق عن سواه كما نَفى الخلْق، فقال تعالى هل من خالق غير الله يرزقكم. ولم يَرد اللفظ على اللفظ وإنْ حَسُن فيقول يخلُقكم، لأنه أراد سبحانه أن يفيدنا فضل بيان ويعلمنا اقتران الرزق بالخلْقة وأنهما مسَبّبان عن القدرة، فالمتوكل قد أيقن أنه لم يكن على الله أن يخلقه، فلمّا خلقه كان عليه أن يرزقه. وهكذا روى عن الله تعالى أأخلُق خلقاً ولا أرزقه. وقال النبى صلّى الله عليه وسلم لا مانع لما أعطيتَ ولا مُعطى لما منعت، ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجَدّ، رداً عليهم حين قالوا جَدّى فى كذا وجَدّى فى كذا، يعنون صنوف الأسباب، فنفى ذلك بقوله هذا فى صلاته وأسمعهم إياه خشية دخول الشرْك عليهم، أى جدّ العبد لا ينفعه منه شيأ، فهذا كما قال الله تعالى إنّ الظن لا يُغنى من الحق شيأ. قال بعض العلماء فى معنى ذلك مَنْ جَدّ فى الطلب وَحرِصَ ووجد منك المنع لم ينفعه جِدّه فى طلبه وحِرصُه شيأ. وقال أيضا فى معنى قوله عز وجل يمحو الله ما يشاء ويثبت، قال يمحو الأسباب من قلوب العارفين ويُثبت القدرة، ويمحو المشاهدة من قلوب الغافلين ويُثبت الأسباب فى صدورهم. وقال هذا أيضا خَلَق الله النفس متحركة ثم أمرها بالسكون، وهذا هو الابتلاء، فإنْ تداركها بالعصمة سكنت وهذا خصوص، وإنْ تركها تحرّكت بطبعها وجبلّتها وهذا هو الخُذلان. وفى **وصية لقمان** لابنه يا بنى اردُدْ رغبتك إلى الله، إنْ شاء أعطاك وإنْ شاء منعك، فإنّ حيلتك لن تزيدك ولن تنقصك من قِسْمة الله التى قَسَم لك، واعْتبرْ رزقك بخَلْقك فإن استطعتَ أن تزيد فى خَلْقك بحيلتك فإنك إذاً تزيد فى رزقك، وإلاّ فاعلم أنّ الله هو الذى عَدَل الخلق وقَسَم الرزق، فلن تستطيع أن تزيد فى أحد منهما، فإن منهم المحتال الجَلِد البَطُوش ولا يزداد إلاّ فقرا، ومنهم المُعِيىّ الواهن المَهين ولا يزداد ماله إلاّ كثرة، ولو كان من الحيلة لسَبَق القويُ الضعيف إلى كل شئ، ولكن الله يخلق ويرزق ولا يملك العباد من ذلك شيأ. وهكذا حكى بعض الأكاسرة سأل حكيما فى زمانه فقال

ما بالى أرى العاقل محروما والأحمق مرزوقا، فقال أراد الصانع أن يَدُل على نفسه، ولو كان كل عاقل مرزوقا، وكل أحمق محروما، لوقع فى العقول أن العاقل يرزق نفسه، والأحمق حَرَمَ نفسه، فلما رأوا الأمر بخلاف هذا علموا أن الصانع هو الرازق.

وروينا عن **ابن مسعود** فى إعطاء هذا المال فتنة، وفى منعه فتنة، إنْ أُعطِيَه عبدٌ مدَحَ غير الذى أعطاه، وإنْ مُنِعَه عبد ذمّ غير الذى منعه، يعنى بالفتنة الاختبار، يُختَبر بذلك الموقنون للخير والغافلون لينظر كيف يعملون، فأمّا أهل اليقين فيعتبرون بالأسباب ويَعجبون من التسبب، فيزدادون بذلك هُدى وإيمانا لشهودهم المُعطى المانع واحداً فى العطاء والمنع، ولمعرفتهم بجريان الحكمة فيما جاءت به الشريعة، فثبت لهم مقامان. الشكر له والصبر عليه. وأمّا الغافلون فيضطربون لذلك ويثبتون بنظرهم إلى الأسباب والأيدى، فيمدحون المُعطين ويذمّون المانعين، فينقصون بذلك، فقد صار المال فتنة للفريقين، يكشف إيمانهم وتُمتَحن للتقوى قلوبهم. وعن **ابن مسعود** أنه قال من الإخلاص أن لا تحب أن يحمدك الناس على عبادة اللّه وأن لا تمدحهم على ما رزَقَك اللّه. وقد روينا عن **عيسى عليه السلام وعن ابن مسعود** وغيره: أن من اليقين أن لا تحمد أحداً على ما أعطاك اللّه، ولا تذمه على ما لم يؤتك اللّه. وقال الصبر نصف الإيمان، والشكر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله. وفى حديث الإفك عن **عائشة رضى اللّه عنها** أنها قالت: فقام إلىّ أبواى فقبّلانى فى صدورهما، فقلت بغير حمدِكما ولا حمد صاحبكما أحمدُ اللّه تعالى الذى عزّرنى وبرّأنى. وفى حديثٍ غيره فقال **لها أبو بكر**: قومى فقبلى رأس رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، فقالت: واللّه لا أفعل ولا أحمَد إلاّ اللّه، فقال النبى صلى اللّه عليه وسلم: دعها يا أبا بكر. وسُئل بعض علمائنا عن معنى الخبر المنقول من التوراة من تواضع لغنىٍ ذهب ثلثا دينه، فقال: لأن الإيمان عقد وفعل وقول، فإذا تواضع للغنىّ لأجلِ دنياه بالثناء والحركة إليه ذهب ثلثا إيمانه وبقى الثلث وهو العقد، فإنْ جعلتَ الأواسط فى الرزق أوائل فى الجَعل لثبوتها فإن اللّه تعالى قد أظهرها أسبابًا وأثبت نفسه فيها، فقال تعالى قل يتوفاكم مَلَك الموت الذى وُكِلَ بكم، ثم رفعه وأظهر نفسه، فقال تعالى اللّه يتوفى الأنفس حين موتها، وكذلك قال أفرأيتم ما تحرثون، فذَكَر الأواسط، ثم قال إنّا صببنا الماء صباً ثم شققنا الأرض شقا، وقال فى التفصيل فأرسلنا إليها روحنا، ثم قال تعالى فى التوحيد فنفخنا فيها من روحنا، وكان النافخ جبريل عليه السلام. كما قال تعالى فإذا قرأناه فاتّبع قرآنه، قال أهل التفسير فإذا قرأه عليك جبريل فخذه

عنه بعد قوله تعالى لا تحرك به لسانك لتعجل به. وكذلك قال جبريل لأهب لك غلاماً زكياً، لأن اللّه تعالى وهب له يهب لها فذكَر نفسه وهو يُشهد ربه، ثم قال فى الحرف الآخر ليَهب لك يعنى اللّه تعالى. ومثله قول **موسى عليه السلام** لا أملك إلاّ نفسى وأخى، لأجل أن اللّه تعالى قال ووَهَبْنا له من رحمتنا أخاه، وهو فى الحقيقة لا يملك نفسه ولا أخاه، إذ لا مالك أصلا إلاّ اللّه عز وجل، وهذا على أحد الوجهين إذا كان وأخى فى موضع نصب، والوجه الآخر أن يكون قوله وأخى فى موضع رفع فيكون المعنى وأخى أيضا لا يملك إلاّ نفسه. وكذلك قال سبحانه فى التفصيل والأمر اقتلوا المشركين، وقال فى مثله مِنْ ذِكْر واسطة الأمر قاتلوهم يعذبهم اللّه بأيديكم، ثم قال فى التوحيد فلم تقتلوهم ولكن اللّه قتلهم. وقال فى إثبات الأسباب ورفْع حقائقها وما رميتَ إذ رميتَ ولكن اللّه رمى، وقال تعالى فى ذِكْر الأواسط فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم، إنما يريد اللّه ليعذبهم بها. وقال فى مِثله الذى علّم بالقلم، ثم قال تعالى الرحمن علّم القرآن، وقال تعالى علّمه البيان، ثم قال إنّ علينا بيانه، وقال فى تثبيت الأملاك وبيعها منه بالأعواض كرماً منه وفضلا، إن اللّه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم، فجاز ذلك لمّا ملّكهم ماله، كقوله تعالى إلاّ ما ملكت أيمانكم. وعند أهل المعرفة أن لا فاعل حقيقةً إلاّ اللّه عز وجل، لأن حقيقة الفاعل هو الذى لا يستعين بغيره بآلة ولا سبب، وعندهم أنّ فعلاً لا يتأتّى من فاعلين وإلاّ كان شِرْكاً، لأن الفاعل الثانى المظهر الذى فعل بيده وأجرى الفعل بواسطته، هو ثانٍ ومُحدَث، والأوّل القديم هو الفاعل الأصلى. كما أنّ عندهَم أنّ حقيقة المالك هو خالق الشىء، ومَنْ جُعِلَ فى يده فهو مُملّك لأنه لم يخلق ما بيده، كما المجُرِى على يده الفعل مفعول، لأن اللّه تعالى هو الأوّل القيّوم بنفسه لا يستعين بغيره. وقد جعل اللّه أيضا بحكمته وعزّته للخلْقة والحياة واسطة وهو مَلَك الأرحام، وفى الخبر أنه يدخل الرحم فيأخذ النُطفة فى يده ثم يصوّرها جسدا فيقول يارب أذَكَرٌ أم أنثى، أسَوىٌ أم مُعوّج، فيقول اللّه ماشاء ويُصوِّر المَلَك. وفى لفظ آخر يخلُق الملك ثم ينفخ فيها الروح بالشقاوة أو بالسعادة. ويقال إنّ المَلَك الذى يقال له الروح هو الذى يولج الأرواح فى الأجساد، ويقال إنه يتنفس بوصفه فيكون كل نَفَس من أنفاسه روحا يلج فى جسم ولذلك سُمى الروح. وقد قال اللّه تعالى فى وصف نفسه البارىء المصوّر كما قال الخالق وقال تعالى خلَق الموت والحياة، وقد جعل للإحياء واسطة كما جعل للموت وهو إسرافيل صاحب الصور ينفخ فيه النفخة الثانية فيحيا كل ميت ثم يرفعه اللّه تعالى، فقال يومَ يُنفخ فى الصور، ووصف نفسه بأنه المُحيى المميت. وفى بعض الأخبار أن

ملَك الموت وملَك الحياة تناظرا، فقال ملك الموت أنا أميت الأحياء، وقال ملَك الحياة أنا أحيى كل ميت، فأوحى الله إليهما كونا على عملكما وما سُخِّرتما له من الصنُع فأنا المُميت وأنا المُحيى، ولا مُميت ولا مُحيى سواى.

وكذلك أيضا قيل عن الله تعالى أنا الدليل على نفسى ولا دليل علىّ أدلّ منى. ولم يمنع وجود هذه الأواسط أن يكون الله سبحانه هو الأوّل فى كل شىء، وهو الفاعل لكل شىء وحده لا شريك له فى شىء. ولم يقل أحد من المسلمين الملَك خلقنى، ولا عزرائيل أماتنى، ولا إسرافيل قد أحيانى. كذلك أيضا لا يَصلُح أن يقول الموقن المشاهد للتوحيد فلان أعطانى أو منعنى، كما لا يقول فلان رزقنى، ولا فلان قدّر علىّ، وإنْ جُعِلَ واسطة فى ذلك وأُجْرِىَ على يدْيه ذلك، لأن العطاء هو الرزق، والمنع هو القَدَر، ولا كان عندهم شركاء فى أسماء الله غيره إذ كان الله هو المعطى المانع الضار النافع، كما هو المحيى المميت، لا شريك له فى ملكه، ولا ظهير له من عباده فى خلقه ورزقه، وهذا عندهم يقدح فى حقيقة التوحيد للعبد، وهو من الشرْك الخفى الذى جاء فى الأثر: الشرْك فى أمتى أخفَى من دبيب النمل فى الليلة المظْلمة.

وقال بعضهم فى معنى قوله تعالى وما يؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهم مشركون، قال مؤمن بالإقرار أن الله هو المقدّر المدبّر، ومشرك فى الاعتماد على الأسباب ورد الأفعال إليها. ومن الإخلاص عند المخلصين بلا إله إلاّ الله ولا معطى ولا مانع إلاّ الله، ولا هادى ولا مضلّ إلاّ الله كما لا إله إلا الله، هذا عندهم فى قَرنْ واحد ومشاهدة واحدة، وهو أوّل التوحيد، وإنْ كان قد جَعَل هادين ومضلّين ومعطين ومانعين

ولكن بعد إذنه ومن بعد مشيئته وحُكمه. كما قال تعالى أحسن الخالقين خير الرازقين، لأنه خلقَهم وخلَق خُلُقهم ورزَقهم ورزَق رزْقهم، وكذلك هو هداهم وهدَى بهم وأضلّهم وأضلّ بهم. فعن هدايته هُدُوا به، وعن إضلاله ضلّوا بعد إرادته، كما عن خَلْقه خُلقُوا ومن رزقه رُزقوا. وكيف وقد فسر ماذكرناه بقوله وإذ تَخْلُق من الطين كهيئة الطير بإذنى، وبقوله تعالى لوهدانا الله لهديناكم، وقال فى مثله فأغويناكم إناّ كنا غاوين، فبمشاهدة ماذكرناه يخرج العبد من الشرك الخفى وهو تحقيق قوله لا إله إلاّ الله بعد التصديق، أى ليس مَنْ تأله القلوب وتألّه إليه إلا الله، ثم يقول معها وحده لا شريك له، أى وحده فى قدرته وتوحيده، لا شريك له فى ملكه من خَلْقه. ثم وكد ذلك بقوله له المُلك أى جميع ما أظهر، وله الحمد فى جميع ما أعطى ومنع،

يستحق الحمد كله فهو لا يستحقه غيره ، وهو على كل شئ قدير أى من الخلق والأمر ، فالقدرة كلها له والخلق كله له ، يحكُم في خَلْقه بأمر ما شاء كيف شاء .

ومثل الأواسط مِثْل الآلة بيد الصانع ، ألا ترى أنه لا يقال الشفرة حذّت النعل ولا السوط ضرب العبد ، إنما يقال الحذاء حذّ النعل ، وفلان ضرب عبده بالسوط . وإن كانت هذه الأواسط مباشرة للأفعال إلا أنها آلة بيد صانعها وكذلك الخليقة يباشرون الأسباب فى ظاهر العيان والله من ورائهم محيط ، القادر الفاعل بلطائف القدرة وخفايا المشيئة ألم تَرَ إلى قولهم الأمير أعطانى كذا ، وخَلع علىّ كذا وإنْ لم يناوله بيده ؟ ولا يصلح أن يقول خادم الأمير أعطانى لأجل أنه جرى على يده وإنْ كان باشر العطاء بنفسه ، إذ قد عُلِم أن الخادم لا يملك ولا يتصرف فى مُلك الأمير إلا بأمره ، إلا أن يُسئل الإنسان بيد مَنْ أعطاك الأمير ، أو على يد مَنْ وجّه إليك العطاء ، لبُغيْة تكون للسائل فى معرفة أى عبد جاء به ، فيجوز أن يقول حينئذ بيد عَبْدِه فلان .فأمّا أنْ يبتدئ المُعطى من غير أن يُسأل إذا أراد أن يُظهر العطاء فيقول الأمير أعطانى على يد عبده فلان ، فإنّ هذا لغو لا يحتاج إلى ذكر العبد مع ذِكر المَلك لأن البغية إظهار العطاء من المِلك المُعطى ، فلا معنى لذكر العبد الذى جرى العطاء على يده فافهم .

ومن ذلك قول النبىّ صلى الله عليه وسلم للرجل الذى ناوله التمرة ، خذها لو لم تأتها لأتتك. والتمرة لا تأتى ، ولم يقل لجاءك بها رجل إذ لا بغية فى ذكر ذلك ومن هذا قوله صلى الله عليه وسلم للرجل الذى قال أتوب إلى الله ولا أتوب إلى محمد ، فقال عرف الحق لأهله وإنما ذكر الله تعالى الأسباب لأن الأسماء متعلقة بها ، والأحكام عائدة على الأسماء بالثواب والعقاب ، فلم يصلح أن لا تُذكر فتعود الأحكام على الحاكم تعالى وعن هذا أنه هو يبدئ ويعيد ، يبدئ الأحكام من الحاكم ويعيدها على المحكوم ومن هذا قوله تعالى ما عندكم ينفد وما عند الله باق ، فجميعاً عنده وفى خزائنه ، إلا أنه أضاف الدنيا إلينا لرجوع الأحكام علينا وليُزهّدنا فيها وأضاف الآخرة إليه تخصيصاً لها وتفضيلاً ليرغبنا فيها وكما أخبر عن عيسى وإذ تخلق من الطين ، ومثله فارزقوهم فيها ، فسمّاه خالقاً إذ خلق الله على يده وسماهم رازقين لما أجرى علي أيديهم رزق أهليهم فهو عندى كقوله لمريم وهُزّى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً . وقد علمتَ أن الرطب لم يتساقط بهزها ولا جَعل ولا فِعل لهزها فى الرطب ، ولكن أراد أن يُظهر كرامتها ويجعل الآله منه بيدها ومثله اركض برجلك

هذا مغتسل بارد وشراب، فنبعت عينان فشرب من إحداهما واغتسل من الأخرى، ولا فعل لرجْله فى إظهار العينْين، وقد نفى لُبيْد ماسوى اللّه فى قوله« ألا كل شىء ماخلا اللّه باطل» فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم لما أنشد ذلك صَدَق. وفى لفظ آخر أن النبى صلى اللّه عليه وسلم قال أصْدقُ بيت قاله الشاعر. «ألا كلُ شىء ماخلا اللّه باطل» وهو يعلم صلّى اللّه عليه وسلم أن فى الأشياء أواسط حق، وأسباب صدق، ثم لم يمنعه ذلك أنْ قال أصدق بيت قاله الشاعر كذا إيثاراً منه للتوحيد، وتوحيداً للمتوّحد. هذا مع قُرب عهدهم بتكذيب الرسُل وإبطال الكتب، ولكن لما كانت الأشياء بعد أنْ لم تكن ولا تكون بعد أنْ كانت أشبَهَت الباطل الذى لا حقيقة له أوّليّة ولا ثبات له آخريّة، وكان اللّه تعالى الأوّل الأزلى الآخر الأبدى، فهو الحق ولاهكذا سواه. ومِثْله الأسباب أيضا فى ثوانيها وأواسطها إلى جنب الأوّل المسبِّب، مِثْل ما يقول فى القرآن قال اللّه كذا ولك أن تقول قال نوح وقال يوسف كذا، فكلٌ صواب. فإذا قلتَ قال اللّه سبحانه وتعالى فهو القائل الأوّل قبل القائلين، متكلما بوصفه، مخبراً عن علمه بغير وقت لُموقّت، ولا حدّ لمحدود، ولا حَدّ ثان. وإنْ قلتَ قال صالح وقال شعيب، فقد قالوه بأنهم ثوان فى القول، وأواسط به قالوا ذلك عنه، بحدوث أوقات وظهور أسباب. كذلك الأسباب فى أواسطها هى ثوان عن الأوّل المبدىء. ومن ههنا وفى مِثْله دخلت الشُبْهة على المبُتدعين فقالوا بخلق القرآن، فلو لم يدخل عليهم إلا أنهم جعلوا قول القائلين قبل قول اللّه أحكم الحاكمين، فأثبتوا قبل قوله قيلا وهو القول منهم، لنفيهم قِدَم الكلام فوقعوا بجهلهم فى أعظم مما هربوا منه، لأنهم هربوا من إثبات قديم آخر بزعمهم فوقعوا فى إثبات حدَثٍ أوّلاً وإحداث قِدَم ثانيا، تعالى اللّه عما يقول الظالمون عُلوا كبيرا، وسبحانهُ بكرة وأصيلا، ولم يعلموا بجهلهم أنهم إنما قالوه بعد قوله، فصار قولهم عن قوله، وكان هو الأوّل فى القول من حيث كان هو الأوّل بالقدم والسابق بالعلم، وصاروا همْ ثوانٍ فى المقال من حيث كانوا حوادث من الأفعال، فكذلك أيضا تدخل الشُبْهة على الغافلين من ضعف اليقين لشهود المانعين والمنفقين أوائل فى الفعل من قِبَل أنّ اللهّ تعالى أظهر العطاء والمنع بأيديهم، فشهدوهم مُعطين مانعين لنقصان توحيدهم، فأشركوا فى أسماء اللّه كما أشركت المبتدعة فى صفات اللّه عز وجل، أنْ حُجبوا عن شهادة سَبْق علم اللّه، كما حُجب الزائغون عن حقيقة توحيد اللّه تعالى، إلاّ أن شرْك الزائغين ضلالٌ يُنْقَل عن الملة وهو شرْك جلىّ، وشرك ضعفاء اليقين غفلة وجهل لا يُنْقَل عن الملة لأنه شرك خفى.

وحكى أن بعض العلماء صلّى خلف رجل فلما انفتل الإمام نظر إليه فى زِيٍ مكتسَب، فقال ياشيخ من أين تأكل، فقال إصبر حتى أعيد الصلاة التى صليتها خلفك ثم أجيبك! وحدثونا فى معناه عن آخر أنه لزم العكوف فى المسجد ولم يكن ذا معلوم من عيش، فقال له الإمام الذى يصلى بالناس لو تكسّبت وتعيّشت كان أفضل لك، فلم يجبه، فأعاد عليه وقتا آخر نحو ذلك، فقال يهودىٌ فى جوار المسجد قد ضَمِن لى كل يوم رغيفين فقنعت بذلك وتركت التكسب، فقال الإمام إنْ كان صادقا فى ضمانه فإنّ عكوفك فى المسجد خير لك، فقال له الرجل ياهذا أنت لو لم تكن إماما للمسلمين تقوم بينهم وبين اللّه لنَقَصَ توحيدك. وحدُّث أن اللّه تعالى أوحى إلى بعض الصديّقين أدركْ لى لطف الفطنة وخفّى اللطف فإنى أحب ذلك، قال يارب ومالُطف الفطنة، قال إنْ وقعت عليك ذبابة فاعلم أنى أوقعتها فسلّنى أرفعها، قال وماخفّى اللطف، قال إنْ أتتك فولة مسوّسة فاعلم أنى قد ذكرتك بها. وهذا الذى ذكرناه من أنّ اللّه سبحانه وتعالى هو المعطى المانع الضار النافع حيث كان هو الخالق الرازق، كيف شاء ومتى شاء وبمن شاء، هو فى عقود عموم المؤمنين وفى علِمهم، إلاّ أن فيهم جهلاً بالحكمة وغفلةً عن الحاكم، يحيلون ذلك إلى عاداتهم ويريدون أن يكون رزقهم من حيث معتادهم أو من حيث معقولهم باختيارهم ومعقولهم، وبالعز والفخر والتطاول والأنفة، لا على الذُل والتواضع والفقر والمسكنة، ولا يكلون أمورهم إلى اللّه يرضون بتدبيره وتقديره أن يرزقهم كيف شاء وبيد من شاء،فيؤثرون أخلاق الجبابرة على أخلاق المؤمنين لبُعدهم من مشاهدة اليقين، ولاستيلاء أخلاق النفس عليهم. ثم إنّ نفوسهم مع علمهم أن الخلْق والأرض كله للّه عز وجل، وأن الحمد والملْك له، قد تطمع فى غير اللّه وترجو سواه، وقد تضطرت بجبلتها عند أثقال الحقائق، وقلوبهم لا تطمئن بل تنزعج عند الابتلاء بالمصائب والفاقات، ولا تصبر للخالق، وإنّ ألسنتهم قد تسبق بالمدح والفرح مع رؤية الأواسط،أو بالذم والأسى على فوْت العطاء لوجود الغفلة وذهابهم عن مشاهدة ما يعلمون،فهذا دليل نقص توحيدهم وضعف يقينهم، وأنّ معرفتهم معرفة سمع وخَبْر لا معرفة شهادة وخُبْر، وقد شركهم الموقنون بتسليم ذلك للّه فى العلم والقدرة وإثبات الأواسط والأسباب لمجارى الحكمة، وعوْد الثواب والعقاب على الخليقة، ولكن زادوا عليهم بحُسن اليقين وقوة المشاهدة وجميل الصبر وحقيقة الرضا، فسكنت القلوب واطمأنّت النفوس عند النوازل والبؤس، وثبتوا فى الابتلاء لشهود المُبلِي يدبر الخلائق كيف شاء، فحصلُ لهم مقامٌ فى اليقين وحالٌ من التوكل ونصيبٌ من الرضا. وخرج أولئك من

حقائق هذه المعانى ودخلوا فى عمومها، ودخل عموم المؤمنين مع الموقنين فى فرض التوكل، قد جاوزهم الموقنون فارتفعوا عليهم وعَلَوْا فى فضله، ووقف العموم ونكصوا عن العُلُو لقعود اليقين بهم وحجْب الأسباب لهم، وسبق المقربون إلى الفضل، ويُؤتى كل ذى فضل فضله. هم درجات عند اللّه، واللّه بصير بما يعملون. وقال بعض العلماء احتجَبَ عن العموم بالأسباب فهم يرونها، وحَجَب الأسباب بنفسه عن الخصوص فهم يرونها ولا يرونها. وحدّثونا عن **سرى السقطى** قال ثلاث يستبين بهن اليقين، القيام بالحق فى مواطن الهلكة، والتسليم لأمر اللّه عند نزول البلاء، والرضا بالقضاء عند زوال النعمة. وقال **يوسف بن أسباط** قَبْلَه – كان يقال ثلاث من كن فيه استُكمل إيمانه: مَنْ إذا رضى لم يخرجه رضاه إلى باطل، وإذا غضب لم يخرجه غضبه عن حق، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له.

ذكر التكسب والتصرف فى المعايش

ولا يضر التصرف والتكسب لمن صحّ توكله، ولا يقدح فى مقامه ولا ينقص من حاله. قال اللّه سبحانه وجعلنا النهار معاشا، وقال تعالى وجعلنا لكم فيها معايش قليلاً ما تشكرون. وروى عن النبّى صلى اللّه عليه وسلم: أُحلّ ما أكل العبد من كسْب يده، وكل بيع مبرور وقد كان الصانع بيده أحب إليهم من التاجر. والتاجر أحب إليهم من البطّال. وقال **ابن مسعود** إنى لأكره أن يكون الرجل بطالا ليس فى عمل دنيا ولا فى عمل آخرة. ولأن التوكل من شرط الإيمان ووصْف الإسلام قال اللّه تعالى إن كنتم آمنتم باللّه فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين، فاشترط فى الإيمان به والإسلام له التوكل عليه. فإن كان حال المتوكل التصرّف فيما قد وجه فيه ودخل فى الأسباب وهو ناظر إلى المسبِّب فى تصريفه، معتمد عليه واثق به فى حركته، مُتسبب فيما يقلبه فيه مولاه، متعيش فيما يسببه له ويوجهه فيه، عالم بأن اللّه تعالى قد أودع الأشياء منافع خلْقه، وجعلها خزائن حكمته ومفاتح رزقه، ويكون أيضا متبعاً للسُنة والأثر، تاركاً للترفّه والتنعّم، فهو فى تكسبه وتصرفه أفضل ممن دخلت عليه العلل فى توكله فساكنها.

وقد ذكر لنا عن بعض العلماء أنه رؤى يطحن برجله وكان قد ترك العمل أربعين سنة، فقيل له دخلت فى التكسب بعد أن كنت قد تركته، فقال ياهذا إذا عدِمْنا عزّ التوكل لم نصبر على ذُل الاستشراف. فكذلك الأمر فيمن دخلت عليه الآفة فى ترك التكسّب، فليخرج منها إلى الاحتراف. ومن دخل عليه اليقين فاقتطعه فليقعدْ عن الاكتساب، فالتكسب خيرٌ من التشرف

إلى الخلْق واعتياد المسئلة، وسالك على طريقٍ فهو يصل وإنْ كان فى طريقه بَعْد، والتوكل لمن أقعد به ناظراً إلى الوكيل أفضل لمن صحّ له لفراغ قلبه من الخلق وشُغله بالخالق، وهو طريق قريب فصاحبُه مقرّب. والتارك للتكسب طمعاً فى الخلق وترفّهاً للنفس وحباً للمسئلة واتباعاً للهوى سالكٌ على غير طريق، لا قريب ولا بعيد، هو عن المحجّة جائر. كما روى عن **النبى صلّى اللّه عليه وسلم** :لأن يأخذ أحدكم فأسه وحبْله فيذهب إلى الجبل فيحتطب فيأكل ويتصدّق خيرٌ له من أن يسأل الناس، أعطوه أو منعوه. وقال **صلّى اللّه عليه وسلم** :استغنوا عن الناس ولوبشَوْص السواك، يعنى بمضغه.وقال من يضمن لى خَصلة واحدة أضمن له الجنةَ، **لا يسأل الناس شيأ**.

وقال بعض علمائنا: من أنكر التكسب فقد طعن فى السُنّة، ومن أنكر القعود عن التكسب فقد طعن فى التوحيد. وقال :بُعِث النبّى صلى اللّه عليه وسلم إلى الخلْق وهم أصناف كما هم اليوم، منهم التاجر والصانع والقاعد، ومن يسأل الناس ومن لم يسأل الناس، فما قال للتاجر اترك تجارتك، ولا قال للقاعد اكتسبْ واصنْع، بل جاءهم بالإيمان واليقين فى جميع أحوالهم،وتركهم مع اللّه فى التدبير، فعمل كل واحد بعمله فى حاله. وقد كان بعض المتوكلين يقول من لم يصبرْ على جوع ثلاثة أيام أخاف أن لا يسعه ترك العمل إذا وجَده. وقال أيضا مَنْ فقدَ الأسباب فضعف قلبه، أو كان وجودها أسكن لقلبه من عَدَمها لم يصح له القعود عن المكاسب لأن فيه انتظاراً لغير اللّه. وقال بعض العلماء: مَن طرقته فاقة تسعة أيام فتصوّر فى قلبه طمع فى خلْق أو استشراف إلى عبْد فالسوُق أفضل له من المسجد. وقال **أبو سليمان الدارانى**: لاخير فى عبد لزم القعود فى البيت وقلبه معلقٌ بقرع الباب متى يطرق بسبب. وقال بعض علمائنا: إذا استوى عنده وجود السبب وعدمه، وكان قلبه ساكنا مطمئنا عند العدم، لم يشغله ذلك عن اللّه تعالى ولم يتفرق همّه، فترْك التكسب والقعود لهذا أفضل لشُغله بحاله وتزوّده لمعاده وقد صح له مقام فى التوكل. وقال **سهل** وقد سئل متى يصح للعبد التوكل، فقال إذا دخل عليه الضرّ فى جسده والنقص فى ماله فلم يلتفت إليه ولم يحزن عليه شُغلاً بحاله، وينظر إلى قيام اللّه عليه. وقال **إبراهيم الخوّاص** وهو إمام المتوكلين من المتأخرين، ثلاثة مواطن حمْلُ الزاد فيهن من آداب التوكل، القعود فى المسجد، والركوب فى سفينة، وصحبة القافلة. وقال **سفيان الثورى**: العالِم إذا لم يكن له معيشة صار وكيلا للظلّمة، والعابد إذا لم تكن له معيشة أكَلَ بدينِه، والجاهل إذا لم تكن له معيشة كان سفيراً للفسّاق.

وقال بعض أهل المعرفة: الناس ثلاثة - رجل شَغَله معاده عن معاشه فهذه درجة الفائزين، ورجل شغله معاشه لمعاده فتلك حال الناجين، وآخر شغله معاشه عن معاده فهذه صفة الهالكين. وروينا عن **علي رضي الله عنه**: الرزق رزقان - رزق يطلبك، ورزق تطلبه. ففسّره بعض العلماء فقال الرزق الذي يطلبك هو رزق الغذاء، والرزق الذي تطلبه رزق التمليك وهو طلب فضل القوت. وقال **أبو يعقوب السوسي**، وقد كان له مقام مكين في التوكل - التوكل على ثلاثة مقامات: عام، وخاص عام، وخاص خاص، فمنْ دخَل في الأسباب واستعمل العلم وتوكّل على الله تعالى ولم يتحقق باليقين فهو عام ، ومَن ترك الأسباب وتوكل على الله وحقق في اليقين فهو خاص عام، ومن خرج من الأسباب على حقيقته بوجود اليقين ثم دخل في الأسباب فتصرّف لغيره فهذا خاص خاص، وهذا وصف الطبقة العليا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرهم.

وقد شَرط **النبي صلى الله عليه وسلم** للعطاء: ترك المسئلة والاستشراف تنزيها للفقراء ورداً لهم إلى الله تعالى، لأن في مسئلة العبد الفقير ذُلاً ذليلاً وحرصاً على الدنيا جليلاً، وفي الاستشراف إلى العبيد طمع في غير مطمع ونظرٌ إلى الله، وإتيان البيوت من غير أبوابها. ومنه ماروى عن **النبي صلى الله عليه وسلم**: مسئلة الناس من الفواحش، ماأُحِلّ من الفواحش غيرُها. وقال **صلى الله عليه وسلم**: مَن استغنى أغناه الله، ومن استعفّ أعفّه الله، ومن فتح على نفسه باب مسئلة فتح الله عليه باب فقر. فكان الفقراء الصادقون جُعِل لهم أخذ العطاء، بل ندبوا إلى قبوله عِوَضا لهم من ذلك لمّا مُنِعوا من الاستشراف والسؤال تنزيهاً لهم وتفضيلا، فمثلهم في ذلك أهل البيت جُعِل لهم خُمس الخُمس من الغنائم لماّ حُرّمت عليهم الصدَقة تفضيلاً لهم وتشريفا. وقد كان **الخوّاص** إذا نظر إلى عبدٍ في العطاء أو خاف اعتياد النفس له لم يقبل منه شيئا، وكان يقول: صوفي لا يكون بحرِّيف. وهذا كله يحسن في حال المنفرد، فأمّا ذو العيال فالأمر عليه واسع من ذلك، ولابأس أن يأخذ لعياله كما يأخذ لأجل غيره من الناس،لأن عياله عيالُ الله عنده قدوكّله بهم وأجرى أرزاقهم على يده، فإنْ طلّب لهم وحثّ على استخراج حقهم مما أوجب الله لهم لم ينقص ذلك من حاله.

وآخى رسول صلى الله عليه وسلم بين **سعد بن الربيع وبين عبد الرحمن بن عوف**، فقال له سعد أشاطرك مالي وأهلي، فقال عبد الرحمن بارك الله لك في أهلك ومالك. دلّوني

على السوق، فعمل يومه ذلك. فلو كان التكسب فى الأسواق ينُقص التوكل لم يختر عبد الرحمن وهو إمام الأئمة ما ينقص توكله، ولكنه أحب إدخال المشاقة على نفسه وكَرِه التنعّم كما قال رسول اللهّ صلى اللّه عليه وسلم لمُعاذ إياك والتنعّم فإن عباد اللّه ليسوا بالمنعّمين. ورؤى فضالة بن عبيد أشعث أغْبَر حافياً وهو أمير مصر، فقيل له لِمَ أنت هكذا، فقال إنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم نهانا عن الإرفاه وأمرنا أن نحتَفِى أحياناً. ثم اختار عبد الرحمن أيضا إيثار أخيه بما أبرّه به رعايةً لحق أخُوّته، ولأن اللّه تعالى قد ندَب إلى الإيثار ووصف به الأحباب. وأعلى من عبد الرحمن مقاماً إمام الأئمة أبو بكر الصديق رضى اللّه عنه، لمّا بويع بالخلافة أخذ الأثواب تحت حِضنه ودخل السوق ينادى. هذا فى أتّم أحواله حين أهّل للخلافة وأقيم مقام النبوّة، حتى اجتمع المسلمون فكرِهوا له ذلك، فقال لا تشغلونى عن عيالى فإنى إنْ أضعتهم كنت لِما سواهم أضيِع، حتى فرضوا له قوت أهل بيتٍ من المسلمين، لا وَكْس ولا شطَطَ، فلما رضوا جميعا بذلك وأنفقوا عليه ترك السوق لشُغله بهم وبأمورهم. ألا تراه كيف آثر القيام بحقه وما أوجب اللّه عليه لأهله، وتواضع للّه فى حال رفْعته وأسقطَ الخلْق عن عينه حتى كره المسلمون ذلك فتركه بحكمٍ ثان. فكذلك التوكل لا يزال مع الحُكم الأول حتى ينهج اللّه له طريقا آخر فيسلكه بطريق ثان. وقد كان بعض علماء السلف يَجمع إليه الناس للكلام عليهم، فكان يقول لو أعلم أنّ أهلى يحتاجون إلى باقة بَقْل ما تكلمتُ عليكم. ففى هذا بيانٌ وبرهان لمن لم تستهوه الأهواء فى إنكار التكسّب على أهل التوكل، احتجاجاً لنفسه واعتذاراً من بِطالته. ولا يسع العلماء فى الدين إلا البيان وكشف حقيقة العلم بالبرهان، فالتكسّب والأسباب طرقٌ أودعها اللّه العطاء والأرزاق، لاهى تعطى وترزق بمنزلة الأواسط من الأشخاص، فالمتوكل المتسبّب موقن أنّ اللّه سبحانه هو المعطى والمانع، وأنه هو المُسبب الرازق، وأنه هو الأول فى التصريف والآخر فى التقليب، فقلبُه ناظرٌ إلى القسّام، ونفسه ساكنةٌ إلى القِسْم، وقلبه قانعٌ راضٍ بالمقسوم، وجسمُه متحرك فى المعلوم الذى وُجّه فيه وسُبّب له، وهو عارف بمقامه وبالمراد منه، راضٍ بحاله وماقد استسعى فيه وأُلزم إياه.

والذى يُنقِص المتوكل ويُخرجه من حدّ التوكل اكتسابُ الشبهات للاستكثار، أو السعى بالتكسب للجمع والافتخار، أو الحرص على طلب ماحظره العلم عليه، أو لطلب ما يُكره المنال منه، أو التسخّط للأقدار إذا لم تؤاته على ماقدّر، أو تركٌ لنصحٍ لمن عامله بأن يحتال عليه أو يدّبر، أو التشرّف إلى الخلْق أو الطمع فى سبب، فهذا كله لا يصح معه التوكل. وقد قال بعض

العلماء إنّ العبد إذا دخل السوق للتكسّب فكان درهمه أحب إليه من درهم غيره لم ينصح للمسلمين فى المبايعة، وهذا عنده يخرجه من التوكل. ودخول الآفات ومساكنتها لقصور علمٍ أو غلبة هوى يُخرج العبد من التوكل، وهو أن يكون متوكلا على الناس بأن يطمع فيهم، أو يتصدى لهم بالتعرّض والتصنّع، أو يكون متوكلا على صحة جسمه ودوام عوافيه، وأنه لا يُرزق إلاّ من كدّه، أو يكون متوكلا على ماله بأن يثق به ويطمئن إليه ويحسب أنه إنْ افتقر انقطع رزقه. وعلامة ذلك ضنّتُه به وإعداده له عدّة لكذا وعدة لكذا. فهذه المعانى تُخرج من التوكل، فقد تخفَى دقائقها وتدقّ حقائقها إلاّ على جهابذة العلماء الراسخين فى العلم المتضلّعين باليقين، القائمين على الدوام بالشهادة، فمن نظر إلى هذه المعانى من الأسباب والأشخاص، أو سكن إليها سكون أنس فيقوَى قلبه بوجودها، فإنه يضطرب ويستوحش أو يضعف قلبه لفقدها، فهى علّة فى توكله.

وروينا عن **بشر بن الحارث** قال: إنّ العبد ليقرأ إيّاك نعبد وإيّاك نستعين فيقول اللّه تعالى كذبْتَ، ما إيايَ تعبدْ ولابى تستعين. لو كنت تعبد إيايَ لم تؤثر هواك على رضاى، ولو كنت بى تستعين لم تسكن إلىَ حولك وقوتك، ولا إلى مالك ونفسك. وإنّ التارك للتكسّب والتصرّف فى الأسواق إذا كان فى أدنى كفاية وأُعينَ بالصبر والقناعة فى مثل زماننا هذا، أفضل وأتمّ حالاً من المتكسب إذا خاف أن لا ينال المعيشة إلاّ بمعصيّة اللّه من دخوله فى شبهة عياناً، أو خيانةً لإخوانه المسلمين. ولأنه قد تعذّر القيام بشرائط العلم مع مباشرة الأسباب وكثرة دخول الآفات والفساد فى الاكتساب، فتَركُ ملابسة أهل الأسواق ومخالطتهم على هذاالوصف المكروه أقرب إلى السلامة لبُعده من رؤية الأشياء وفقده مباشرتها، لأن الحُكم متعلق بالرؤية. ومثل الحرام مثل المنكر إذا لم تره سقط عنك حكمُه. وليس الخبر كالمعاينة ولا المجاورة كالمباشرة، ولا المعاين كالمخبر. وذلك كخَبر من زلّ عن حقيقة الكعبة على البُعد إلاّ أنه متوجه إلى الشَطْر، فصلاته جائزة، ولو زلّ عنها أنملة مع المعاينة لها بطلت صلاته.

والتكسُّب ليس بفرض. وقد يُفترض بأحد معنيين بوجود العيال وعدم كفايتهم من وجه من الوجوه المباحة، أو بأن يُقطَع عدمه عن فرض ويضعف عنه مع فقد ما يُقام به الفرض ممالابد منه. وقد كان **بشر بن الحارث** ترك التكسّب وكان يتكلم فى الحلال ويشدّد فيه، فقيل له

ياأبانصر فأنت من أين تأكل، فقال مِن حيث تأكلون، ولكن ليس من يأكل وهو يبكى مثل من يأكل وهو يضحك. وقال مرة ولكنْ يد أقصر من يد، ولقمة أصغر من لقمة. وقد كان **للثورى** خمسون ديناراً يُتّجر له بها، ثم أخذها في آخر أمره ففرقها على إخوانه وترك التكسب. ويقال إنه فعل ذلك لمّا مات عياله. وليس للعبد أن يحمل حال عياله على حاله إلاّ أن يكون اختيارهم كاختياره، وصبرهم على فقرهم ومعرفتهم بفضله كمعرفته، فجائز حينئذ أن يسير بهم سيرته ويُسقط عنه التكسب لأجلهم، لأنهم كَهُوَ فى الحال مع سقوط المطالبة منهم له بحقوقهم عليه. وقد فعل ذلك جماعة من السلف.

وبعض العارفين يفضلون مَن لا معلوم له على مَن له معلوم. وهم لا يرون ترك التكسب أفضل لأنه معلوم. ويعُدّ هؤلاء سكون القلب مع وجود المعلوم علّة، ولكن إذا سكن قلبه مع غير معلوم واجتمع همّه وانقطع طمعه فى حال المعدوم فهذا هو المقام. وتفضيل هذا فى التوسط من المقال عندى. واللّه أعلم أن العبد لا يفضُل بنَفْس عدم المعلوم كما لا يفضُل بنفس القعود عن المكاسب، وإنما يفضُل بحاله من مقامه، فإذا كان ذو المعلوم أحسن معرفةً وأقوى يقيناً فَضُلَ على مَن لا معلوم له. ولا يكون سكون القلب وطمأنينة النفس أيضا مع وجود المعلوم علّة فى الحال على قَدْر المقام، ولكن لا يكون مقاما يُرفع به ولا حالا يُفضّل فيه. إلاّ أنّ الطمع فى الخلْق وتشتُّت القلب مع وجود معلوم الكفاءة نُقصان عند الكل وعندى، وقطع الطمع فى الخلْق واجتماع القلب مع العدم أفضل وأعلى درجة عند الجماعة.

وفى حديث حية وسوار ابنىّ خالد أنّ **النبى صلّى اللّه عليه وسلم** قال لهما لا تيأسا من الرزق ماتهزّزت رؤسكما فإنّ ابن آدم تلده أمه أحمر ليس عليه قِشْر ثم يرزقه اللّه بعد. وقال **صلّى اللّه عليه وسلم** للرجل الذى ناوله التمرة لو لم تأتها لأتتك. ويقال إن العبد لو هرب من رزقه لأدركه كما لو هرب من الموت لأدركه الموت، وأنّ الرزق لا ينقطع عن العبد حتى يظهر له ملَك الموت، فحينئذ ينقطع عنه رزق الدنيا ويدخل فى رزق الآخرة، فيكون أوّل رزق الآخرة آخر رزق الدنيا. ولا آخر لهذا الرزق. وقال **سهل بن عبد اللّه**: لو أن العبد سأل اللّه أن لا يرزقه لم يستجب له، ويقال له يا جاهل أنا خلقتُك ولابد من أن أرزقك أبدا. وقال وقد سئل عن القُوت، فقال هو الحى الذى لا يموت، فقيل إنما سألتك عن القِوَام، فقال القِوَام هو العلم، قيل سألناك عن الغذاء، فقال الغذاء هو الذِكْر، قيل سألناك عن طُعمة الجسد، فقال

مالكَ والجسد، دعْ مَن تولاه أولاً يتولاه آخراً. إذا دخلت عليه علة فردُّه إلى صانعه. أما رأيت الصَنْعة إذا عابت رَدّوها إلى صانعها حتى يصلحها؟

وقد روينا عن سهل أنّ الله تعالى يُلقى على الخصوص الفاقة، ويُخْوِجهم إلى الخلْق بالطمع فيهم، ويُلقى فى قلوب الخلْق المنع لهم فيحرمهم ما فى أيديهم ليردَهم إليه، فإذا رجعوا إليه آيسين منقادين رزقهم من حيث لا يحتسبون. ومن علامة الخصوص أنهم إذا استشرفوا إلى شئ حُرِموا ذلك الشئ، وإذا سكنوا إلى عبدٍ سلّط عليهم ليرفع سكونهم إليه. وقد كان بعضهم إذا جاءه السبب بعد تطلّعٍ إليه ردّه، ومنهم من كان يُخرجه ولا يتناول منه عقوبةً لنفسه. وكان ذوالنون المصرى يتكلم على إخوانه فى علم التوحيد والمعرفة، فسأله غلام شاب عن الخبز من أين هو، فقال خذوا بيده واذهبوا به إلى الصوفية حتى يعلموه الأدب. وقد حكى عن معروف أبى محفوظ الكرخى أنه ذُكِر له انقباض بِشْر عن الأسباب التى تُفْتَتّح له، فقال إن أخى بشراً قبَضه الورع، وأنا نشّطتنى المعرفة. إلاّ أن معروفا كان لا يأخذ السبب إلاّ عند الحاجة، ويأخذ منه ما لا بد له منه، وكان لا يدخر، وكان قصير الأمل لم يكن يأمل البقاء من وقت صلاةٍ إلى صلاةٍ أخرى. وكان إذا صلّى الظهر يقول للجيران اطلبوا لكم مَن يُصلى صلاة العصر. وكان يقول إنما أنا ضيف فى دار مولاى، إنْ أطعمنى أكلتُ متى أطعمنى، وإنْ أجاعنى صبرت حتى يُطعمنى. وقد كان أبو محمد سهل يقول المتوكل لا يَسأل ولا يَردّ ولا يَحتكر.

ذكر الادخار مع التوكل

ولا يضر الادخار مع صحة التوكل إذا كان مُدّخِراً لله وفيه، وكان ماله موقوفا على رضا مولاه، لا مدخرا لحظوظ نفسه وهواه، فهو حينئذ مدخر لحقوق الله التى أوجبها عليه، فإذا رآها بذل ماله فيها. والقيام بحقوق الله لا يُنقص مقامات العبد بل يزيدها عُلوّاً. وحدثونا عن بعض أصحاب بشر بن الحارث قال كنت عنده ضَحْوة من النهار فدخل عليه كهل أسمر خفيف العارضين، فقام إليه بشر، قال وما رأيته قام لأحد غيره، قال ودفع إلىّ كَفاً من دارهم، قال اشتر لنا من أطيب ما تقدر عليه من الطعام والطيب، قال وما قال لى قط مثل ذلك، قال فجئت بالطعام فوضعته بين يديه فأكل معه وما رأيته أكل مع غيره، قال فأكلنا حاجتنا وبقى من الطعام شئ كثير فأخذه الرجل فجمعه فى ثوبه فجعله تحت يده وانصرف، قال فعجبت من

فعله ذلك وكرهتُه له إذ لم يأمره بشر بذلك ولا هو استأذنه فيه، فقال لى بشر بعد ذلك لعلك أنكرت فعله ذلك، قلت نعم أخذ بقية الطعام من غير إذْن، فقال تعرفه، قلت لا، قال ذلك أخونا **فتح الموصلى**، زارنا اليوم من الموْصل، وإنما أراد أن يعلمنا أن التوكل إذا صحّ لم يضُرّ معه الادخار.

وترك الادخار إنما هو حال مَن مقامه قصَر الأمل. وقد يصحّ التوكل مع تأميل البقاء، فإنْ كان أمله للحياة لطاعة مولاه وخدمته والجهاد فى سبيل اللّه فَضلُ ذلك، وهذا طريق طائفة من الراجين والمستأنسين. وإنْ كان أمله للحياة لأجل مُتعة نفسه، وأخْذ حظوظها من دنياه نَقَص ذلك من زُهده فى الدنيا فسرى النقص إلى توكّله، وما نقص من الزهد نقص من التوكل بحسابه. وليس ما زاد فى الزهد يزيد فى التوكل بحسابه، لأن الزهد من شرط خصوص التوكل، وليس التوكل من شرط عموم الزهد، فكل متوكل ذى مقام زاهد لا محالة، وليس كل زاهد فى مقامٍ متوكلاً، لأن التوكل مقام والزهد حال، والمقامات للمقرّبين والأحوال فى أصحاب اليمين، إلاّ أنّ مَن أُعطى حقيقة الزهد فإنه يُعطى التوكل لا محالة، لأن حقائق الأحوال وثبوتها ودوام استقامة أهلها فيها ولزومها لقلوبهم هى مقامات، فإذا جاز للمتوكل تأميل البقاء لشهر أو شهرين جاز له الادخار لذلك. إلاّ أنّ طول الأمل يُخرج من حقيقة التوكل عند الخواص، ولا يخرجه من حده عندى. وأكره للمتوكل الادخار لأكثر من أربعين يوما كما يُكره تأميل البقاء لأكثر من أربعين. ومن ادّخر لصلاح قلبه وتسكين نفسه وقطْع تشرّفه إلى الناس إن كان مقامه السكون مع المعلوم فالادخار له أفضل، فأمّا مَن ادّخر لعياله لتسكن قلوبهم ولوجود رضاهم عن اللّه ولسقوط حكمهم عنه ليتفرغ لعبادة ربه فهو فاضل فى ادخاره، اتفقوا عليه، ولأنه فى ذلك قائم بحُكم ربه، راع لرعيته التى هو مسؤل عنها. وقد ادّخر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لعياله قوُت سَنَة ليسن ذلك. وقد نهى أم أيمن وغيرها أن تدّخر شيأ لغد. ونَهَى بلالاً أيضا عن الادخار ليقتدى به أهل المقامات فى ذلك. كما روى أنه قُبِض صلّى اللّه عليه وسلم وله بُرْدان فى الحَفّ يُنسجان. وقد كان عليه السلام أقصر أملا من ذلك. كان يبول فيتيمم قبل أن يَصِل إلى الماء، فيقال له فى ذلك إنّ الماء منك قريب، فقال وما يدرينى لعلى لا أبلغه. فهذا يدلك أن الادخار يتّسع ويضيق على قدر مشاهدات العارفين من قِبَل أن الشريعة جاءت بالرُخصة والعزيمة، فالعزائم من الدين للأقوياء الحاملين، والرُخَص من الدنيا للضعفاء المخمولين.

وقد كان **الخوّاص** يُدقّق فى أحوال التوكل ويُذكّر أن الادخار يُخرج من حد التوكّل. ولم يكن يفارقه أربعة أشياء. وكان يقول ادخارها من تمام حال المتوكل لأنها من أمور الدين – الرَكْوَة والحبْل والإبرة والخيوط والمقراض. وكان **سهل** يَضرب للمدّخر مَثَلا فى قِصَر الأمل وطوله فيقول، مَثَل مَن يَترك الادخار مَثَل رجل يقول أريد أن أخرج إلى الأيْلة، فيقال له خذ

رغيفا، فإنْ قال أريد أن أخرج إلى عبادان قيل له خذ رغيفين، فإنْ قال أريد أن أخرج إلى العسكر قيل له خذ أربعة أرغفة. قال فكذلك تركُ الادخار على قدْر قِصَر الأمل وطوله.

وينقص الادخار من فضائل الزاهدين بمقدار ما يمنع من حقيقة الزهد. وفى حديث شهر بن حوْشب عن أبى أُمامة فى نِكْر الفقير الذى أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلم علياً وأسامة فغسّلاه وكفنّه ببُردته، فلما دفنه قال لأصحابه إنه يُبعث يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر، ولولا خَصلة كانت فيه لبُعِث ووجهه كالشمس الضاحية، فقلنا وما هى يا رسول الله، قال إنه كان صوّاماقوّاماً كثيرَ النِكْر لله، غير أنه كان إذا جاءه الشتاء ادّخر حلّة الصيف لصيفه، وإذا جاءه الصيف ادّخر حطة الشتاء لشتائه مِن قابل. ثم قال مِنْ أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر، ومَن أُعطى حظه منها لم يبال ما فاته من قيام الليل وصيام النهار.

وحدّثونا عن بعض العارفين قال رأيتُ فى النوم كأن القيامة قد قامت، وكان الناس يساقون زمرة زمرة إلى الجنة على طبقات، قال فنظرتُ إلى طبقةٍ أحسن الناس هيئة وأعلاهم مُرتقى وأسرعهم سبقا، فقلت هذه أفضلهم أكون فيهم، قال فذهبت لأخطوإليهم وأدخل معهم فى طريقهم فإذا بملائكة حولهم قد منعونى، وقالوا قف مكانك حتى يجئ أصحابك فتدخل معهم، فقلت تمنعونى أن أكون مع هؤلاء السابقين، فقالوا هذا طريق لا يسلكه إلاّ مَن لم يكن له إلاّ قميص واحد، ومن كل شئ واحد، وأنت لك قميصان ومن الأشياء زوجان، قال فانتبهتُ باكياً حزيناً، فجعلتُ على نفسى أن لا أملك من كل شئ إلاّ واحداً. وقد كان حُذَيْفة المرعشى يقول منذ أربعين سنة لم أملك إلاّ قميصا واحدا. وكان كثير من السلف إذا استجدّ ثوبا أو شيئاً أخرج الأوّل منهما. وكانوا يستعملون الشئ الواحد من الأشياء الكثيرة. وهذا كله داخل فى التحقيق بالزُهد وهو من فضائل المتوكلين. والخبر المشهور أن رجلاً من أهل الصُفّة توفّى فما وجدوا له كَفَنا، فقال النبى صلّى الله عليه وسلم فتّشوا ثوبه، قال فوجدنا داخل إزاره دينارين، فقال كيّتان. وقد كان غيره من المسلمين يموت ويخلف عِدةً فلا يقول له ذلك، لأن هذا كان حاله الزهد وإظهار الفقر فعابه الادخار.

ذكر التداوى وتركه للمتوكل وتفصيل ذلك

ولا ينقص التداوى أيضا توكل العبد، لأن النبى صلى الله عليه وسلم أمر به وأخبر عن حِكمة الله تعالى فيه، فقال صلّى الله عليه وسلم ما من داء إلاّ وله دواء، عَرفه من عَرفه،

وجَهله من جهله، إلاّ السام، يعنى الموت. وقال عليه **الصلاة والسلام** تداووا عباد اللّه. وسُئل عن الدواء والرُقَى هل يُردُّ من قَدَر، فقال هى من قَدَر اللّه. وفى الخبر المشهور ما مورت بملأ من الملائكة إلاّ قالوا مُر أُمّتك بالحِجامة. وفى الحديث أنه أمر بها فقال احتجموا لسبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين. لا يبيغ بكم الدم فيقتلكم. وفى ذِكْر تبيّغ الدم دليل على توقيت هذا العدد من الأيام للحجامة، إلاّ أنه أُريد به هذه الأيام من الشهر، وأحسبه لأهل الحجاز خاصة لشدة حرّ البلد، كقول **عمر رضى اللّه عنه** فى الماء المشمس أنه يُورّث البَرص. سمعت أن ذلك فى أرض الحجاز خاصة. وكان من سيرة السلف أن يحتجموا فى كل شهر مرة إلى أن يجاوز الرجل الأربعين. وكانوا يستحبون **الحجامة** فى آخر الشهر. وقد يُروى فى خبر منقطع مَن احتجم يوم الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء من داءٍ سنة. وقد روينا عن طريق أهل البيت أنّ النبى صلى اللّه عليه وسلم كان **يكتحل** كل ليلة، **ويحتجم** كل شهر، **ويشرب دواءً** كل سنة.

والتداوى رُخصة وَسِعَة، وتركُه ضيق وعزيمة، واللّه يحب أن يُؤخَذ برُخصه كما يُحب أن تُؤتَى عزائمه. وقد قال اللّه سبحانه وتعالى وما جعل عليكم فى الدين من حرَج أى ضيق. وربما كان المتداوى فاضلا فى ذلك لمعنيْين: أحدهما أن ينوى اتّباع السُنّة والأخذ برُخصة اللّه وقبول ما جاءت به الحنيفية السمحة. وقد أمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم غير واحد من الصحابة بالتداوى والحِمْيَة، وقطع لبعضهم عرقا وكوَى آخر. وقال لعلىّ رضى اللّه عنه، وكان رَمِدَ العين – لا تأكل من هذا، يعنى الرُطَب، وكل من هذا فإنه أوفق لك، يعنى سلْقاً قد طُبخ بدقيق أو شعير. وقد تداوى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فى غير حديث من العقرب وغيرها. ورُوى أنه كان إذا نزل عليه الوحْى صدَع رأسه فكان يُغلّفُه بالحِنّاء. وفى الخبر أنه كان إذا خرجت به قُرحة جعل عليها حِنّاء، وهو أعلى المتوكلين وأقوى الأقوياء. فإنْ قيل إنّما تداوَى لغيره وليس ذلك، قلنا فلا نرغب عن سُنّته ولا نزهد فى بُغيته إذا كان فَعَل ذلك لنا، لئلا يكون فِعلا لَغواً، وتكون الرغبة عن سنّته إلى توَهُّم حقيقة التوكل طعناً فى الشرع. وقد كان صلى اللّه عليه وسلم ظاهرُه للخلْق ليقتفوا آثاره. من ذلك أنه صام فى السفر فى شدّة الحر، فكان يصب على رأسه الماء ويستظل بالشجر ليسُنّ بذلك الرخصة فى التبرد بالماء للصائم، فقيل له إن قوما صاموا وقد شَقّ عليهم فدعا بقدَح فيه ماء فشَرب فأفطر الناس، فترَك حاله صلّى اللّه عليه وسلم لأجلهم. فقيل له إنّ قوما لم يفطروا، فقال أولئك العُصاة. والمعنى الثانى

الذى يُفضّل به المتداوى أنه يُحَبّ سُرعة البرء للطاعة ولخدمة مولاه والسعى فى أوامره، إذ كانت العلل قاطعةً عن التصرف فى العمل ومُشغلةً للنفس عن الشُغل بالآخرة.

وذكر بعض علمائنا أن **موسى عليه السلام** اعتلّ علّة فدخل عليه بنو إسرائيل فعرفوا علّته، فقالوا لو تداويت بكذا لَبَرأتَ، فقال لا أتداوَى حتى يعافينى هو من غير دواء، قال فطالت علّته، فقالوا له إن دواء هذه العلة معروف مُجرّب وإنْ تتداو به تبرأ، فقال لا أتداوى، فدامت علّته، فأوحى الله عز وجل إليه وعزتى لا أبرأتُك حتى تتداوَى بما ذكروه لك، فقال لهم داوُونى بما ذكرتكم، فداووه فبرأ، فأوجس فى نفسه من ذلك، فأوحى الله إليه أردتَ أن تُبطل حكمتى لتوكلك علَى مَن أودع العقاقير منافع الأشياء. وفى بعض الأخبار شكا نبىٌ من الأنبياء إلى الله علّة يجدها، فأوحى الله إليه كُلْ البيض. وفى خبر آخر أن نبياً من الأنبياء شكا إلى الله تعالى الضعف فأوحى الله إليه كُلْ اللحم باللَبن فإن فيهما القوّة. قال الشيخ أحسبه الضعف عن الجماع. وذكر **وهب بن منبه** أن ملكا من الملوك اعتلّ علّة وكان حسَن السيرة فى أهل مملكته، فأوحى الله تعالى إلى إشعياء النبى عليه السلام قل له اشربْ ماء التين فإنه شفاءٌ من علّتك. وقد روينا أعجب من ذلك أنّ قوما شكوا إلى نبيّهم قُبح أولادهم فأوحى الله تعالى إليه مُرهم أن يُطعموا نساءهم الحُبالى السَفَرجل فإنه يُحسّن الولد. فقد كانوا يطعمون الحُبالى السفرجل، والنُفَسَاء الرُطَب، وهذا والله أعلم يكون فى الشهر الثالث والرابع مِن حَمْلها.

وعلى ذلك كله فإن ترْك التداوى أفضل للأقوياء، وهو من عزائم الدين وطريقة أولى العزم من الصدّيقين، لأن في الدين طريقين، طريق تَبتُّل وعزيمة، وطريق تَوَسُّع ورخصة، فمن قَوِىَ سلَك الطريق الأشدّ فهو أقرب وأعلى وهذه للمقربين وهم السابقون، ومن ضعُف سلَك الطريق الأرْفه وهو الأوسط . إلاّ أنه أبعد، وهو لأصحاب اليمين وهم المُقتصدون. وفى المؤمنين أقوياء وضعفاء، وليّنون وأشدّاء. وروينا عن **النبى صلى الله عليه وسلم**: المؤمن القوى أحَبّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفى كلٍ خير. ورُوى عنه **صلى الله عليه وسلم**: فى المؤمنين مَن هو أشدّ فى الله عز وجل من الحجارة، وفيهم من هو ألْين من اللّبِن. وقال فى وصف الأقوياء: مَثَل المؤمن كمثَل النخلة لا يسقط ورقُها. وقال الله تعالى فى معنى ذلك أصلُها ثابتٌ وفرعُها فى السماء. وقال **صلّى الله عليه وسلمَ** :مَثَل المؤمن كمثَل السُنْبلة، تُفيئها الرياح يمينا وشمالا. وقال **عليه السلام** فى صفة المؤمن المُطعِم – مَثَل المؤمن كمثل النخلة أكَلَت طيّبا ووضَعَت

طيّبا. وقال فى وصف المُستطعِم – مَثَل المؤمن كمَثَل النملة تجمع فى صيفها لشتائها. فأوصاف المؤمنين متفاوتة فى الضعف والقوّة، وفى الجبن والشجاعة، وفى الصبر والجزع، فشتّان بين مَن شبّه فى القوّةوالعلّو بالنخلة، قلبُه ثابت وهمّه فى السماء، يَطعم جَناه ولا يدخر، إلى مَن شبّه بالنملة فى الضعف والذى يستطعِم ويحتكر.

وقد فضّل رسول الله صلّى الله عليه وسلم قوماً ومدحهم أنهم لا يَسترقون ولا يكتوُون وعلى ربهم يتوكلون. وذكر أنهم يدخلون الجنة بغير حساب فعلّل بالتوكل. وأخبر أنهم تركوا ذلك توكلاً. ثم سأله عُكاشة أن يدعَو الله أن يجعله منهم ففعل، لأنه رأى ذلك طريقه ورأى معه زاده، وشهد فيه القوّة فأهّله لذلك، فلما قال له الآخر ادْعُ اللّه أنْ يجعلنى منهم، والمقامات لايُقتدى بها ولا يُتمثّل فيها، كما لاتُدّعى لأنها مواجيد قلوب، فلّما لم ير ذلك طريقَه ولم يشهد معه زاده لم يُؤهّله لذلك، فأوقفه على حدّه وحكَم عليه بضعفه، فردّه ردّاً جميلا لأنه كان حبيبا كريما، فقال سبقَك بها عُكاشة. فهذا كما يقول الحاكم الحكيم إذا ضَعُف أحد الشاهديْن زِدْنى شاهداً آخر ولايصرح بجَرح الشاهد ولو عدّله لقَبْلِه ولم يطلب الزيادة، وإلاّ فالمقامات لاتضيق لمن سبق إلَيها، ولكن الرسول لم ير فيه شاهدَ ذلك من القوة وتبين فيه الضعف عن الحمْل فلم يخاطر به. وقد نهى عن الكى فى غير حديث، وقال لرجل أراد أنْ يُداوِى أخاه إلاّ أنه مات مِن علّته، فقال أما لو بَرأ لقلتَ برّأتُه، لعلمه بما يهجس فى بعض النفوس أنّ الشفاء والنّفع من فعل الدواء، وذلك من الشرْك، فكَره المحققون بالتوحيد التداوِى خشيةَ دخول ذلك عليهم.

ورُوى عن موسى عليه السلام يارب ممن الدواء والشفاء، قال منى، قال فما يصنع الأطباء، قال يأكلون أرزاقهم ويُطيّبون نفوس عبادِى حتى يأتى شفائى أو قبضى. وقد كان ابن حنبل يقول أُحبُّ لمن اعتقد التوكل وسلَك هذا الطريق تركَ التداوِى من الأشربة وغيرها. واعتلّ عمران بن حصين فأشاروا عليه أنْ يكتوِى فامتنع، فلم يزالوا به وعزَمَ عليه زياد بذلك، وكان أميراً، حتى اكتوى، فكان يقول كنت أرى نُورا وأسمعُ صوتا وأسمع تسليم الملائكة علىّ، فلما اكتويت انقطع ذلك عنى. وفى خبر كانت الملائكة تزوره فيأنس بها حتى اكتوى فكان يقول اكتوينا كياتّ فواللّه ماأفلحنا ولا أنجحنا، ثم تاب من ذلك وأناب إلى اللّه تعالى فرّد اللّه عليه ماكان يجد من أمر الملائكة. وقال لمطرف بن عبد اللّه ألَمْ تر أنّ الكرامة التى

كان أكرمَنى الله بها قد ردهَا علىّ بعد أنْ كان أخبره بفقدها ، فلولا أن ذلك كان عنده ذنباً له لما ندم عليه وتاب منه ، ولولا أن ذلك كان نقصاً ما صُرفت الملائكة عنه .

ومرض **أبو بكر الصديق** رضى الله عنه فقيل له لو دعونا لك طبيباً ، فقال قد نظر إلىّ الطبيب فقال إنى فعّال لما أريد وقيل **لأبى الدرداء** فى مرضه ما تشتكى ، قال ذنوبى ، قيل فما تشتهى ، قال مغفرةَ ربى ، قيل أفلا ندعو لك طبيباً ، قال الطبيب أمرضنى وقيل **لأبى ذر** وقد رمدت عيناه ، لو داويتهما ، فقال إنى عنهما لمشغول ، قيل فلو سألت الله أنْ يعافيك ، فقال أسأله فيما هو أهم إلى منهما وقيل **لأبى محمد** متي يصح لعبدٍ التوكل ، قال إذا دخل عليه الضُرّ فى جسمه ، والنقص في ماله ، فلم يلتفت إليه شغُلاً بحاله وللنظر إلى قيام الله عليه وقد كان أصاب **الربيع بن خيثم** الفالج فقيل له لو تداويت فقال قد هممت ثم ذكَرت عاداً وثمود وقرُوناً بين ذلك كثيراً ، كانت فيهم الأوجاع ، وكانت فيهم الأطباء فهلك المُداوِى والمُدَاوَى ولم تُغنِ الرُقى شيأ وقد أصاب **عبد الواحد بن زيد** الفالج فعَطل عن القيام ، فسأل الله أن يطلقَه فى أوقات الصلاة ثم يرده إلى حاله بعد ذلك ، فكان إذا جاء وقت الصلاة فكأنما أُنشِطَ مِن عِقال ، فإذا قضي الصلاة رجع إليه الفالج كما كان قبل ذلك .

ومَن لم يتداو من الصديقين والسلف الصالح أكثر من أن يُحصى إلاّ أنه مخصوص لمخصوصين ألم تر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ذكر السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، ثم وصفهم بأنهم لا يكتوون ولا يسترقون ، فقام إليهُ عكاشة بن محصن الأسدى ، فقال ادع الله أن يجعلنى منهم فدعا له ، فقام رجل آخر فقال ادع الله أنّ يجعلنى منهم فدعا له ، فقام رجل آخر فقال ادع الله أن يجعلنى منهم ، فقال سبقَك بها عكاشة ، فلم يمنّعه من الدعاء بُخلاً عليه إلا أن طريق الخصوص الأقوياء لا يسلكه العموم الضعفاء ، كما أن طريق العموم قد زهد فيه الخصوص . وأعجب ما سمعت قال بعض العارفين أصفى ما أكونُ قلباً إذا كنتُ محموماً .

وقد كان **مذهب سهل** أن ترك التداوى وإن أضعف عن الطاعات وقّصر عن الفرائض أفضل من التداوى لأجل الطاعات ، وكانت به علة فلم يكن يتداوى منها . وقد كان يُداوى الناس منها. وكان إذا رأى العبد يُصلى من قعود ، أو يستطيع أعمال البر من الأمراض فيتداوى للقيام فى الصلاة والنهوض إلى الطاعة ، يعجب من ذلك ويقول صلاته من قعود مع رضاه

بحاله أفضل له من التداوى للقوة ويُصلى من قيام. وسُئل عن شُرب الدواء، فقال كل من دخل إلى شئ من الدواء فإنما هو سِعَة من الله لأهل الضعف، ومَن لم يدخل فى شئ منه فهو أفضل، لأنه إنْ أخذ شيأ من الدواء ولو كان الماء البارد سُئِل عنه لِمَ أخذت، ومَن لم يأخذ فليس عليه سؤال. وقال من يأخذ الماء البارد على سبيل الدواء سُئل، وأصله فى هذا أنّ عنده أفضل الأعمال أنْ يُضْعِف العبد قوّته حتى لا يكون لنفسه حَرَاك لأجل الله تعالى، وإنّ ذرةً من أعمال القلوب مثْل التوكل والرضا والصبر، أفضل من أعمال جبال من عمل الجوارح. وهذا مذهب البصريين فى إسقاط القوة بالتجوع الطويل والطَىّ الكثير لتضعُف النفْس، لأن عندهم أن فى قوة النفس قوة الشهوات وغلَبة الصفات، وفى ذلك وجود المعاصى وكثرة الهوى وطول الرغبة والحرص على الدنيا وحب البقاء، يقول إذا أدخَل الله عليها الأمراض من حيث لا تَحتسب فلا يتعالج لرفع الأمراض عنها فإنّ المَرَض مِنْ نهاية الضعف، ومِنْ أبْلغ ما تَنقص به الشهوة. وقد كان يقول عِلَل الأجسام رحمة، وعلل القلوب عقوبة. وقال مرة أمراض الجسم للصدّيقين.

وقد كان ابن مسعود يقول تجد المؤمن أصحّ شئ قلبا وأمرضه جسما، وتجد المنافق أصحّ شئ جسما وأمرضه قلبا. وعن رسول الله صلّى الله عليه وسلم تحبون أن تكونوا كالحُمُر الصيّالة لا تمرضون ولا تَسقمون. وقد قيل لا يخلو المؤمن من علّة فى جسمه أو قلّة فى ماله. وقيل لا يخلو من غلَبةٍ أو ذلّة. والعبد إنْ لم يتداو أعمالٌ حسنة منها أن ينوى الصبر على بلاء الله تعالى، والرضا بقضائه، والتسليم لحكمه، إذ قد حَسُن عنده لأنه موقن، وإذ قد عرف الحكمة فى ذلك والخيرَة فى العاقبة لأنه حكيم. ومنها أنّ مولاه أعلم به منه وأحسن نظراً واختياراً وقد حبسه وقيّده بالأمراض عن المعاصى. كما روى عن الله تعالى الفقر سِجنِى والمرض قيْدِى، أحبس بذلك مَن أحبُّ من خلْقى، فلا يأمن إنْ تداوَى فعُوفِىَ أن تَقْوىَ النفس فيفسده هواها، لأن المعاصى فى العوافى، وعلّة سَنَة خيرٌ من معصيةٍ واحدة.

ولقىَ بعض الناس بعض العارفين، فقال له العارف كيف كنت بعدى، قال فى عافية، فقال إنْ كنتَ لم تعصَ الله فأنت فى عافية، وإنْ كنت قد عصيتَه فأى داء أدْوَى من المعصية. ما عوفى من عَصَى. وقال علىّ رضى الله عنه لما رأى زينة النبط بالعراق يوم عيدهم، ما هذا الذى أظهروه، قالوا يا أمير المؤمنين هذا يوم عيدٍ لهم، فقال كل يوم لا يعُصَى الله فيه فهو عيدٌ

لنا. وقال الله تعالى وهو أصدق القائلين وعصيتم من بعد ما أراكم ما تُحبون، قيل العوافى والغِنَى. وقال بعضهم إنّ ما حمل فرعون على أنْ قال أنا ربكم الأعلى هو طول العوافى. لَبَث أربعين سنة لم يصدَع له رأس، ولم يَحْم له جسم، ولم يضرب عليه عِرْق، فادّعى الربوبية، ولو أخذته الشقيقة والمليلة فى كل يوم لشغله ذلك عن دعوى الربوبية.

واعلم أنّ الإنسان قد يطغى بالعوافى كما يطغى بالمال، لأنه قد يستغنى بالعافية كما يستغنى بالمال، وكلٌ فيه فتنة. وقد قال الله تعالى كَلاّ إن الإنسان ليَطغى أنْ رآه استغنى. وقال الرسول صلّى الله عليه وسلم نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس، الصحة والفراغ. والعصمة فى حال العافية نعمة ثانية، كالعصمة فى الغِنَى نعمة النعمة، وهذا أحد الوجوه فى قوله عز وجل أذْهبتُم طيباتكم فى حياتكم. ومنها أنّ الأمراض مُكفّرة للسيئات، فإذا كَرِهَ الأمراض بقيتْ ذنوبه عليه موفورة، وفى الخبر لاتزال الحُمّى والمليلة بالعبد حتى يمشى على وجه الأرض وما عليه خطيئة. وفى خبرٍ حُمّى يوم كفّارة سَنَة. وأحسن ما سمعتُ فى معناه قال لأنّ حُمّى يوم تهدّ قوة سنَة وقيل فى الإنسان ثلاثمائة وستون مِفْصلاً تدخل حمّى يومٍ فى جميع المفاصل فيكون له بكل مفصل كفّارة يوم. ولمّا ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم كفّارة الذنوب بالحُمّى سأل زيد بن ثابت ربه أنْ لايزال محموما، قال فلم تكن الحمّى تفارقه فى كل يوم حتى مات. وسأل ذلك طائفةٌ من الأنصار. وكذلك لمّا ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم مَن أذهب الله كريمتيه لم يَرضَ له ثواباً دون الجنة، قال فقد رأيت الأنصار يتمنون العَمى. ولمّا جاءت الحمّى رسول الله صلى الله عليه وسلم تستأذن عليه، قال اذهبى إلى أهل قباء، وهذا أحد الوجهين فى قوله تعالى فيه رجالٌ يحبون أنْ يتطهروا، أى بالأمراض من الذنوب. وعن عيسى عليه السلام يقول لا يكون عالما من لم يفرح بدخول المصائب على جسده وماله لما يرجو فى ذلك من كفّارة خطاياه. والصدّيقون يُبتلون بعلل الجوارح، والمنافقون يُبتلون بأمراض القلوب، لأن فى أمراض الأجسام ضعفها عن الآثام والطغيان، وفى أمراض القلوب ضعفها عن أعمال الآخرة والإيقان.

وفى معنى قوله عز وجل وأسبغ عليكم نعمه ظاهرةً وباطنة، قيل ظاهرةَ العوافى وباطنةَ البلاوى، لأنها نِعمَ الآخرة. وروى أن موسى عليه السلام نظر إلى عبدٍ عظيم البلاء، فقال يارب ارحمه، فأوحى الله عز وجل إليه كيف أرحمه مما به وهو أرحم له. وقد قال الله وهو

أصدق القائلين فى تصديق هذا المعنى ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضُرّ للجّوا فى طغيانهم يعمهون، فأخبر أنّ فى ترك الرحمة لهم لُطفا ورحمة. وروينا عن عبد الواحد أنه خرج فى نفرٍ من إخوانه إلى بعض نواحى البصرة فأراهم المسير إلى كهف جبل، فإذا فيه عبدٌ مُقْطَع بالجذام يسيل جسده قيْحاً وصديداً، فقالوا يا هذا لو دخلت البصرة فتعالجت من هذا الداء الذى بك، فرفع طرفه إلى السماء وقال سيدى بأى ذنب سلطّتَ هؤلاء علىّ، يُسخطونى عليك ويُكَرّهون إلىّ قضاءك! سيدى استغفرك من ذلك الذنب، لك العتبى، إنى لا أعود فيه أبدا! قال ثم أعرض بوجهه فانصرفنا وتركناه.

وفى الحديث نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاءً ثم الأمثل فالأمثل. يُبتلىَ العبد على قدر إيمانه، فإنْ كان صلب الإيمان شدّد عليه البلاء، وإنْ كان فى إيمانه ضعف خفّفَ عليه البلاء. كما يُجرّب إحدكم ذهبه بالنار فمنهم من يخرج كالذهب إلابريز، ومنهم دون ذلك، ومنهم من يخرج أسود محترقاً. وقد روينا حديث من طريق أهل البيت، إذا أحّب الله عبداً ابتلاه، فإنْ صبر اجتباه، وإنْ رضى اصْطفاه. ومنها أن الملَك يكتب له مثل أعماله الصالحة التى كان يعملها فى صحته، وأنه يُجرِى له من الحسنات مثل ما كان يجرِى له على أعماله، فيكتب الملَك له أعمالا صالحة خيراً له من أعماله لأنه قد يَدخلها الفساد. واختيار الله له أن يستعمله بالأوجاع خيرٌ له من اختياره لنفسه أنْ يستقل إلى الله بالأعمال الصالحة. وهذا أحد المعنيين فى معنى الخبر: أفضل الأعمال ما أُكرِهَت عليه النفوس، قيل هو مادخل عليها من المصائب فى الأنفس والأموال، فهى تكره ذلك وهو خير لها. ومن هذا المعنى قوله تعالى وعسى أن تكرهوا شيأً وهو خير لكم، وعسى أنْ تحبوا شيأً وهو شر لكم. قد يكره العبد الفقر والعَيْلة والضُرّ والخمْلة وهو خير له فى الآخرة وأحمدُ عاقبة، وقد يُحب الغِنىَ والعوافى والشُهرة وهو شرٌ له عند الله وأسوأ عاقبة. وفى الخبر أيضا يقول الله تعالى لملائكته اكتبوا لعبدى صالح ماكان يعمل فإنه فى وثاقى، إنْ أطلقته أبدلته لحماً خيراً من لحمه، ودماً خيراً من دمه، وإنْ توفيته توفيته إلى رحمتى، فإبدال صفة لحُسن اختيار الله له خير له من الدنيا والآخرة ومن شهوته.

والأصل فى التوكل وتركِه أنّ المتوكل على الله قد علم فى توكله أنّ للعلة وقتا إذا انتهت إليه برأ العليل بإذن الله لا محالة، ولكن الله عز وجل قد يحكُم أنه إنْ تداوىَ شفاه فى عشرة

أيام، وإنْ لم يتداو أبرأه فى عشرين يوما، ليترخص العليل بما أباحه اللّه له فيطمع في تعجيل البُرء فى عشرة أيام، ليكون أسرع لشفائه وأقرب إلى عافيته، على أنه معتقد أن الدواء لا يُشفى، وأنْ التداوى لا ينفع، لأن اللّه هو الشافى وهو النافع، فالشفاء والنفع فَعَله لعبده وجعله فى الدواء من لطائف حكمته، لا يجعله سواه ولا يفعله إلاّ إياّه، إذ كانت العقاقير مطبوعة مجبولة على خَلْقها، فجاعل الأسباب فيها هو جابلها، لأن الجَعْل فيها والخاصية منها ليس من عمل المتُطَبب وإنْ كان يعمل بها ويجمع بينها وبين العليل، لأنه ظهر على يديه سبباً لرزقه، فاللّه خالق جميع ذلك وفاعله، وكذلك قال اللّه تعالى واللهّ خلقكم وما تعملون.

وكذلك أيضا عند العارفين أنّ الخبز لا يُشبع وأنّ الماء لا يَروى، كما أنّ المال لا يُغنى، والعِلْم لا يفقر، لأن اللّه هو المُطعِم المُسقِى، وهو المُشبِع والمُروِى، كما هو المغْنى والمُفقر بما شاء كيف شاء، وهو جاعل الشبع والرِّى فى المطعوم والمشروب، وفى النفس بالغنَى والفقر، لحكمته ورحمته. كما أن اللّه تعالى هو المجُيع المُظمى فيُدخل الطعام والشراب على الجوع والعطش اللذّين جعلهما فيُذْهبهما بما أدخل عليهما، كما يُدخل الليل على النهار، ويُدخل النهار على الليل، فيُغلّب سلطان كل واحد على الآخر فيُذهبه، فسواءٌ هذا عند الموّحدين من وصف الليل والنهار. ومن العِلل والأدوية يتسلط الشيء على ضده فيزيله بقَلبه بإذن اللّه.

والشرْك فى هذه الأشياء فى العموم أخفى من دبيب النمل على الصفا. والموقنون الصحيحو التوحيد من جميع ذلك برآء. وعلى هذه المعانى أحد الوجهين فى قوله تعالى الذى أعطى كل شيء خَلْقه ثم هدى، أى أعطى كل لون وجنس خِلْقَته وطَبْعَه، أى صورة الشيء.فإنْ تعجّل العليل البُرءْ بالتداوى فبرأ كان ذلك بقضاء اللّه وقدَره على وصف السرعة من المعافاة، فإنْ كان ناويا فى تداويه واستعجاله شفاءه ليكون فى طاعة مولاه والقيام بين يديه للخدمة، كان مُثاباً على ذلك فاضلا فيه غير منقوص مقام توكله. وإنْ أراد بذلك صحة جسمه لنفسه والنعيم بالعوافى كان ذلك باباً من أبواب الدنيا ودخولاً فيما أبُيح له منها، وهو يخُرجه من فضيلة التوكل وحقيقته بمقدار ما نقصه من الزهد فى الحياة والنعيم. وإنْ أراد باستعجال العوافى قوة النفس لأجل الهوى وليسعى فى مخالفة المولى كان مأزوراً لسوء نيته ووجود عزيمته، وخرج من المباح إلى المحظور، وذلك يخرجه من حد التوكل وأوله، وهذا من مذموم أبواب الدنيا وممقوتها. وإن كانت نيته فى تعجيل العوافى التصرف فى المعايش والتكسُّب

للإنفاق والجمع نظر فى شأنه، فإن كان يسعى فى كفافٍ وعلى عَيْلة ضعاف، ومن حاجة وإحجاف، لحَقَ هذا بالطبقة الأولى، وهذا باب من أبواب الآخرة وهو مأجور عليه، ولا يخرجه من التوكل. وإنْ كان يسعى فى تكاثرٍ وتفاخر ولا يبالى من أين كسب وفيما أنفق، لحق هذا فى الطبقة الثالثة من العاصين، وهذا من أكبر الدنيا المُبعِدة عن اللّه عز وجل. فهذه نيات الناس فى التداوى المحمودة والمذمومة، فإن لم يتداو المتوكل تسليماً للوكيل، وسكوناً تحت حُكمه، ورضاً باختياره وصُنعه، إذ قد أيقن أنّ العلة وقتا إذا جاء برىء بإذن اللّه تعالى إلاّ أنها بعد عشرين يوما، فيصبر ويرضى ويحمل على نفسه ألم عشرة، رضاً بقضاء اللّه، وصبراً على بلائه، وحُسنَ ظن باختياره له، ولا يتهمه فى قضائه عليه، فهذا هو أحد الوجوه فى حُسن الظن باختيار اللّه أنْ لا يتهم اللّه فى فضيلة. كيف وقد روى فيه نَصٌّ أنّ رجلا قال يارسول اللّه أوصنى، فقال لا تتهم اللّه فى شىء قَضاه عليك. وقد رُوى فى معنى هذا خبرٌ فيه شدّة، يقول اللّه تعالى من لم يصبر على بلائى ويرض بقضائى ويشكر نعمائى فيلتخذ رباً سواى.

وهذا باب من الزهد فى الدنيا بمقدار ما نقص من الرغبة فى نعيم النفس، لأن الجسم من المَلِك فما نقص منه نقص من الدنيا، والقلب من الملكوت فما زاد فيه زاد فى الآخرة، وهو باب من الصبر بقدر ماصبر عليه من النقص، كما قال تعالى ونقص من الأموال والأنفس، يعنى أمراضها وأسقامها، وبشّر الصابرين. ونقص الأموال إقلالها وإذهابها فكذلك جعلناه زهداً لاقترانه بالمال، ومع هذا فهو لا يأمن فى تعجيل العوافى من المعاصى، فإذا انتهى وقت العلّة بَرىء من غير دواء بإذن اللّه. وله فى الأمراض تجديد التوبة، والحزن على الذنوب، وكثرة الاستغفار، وحُسْن التذكرة، وقصر الأمل، وكثرة ذِكْر الموت.

وفى الخبر أكثروا من ذِكْر هادم اللذّات. ومِن أبلغ ما يُذَكِّر به الموت توقع نزول الأمراض، فقد قيل الحمّى بريد الموت، وفى قوله عز وجل أوَلا يرَوْن أنهم يُفتنون فى كل عام مرة أو مرتين الآية، قيل بالأمراض والأسقام يُختبرون بها. ويُقال إن العبد إذا مرض مرضتين ثم لم يتب قال ملك الموت ياغافل جاءك منّى رسول بعد رسول فلم تقبل. وقد كانوا يستوحشون إذا خرج عنهم عام لم يصابوا فيه بنقص من الأنفس أو المال. ويقال لا يخلو المؤمن فى كل أربعين يوماً أنْ يروّع بروْعة أو يصاب بنكبة، فكانوا يكرهون فَقْد ذلك فى ذهاب هذا العدد من غير أن

يصابوا فيه بشيء. وروُى أنّ عماراً تزوّج امرأة فلم تكن تمرض فطلقّها، وأنّ النبى صلى اللّه عليه وسلم عُرضت عليه امرأة، فذُكِر من وصفها حتى همّ أن يتزوّجها، فقيل له أنها مامرضت قط، فقال لا حاجة لى فيها. وذكر رسول اللّه صلى اللّه علي وسلم الأوجاع من الصداع وغيره، فقال رجل وما الصداع ما أعرفه، فقال النبى صلى اللّه عليه وسلم إليك عنى. من أراد أنْ ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا! لأن فى الخبر أنّ الحمى حظُّ المؤمن من نار جهنم. وفى حديث أنس وعائشة يا رسول اللّه هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم، فقال نعم مَن ذَكَر الموت فى كل يوم عشرين مرة.

وقد اختلف رأى الصحابة فى مِثل هذا المعنى عام خرج عمر رضى اللّه عنه إلى الشام، فلما بلغوا الجابية انتهى إليهم خبر الشام أن به وباءً عظيما وموتاً ذريعا، فوقف الناس وافترقوا فرقتين، فمنهم من قال لا ندخل على الوباء نُلقى بأيدينا إلى التَهلُكة فنكون سببا لإهلاك أنفسنا، وقالت طائفة أخرى بل ندخل ونتوكل على اللّه ولا نهرب من قَدَره ولا نفر من الموت، فنكون كمن قال اللّه تعالى أَلَمْ تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذَرَ الموت. فرجع الجميع إلى عمر فسألوه عن رأيه فوافق عمر الذين قالوا نرجع ولا ندخل على الوباء، فقال له آخرون أنفرّ من قدر اللهّ، فقال عمر نعم نفر إلى قدر اللّه. ثم ضرب لهم مثلا فقال أرأيتم لو كان لأحدكم غَنَمٌ وله شُعبتان إحداهما مخْصبة والأخرى مُجدبة، أليس إن رعَى المُخصبة رعاها بقدَر اللّه، وإنْ رعى المُجدبة رعاها بقدَر اللّه، فسكتوا، ثم دعا عمر بعبد الرحمن بن عوف يسأله عن رأيه، فقيل هو غائب قد تأخر فى المنزل الذى نزلنا فيه، فثبت عمر وأصحابه على ذلك الرأى، وعلى أنْ يسأل عبد الرحمن عن رأيه فيه، فلما أصبحوا جاء عبد الرحمن بن عوف فسأله عمر عن ذلك، فقال عندى فيه يا أمير المؤمنين شيء سمعته من رسول اللهّ عليه وسلم، فقال عمر رضى اللّه عنه الله أكبر، يقول إذا سمعتم بالوباء فى أرض فلا تُقدموا عليه، وإذا وقع فى أرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه. ففرح عمر بذلك إذ وافق رأيه فرجع بالناس من الجابية.

بيان آخر من التمثيل فى التداوى وتركه

ومَثَلُ التداوى وتْركه فى أنهما مباحان وأن أحدهما طريق الأقوياء الصابرين وهو تركه، مَثَل التكسّب وتركه، أنّ التكسب عند الجوع الذى هو علّة الجسم ليستعجل العبد الدواء

بالخبز، جائزٌ له لا يقدح فى توكله لأنه مباح له مأمورٌ به، فإن نوىَ بالتكسب الأكل للشهوات والقيام بحظوظ النفس من الرفاهية نَقَص ذلك من توكله وأخرجه من حقيقته، فكان طريقا من طرقات الدنيا، إلاّ انه مباح. وإنْ قَصَد بتكسبه التكاثر والحرص للجمع والمنع كان عاصياً بكسبه مخالفاً لربه، وهذا من أكبر طرق الهوى. ثم إنْ لم يتكسب وصبَر على الجوع ورضى بالقلّة والفقر فإن رزقه يأتيه لا محالة لمجيء وقته. وإنْ كان قليلا دون سعَة ولكنه يحتاج إلى فضل صبر وحُسن رضا وسكون نفس وطمأنينة قلب، فإنْ وجد هذه المعانى فهذا هو التوكل، كان فاضلا فى ترك التكسب بُحسنِ يقينه وثقته برازقه وشُغله بماهو أفضل وأنفع له فى عاقبته، وإنْ تشتت همتّه واضطربت نفسه وتكرّه قضاء ربه فأخرجه ذلك إلى الجزع والهلَع والتبرم والشكوى فالتكسب لهذا أفضل، وهو منقوص بتركه. كذلك أيضا مَن أكثر الشكوى من علتّه وتسخّط حكم ربه، وتبّرم وضجِر وسَطَا على الناس وساء خلُقه بمرضه، فإن الأفضل لهذا أن يتداوى وهو ناقص بتركه.

وروينا عن عمرو بن قيس عن عطية عن أبى سعيد الخدُرى عن النبى صلّى اللّه عليه وسلم: أن من ضعْف اليقين أنْ تُرضى الناس بسُخط اللّه، وأنْ تحمدهم على رزق اللّه، وأنْ تذمهم على مالم يؤتك اللّه. إنّ رزقَ اللّه لا يجره حِرص حريص، ولا يَردُه كُره كاره. إن اللّه بحلمه وجلاله جعل الروْح والفرح فى الرضا واليقين، وجعل الغم والحزن فى الشك والسخط.

ذكر استواء شهادة المتوكل مع اختلاف ظهور الأسباب

ويستوى عند الخصوص بعين يقينهم ماجاءهم بواسطة أيديهم وأسباب كسْبهم، وماجاءهم بأيدى غيرهم وبغير كسبهم، إذا كان المعُطى عندهم واحداً والعطاء كله رزقا، إذ كانت الأيدى ظروف العطاء فيستوى كان الظرف يدك أو يد غيرك، وسواء كان الكسب كسبك أو كسب غيرك لك، إذ جميعه رزقك. ولأن لكل شىء حُكما، وفى كل شىء حكمة، وبكل شىء نعمة، قال اللّه تعالى إرَم ذاتِ العماد التى لم يُخلق مثلها فى البلاد، فأضافها إليه فى الخلق بعد أن بنوها بأيديهم وفرغوا منها. ومثل هذين أيضا يستوى عندهم ماظهر بيد القُدرة لا خَلْق فيه ولا واسطة به، وماظهر بأيديهم عن الحكمة وترتيب العُرف، لأن القدرة أيضا بمنزلة ظرف للعطاء ظهر العطاء بها، فهى كأيدى العباد من يد الإنسان نفسه أو يد غيره، إذ القدرة والحكمة خزانتان من خزائن الملَكوت والمَلك. فهذه المعانى الثلاث أعنى: ماظهر عن يدك وتكسبك،

وماظهر بيد غيرك وعن كسبه لك، وماأظهرته القدرة عن غير عُرف معتاد ولا واسطة مرّت به، هذا كله عند الموقنين سواء، لا يترجح بعضه على بعض، لرجحان إيمانهم وقوّة يقينهم ونفاذ مشاهدتهم، إذ كله حكمة بالغة وقُدرة نافذة عن حكيم واحد وقادر واحد.

ومما يدلك على استواء ماظهر بيد الأواسط، وما أظهرته القُدرة عند العلماء، أن كل من جمع كرامات الأولياء وإجابات الصدّيقين ذكر فيها ماظهر لهم عن القُدرة، وماظهر لهم على أيدى الخلْق من الإنفاق عند وقت الفاقات عن غير مسئلة ولا استشراف نفس، فسوُّا بينهما فى الكرامات، وجعلوهما واحداً من الإجابات، وحسبوا كل ذلك من الآيات. على أن العارفين يشهدون ما يوصل العبيد إليهم من أقسام رزقهم أنها ودائع لهم عندهم، وأنه حقٌ لهم بأيديهم يؤدونه إليهم قليلا قليلا، ويوفونهم إياه شيأ فشيأ، إلا أنهم لا يسألونهم إياه، ولا يطالبونهم به، وإن كان لهم عندهم حُسن أدبٍ فيهم وحُسن اقتضاء، لأن من حُسن الاقتضاء ترك الطلب، ولقوّة يقينهم برازقهم أنه يوفيهم نصيبهم غير منقوص، فقد سكنوا إلى قديم وعده، كما نظروا إلى بَسْط يده. وكذلك مشاهدة العالمين الموصلين إليهم، يشهدون أنهم قد خرجوا إليهم من حقهم وأدوا إليهم ودائعهم، فيستريحون إلى إخراج ذلك ويفرحون بأدائه إلى أربابه، ويشكرون اللّه على حُسن توفيقه وإعانتهم على سقوط ذلك عنهم، كما يفرح من عليه الدين الثقيل إذا أدّاه فسقط عنه حكُمه وقضاؤه. وهذا مقام للموصلين فى المعرفة، وحالٌ لهم من اليقين حَسَنة، وهو مشاهدة عالية للآخذين من المتوكلين.

ذكر تشبيه التوكل بالزهد

إعلم أن التوكل لا ينقص من الرزق شيأ ولكنه يزيد فى الفقر، ويزيد فى الجوع والفاقة فيكون هذا رزق المتوكل. ورزق الزاهد من الآخرة على هذا الوصف المخصوص من حرمان نصيب الدنيا، وحمايته عن التكاثر منها والتوسع فيها، فيكون التوكل والزهد سبب ذلك، فيكون ما صرفه عنه من الدنيا زيادة له فى الآخرة من الدرجات العُلى. وكذلك رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نقُصان الدنيا زيادة الآخرة، وزيادة الدنيا نقصان الآخرة.ومَنْ أُعطِى من الدنيا شيأً نقَصَ ذلك من منزلته فى الآخرة وإن كان على اللّه كريما. وقيل إن الدنيا والآخرة مِثْل ضرَّتين. مَن أرضَى إحداهما أسخَط الأخرى. وقال رجل لبعض العلماء كنت فى محلة ليس فيها بقال غيرى ففتَح إلى جنبى بقال آخر، فأخاف أن ينُقص ذلك

من رزقى شيأ، فقال ليس ينقص من رزقك شيأ ولكن يزيد فى بطالتك، تقعدُ كثيراً لا تبيع شيأ. وقد غلط فى هذا الطريق قوم ادّعوا التوكل والزهد واتّسعوا فى المآكل والملابس. على أن ذلك لا ينقصهم من رزقهم شيأ فموّهوا علَى مَنْ دونهم ممن لا يعرف طريق الزهد والتوكل.

ذكر كتم الأمراض وجواز إظهارها

الأفضل لمن لم يتداو أنْ يُخفى علّله لأن ذلك من كنوز البرّ، ولأنها معاملات بينه وبين خالقه، فستْرها أفضل وأسلم له، إلا أن يكون له نية فى الإظهار، أو يكون إماما يُستمع إليه ويُقتبس منه الآثار، ويكون مكيناً فى المعرفة يُخبر بعلتّه وقلبُه راضٍ عن اللّه فيما قدّره، أو يكون ممن يشهد البلاء نعمةً فيكون إخباره بمثابة التحدث بنعمة اللّه، وإلاّ فإظهار العلل لمن لا يتداوى نقصٌ لحاله وداخلٌ فى الشكاية لمولاه، لأن فى الشكوى استراحة النفس من البلوَى كالاستراحة بالدواء، وهذا لا يفعله عالم، لأن الاستراحة بالدواء الذى أباحه له المولى خيرٌ من استراحته إلى العبيد بالشكوى. على أنه لا يأمن دخول الآفات عليه فى الإخبار مِنْ التصنّع أو التزيّد فى العلّة وغير ذلك، وقد قيل فى قوله عزّ وجل فصبرٌ جميل، قال لا شكوى فيه، وقال بعضهم مَن بثّ شكواه فلم يصبر، وقيل **ليعقوب عليه السلام** مالذى أذهب بصرك، فقال من الزمان وطول الأحزان، فأوحى اللّه إليه تفرّغت تشكونى إلى خلْقى، فقال يارب أتوب إليك.

وعن **طاوس ومجاهد** يُكتب على المريض أنينه فى مرضه، قال وكانوا يكرهون أنين المريض لأنه إظهار معنى يدل على شكوى. قيل ما أصاب إبليس من **أيوب** إلاّ أنينه فى مرضه، فجعل الأنين حظه منه. وفى الخبر إذا مرض العبد أوحى اللّه تعالى إلى المَلَكَين انظرا إلى عبدى ما يقول لعُوّاده، فإنْ حمَد اللّه وأثنى عليه بخير ادعُوا له، وإنّ شكا وذكر شراً قالا كذلك يكون. وإنما كره بعض العباد العيادة خشية الشكاية وخوفَ الزيادة فى القول، أنْ يُخبر عن العلة بأكثر منها فيكون فى ذلك كفرٌ لنعمةٍ بين بلاءين. وكان بعضهم إذا مرض أغلق بابه فلم يدخل عليه أحد حتى يبرأ فيخرج إليهم. منهم **فضيل ووهيب وبِشْر**، كان يقول أشتهى أنْ أمرض بلا عوّاد، وقال **فضيل** ما أكره العلّة إلاّ لأجل العُوّاد وقد رأينا من الصالحين مَن فعل ذلك ممن هو إمام وقدوة.

ولا ينقص توكل المتوكل إخباره بعلّته على معنى التحدث بها مع فقد آفات النفوس إذا كان قلبه شاكراً للّه راضياً بقضائه، ويكون بذلك مُظهراً للافتقار والعجز بين يدَى مولاه، أو راغباً

فى دعاء إخوانه المؤمنين، أو يشهد ذلك نعمة فيحدّث بها شكرا. وقد حُكِيَ أنّ **بشر بن الحارث** كان يخبر عبد الرحمن المتطبب بأوجاعه فيصف له أشياء. وقيل عن **أحمد بن حنبل** أنه كان يخُبر بأمراضه ويقول إنما أصف قدرة اللّه تعالى فىّ. وروى عن **الحسن البصرى** إذا حمد المريض اللّه عز وجل وشكر ثم ذكر علته لم يكن ذلك شكوى. وقد كان **أحمد بن حنبل** لا يخبر بأمراضه إذا سئل عنها ثم رجع إلى قول الحسن هذا، فكان بعد ذلك يحمد اللّه ويثنى عليه ويقول أجد كذا وأجد كذا. وروى أنه قيل **لعلىٍ رضى اللّه عنه** فى مرضه كيف أنت، فقال بِشَرّ، فنظر بعضهم إلى بعض كأنهم كرهوا ذلك، فقال أتجلد على اللّه، كأنه أحبّ أن يُظهر افتقاره إلى اللّه، وأراد أيضا أنْ يعلمّهم أنه لا بأس بذلك، لأن مَن يقول بخير إذا سئل كما قال **الثورى** إنما العلم الرُخصة من ثقة، فأما التشديد فكل أحد يحسنه، فكأن علىّ رضى اللّه عنه أراد أن يتحقق بتأديب **النبى صلى اللّه عليه وسلم** له، ونهيه إياه عن إظهار القوة، لأنه رُوى أنه مرِض فسمعه النبى صلى اللّه عليه وسلم يقول اللهّم صبرّنى على البلاء، فقال لقد سألتَ اللّه البلاء ولكن سَل اللّه العافية. ومن ههنا قال **مطرف** لأن أعافىَ فأشكر أحبُ إلىّ من أنْ أُبتلَى فأصبر، لأن البلاء طريق الأقوياء. وكَرِهَ أهل الإشفاق والخشية إظهار الجلَد والقوّة بين يدّى القوى العزيز. وقد حُكِيَ أنّ **الشافعى** مرض مَرْضة شديدة بمصر فكان يقول اللهّم إنْ كان فى هذا رضاك فزِدْنى منّه، فكتب إليه بعض العلماء وهو **إدريس بن يحيى المعافرى**، يا أبا عبد الله لستَ من رجال البلاء فسَلْ اللّه العافية، فرجع عن قوله هذا واستغفر منه، فبعد هذا واللّه أعلم لعلّه ماحكِى عَنه أنه كان يقول فى دعائه اللّهم اجعل خيْرَتى فيما أحببت.

ذكر فضل التارك للتكسب

قد يُفَضّل التارك للتكسب شُغلا بالعبادة عن المتكسّب من حيث فضّل المتقدمون الزاهد فى الدنيا على كاسب المال حلالاً ومُنفقه فى سبيل اللّه. وسُئل **الحسن** عن رجلين أحدهما محترف والآخر مشغول بالتعبد، أيهما أفضل، فقال سبحان اللّه، اعتدل الرجلان، المتفرغ للعبادة أفضلهما، وقد رُوى عن **رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم** كفَى بالموت واعظاً وبالتقوى غنىً وبالعبادة شُغلاً. وقد عَلِمَ التارك للتكسب توكلاً على اللّه، وثقةً به، ورعايةً لمقامه، وصبراً على فقره، وشُغلا بمعَاده عن معاشه، أن مولاه قد تكفّل له برزقه فى الدنيا، وقد وكّل إليه عمل

الآخرة، وأنه إنْ شُغِل بما وكله إليه من عمل آخرته أقام له من يقوم بكفايته من دنياه، فلو لم يتصرف المتوكل تَصرُّفَ له غيره، وأنّ عَمَل آخرته الذى وكلَه إليه إنْ لم يعمله لم يقم غيرُه مقامه، فهذا هو الفرق بين ماتكفّل له به من عمل الدنيا وبين ماوكّله به من عمل الآخرة. قال الله سبحانه فى رزق الدنيا الذى تكفّل به وكأين من دابة لاتحمل رزقها اللّهُ يرزقها وإياكم. وقال تعالى فى رزق الآخرة الذى وُكِلَ به وأن ليس للإنسان إلا ماسعَى.

ثم قد علم المتوكل بعد توحيده أنّ هذه الأربعة الأشياء منتظمةٌ فى سلك واحدٍ كشىء واحد يقع وقعة واحدة. رزقٌ مقسوم لايُزاد فيه فى وقت معلوم، ولايتقدم ولايتأخر بسبب محكوم، ولاينقلب عند أثر مكتوب ولايتغير، فالرزق بفضل الرزاق، والوقت الذى يُظهر فضلُ العطاء لايقع إلا فى ظرْف، والسبب حِكمة القاسم، والأثر حدُّ المرزوق، فلمّا أيقن المتوكل بهذا كان إنْ تصرّف تصرّف بحُكم، وإنْ قعدَ قعدَ بعِلم، فاستوى تصرّفه وقعوده، لأنه قائمٌ بحكم مايقتضى منه فى علِم حاله، عالمٌ بحُكم مصرفه ومقعده. فإنْ شغله مولاه بخدمته عن خدمة مَن سواه فصرفه فى معاملته دون معاملة العبيد، ساق إليه رزقه كيف شاء من الوجوه، وبيد من شاء من العبيد، يحفظه له عن مجاوزة الحدود، كما قال تعالى حافظاتٌ للغيب بما حفظ اللّه، وبتوليه له وعصمته إياه عن التورط فى محظور كما أخبر عن أوليائه فى قوله عز وجل وهو يتولى الصالحين. وكان العبد فاضلاً فى قعوده لشُغله عن العبيد بمعبوده، بانقطاعه إلى معاملة المَلِك دون مايقطعه من معاملة المملوك، وبهمّة الآخرة عن الدنيا، وكان داخلاً فى وصف ماأخبر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن أهل كفاية اللّه فيما رُوى عنه مَن جعَل الهموم همّاً واحدا كفاه اللّه آخرته، وخارجاً عن وصف مَن قطعه عن اللّه بهمّة غيره وعرّضه للهلكة فى أودية الهموم فى قوله عليه السلام مَن أصبح وهمُّه غير اللّه فليس من اللّه، وفى قوله ومن تشعّبت به الهموم لم يُبال اللّه فى أى أوديتها هلَك. فإنْ كان حال المتوكل أن يُجرَى رزقه على يد نفسه وكسْب جارحته فهو خزانة من خزائن المَلِك، وهو عبدٌ من عبيد المَلِك، يوّصل إليه عن يد نفسه بما يوّصله إليه عن يد غيره. وسواءٌ ساق إليه الرزق أو ساقه إلى الرزق بعد أن يرزقه، لأن مالقيتَه فقد لقيك، والعبد متوكل على اللّه فى الحالين ناظرٌ إليه بالمعنيين، قائمٌ بحكم حاله فى الأمرين، عارفٌ بحُسن اختيار اللّه له فى الحُكمين. ومن تَرَك التكسب لأجل اللّه ثقةً به وسكوناً إليه، أو لدخول الآثام وتعذُّر القيام بالأحكام، فحُسنه كحُسن مَن عَمِل شيأً لأجل اللّه، لأن الترك عملٌ يحتاج إلى نيّة صالحة، وأفضل الناس عند اللّه أتقاهم له، وأتقاهم له أعرفهم به، متصرفا كان أو قاعداً، وهذا هو فصل الخطاب.

وروينا فى حديث عبد الله بن دينار عن عمرو بن ميمون عن النبى صلى الله عليه وسلم: أتدرون ماقال ربكم، قالوا الله ورسوله أعلم، قال حين استوى علي عرشه ونظر إلى خلْقه: عبادى أنتم خلْقى وأنا ربُكم، أرزاقكم بيدى فلا تُتعبوا أنفسكم فيما تكفلت لكم به، واطلبوا أرزاقكم منى، وانصبوا أنفسكم لى، وارفعوا حوائجكم إلىّ، أصُبُّ عليكم أرزاقكم. أتدرون ماذا قال ربكم، قالوا الله ورسوله أعلم، قال عبدى أنفِقْ أنفقْ عليك، ووسِّعْ أوسّع عليك، ولاتضيّق فأضيّق عليك. إن أبواب الرزق بالعرش لاتُغلَق ليلا ولانهارا، فأُنزل الرزق منها لكل عبد على قدْر نيته وعالته وصدَقته ونفَقته، فمن أكثر أكثِر له، ومن أقلّ أقلِل له، ومن أمسك أمسِك عليه. يازبير إنّ الله يُحب الإنفاق ويُبغض الإقتار، فكُلْ وأطعِمْ ولاتقترِ فيقتر اللّهُ عليك، ولاتُعسرِ فيُعسرِ عليك. أطعِمِ الإخوان، ووَقّرْ الأخيار، وصِلْ الجار، ولاتُماس الفجّار، تدخل الجنة بغير حساب. فهذه وصية الله لى، ووصيتى لك يا زبير بن العوام.

والأسواق موائد الأبّاق، يطعم المولى منها من أبِقَ من خدمته وهرب من مجالسته ووهن عن معاملته وجَبُن فى متاجرته. قال الله تعالى وماخلقتُ الجن والإنس إلاّ ليعبدون. ماأريد منهم مِن رزقٍ وماأريد أن يُطعمون. وقال بعض أهل العربية من القدماء ماأريد أن يَرزقوا خلقى إنّ الله هو الرزاق، أى لهم لايطالبهم أن يرزقوا نفوسهم إذا خدموه، فذكر الله الوجوه الثلاثة واختار لنفسه أحدها وهى الخدمة، وعليه الكفاية، واختار من العبيد أحدهم فجعله عابده، وتنزّه عن أحدهما وتعالى عنه وهو الإطعام من العبيد له، وصرَف عمومَ العبيد فى الوجه الثالث من الإطعام لأنفسهم وهو التكسُّب، وضرب هذا مثَلاً بينه وبين خلْقه فى الأرض، وله المثل الأعلى فى السموات والأرض، فبقى العبيد مع الله تعالى بحكمين، أحدهما ما اختاره لنفسه من العبادة وهى المعاملة وعليه الرزق كيف شاء ومتى شاء، وهؤلاء عباد الرحمن لاعبيد الدنيا، والثانى ماصرَف العبيد فيه من التكسُّب لأنفسهم، وجعل ذلك رزقا منه لهم بجوارحهم، ومدَحهم على هذا الوصف، وهؤلاء عموم العبيد، منهم عبيد الدنيا وعبيد الهوى، وبقى المولى مع العبيد على الأحكام الثلاثة التى أباحها الله تعالى لهم، وضرب بها المثل بينه وبينهم، أيها اختاره كان ذلك لهم، وتفسير ذلك أن المولى مِن الخلْق أن يقول لعبده إذهب فأطعمنى لأنك عبدى ومِلْك يدى، فأنا أملِك كسبك كما أملك نفسك، وهذا هو الوجه الذى ذكرناه أنّ الله تنزّه عنه وتعالى علُواً كبيرا، فقال تعالى وما أريد أن يُطعمون، كما يريد الموالى من عبيدهم هذا. ثم يقول المولى مَناً لعبده إذهب فأطعم نفسك واسْع فى قُوتك فقد

أبحتُ لك ذلك، ووهبتُ لك كسبك فهو رزقٌ لك وتفضلٌ منى عليك، وبهذا صار المُكاتب لعبده فى فكاكِ عتقه كالمُعتِق بأنْ كان له الولاء، وقد يكون له الميراث فى حالٍ لأنه منعمٌ عليه بالكتابة له كالمُعتِق، وإن كان العبد هو الذى سعى فى فكاكِ رقَبة نفسه بكسْبه من قبَل أنّ المولى يستحق عليه كسبه ويملك رقبته، فلما ملَكَ عبده ذلك صار مُحسناً إليه، فهذا حال عموم العبيد مع اللّه تعالى، لأنه مولاهم الحق وهم عبيده، فقال اذهبوا فتكسّبوا وأطعموا أنفسكم فقد رزقتكم ذلك ووهبته لكم، وهذا هو الوجه الثانى الذى نزّه الخصوص عنه تفضيلاً لهم فلم يستسعهم، وتطَعهم فشغلَهم بخدمته عن خدمة نفوسهم وخليقته، وتوكل لهم بكفايتهم ولم يوكلهم فيها كما وكَل غيرهم، بل وكَلَ بأرزاقهم مَن يشاء من عباده، وهو معنى قوله تعالى ماأريد منهم مِنْ رزق لنفوسهم، بدليل قوله تعالى إنّ اللّه هو الرزاق، أى لهم بإقامة غيرهم وبإظهاره فى قوله وماأريد أن يُطعمون، فكانت هذه الياء اسمَهُ مُكنىّ بها، وهذه إرادةٌ مخصوصة لا عامة لكل مراد، فهى إرادة ابتلاء ومحبة، بمعنى ماأحب، ومخصوصة بمخصوصين من عباده، كما كان قوله تعالى وماخلَقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون، كانت هذه الآية مخصوصة لمن عبده منهم، معناها مؤمنى الجن والإنس، لا عامة لجميع خلقه. والوجه الثالث أن يقول المولى منّا لعبده اخدمنى وعلىّ طُعمتك، تقوم خدمتك لى مقام كسبك لنفسك. وهذا هو الوجه الأعلى الذى اختاره اللّه تعالى وأحبه لمن يحبه، واختار له مَنْ عبدَه من العبيد مِن خصوص العاملين له، وهم العالمون به دون مَن صرَفه فى رزق نفسه بنفسه، وهو قوله تعالى إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق، أى أن يَرزقوا نفوسهم بكسبهم الذى أبحتُه لهم، فيكونوا كغيرهم ممن قلْت له اذهب فتكسّبْ فقد أردت منك الرزق لنفسك بكسبك، وقد وهبتُه لك أى أنا أريد من هؤلاء العبادة ولها خلقتُهم، فكلٌ مُيَسرٌ لِما خُلِق له، فمن كانت صنعته العبادة وُخلِقَ لها يُسرت له، ومن كانت صنعته الدنيا وخُلِق لها يُسِّرت له. وفى الخبر أن اللّه تعالى خلق كل صانع وصنْعته. ويُقال إن اللّه تعالى لمّا أظهر الخلْق فى العدم أظهر لهم الصنائع كلَها ثم خيّرهم فاختار كل واحد صنْعته، فلما أبداهم فى الوجود أجرى على كل واحد ما اختار لنفسه. قال وانفردت طائفةٌ فلم تختر شيأ فقال لها اختارى، فقالت ما أعجبنا شىء رأيناه فنختار. قال فأظهر مقامات العبادات فقالت قد اخترنا خِدْمتَك، فقال وعزتى وجلالى لأخدمنّكم إياهم ولأسخرنّهم لكم.

وفى الخبر أوحى الله تعالى إلى الدنيا اخدمى من خدمنى وأتعبى مَن خدمك،فالعبادة هى الخدمة. ومن ذلك قولهم إياك نعبد، ولك نصلى ونسجد، وإليك نسعَى ونحفَد، أى إليك نعمل ونخدم، مِثْل قوله تعالى بنين وحفَدة أى خدماً فى أحد الوجوه. والعبادة هى الخدمة،بذل وتواضع. والعرب تقول طريقٌ مُعَبّد إذا كان مُذّللا مُمهّداو ومَوْطُواً بالأقدام. ويقولون بعيرٌ معُبّد إذا كان ممتُهناً بالكّد نِضْواً من السير والحمْل عليه. ومنه قول القبط أنؤمن لبشريْن مثلنا وقومهما لنا عابدون، يعنُون بنى إسرائيل، خَدَمُنا نستذلهم ونمتهنهم بالكّد والعمل.

وقال بعض العارفين إنّ الله سبحانه وتعالى اطّلع على قلوب طائفة من عباده فلم يرها تصلح لمعرفته ولا موضعا لمشاهدته فرحمها فوهب لها العبادات والأعمال الصالحات، ثم اطّلع على قلوب طائفة أخرى مِن خلقه فلم ير جوارحهم تصلح لخدمته ولا موضعا لمعاملته فاستعملهم للدنيا وعبّدهم لأهلها. ومن هذا قول النبى صلّى الله عليه وسلم تَعِس عبدُ الدينار والدرهم. تعس عبد الزوجة. تعس عبد الخميصة، أى الذين يُذّلون لهذه الأشياء ويسمون لها. وفى أخبار داود عليه السلام إنى خلقت محمداً لأجلى، وخلقت آدم لأجل محمد، وخلقت جميع ما خلقت لأجل وَلَد آدم، فمن اشتغل منهم بما خلقتُه لأجله حجبته عنى، ومَن اشتغل منهم بى سُقت له ما خلقتُه لأجله.

ذِكر حكم المتوكل إذا كان ذا بيت

فإن كان المتوكل ذا بيتٍ فليغلقه إذا خرج إحرازاً له لأجل الأمر بالحذر، ولاتبّاع السنّة والأثر. قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا خذوا حِذْركم. وقال تعالى واحذرهم أنْ يفتنوك. وقد يُروى فى خبر أعقِلْها وتوكل،ولا يُنقِص ذلك توكله إذا كان ساكن القلب إلى الله لا إلى خلْقه، ناظراً إلى حُسن تدبيره فى تبْقية رَحْله أو إذهابه لا إلى إحرازه، غيرَ مختار لبقاء مافى بيته على اختيار الله له لحُسن إحكامه عنده، لأنّ الله تعالى إذا رفع عبداً إلى مقام التوكل عليه فى شىء أعطاه التوكل فى كل شىء، كما لا يكون توّابا يُحبه الله حتى يتوب إلى الله بكل شىء وفى كل شىء، أى يرجع إليه بالأشياء وفيها، فلذلك قال الله تعالى إنّ الله يحب المتوكلين، كما قال إنّ الله يحب التوّابين، مع قوله وعلى الله فليتوكل المتوكلون، أى ليتُوكل عليه فى كل شىء. هذا أحسن وجوهه، والوجه الآخر وعليه فليتوكل فى كل توكله، لأنّ الوكيل فى شىء واحد فينبغى أن يكون التوكل عليه واحداً فى كل شىء.

فالتوكل مقام رفيع من مقامات الأنبياء ومن أعالى مدارج الصدّيقين والشهداء، مَن تحقّق به فقد تحقّق بالتوحيد وكَمُل إيمانه وكان على مزيد، وانتفى عنه دقائق الشرْك وخفايا تَوَلّى العدو فانقطع سلطانه عنه. قال اللّه سبحانه وتعالى إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، إنما سلطانه على الذين يتولونه، يعنى العدو، والذين هم به مشركون، يعنى اللّه سبحانه، فلم يشترط نفى سلطان العدو بالإيمان مجرّدا حتى يقيمه فى مقام التوكل فى اليقين، فلذلك فصّلنا شرحه وأطلقنا تفصيله لأن من أعطى مقاما من التوكل على حقيقة مشاهدة الوكيل انتظم له جُمْل مقامات اليقين وأحوال المتقين كما قال **عبد اللّه بن مسعود**: التوكل جُماع الإيمان. وقد يُبتلى المتوكل فى توكله بالأسباب والأشخاص والأغراض وضروب المعانى كما يُبتلى سائر أهل المقامات ويبقى عليه من العدو نزْغٌ وطيْف لا غيردون الاقتران والاستحواذ، يختبر بذلك صِدْقه فى توكله حتى يَردّ فى جميع ذلك نظره إلى وكيله، ليُجزَى جزاءَ الصادقين المقرّبين، أو ليكشف له دعواه فيعلم كذِبَ نفسه فيكون مردودا إلى التوبة، كما قال تعالى ليجزى اللّه الصادقين بصدقهم. وحَسْبُ جزاء المتوكلين أن يكون الصادق حسْبَهم، وأن يكون خُلعة الصدق شعارهم. ثم قال تعالى ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم، فأحسن حال المدّعين التوبة، بها يَخرجون من ظُلمِهم. وقال تعالى أحَسِبَ الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون. ثم أخبر بسُنّته التى قد خَلَت فى عباده فقال ولقد فتنّا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا، وليعلمن الكاذبين، ولن تجد لسُنّة اللّه تبديلا.

فليقلْ المتوكل عند خروجه من منزله مُعتقِداً للأمر والسنة بعد غلق بابه: أللهّم إن جميع مافى منزلى إنْ سلّطت عليه مَن يأخذه فهو فى سبيلك صَدَقة منى علَى مَن أخذ. فإنْ أُخِذَ مافى منزله كان له فى ذلك سبع معاملات، إحداها قبول توكله على اللّه بتدبير اللّه أمره كيف شاء، واختيار الله له نقصان الدنيا، وإذهاب مالعله يُفتتَن بتبقيته؛ **والثانية** اختيار اللّه تعالى لعبده وابتلاؤه إياه بفقد محبوبه ليُظهر صدقه ومسالمته، أو ليستبين للعبد كَذِبه، فإنْ حمد الله وشكره على حُسن بلائه ولم تضطرب نفسه أعُطِى ثواب الشاكرين الراضين. كما جاء فى العلم المكنون عن بعضِ أنبيائه قال يارب مَن أولياؤك، قال الذين اذا أخذتُ منه المحبوب سالمنى؛ **والثالثة** إنْ اضطربت نفسه وجزَعت جاهدَها بالصبر والصمت وحُسن الثناء على اللّه وترك الشكاية إلى عبده فأُعطِى ثواب الصابرين المجاهدين، **والرابعة** إنْ لم يكن فى هذا المقام ولا فى المقام الأوّل انكشف له بطلان دعواه، وظهر له خَفِىّ كَذِبه فى حياته، فاعترف

بذلك واعتذر إلى الله واستكان وخضع. فيكون هذا أيضا على معنى الإعلام والبيان، فيعلم أنه كذّاب لكراهية ماقضَى الله وقلّة صبره، أو بسُخطه ماحوّله الله من خزانته التى هى فى يده إلى خزانته الأخرى التى هى فى يد غيره، إذ قد علم أن يده خزانة مولاه، وأن ماحوّله منها لم يكن له وإنما كان قد استودعه، فساءه حين استُرجع منه ما أودعه وأعاره وأودعها غيره أو دفعها إلى مَن هى رزقه، فهذه كلها ذنوب عند المتوكلين، موجبات للتوبة والاستغفار عند الموقنين فلا ينبغى للمتوكل الموقن أن يُحزنه ما حوّل الله من خزانته التى فى يده مما أعاره واستودعه إلى خزانته الأخرى التى هى يد غيره، ممن لعله يهبه له أو يبتليه بأحكامه فيه فيخرج أيضا من يده إلى يد غيره، لأنه ما خرج من الدار شىء، ولله حكمة وابتلاء فى كل شىء، فالحزن والأسف على فوْت مثل هذا عند العارفين جناية، ومن المؤمنين خيانة، يستغفرون الله ويتوبون إليه كما يتوبون من المعاصى،لأنه قد أمرهم بترك الأسى على فائت الدنيا وقلة الفرح بما أتى منها، إذ لابد من كونهما لأنه قد عَلِمه، وبعد عِلْمه قد كتبه، ثم قد أعلَم به، فكشف لهم اليقين عن الكتاب المستبين: أن ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلاّ فى كتاب من قبل أنْ نبرأها. فما ظهر من المصائب فى الأموال والأنفس فقد سبق قبل خلْق الخلْق، وهذا قوله تعالى **من قبل أن نبرأها**، قيل من قبل أن نخلق الخليقة وقبل أن نبرأ الأرض، وقيل من قبل أن نبرأ الأنفس، وقيل من قبل أن نبرأ المصيبة. ثم قال تعالى **لكيلا تأسوْا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم**، فالأسى على فقْد الشىء على قدْر الفرح بوجوده. أفلا يستحى العبد أن يكون ضد ما أُمر به أو بخلاف ما يحبه منه مولاه، فيأسى على ماليس له ويحزن على ماأخذ منه واستودعه، أويفرح بما ليس له، لأنه لا يعلم أنه قد وُهِب له فيُبقَى عليه، أو قد أُعيره فيؤخذ منه، فلمّا استرجعه من يده التى هى يده تعالى، أيقن أنه لم يكن له، وأنه إنما كان وديعة عنده فحزن، فهذا لمّا أيقن شك، ولمّا عَلِمَ جهَل ورغب فيما ينبغى أن يزهد فيه، فأى شك مع ذلك يتوهم المتوكل على الله ويدعى منازل الأقوياء الأغنياء بالله، الشاهدين لمجارى قدر الله فى تصاريف حكمه. فإذا علم العبد أنه كاذب استكان استكانة الكذّابين، وتاب توْبة المدّعين، ولم ينطق بكلام الصادقين، ولايدل إدلال المحبوبين، فيكون تعريف الله إياه هذه المعانى تأديباً له، ومزيدً منه وهذا مزيد الناقصين. **والمعاملة الخامسة** أن يكون له بكل درهم تَلَف سبعمائة درهم كأنه قد أنفقه فى سبيل الله، حُسِب له ذلك لأنه قد كان نواه. وكذلك إنْ لم يُؤخَذ ما فى بيته استنباطاً من قول رسول الله صلى الله

عليه وسلم فيمن ترك العَزْل فأقرّ النطفة قرارها أنّ له أجر غلام وُلِدَ له من ذلك الجماع وعاش فقُتل فى سبيل الله، وإنْ كان لم يولد له فقال أنت تخلُقه، أنت ترزُقه، إليك محياه، إليك مماته، أقرُّها قرارها ولك ذلك. **والمعاملة السادسة** أن لا يأثم أخوه الذى أخذ رحلَه إن كان قد جعله صدَقةً عليه فيؤجر أجراً ثانيا لإشفاقه على أخيه وحُسن نظره للعُصاة من حيث لايعلمون تخلُّقاً بأخلاق مولاه، وينال بعفوه عن ظالمه درجة المحسنين ويتحقق بمقام المتقين، ويكون ممن وقع أجره على الله فيُخفِى له مالا تعلم نفسٌ من قُرّة العين، ولأنه قد علم كيف جرى الأمر، وأنّ الآخذ مُبتلَى بسوء القضاء، وأنه قد عوفى إذ لم يكن هو ذلك العبد، فيرحم أهلَ البلاء حينئذ ويحمد الله على ماعافاه، فيشغله الشكر لله عن الدُعاء على ظالمه. قال بعض العارفين لبعض أصحابه لِمَ أسقط أهل المعرفة اللائمة عن الظالمين لهم؟ فقلت لاأدرى، قال لعلمهم أنّ الله قصدهم بذلك وابتلى الظالمين بهم فرحموهم. وذلك داخل فى نَصْر أخيه الظالم لنفسه، وطاعة لأمر رسوله فى قوله **انصر أخاك ظالما أو مظلوما**، أى تمنعه عن الظلم، فإذا عفا عنه فقد منعه من الظلم لأنه لو رآه منعه من أخذه أو وهبَه له، فيقوم عفوه عنه مقام رؤيته. **والمعاملة السابعة** تحققُه فى الزهد فيما ذهب. وقال **أبو سليمان الدارانى** لمّا بلغه عن **مالك بن دينار** أنه قال للمغيرة اذهب فخذ تلك الرَكْوة من البيت فلا حاجة لى بها، وكان قد أهداها إليه وقَبِلها منه، فقال ولِمَ، قال يوسوس إلىّ العدوّ أنّ اللص قد أخذها. وكان مالك لايغلق بابه إنما كان يشدُه بشريط. وكان يقول لولا الكلاب ماشددتُه أيضا. فقال أبو سليمان هذا من ضعف قلوب الصوفيين. هو قد زهد فى الدنيا فما عليه بمن أخذها. وهذا كما قال **أبو سليمان** لأن الزهد إذا صح دخل الرضا فيه، ولقول **مالك** أيضا وجهٌ كأنه كَرِهَ أن يعصَى الله به فيكون هو سبب معصية الله. ولكن قول **أبى سليمان** أعلى لأجل التوكل والرضا.

وهذا الذى ذكرناه من ذهاب مافى البيت هو لكل من ذهب له مال فى سفَر أو حضَر، ولكل من أصيب بمصيبة فى نفس أو أهْل. وهذه المعاملات كلها إذا اعتقدها بقلبه وكانت فى خَلَده وَوَجْدِه وإن لم ينطق بها أو يُظهرها، فأكثر الناس إيمانا وأحسنهم يقينا أقلّهم غماً وأيسرهم أسىً على مافات من الدنيا، وأحسنهم رضاً وأنفذهم شهادةً من رأى أن ذلك نعمة أوجبت عليهم شكرا. وأقل الناس إيماناً وأضعفهم يقيناً أشدهم أسى وأكثرهم غماً على مافات، وأطولهم شكوى وأقلهم شكرا، فالمصائب محنة تكشف الزهد فى الدنيا والرغْبة. ألَمْ تسمع إلى الحديث الذى جاء فيه هذا الدعاء: وأسألك من اليقين ماتُهوّن به علينا مصائب الدنيا.

فشدة الغم على فوْت الدنيا دليل على حبها وعلامة ضعف اليقين بمحبوبه. وسهولة الغم على فوْتها دليل على الزهد فيها وقوة اليقين بربه. فإنْ وجد المتوكل رَحْله بحاله، لم يضُره بتبقيته شيء، وكان له أجر ماقد نوى من المعاملات إلاّ شيأً واحدا من باب نقصان الدنيا من طريق الورع فإنه يُنقِصه، وهو أنه إنْ أخذ ماتوكل على الله فيه وفوّض إليه أمره به ثم رُدّ عليه لم يُستحب له فى الورع أن يتملكه ولا أن يرجع فيه فى حُسن الأدب، لأنه قد كان جعله صدقة فى سبيل الله، فإن رجع فيه لم يُنقص ذلك توكله لأنه قد صحّ تفويضه إلى الوكيل فى الحالين معا. وقد روينا أن ابن عمر سُرقت ناقته فطلبها حتى أعيا ثم قال فى سبيل الله، فدخل المسجد وصلى ركعتين فجاء رجل فقال يا أبا عبد الرحمن إنّ ناقتك فى مكان كذا، فلَبِس نعله وقام، ثم نزعها، ثم قال أستغفر الله وجلس، فقيل له ألا تذهب فتأخذها، فقال إنى قد كنت قلتُ فى سبيل الله.

وحُدّثت عن بعضهم قال رأيت بعض إخوانى فى النوم بعد موته فقلت مافعل الله بك، فقال غفر لى وأدخلنى الجنة وعُرِضت علىّ منازلى فيها فرأيتها. قال وهو فى ذلك كئيب حزين، فقلت قد دخلتَ الجنة وغُفر لك وأنت حزين؟ فتنفّس الصَعداء ثم قال نعم إنى لاأزال حزينا إلى يوم القيامة. قلت ولِمَ ذلك، قال إنى لمّا رأيت منازلى من الجنة رُفِعَت لى مقامات فى عليّين مارأيت مثلها فيما رأيت ففرحت بها، فلّما هممت بدخولها نادَى منادٍ من فوقها اصرفوه عنها فليست هذه له، إنمّا هذه لمن أمضَى السبيل، قيل لى قد كنتَ تقول للشيء إذا ذهب منك فى سبيل الله ثم ترجع فيه، فلو كنت أمضيت السبيل لأمضيناها لك.

وقد حدثونا أنّ **الربيع بن خيثم** سُرِق فرسه وكان ثمنه عشرين ألفا وكان قائما يصلى، فلم يقطع صلاته ولم ينزعج لطلبه، فجاءه الناس يعزونه فقال أما إنى قد كنت رأيتُه وهو يُحلّه، قيل ومامنعك أن تزجره، قال كنتُ فيما هو أحبُّ إلىّ من ذاك، يعنى الصلاة، قال فجعلوا يدعون عليه، فقال لا تفعلوا وقولوا خيراً فإنى قد جعلتُها صدقةً عليه. وقيل لبعضهم فى شيء قد كان سُرِق له ألاّ تدعو على ظالمك، فقال ماأحب أن أكون عونا للشيطان عليه. قيل أفرأيتَ لو رُدّت إليك سَرِقتُك، أكنت تأخذها، قال ولا كنت أنظر إليها، إنى قد كنت أحللته منها. وقيل لآخر ادعُ الله علَى مَن ظلمك، قال ماظلمنى أحد، ثم قال إنما ظلم نفسه، فلا يكفيه المسكين ظُلْمه لنفسه حتى أزيده شرا. وذهب لبعض المسلمين مال فجاء قوم يعزونه عليه، فقال

ماتعزونى على أمر الدنيا فواللّه ماحزنت على ذهابها، فكيف على ذهاب شىء منها. قيل ولِمَ، قال شغلنى الشكر عليه عن الحزن. وقد كانوا يقولون إذا ظُلموا من الغَصب والسرقة وغير ذلك هذه نعمة اللّه علينا، إذ لم يجعلنا ظالمين وجعلنا مظلومين أعظم مما فاتنا من الظلاَمة. وقد كان السلف يخافون أن يذكروا الظالم بالسبّ له والدعاء عليه فيكون ذلك زيادة على مَظلمتهم. وقد روينا مَن دعا على ظالمه فقد انتصر. وأكثر بعضهم بشتم الحَجّاج عند بعض السلف فقال له لاتُغرِق فى شتمه فإن اللّه ينتصف للحجّاج ممن انتهك عِرْضه كما ينتصف منه لمن أخذ ماله.

وفى الخبر أن العبد ليُظلم المظلمة فلا يزال يشتم ظالمه ويَسُبّه حتى يكون بمقدار ماظلمه، ثم يبقَى للظالم عليه مُطالبة بما زاد عليه يُقتص له من المظلوم. وقال بعض العلماء لرجل وقد كان شكا إليه قطْع الطريق وأخْذ ماله، فقال له لم يكن غمّك أنه قد صار فى المسلمين من يستحلّ هذا أكثر من غمك بمالك فما نصحتَ للمسلمين. وسُرقت من **علىّ بن الفضيل** دنانير وهو يطوف بالبيت فرآه أبوه وهو يبكى ويحزن، فقال أعَلى الدنانير تبكى، فقال لا واللّه ولكن على المسكين، أنه يُسئل يوم القيامة بهم ولايكون له حُجة. وقيل لبعضهم فى معنى هذا ادعُ علَى مَن ظلمك، فقال إنى مشغول بالحزن عليه من الدعاء عليه.

فإنْ رُدّ على المتوكل كل ماأخذ منه فالأفضل له أن لايتملكه إنْ كان قد جعله فى سبيل اللّه ليمضى السبيل، فإنْ كان قد جعله صدقةً على الآخذ نَظَر فى ذلك، فإنْ كان فقيرا حملَه فقره على السرقة والخيانة والحاجة أمضى صدَقته عليه، وإنْ كان غير ذلك صرفها إلى فقير. وقد كان بعضهم إذا أُخذ له الشىء يشترط فيقول إن كان فقيرا فهو صدَقة عليه، وإنْ كان محتاجافهو فى حلّ. وقد أخبرنى بعض الأشياخ عن شيخ كان بمكة من العبّاد أنه اتُّهم بعض الحُجاج بسرقة هِمْيانه لأنه كان قائما إلى جانبه، فقال له كم كان فيه فأخبره، فحمله إلى منزله فوزن له من المال، ثم إنّ أصحابه أعلموه أنهم مزحوا معه وحلّوا هِمْيانه وهو نائم، فجاء هو وأصحابه إليه فردّوا عليه ماله، فقال ماكانت لتعود إلىّ بعد إذ خرجتْ. هى لكم، فقلنا لا حاجة لنا فيها، فقال خذوها، قال فأبينا، فقال يابنى، ودعا ابناً له وجعل يَصُرّها صُرَراً ويبعث بها إلى قوم حتى فرغ منها. وهذا كانت نيته إخراجها للّه سبحانه كما نقول فيمن أخرج رغيفا إلى سائل أو أعدّ درهما لفقير فلم يصادفه، أنّا نستحب أنْ لايرجع إلىّ مِلْكه بل يعزله

لسائل آخر أو فقير غيره، لم يزل هذا من أخلاق المؤمنين. وقد رأينا من كان بهذا الوصف، وهذا طريق قد عفا أثره ودرس خبره فمن عمل به فقد أحياه وأظهره، وقد كان قديما طريق السابلة من الأولياء إلى الله تعالى.

ذكر بيان آخر من أحكام المتوكل

إعلم أن **التوكل على الله في الأسباب** لايوجب بقاءها للعبد ولا إيثاره بها ولاحفظها عليه، ولا يقدم شيأ عن شيء ولايؤخره لصلاح دنيا أو اختيار عبد، بل هو إلى الإذهاب والإتلاف أقرب، لأن التوكل قرين الزهد، هكذا هو عند الخصوص. ولأجل اختيار العبد وتحقيق صِدْقه محنةً له، ولأجل من نفَى الشيء من الدنيا، قال الله سبحانه وتعالى فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة، فإن ذهب ماله فصبَر أو شكَر أو رضى كان صادقا في توكله، وهذه أحوال المتوكلين في التوكل إن كانوا صادقين ، وإنْ عجز واضطرب كان كاذبا في توهمه للتوكل، ويلزمه من مجاهدة النفس عند اضطرابها بعد عدم الأشياء مايلزمه من مجاهداتها ونفى الآفات في سائر الأعمال. فإنْ حفظ عليه ماله فقد رفق به في ذلك وستر عليه عن كشف حقيقة حاله بتلف ذلك، وجُعلت كرامة من الدنيا له، ليطمئن بذلك في حاله ويسكن به قلبه في طريقه وهذا مقام الضعفاء. وإنْ نَقَص من الدنيا فقد أقيم مقام أهل البلاء الأمثل فالأمثل بالأنبياء، ولولا الامتحان لكثُر الصادقون.

وكذلك **التوكل على الله في ترك الدواء** لايجلب العوافي ولايعجِّلها، ولايُنقص من الأمراض ولايُذهبها، بل هو إلى الازدياد منها أقرب للتمحيص والابتلاء. ومنه قوله عز وجل **وليُمحّص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين**. فمن لم يشهد نقصان الدنيا من النفس والمال نعمةً توجب عليه الشكر ويرى المنع عطاء فقد جهَل تلك النعمة بإضاعة شُكرها، فمافاته من جهْل النعمة وترك الشكر أعظم مما يترك من جميع الدنيا. وأخاف عليه لطيفة من المحق، والمحق نقصان الشيء إلى ذهاب جملته عند الكفر بنعمته، لقوله تعالى ويمحق الكافرين، فالله أعلم أي شيء يمحقه ويُنقصه بمقدار ما كَفَر شُكْرَ نعمته. وقد قال سبحانه **ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشّر الصابرين**، فهذا النقص من هذه الخمس التي المزيد منها هو جملة الدنيا، هو المزيد من الآخرة لا ضد الدنيا، كما قال تعالى **وماعند الله خير وأبقى، للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، فصبروا على**

مصائبهم توكلاً على ربهم، ثم توكلوا فى صبرهم لشهادة وكيلهم ولحُسن ظنهم به، ثم صبروا على توكلهم لتمام حالهم، ويعلو بذلك فيه مقامهم. **فالصبر أول مقام فى التوكل**، وهو عند مشاهدة القضاء بلاء، **والشكر أعلى من ذلك** وهو شهود البلاء نعمة، **والرضا فوق ذلك كله**، وهو **أعلى التوكل**، وهو مقام المحبين من المتوكلين.

وقال الله عز وجل فى وصف **عموم المتوكلين**: وما عند الله خير للذين يتقون، أفلا تعقلون. فمن اتقى الله وعقل خطابه توكل عليه فيما أصابه فلم ييأس على مافات ولم يفرح من الدنيا بما هو آت، وهذا أوسط الزهد **وأوّل التوكل**. وقال تعالى فى وصف الخصوص: **وماعند الله خير وأبقى، للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون**، فأهل العقل عن الله والمتقون له هم المتوكلون عليه، وقد زهّدهم فيما يفنى برغبته إياهم فيما يبقى حين فهموا الخطاب، إذ هم أولو الألباب، وذلك أنه أضاف ماعنده إليه ووصفه بالبقاء ليرغبوا فيه لأنهم قد توكلوا عليه، وأضاف ماعندهم إليهم ليزهدوا فيه، ووصفه بالفناء لأنهم قد زهدوا فى نفوسم إذ قد باعوها منه فكيف يتملكون ماعندها، والعبد وماله لسيده، وهو تعالى قد اشتراها منهم لرغبتهم فيه، وعوّضهم منها ما يبقَى لهم فقال تعالى ماعندكم ينفد وما عند الله باق .

ذكر بيان آخر من فضيلة المتوكل

إعلم يقينا أن الله تعالى لو جعل الخلائق كلهم من أهل السموات والأرضين على علم أعلمهم به، وعَقْل وأعقلهم عنه، وحِكْمة أحكمهم عنده، ثم زاد كل واحد من الخلائق مثل عدد جميعهم وأضعافه علماً وحكمةً وعقلا، ثم كشف لهم العواقب، وأطلعهم على السرائر، وأعلمهم بواطن النعم، وعرّفهم دقائق العقوبات، وأوقفهم على خفايا اللُطف فى الدينا والآخرة، ثم قال لهم دبّروا المُلك بما أعطيتكم من العلوم والعقول عن مشاهدتكم عواقب الأمور، ثم أعانهم على ذلك وقّواهم له، لما زاد تدبيرهم على مايراه من تدبير الله تعالى من الخير والشر والنفع والضُرّ جناح بعوضة، ولا نقص جناح بعوضة، ولا أوجبت العقول المكاشفات ولا العلوم المشاهدات غير هذا التدبير، ولا قَضَتْ بغير هذا التقدير الذى يعاينه ويقلّب فيه ولكن لا يبصرون، لأنه أجراه على ترتيب العقول وعلى معانى العُرْف والمعتاد من الأمور، بالأسباب المعروفة والأواسط المشهورة على معيار ما طبع العقول فيه وجبَل العقول عليه، ثم غيّب مع ذلك العواقب وحجَب السرائر وأخفى المثاوب فغاب بعينها حُسن التدبير وجميل التقدير، فجهَل أكثر الناس الحُكم إلا المتوكلين، وما يعقلها إلا العالمون.

ولو تمنى أهل النهى من أولى الألباب الذين كشف عن قلوبهم الحجاب نهاية أمانيهم، فكُوِّنت أمانيهم على ماتمنوا، لكان رضاهم عن الله فى تدبيره ومعرفتهم بحُسن تقديره لهم خيراً لهم من كوْن أمانيهم، وأفضل لهم عند الله من قبَل أنّ الله أحكم الحاكمين. وقال تعالى موبخا للإنسان مُجَهِّلا للمتمنى لقلة الإيقان. أم للإنسان ما تمنى فلله الآخرة والأولى، أى يحكم فيهما بترك الأمانى، لأنه قال تعالى ولو اتبع الحقُ أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن، فالمتوكل محبٌ لله تعالى، مسرورٌ بربه، فرحٌ له بملكه بأنّ له الآخرة والأولى يحكُم فيهما كيف شاء، والعبد عاجز لا يقدر على شىء، فهذا أوّل مقام فى المحبة، فقد كفى الخلائق هذا كله بحُسن تدبير الخالق العليم الخبير البصير، وإنمّا يحتاجون الى معرفة بالحكمة ومشاهدة للحُكم والرحمة وإلى بصيرة ويقين يسكن عندها قلوبهم.

ولا يضطرب هذا الذى ذكرناه عند الموقنين. وسيطّلع العموم على سرّ ما ذكرناه من لطيف التدبير وباطن التقدير، وهو سر القدر ولطائف المقدَّر فى الآخرة عند المعاينة وقد كُشف الغطاء وظهر ما تحته من عجائب الخَبء فى السموات والأرض. وقد اطّلع الله على ذلك العلماء به فى الدنيا، وهو محمود مشكور على ماأظهر وأخفى، ففى كل واحد منهما نعمة. ومع كل واصف منها حكمة ورحمة، ولكن قد خلق الله العلماء بأخلاقه فليس يكشفون من علمه إلاّ بقدْر ماكشف، وليس يعرفون من سرّ قدره إلا بمعيار ماعرف، وقال تعالى وإنْ من شىء إلا عندنا خزائنه،وما ننزله إلا بقدَر معلوم، فقد تأدبوا بهذا الخطاب ووقفوا عنده. وقال أبو سليمان الدارانى إذا لاحظت الأشياء من فوق وجدت لها طعما آخر. وقال بعض العارفين إذا رأيت الأشياء كلها كشىء واحد من معدن واحد رأيت مالم تسمع وفهمت مالم تفهم الخلق. وقال بعضهم لا ترى العَجب حتى ترى عجباً، فإنْ لم تر عجباً رأيت العجب.

ذكر بيان آخر من وصف المتوكلين

إعلم أن العلماء بالله سبحانه لم يتوكلوا عليه لأجل أن يحفظ لهم دنياهم، ولا لأجل تبليغهم مرادهم، ولا ليشترطوا عليه حُسن القضاء بما يحبون، ولا ليبدل لهم جريان أحكامه عما يكرهون، ولا ليغير لهم سابق مشيئته إلى ما يعقلون، ولا ليحوّل عنهم سنتّه التى خلَت فى عباده من الابتلاء والاختبار. هو أجّل فى قلوبهم من ذلك، وهم أعقل عنه وأعرف به من هذا. ولو اعتقد عارف بالله أحد هذه المعانى مع الله فى توكله كان كبيرة توجب عليه التوبة، وكان

توكله معصية. وإنما أخذوا نفوسهم بالصبر على أحكامه كيف جرت، فطالبوا قلوبهم بالرضا عنه كيف جرت. وقال رجل لمالك بن أنس :ياأبا عبد الله، إنى تعلقت بأستار الكعبة فتبتُ من كل ذنب وحلفتُ أن لا أعصى الله فيما استقبل، فقال له ويحك ومن أعظم معصية منك، تتألّى على الله أن لا يُنفذ حكمه فيك! وأنشدنا بعض العلماء لبعض الحكماء:

لما رأيت القضا جارياً لاشك فيه ولامِرْيَة * توكلتِ حقاً على خالقى وألقيت نفسى مع الجرّية

وإنما كرهوا ماكره الله طاعةً لله، فذلك كراهة ماكره حبا لله واحتراماً لحكمه عليهم، لاكراهَة ماقضى، إذ ليس لهم أن يقولوا فلِمَ قضيْت مانكره، ولِمَ كرّهت ماقضيْت. هو أجلّ وأعظم، وفى نفوسهم أخوف وأهيب أن يواجهوه بهذا الخطاب فى قول أو عقد، بل عرفوا حكمته فيه وصبروا على حُكمه به. وإنّما توكل العلماء به عليه لأجل أنه يحب المتوكلين، ولأجل أنه يستحق التفويض إليه ويستوجب التسليم له، إذ كان هو الوكيل الأوّل والكفيل الأجّل حين سمعوه يقول والله على كل شىء وكيل، ثم استوى على العرش يدبر الأمر، مامن شفيع إلاّ من بعد إذنه، حين فقهوا قوله ومَن أحسن من الله حُكما لقومٍ يوقنون، ولِمَا عقَلوا من خطابه أليس الله بأحكم الحاكمين. أو لأجل أنه أمر بالتوكل وندَب إليه وحقّق الإيمان به، إذ سمعوه تعالى يقول أفَمن هو قائمٌ على كل نفس بما كسبَت، أمَّن من يملك السمع والأبصار ومن يُدبر الأمر، ومامن دابة فى الأرض إلاّ على الله رزقها، وفى السماء رزقكم وماتوعدون، ثم أقسم عليه بنفسه أنه حقٌ فتوكلوا عليه استحياءً منه، ولوجود اليقين الذى رفع خفايا الشك وحذّر من التهمة له، وتوْثِقَةً بالاعتقاد عليه، فمنهم مَن توكل عليه لأجل هذه المعانى كلها، ومنهم من توكل عليه لمشاهدة بعضها، فكلُ عبدٍ توكلُه عن الوصف الذى به عَرفه، وكلٌ عرَفه عن العُذر المتجلّى الذى عرفه، فكلٌ يطيعه على قدْر قُربه منه، وكلٌ يَقْرُب على قدْر عمله بقُربه منه بقدْر مايعرف من كينونية، وكلٌ بعلمه على قدر عنايته به، ومن ورائه سرّ القدَر، فمشاهدة كلِ عبْد من مقامه، وحاله عن وجْد شهادته، وجزاؤه نحو معاملته، والله يضاعف لمن يشاء، هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون، لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون، فدار السلام جامعةٌ لهم وهم متفاوتون فى درجاتهم، كدار الدنيا تجمعهم وهو يرفعهم لديه فى ملكوتها بتخصيص التولّى وحُسن الولايات عن تحسين المعاملات. والله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب.

ومن الخصوص من توكل عليه تعظيماً له وإجلالاً، ومنهم من توكل عليه يقينا بوعده ليحقق صدقه كأنه قد أخذ الموعود بيده، إذ يقول تعالى ومن أوفى بعهده من الله، إنه كان وعده مأتيا، ومنهم من توكل عليه استسلاماً لما شهد من قهر عزّه وعظيم قدْره، ومنهم من توكل عليه ليحفظ عليه ماله فيه، ومنهم من توكل عليه ليحفظ له ما استحفظه ويعصمه فى ماله عليه، ومنهم من توكل عليه لقيامه بشهادته عن حُسن معرفته، ومنهم من توكل عليه تسليماً له عن جميل معاملته، ومنهم من فوّض إليه لحسن تدبيره عنده وبمحكم تقديره، ومنهم من توكل عليه لأن توحيده له وشهادة قيوميته ذلك يقتضيه. فهذه كانت مواجيد أوليائه ومناهج أحبابه عن مشاهدة القُرب ومعرفة القريب. وبعضهم أعلى مقاما من بعض. وبعض هذه المشاهدات أقرب وأرفع، فأعلاها مَن توكّل عليه للإجلال والتعظيم، وأوسطها مَن توكل عليه للمحبة والخوف، وأدناها من توكل عليه تسليماً له وتحبُّباً إليه.

وقد ذكرنا أيضا من **توكّل العموم** مايستحى العارفون من ذكره وينزهون قلوبهم عن فكره، وهو **التوكل عليه فى القلوب**. وقد طوينا ذِكْر **توكل خصوص الخصوص** من صدّيقى المقربين، لأنه لايحتمله عقل عاقل ولايسع أن يُستودع فى كتاب الناقل، إذ ربما نظر فيه مُنكِرٌ جاهل والله المستعان، فدخل مَن عرفه فيما يُحَبّ لأجله، ورغبوا فيما مُدِح لوصفه، ليحصل لهم وصفٌ يعطيهم به الولىّ حُسنُ ثناء، ينالون بذلك قُربةً منه ومحبةً لديه.

ذكر بيان آخر فى التوكل ومالا ينقص المتوكل

ولايُنقِص المتوكل على الله سبحانه مسئلة مولاه فيما أحب من صالح الدنيا ومزيد الآخرة، إذ لم يقصد غير مطلوب وكان مُفَوِضا إلى الله الأمور ولكن يحتاج إلى معرفة الإجابة، فقد يكون المنع إجابةً وقُرباً إذا كان العطاء شُغلاً عنه وبُعداً، لأن الخيرة فيما لايعلم العبد، وقد يكون فيما يكره مما يعلم الله سبحانه حُسن عاقبته لافيما يعقل العبد عاجل منفعته، فعليه التسليم لحُكم الحاكم والرضا بقِسْم القاسم. فإنْ سأل تكاثراً من الدنيا أو مالا يحتاج إليه ومالیس فيه صلاح قلبه ولاقُرْبة إلى ربه، أخرجه من حقيقة التوكل بمقدار مايُخرجه من الزهد وإنْ انقطع بالفِكْر عن المسئلة أعطاه فوق عطاء مَن سأله، وإنْ سكت حياءً من الوكيل إذ هو حسْبُه فشهد الكفاية ورَضِىَ بجميع التصرّف، فهذا مقامٌ من المواجهة عن مشاهدة القيومية، وهو حال المقربين.

ولا يقدح فى التوكل تَشَرُّف المتوكل إلى رزقه لأنه خُلِقَ ضعيفا ذا فاقة، ورزقه معلوم لابد منه، والمعلوم مقسوم، فتشرّفه إلى القِسْم تشرّف منه إلى القاسم، ومن تشرّف إلى مولاه شرّفه وتولاّه. ولكن إنْ تشرّف إلى الزيادة وخرج من القناعة وطلب العادة وأراد الشىء قبل وقته أو كره تأخره عنه إلى وقت مقدوره فإنّ هذا يقدح فى توكله ويُنقص من زهده. ولو كان الشَرَف إلى الرزق منها والتطلّع إلى الرزق مُجْمَلاً يُنقص التوكل لعللّنا من باع واشترى وجهلّنا من تعالج مِن عِلله بالدواء، لأن فى ذلك تشرّفا إلى الرزق وتطلّعا إلى البُرء، فجاء من ذلك تضعيف التابعين وطعْنٌ على المتداوين من الصحابة والسلف الصالح، وأخرجهم ذلك من التوكل والزهد، فلهم منها مقامات.

ولايُخرجه من التوكل مطالبته للعوض على معاملته من جزاء الآخرة، لأنه قد شُوّق إلى ذلك ونُدِبَ إليه، ولكن لايُدخله ذلك فى حقيقة الإخلاص ولايرفعه إلى علو درجة الصدّيقين من المتوكلين. وقد يكون مُريدا على قدر حاله إلاّ أنه لايُدخله فى إخلاص المحبّين، ولايرفعه فى درجات المقرّبين.

ولايصح التوكل إلاّ بزهده فى الدنيا، وأول الزهد ترك الرغبة فى الحرام. **وأول أحوال المتوكل** التوكل فى القوت ثم الصبر على حكم الحى الذى لايموت. **وأعلى التوكل** التوكل عليه فى الاستسلام للأحكام والرضا عنه فى المسابقة بين الأقدام، وهو اطرّاح النفس ونسيانها شُغلاً منه عنها بنفسها وحباً له. **وحقيقة التوكل** بعد مشاهدة يد الوكيل، فإذا ظهرت يده غابت الأيدى فيها، فعندها توكلتَ عليه بتدلل فَقبِلَ توكلك، واستسلمتَ إليه فسلّمك، فإنه يتجلّى لك بوصف يُلزمك حكماً يضطرك الحكم إلى الحاكم ويُوقفك الوصفُ على الوكيل، كما يضُطرك الحاكم إلى الحُكم ويجرى لك وعليك ماشاء من القِسْم، فأعلى توكلك عليه بحُسن التدبير، فلم يكلك إلى سواه، ولم يولك إلاّ إياه، فإمّا أن يقتضيك تصبُراً له، وإمّا أن يقتضيك تفويضاً إليه، وإمّا أن يقتضيك رضاً عنه أو تسليماً له أو استراحة من تدبيرِك لنفسك، أو يسقط عنك اهتمامك بتقديرك وأمانيك. ومن يتوكل على الله فهو حسبُه، والحسب أى الحسيب يجعله ماشاء كيف شاء، فقد قيل حسبه أى التوكل، وقد قيل التوكل حسبه من سائر المقامات، وقيل الله حسبه أى يكفيه ممن سواه. قال تعالى مُعرّفاً للكافةُ مُسلّياً للجماعة إن الله بالغ أمره، أى منفذٌ حكمه فيمن توكّل عليه وفيمن لم يتوكل عليه، إلا أنّ من توكل عليه يكون الله حسبه، أى يكفيه أيضا مُهّم الآخرة والدنيا، ولا يزيد من لم يتوكل عليه جناح بعوضة فى قِسْمه، كمالا يُنقص من توكل عليه ذرة من رزقه، لكن يزيد من توكل عليه هُدى إلى

هداه، أو يرفعه مقاما فى اليقين على تقواه، ويعزه بعزه. وينُقص من لم يتوكل عليه من اليقين، ويزيده من التعب والهّم ما يشتتُ قلبه، ويُشغل فكره. والمتوكل عليه يوجب له بذلك تكفير سيآته، ويُلقى عليه رضاه ومحباته، والكفاية فقد ضمنها تعالى لمن صدَق فى توكله عليه، والوقاية فقد وهَبها لمن أحسن تفويضه إليه، إلاّ أن الاختيار وعِلْم الاستئثار إليه، والكفاية والوقاية، يجعل ذلك ماشاء كيف شاء وأين شاء ومتى شاء، من أمور الدنيا وأمور الآخرة، ومن حيث لا يعلم، لأن العبد موجودٌ فجرى عليه الأحكام فى الدارين، وفقيرٌ محتاجٌ إلى اللطف والرحمة والرفق فى المكانين، واللّه هو الغنى الحميد المُبدىء المعيد. وقيل لأبى محمد سهل متى يصح للعبد التوكل، فقال إذا علم أن تدبير مولاه له خير من تدبيره لنفسه، فإنّ نَظَر مولاه له أحسنُ من نظره لنفسه، فيترك التفكر فيما كان والتمنى لما يكون فيترك التدبير، واللّه عاقبة الأمور وهو على كل حال محمود مشكور.

ذكر أحكام مقام الرضا وهو المقام الثامن من مقامات اليقين

الرضا عن اللّه سبحانه وتعالى من أعلى مقامات اليقين باللّه، وقد قال تعالى هل جزاء الإحسان إلا الإحسان. فمن أحسنَ الرضا عن اللّه جازاه اللّه بالرضا عنه، فقابل الرضا بالرضا وهذا غاية الجزاء ونهاية العطاء، وهو قوله عز وجل رَضِىَ اللّه عنهم ورضوا عنه. وقد رفع اللّه الرضا على جنّات عَدْن وهى من أعلى الجنّات، كما فضل النِكْر على الصلاة فقال تعالى ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من اللّه أكبر، كما قال تعالى إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر اللّه أكبر، والذكر عند الذاكرين المشاهدة، فمشاهدة المذكور فى الصلاة أكبر من الصلاة وهو أحد الوجهين من الآية والوجه الثانى ذكر اللّه للعبد أكبر من ذكر العبد للّه. وقال **أبو عبد اللّه الساجى** مِنْ خَلْق اللّه عباد يستحيون من الصبر يتلقفون مواقع أقداره بالرضا تلقفاً. وقد كان عمر بن عبد العزيز يقول أصبحت ومالى سرور إلا فى مواقع القضاء. فالراضون عن اللّه عز وجل هم الذاكرون للّه بما يحب ويرضى، فالرضوان الأكبر جزاء أهل النكر الأكبر، وهذا أحد المعانى فى قوله من شغله ذكرى عن مسئلتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين أى الرضا عنه، لأن السائلين يسألونه لهم فأعطاهم العفو، والذاكرون ذكروه فأعطاهم الرضا عنه عز وجل، ويكون أيضا معناه أعطيته النظر إلىّ لأن الذكر يدخل فى المشاهدة، فقابل النظر إليه اليوم بالنظر إليه غدا كما قابل الوصف بالوصف فى قوله عز وجل وجوهٌ يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة، وقال الرسول صلى اللّه عليه وسلم يتجلى لنا ربنا ضاحكا. والذكر قرب السمع، والسمع يخرج إلى النظر، والرضا هو حال

الموفق ، واليقين هو حقيقة الإيمان ، وإلى هذا ندب النبي صلى الله عليه وسلم ابن عباس في وصيته له فقال إعمل لله باليقين في الرضا ، فإنْ لم يكن فإنّ في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً ، فرفعه إلى أعلى المقامات ثم ردّه إلى أوسطها كذلك قال لابن عمر واعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، فندبه إلى المشاهدة وهو الإحسان ، لأنه سأل ما الإحسان ، قال تعبد الله كأنك تراه ثم ردّه إلى الصبر والمجاهدة وهو الإيمان وهذا مكان العلم بأن الله يراه ، وليس بعد هذا مكان يوصف .

وقد رفع الله تعالى الرضا منه فوق ما أعطى من النظر ، ففي الخبر أنّ الله تعالى يتجلّى للمؤمنين فيقول سلوني ، فيقولون رضاك ، فسؤالهم الرضا بعد النظر تفضيل عظيم للرضا ، ولأن بالرضا دام لهم النظر ، لمّا كان الرضا موجب النظر سألوا دوام الرضا ليدوم القرب والنظر ، فسألوه تمام النعمة من حيث بدايتها ولا يصلح أن يظهر في معنى قولهم رضاك أكبر من هذا ، ولا يُرسم في كتاب حقيقة الأمر لأنه علي كشف وصف من صفات الذات يوجب علي العبد هيبة الربوبية ، وخوف هذا عن القلوب محجوب وحكمه من سرائر الغيوب ، وهذا في الدنيا ثواب لأهل الخشية عن معرفة خاصة ، قال الله سبحانه رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه .

وقال بعض المفسرين في قوله تعالى ولدينا مزيد ، قال يأتي أهل الجنة في وقت المزيد ثلاث تُحَف من عند رب العالمين ، أحدها هدية من عند الله ليس عندهم في الجنان مثلها وذلك قوله تعالى فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ، والثانية السلام عليهم من ربهم فيزيد ذلك على الهداية فهو قوله تعالى سلامٌ قُولاً من رب رحيم ، والثالثة يقول الله تعالى إني عنكم راض فيكون ذلك أفضل من الهدية ومن التسليم، فذلك قوله تعالى ورضوان من الله أكبر من النعيم الذي هم فيه .

وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لطائفة المؤمنين : ما أنتم ، قالوا نحن المؤمنون فقال ما علامة إيمانكم قالوا نصبر عند البلاء ونشكر عند الرضا ونرضى بمواقع القضاء ، فقال مؤمنون ورب الكعبة . وفي خبر آخر أنه قال حلماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء ، فشهد لهم بالإيمان بعد وصف الرضا .

وكذلك جعل لقمان الحكيم الرضا من شرط الإيمان لا يصلح إلاّ به ، فقال في وصيته للإيمان أربعة أركان ، لا يصلح إلا بهن كمالاً يصلح الجسد إلا باليدين والرجلين ، ذكر منها الرضا بقَدَر الله وقد روينا عن ابن مسعود : من رضي بما ينزل من السماء إلى الأرض غُفِر

له. وقال أبو الدرداء: ذروة الإيمان الصبر للحكم، والرضا بالقدر. وروى عن محمد بن حويطب عن **النبي صلى الله عليه وسلم** : مِنْ خير ما أعطى العبد الرضا بما قَسَم الله له. وفي الخبر المشهور طوبى لمن هُدِي إلى الإسلام وكان رزقه كفافاً ورضي به. وفي مثله أيضا من رضي من الله عز وجل بالقليل من الرزق رضي الله منه بالقليل من العمل. وقد روينا عن **النبي صلى الله عليه وسلم** حديثاً من طُرق أهل البيت: إذا أحب الله عبدا ابتلاه، فإن صبر اجتباه، وإن رضي اصطفاه. فالرضا عن الله عز وجل، والرحمة للخلق، وسلامة القلب والنصيحة للمسلمين، وسخاوة النفس مقام الأبدال من الصدّيقين. وقد روينا في أخبار **موسى عليه السلام** أن بني إسرائيل قالوا سل ربك أمراً إذا فعلناه يرضى به عنا، قال موسى إلهي قد سمعت مايقولون، فقال ياموسى قل لهم يرضون عني حتى أرضى عنهم. ويشهد لهذا الخبر المروى عن نبيّنا صلّى الله عليه وسلم: من أحب أن يعلم ماله عند الله فلينظر ماللّه عنده، فإن الله ينزل العبد من بحيث أنزله من نفسه. وقد جاء في فرض الرضا قول **النبي صلى الله عليه وسلم**: أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا. وقرن **لقمان** الرضا بالتوحيد، فقال في وصيته لابنه أوصيك بخصال تقربك إلى الله، وتباعدك من سخطه: **الأولى** تعبد الله لا تشرك به شيأ، **والثانية** الرضا بقدَر الله فيما أحببت وكرهت. وقال في وصيته ومَن يتوكل على الله ويرضى بقدر الله، فقد أقام الإيمان، وفرّغ يده ورجليه لكسب الخير، وأقام الأخلاق الصالحة التي تُصلح للعبد أمره. فمن الرضا سرور القلب بالمقدور في جميع الأمور، وطيب النفس وسكونها في كل حال، وطمأنينة القلب عند كل مُفزِع مُهلِع من أمور الدنيا، وقناعة العبد بكل شيء،واغتباطه بقسمة ربه، وفرحه بقيام مولاه عليه، واستسلام العبد للمولى في كل شيء،ورضاه منه بأدنى شيء، وتسليمه له الأحكام والقضايا باعتقاد حُسن التدبير وكمال التقدير فيها، ولتسليم العبد إلى مولاه مافي يديه رضاً بحكمه عليه، وأن لا يشكو الملك السيد إلى العبد المملوك، ولا يتبرم بفعل الحبيب، ولا يفقد في كل شيء حُسن صنع القريب.

ومن الرضا عند أهل الرضا أن لا يقول العبد هذا يوم شديد الحر ، ولا هذا يوم شديد البرد، ولا يقول الفقر بلاء ومحنة، والعيال همّ وتعب، والاحتراف كد ومشقة، بل يرضى القلب ويسلّم، ويسكن العقل ويستسلم، بوجود حلاوة التدبير واستحسان حكم التقدير، كما قال **عمر بن عبد العزيز**: أصبحت ومالي سرور إلاّ في انتظار مواقع القدَر. وقال **ابن مسعود**:

الفقر والغنى مطيتان ماأبالى أيهما ركبت، إنْ كان الفقر فإنّ فيه الصبر، وإنْ كان الغنى فإنّ فيه البذل. وقال **أحمد بن أبى الحوارى**: قلت لأبى سليمان إنّ فلانا قال وددت أنّ الليل أطول مماهو، فقال قد أحسن وقد أساء، أحسن حيث تمنّى طوله للعبادة، وأساء إذا لم يحب مالم يحب الله. وروى عن **عمر بن الخطاب** رضى الله عنه: ما أبالى على أى حال أصبحت وأمسيت من شدةٍ أو رخاء. وقال ذات يوم لامرأته **عاتكة** وقد غضب: والله لأسوءنّك. فقالت أتستطيع أن تصرفنى عن الإسلام بعد أن هدانى الله له؟ قال لا، قالت فأى شىء تسوءنى إذاً؟ وقال **سفيان الثورى** يوما عند **رابعة** اللهم ارض عنا، فقالت أما تستحي من الله أنْ تسأله الرضاوأنك غير راض عنه، فقال استغفر الله. قال جعفر فقلت لها متى يكون العبد راضيا عن الله تعالى، فقالت إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة. وقال **فضيل بن عياض**: إذا استوى عنده المنع والعطاء فقد رضى. ويقال أكثر الناس هَمّاً فى الدنيا أكثرهم همّا فى الآخرة، وأقلّهم همّاً فى الدنيا أقلّهم همّا فى الآخرة. وروينا عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم**: الإيمان بالقَدَر يُذهب الهمّ والحَزن.

واعلم أن الفرح بالدنيا يُخرج همّ الآخرة من القلب، والغمّ على الدنيا يحجب عن الحُزن على فوْت الآخرة. وذُكر عند **رابعة** عابدٌ له عند الله منزلة، وكان قوته ما يُقمّ من مزبلة لبعض ملوكهم، فقال رجل عندها فما يُضرّ هذا إذا كانت له عند الله منزلة أن يسأله فيجعل قوته فى غير هذا، فقالت له اسكت يابطّال، أماعلمت أن أولياء اللهّ هم أرضى عنه أنْ يتخيروا عليه أن ينقلهم من معيشة حتى يكون هو الذى يختار لهم؟ وقال **أحمد بن أبى الحوارى**: قال لى **أبو سليمان** إن الله تعالى من كرمه قد رضى من عبيده بما رضى العبيد من مواليهم، قلت وكيف ذلك، قال أليس مراد العبد من الخلق أن يرضى عنه مولاه، قلت نعم، قال فإن **محبة الله من عبيده أن يرضوا عنه**.

وقال **الأعمش**: قال لى أبو وائل ياسليمان نِعْمَ الرب ربنا لو أطعناه ماعصانا. وقال الله عز وجل فى معناه ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات، أى يعطيهم ويستجيب لهم، والاستجابة الطاعة كقوله تعالى فليستجيبوا لى، فلما استجابوا له استجاب لهم، أطاعوه فيما أحب فأطاعهم فيما يحبون. وهذا أحد وجهى الآية كقوله تعالى وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم.

وقال **الفضيل**: من أطاع الله تعالى أطاعه كل شىء، ومن خاف من الله خاف منه كل

شيء. وفي أخبار موسى عليه السلام: يارب دلني على أمر فيه رضاك حتى أعمله، فأوحى الله تعالى إليه أن رضاى فى رضاك بقضائى. وقد يروى على وجه آخر أن بنى إسرائيل سألوا موسى فقالوا: علمنا فى أى شىء رضا ربنا لفعلناه، فأوحى الله إليه قل لهم رضاى فى رضاهم بقضائى. وفى مناجاة موسى عليه السلام: يارب أى خلقك أحب إليك، قال من إذا أخذت منه المحبوب سالمنى، قال فأى خلقك أنت عليه ساخط، قال من يستخيرنى فى الأمر فإذا قضيت له سخط قضائى. وقد ورد أشد من هذا كله أن الله تعالى قال: أنا الله الذى لا إله إلا أنا، من لم يصبر على بلائى، ويرض بقضائى، ويشكر نعمائى، فليتخذ رباً سواى. وقد رويناه عن النبى صلى الله عليه وسلم من طريقٍ ومثله فى الشدة، يقول الله تعالى: قدّرتُ المقادير ودبّرتُ التدبير، وأحكمْتُ الصُنْع، فمن رضى فله الرضا منى حين يلقانى، ومن سخط فله السخط منى حين يلقانى. وفى الخبر أوّل ماكتَبَ لموسى عليه السلام: إنى أنا الله لا إله إلا أنا، من رضى بحكمى واستسلم لقضائى وصبر فى بلائى، كتبتُه صديقاً وحشرته مع الصدّيقين يوم القيامة. وروينا فى الخبر المشهور بمعناه يقول الله جلّ جلاله: قدّرت الخير والشر وأجريتهما على أيدى عبادى، فطوبى لمن خلقتُه للخير وأجريتُ الخير على يديه، وويلٌ لمن خلقته للشر وأجريت الشر على يديه، وويلٌ ثم ويلٌ لمن قال لِمَ وكيف.

وقال أبو محمد سهل حظ الخلْق من اليقين على قدر حظهم من الرضا، وحظهم من الرضا على قدر عيشهم مع الله. وروى عطية عن أبى سعيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن الله بحكمه وجلاله جعل الروح والفرح فى الرضا واليقين، وجعل الغم والحزن فى الشك والسخط. ومن الرضا أن لا تذمّ شيئاً مباحا ولا تعيبه إذا كان بقضاء مولاه، مشاهداً للصانع فى جميع الصنعة، ناظراً إلى إتقان الصُنع والحكمة، وإن لم يخرج ذلك عن معتاد المعقول والعادة. وبعض العارفين يجعل هذه الأشياء فى باب الحياء من الله عز وجل، ومنهم من يقول هى من حُسن الخُلُق مع الله تعالى، ومنهم من جعله من باب الأدب بين يدّى الله، فإذا كان هذا كذلك كان ذم الأشياء التى أبيحت وعيبها من سوء الخلق مع الله، وكانت من سوء الأدب بين يدّى الله. وأعظم من ذلك أنها تدخل فى باب قلة الحياء من الله. ويصلح أن يكون هذا أحد معانى الخبر الذى جاء قلة الحياء كفر، يعنى كفر النعمة، بأن يذم ويعيب بعض ما أنعم الله به عليه من الأرفاق والألطاف، إذا كان فيها تقصير عن تمام مثلها أو كانت مخالفة لهواه منها، فيكون ذلك كفراً للنعمة وقلة حياء العبد من المنعم، إذ قد أمره بالشكر

على ذلك فبدّل الشكر كفراً، لأن أحداً لواصطنع لك طعاما فعبته وذممته كره ذلك منك، فكذلك تعالى يكره ذلك منك. وهذا داخل فى معرفة معانى الصفات، وفى معنى ماقيل أعرفكم بربه أعرفكم بنفسه، لأنك إذا عرفتَ صفات نفسك فى معاملة الخلْق، عرفتَ منها صفات خالقك. وبعض الراضين يجعل ذمّ الأشياء وعيبها بمنزلة الغيبة لصانعها، لأنها صنْعتُه ونتاج حكمته ونفاذ علمه وحكم تدبيره وتدبير مقاديره، لأنه أحكم الحاكمين وخير الرازقين وأحسن الخالقين، له فى كل شىء حكمة بالغة، وفى كل صنعة صُنعٌ متقن، ولأنك إذا عبتَ صَنعة أحد وذممتها سرىَ ذلك إلى الصانع، لأنه كذلك صنعها، وعن حكمته أظهرها، إذ كانت الصَنعة مجبولة لم تصنع نفسها ولا صُنْع لها فى خِلقْتها. وكان الورعون لا يعيبون صنعة عند كراهة الغيبة له، وذلك أن الراضى عن اللّه متأدّب بين يدّى اللّه يستحي أن يعارضه فى داره أو يعترض عليه فى حكمه، فصاحب الدار يصنع فى حكمه ماشاء، والحاكم يحكم بأمره كيف شاء، والعبد راض لصنع سيده مسلّم لحكمة حاكمه. وروى فى الإسرائيليات أن **عيسى عليه السلام** مرّ مع نفر من أصحابه بجيفة كلب فغطّوا آنافهم، وقالوا أف إفٍ ما أنتن ريحه، فلم يخمر عيسى عليه السلام أنفه وقال ماأشد بياض أسنانه، أراد أن ينهاهم بذلك عن الغيبة ويعلمهم ترك عيب الأشياء، كيف هو يرى بعين نفسه أن الصنعة من صانعها فهو يقلبها ويصرفها على معانى نظره. وروينا عن **رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم** أنه ماعاب طعامًا قط، إنْ اشتهاه أكله وإلاّ تركه. وقال **أنس**: خدمتُ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم عشر سنين، ليس كل امرىء كما يريد صاحبى، ماقال لى لشىء فعلته لِمَ فعلته، ولا لشىء لم أفعله ألا فعلته، ولا قال فى شىء كان ليته لم يكن، ولا لشىء لم يكن ليته كان، وكان يقول لو قضى شىء لكان. وهذا وصف الراضى الموقن القائم بشهادته، فبالنظر فى هذه الدقائق والوقوف عندها رُفِع القوم عند اللّه إلى مقام المقربين، وبالتهاون بها والغفلة عنها نغَلت القلوب ففسدت حتى لم تصلح للمحبة والرضا.

وأعمال طُلاّب الرضا من اللّه مضاعفة على أعمال المجاهدين فى سبيل اللّه، لأن أعمال المجاهدين تضاعف إلى سبعمائة ضعف، وتضعيف طالبى الرضا لا تُحصَى. قال اللّه تعالى واللّه يضاعف لمن يشاء، وقال تعالى فيضاعف له أضعافا كثيره، قيل الحسنة إلى ألفى حسنة، وقد قال سبحانه ومَثَل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات اللّه وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة، فكم فى هذه الجنة من سنبلة وحبة، فهؤلاء الذين قال واللّه يضاعف لمن يشاء ،هم أهل

الرضا عنه، وهم الذين أقرضوا الله قرضا حسنا لأجله، فضاعفه لهم أضعافا كثيرة، فمن عقل عن الله حكمته كان مع الله تعالى فيما حكم، مسلماً له ماشهد، لأنه سبحانه باختياره أنشأ الأشياء، وبمشيئته أبداها وعنه يتصرف المقدور، وإليه عواقب الأمور، لا يكون مع نفسه فيما يهواه، ولامع معتاده وعُرفه فيما يعقل. وقال بعض العارفين قد نلت من كل مقام حالا إلا الرضا فما لى منه إلاّ مُشَام الريح، وعلى ذلك لو أدخَلَ الخلائق كلهم الجنة وأدخلنى النار لكنت بذلك راضيا. وقيل لعارف فوقه، نلت غاية الرضا عنه، فقال الغاية لا، ولكنْ مقام من الرضا قد نلته، حتى لو جعلنى جسرا على جهنم يعبر الخلائق علىّ إلى الجنة، ثم ملأ بى جهنم تحلّة لِقَسَمه، وبدلاً من خليقته، لأحببت ذلك من حكمه ورضيتُ به من قَسَمه.

ويقال إنّ بعض هذه الطائفة ضاع ولده - وكان صغيرا - ثلاثة أيام لا يعرف له خبرا، فقيل له لو سألت الله أنْ يرده عليك، فقال اعتراضى عليه فيما قضى أشد من ذهاب ولدى. وقد روينا عن بعض العباد أنه قال أذنبت ذنبا فأنا أبكى عليه منذ ثلاثين سنة، وكان قد اجتهد فى العبادة لأجل التوبة من ذلك الذنب. قيل له وماهو، قال قلت مرة لشىء قضاه الله ليته لم يقضه. وحدثونا عن **بشر الحافى** قال: رأيت بعبادان رجلا قد قطعه البلاء، وقد سالت حدقتاه على خَديه، وهو فى ذلك كثير الذِكْر عظيم الشكر لله. قال وإذا هو قد صُرِع من حبه به. قال فوضعت رأسه فى حجرى، وجعلت أسأل الله عز وجل كشف مابه وأدعو له، فأفاق فسمع دعائى، فقال مَن هذا الفضولى الذى يدخل بينى وبين ربى ويعترض عليه فى نِعَمه علَى، قال ونحّى رأسه. قال بشر فاعتقدت أن لا اعترض على عبد فى نعمة أراها عليه من البلاء.

وكذلك قال **أبو سليمان الدارانى**: ثلاث مقامات لاحدّ لها: الزهد والورع والرضا. وخالفه **سليمان** ابنه وكان عارفا، ومن الناس من كان يقدمه على أبيه، فقال بلى، من تورع فى كل شىء فقد بلغ حد الورع، ومن زهد فى كل شىء فقد بلغ حد الزهد، ومن رضى عن الله فى كل شىء فقد بلغ حد الرضا، ولا يُنقص الراضى من مقام الرضا مسئلة مولاه مزيد الآخرة وصلاحَ الدنيا، تعبّداً بذلك وافتقاراً إليه فى كل شىء، لأن فى ذلك رضاه ومقتضى تمدحه بمسئلة الخلائق له، فإن صَرَف مسائله إلى طلب النصيب من المولى وابتغاء القرب منه حباً له، وآثره على ماسواه، كان فاضلا فى ذلك، لأنه قد ردّ قلبه إليه وجمع همّه بذلك، وهذا على قدر مشاهدة الراضى عن معرفته وهو مقام المقربين.

وللعلماء مسئلة قد اختلفوا فيها فى أهل المقامات: ثلاث أيهم أفضل - عبدٌ يحب الموت شوقا إلى لقاء الله، وعبدٌ يحب البقاء للكد والخدمة للمولى، وعبدٌ قال لا أختار شيأً بل أرضى ما يختار لى مولاى، إنْ شاء أحيانى أبدا وإنْ شاء أماتنى غدا، قال فتحاكموا إلى بعض العارفين فقال: صاحب الرضا أفضلهم لأنه أقلهم فضولا. وهذا كما قاله فى الاعتبار بترك الاعتراض والاختيار، لأنه دخل فى الدار بغير اختيار، وكذلك يكون خروجه منها على معنى دخوله بلا اختيار، لأن مقام الرضا أعلى من مقام التشوق، ثم الذى يليه فى الفضل الذى يحب الموت شوقاً إلى لقاء الله، وهذا مقام فى المحبة وفى حقيقة الزهد فى الحياة. وفى الخبر مَن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، والذى يحب البقاء للخدمة وكثرة المعاملة هو فاضل بعد هذين، مقامه قوّة الرجاء وحسن الظن فى العصمة، وله أيضا مطالعات من الأنس وملاحظات فى القرب، به طاب مقامه، وعنده سكنت نفسه وقصرت أيامه. وقد قال **رسول الله صلى الله عليه وسلم** أفضل المؤمنين إيمانا، أو قال أكمل المؤمنين إيمانا، من طال عمره وحَسُنَ عمله، هذا لأن الأعمال مقتضى الإيمان، إذ حقيقة الإيمان إنما هو قول وعمل، وليس بعد هؤلاء مقام يُفرح به، ولا يُغبط صاحبه عليه، ولا يوصف بمدح، إنما هو حب البقاء لمتعة النفس وموافقة الهوى. وقد تشرف النفس على الضعفاء من أهل هذا الطريق ويختفى فيها علة، وهو أن يحب البقاء لأجل النفس والمتعة بروح الدنيا وما طُبعت عليه من حب الحياة وتَكَرّه الموت لمنافرة الطبع ولطول الأمل، فيتوهم أنه ممن يحب البقاء لأجل الله وطاعته، وهذا هو من الشهوة الخفية التى لا يُخرجها إلاّ حقيقة الزهد فى الدنيا، ولا يفضل فى هذا الطريق الثالث إلاّ عارف زاهد دائم المشاهدة باليقين، فأمّا المعتل بوصفه وهواه فليس يقع به اعتبار فى طريق ولا مقام.

واجتمع ذات يوم **وهيب بن الورد وسفيان الثورى ويوسف بن أسباط** فقال الثورى قد كنت أكره موت الفجأة قبل اليوم، فأمّا اليوم فوددت أنى مت، فقال له يوسف ولِمَ، قال لما أتخوف من الفتنة، فقال يوسف لكنى لا أكره طول البقاء، فقال الثورى ولِمَ تكره الموت، قال لعلّى أصادف يوما أتوب فيه وأعمل صالحا، فقيل لوهيب أى شىء تقول أنت، فقال أنا لا أختار شيأ. أحَبُّ ذلك إلىّ أحبُّه إلى الله، قال فقبّل الثورى ما بين عينيه وقال روحانية ورب الكعبة. يعنى مقام الروحانيين وهم المقربّون أهل الروح والريحان وأولو المحبة والرضوان كما قال تعالى فروْح وريحان، يعنى لهم ريح من نسيم القرب وريحان من طيب الحب. وأيضا أنه

تعالى لمّا ذكر أن لأصحاب اليمين فى كلٍ شدة وهول سلامة، وكان المقربون هم الأعلون، كان أيضا فيما دلّ الفهم عليه أنّ للمقربين من كل هول روحاً به لشهادتهم القريب، وفى كل قرب منه ريحان لقرب الحبيب، فبذلك علوا، وبذلك فُضّلوا. وهكذا قال بعض الصوفية سرّ العارف فى الأشياء واقف مثل الماء فى البئر لا يختار المقام، وإنْ أُخرج خرج. فإنْ نمّ هذا الراضى ما نمّه الله وكره ما كرهه الله لم يُنقص ذلك رضاه، وكان محسنا فى فعله لموافقته مولاه، وإن لم يرض بحاله نَقُصَ فى الدين والآخرة، أو كره مزيد الدنيا من الكثرة والجمع والادخار لم يقدح ذلك فى رضاه، لأنه من التحقق بالزهد وهو فى جميع ذلك موافق للعلم، والله تعالى أعلم بأحكامه من العبد وأغيْر على نفسه من الغير، وأعلى مشاهدة من الخلق، له المثل الأعلى، فهو على ذلك يشهد أحكامه ويذم المحكوم عليه إذ تعدى حدود أمره، وينفذ علمه بمشيئته ويمقت العاصين له باجتراح نهيه، حكمةً منه وعدلا، كما أنه يشهد يده فى العطاء بمدح المنفقين، ويمضى إرادته بالقضاء بتوفيقه، ويشكر العاملين كرماً منه وفضلا. كذلك الراضى عنه موافقٌ فيما حكم، ومتبعٌ له فيما رسم، ومسلّمٌ له فيما قدّر، وعالم منه راض بما دبّر، ومستعمل لما شرع، ومواطىء لرسوله يذم ما نمه مولاه، ويمدح ما مدحه لأجل مولاه لا لأجل نفعه إياه. والتحدث بالأوجاع والإخبار عن المصائب لا يُنقص حال الراضى إذا رآها نعمة من الله عليه، وكان القلب مسلّما راضيا غير متسخّط ولا متبرّم بمر القضاء.

وأوّل الرضا الصبر ثم القناعة ثم الزهد ثم المحبة ثم التوكل، فالرضا حينئذ حال المتوكل، والتوكل مقام الرضا. وقال **فضيل** إذا استوى العطاء والمنع عند العبد فهو الرضا. وقال غيره إذا لم يختلف قلبه فى العدم والوجود، وفى الصحة والسُقم فقد رضى. وقال **الثورى** مَنْعُ الله عطاءٌ ،لأنه يمنع من غير بُخل ولاعدم، فمنُعه اختيار وحُسن نظر، وهذا كما قال لأن حقيقة المنع إنما يكون لمن لك عنده شىء فمنعك، أو تستحق عليه شيأ فلم يعطك، فأما من لا تستحق عليه شيأ، أو لا لك معه شىء، لأنه الأول قبل كل شىء، والمُظهر لكل شىء، والمالك لما أظهر، والمختار لما خلق، وليس لأحد من خلْقه اختيار، ولا فى حكمه اشتراك، فكل شىء اختاره فهو عطاء منه على تفاوت مقادير، وضروب أحكام وتصاريف تدبير، فالصبر على الأحكام مقام المؤمنين، والرضا بها مقام الموقنين، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون، واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين.

واعلم أن الرضا فى مقامات اليقين وأحوال المحبين ومشاهدة المتوكلين، وهو داخل فى كل أفعال الله سبحانه لأنها عن قضائه، لا يكون فى ملكه إلا ماقضاه فعلَى العارفين به الرضا بالقضاء، ثم يردّ ذلك إلي تفصيل العلم وترتيب الأحكام، فما كان من خير وبرّ أمر به أو ندب إليه، رضى به العبد وأحبه شرعا وفعلا، ووجب عليه الشكر، وما كان من شرٍ نهى عنه وتهدّد عليه، فعلى العبد أن يرضى به عدلاً وقدَرا، ويسلمه لمولاه حكمة وحكما، وعليه أن يصبر عنه ويقرّبه ذنباً، ويعترف به لنفسه ظلما، ويرضى بعود الأحكام عليه بالعقاب وأنه اجترحه بجوارحه اكتسابا ورضاً بأن لله الحجّة البالغة عليه، وأنْ لا عذر له فيه، ويرضى بأنه فى مشيئة الله عز وجل من عفو عنه برحمته وكرمه إن شاء، أو عقوبة له بعدله وحقه إنْ شاء. وفصل الخطاب أنه يرضى بسوء القضاء عقداً لا من نفسه فعلاً، ويرضى به عن الله ولا يرضى به من نفسه، لأن الموقنين والمحبين لا يسقطون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ولا ينكرون إنكار المعاصى وكراهتها بالألسنة والقلوب من قِبَل أنّ الإيمان فرضَهَا، والشرع وَرَد بها، ولأن الحبيب كرهها. فكانوا معه فيما كره كما كانوا معه فيما أحب. ومقام اليقين لا يسقط فرائض الإيمان، ومشاهدة التوحيد لا تبطل شرائع الرسول ولا تسقط اتباعه، فمن زعم ذلك فقد افترى على الله ورسوله وكذب على الموقنين والمحبين. ألم تر أن الله تعالى ذمّ قوما رضوا بالدنيا ورضوا بالمعاصى ورضوا بالتخلف عن السوابق، فقال سبحانه رضوا بالحياة الدنيا وأطمأنوا بها، فذمّهم بذلك. وقال تعالى ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه، وليقترفوا ماهم مقترفون، فعابهم به. وقال تعالى رضوا بأن يكونوا مع الخوالف، يعنى النساء وهذا جمع التأنيث، وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون، فمن رضى بالمعاصى والمناكير منه أو من غيره و أحب لأجلها ووالى ونصر عليها، أو ادّعى أن ذلك فى مقام الرضا الذى يجازى عليه بالرضا، أو أنه حال الراضين الذين وصفهم الله تعالى ومدحهم، فهو مع هؤلاء الذين ذمّ الله ومقت. وفى الخبر: الدالُّ على الشر كفاعله. وعن **ابن مسعود** إنّ العبد ليغيب عن المنكر ويكون عليه مثل وزر فاعله، قيل وكيف ذلك، قال يبلغه فيرضى به. وقد جاء فى الحديث لو أنّ عبداً قُتل بالمشرق ورضى بقتله آخر بالمغرب كان شريكه فى قتله. وقد روينا حديثا حَسَنا عن **النبى صلى اللهّ عليه وسلم** من طريق مُرسَل، من نظر إلى مَن فوقه فى الدين وإلى من دونه فى الدنيا كتبه الله صابرا شاكراً، ومن نظر إلى من دونه فى الدين ومن فوقه فى الدنيا لم يكتبه الله صابرا ولا شاكراً.

وقد غلط فى باب الرضا بعض البطّالين من المتأخرين ممن لا علم له ولا يقين، فحمل الرضا على جميع ما يكون منه من معصية وهوى، لجهله بالتفصيل وقلة فهمه بعلم التأويل،ولاتّباعه ما تشابه من التنزيل طلبا للفتنة وغُربة الحال، وابتداعا فى القول والفعال،وبطلان قول هذا عند العلماء أظهر من أن يدل على فساده، والاشتغال بالبَطّال بِطالة، وإنما الرضا فيما كان غير مخالفة اللّه ولا معصية، مثل مايكون من نقص الدنيا ونقص الأموال والأنفس من الأهل والولد، وفيما على النفس فيه مشقة ولها منه كراهة، وفيما كان مزيداً فى الآخرة لا عقوبة فيه من اللّه ولا وعيد عليه ولانم لفاعليه. وقد يحتج أيضا بطّال لبخله وقلة مواساته وبذله، أو يعتل لاتساعه فى أمر الدنيا واستئثاره على الفقر، أن الذى يمنعه من البذل والإيثار والزهد فيما فى يديه والإخراج، رضاه بحاله وقلة اعتراضه على مُجريه فيه، وأنّ هذا مقام من مقامات الرضا خُصّ به عند نفسه. وهذا قول لاعب ذى هوى، وهو من خدع النفوس وأمانيها، ومن غرور العدوّ ومكايده، لأن الرضا لا يمنع من اختيار الفقر والضيقة لمعرفة الراضى بفضل الزهدوأوصافه كيف يكون، فالراضى لا يأمر بالاستيثار والاتساع لما كره من النعمة والاستكثار، لأن الرضا لا يوقفِ عما نُدب العبد إليه، ولا يحمل على ما كُره له. وهذا اعتذار من النفس وتمويه على الخلق ليسلم منهم، ولا عذر بهذا عند مالكه، ولاسلامة له فيه من خالقه.

ومجمل ماذكرناه أنّ الرضا لا يصح إلاّ فيما يحسُن الصبر عليه والشكر عليه، لأن الرضا مقام فوق الصبر والشكر ومزيد الصابرين والشاكرين، فأما إنْ كان العبد على نقصان من الدين وفى مزيد من الدنيا ثم رضى بحاله، فرضاه بحاله شر من أعماله لمخالفة الأمر. قال اللّه عز وجل اتقوا اللّه وابتغوا إليه الوسيلة، وقال تعالى يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب. وقال تعالى سابقوا إلى مغفرة من ربكم. وسارعوا إلى مغفرة من ربكم، وقال تعالى وفى ذلك فليتنافس المتنافسون. وقال تعالى يسارعون إلى الخيرات وهم لها سابقون. فندب إلى المسارعة والسوابق،وذمّ التخلف عنها والتثبطّ بالعوائق، فعلى هذا طريق المؤمنين، وفيه مقامات الموقنين، وإنما كان سبب ترك **سرى السقطى** السوق وزهده فى الدنيا قوله الحمد للّه لأنها كلمة رضا ظهرت منه فى موضع الاسترجاع للمصيبة، وذلك أنه بلغه أن الحريق وقع فى سوقه فأحرق دكانه، فخرج فى قِطْع من الليل فاستقبله قوم فقالوا ياأبا الحسن احترقت دكاكين الناس إلا دكانك، فقال الحمد للّه، ثم تفكّر فى ذلك فقال قلت الحمد للّه فى سلامة

مالى وهلُك أموال إخوانى المسلمين، فتصدّق بجميع ماكان فى دكانه من السَقط والآلة كفارةً لكلمته هذه، وخرج من السوق فشكر اللّه له فعله، فزهّده فى الدنيا ورفعه إلى مقام المحبة، فأوصله ترك الرضا إلى الرضا. وبلغنى عنه أنه كان يقول قلت كلمة فأنا أستغفر اللّه منها ثلاثين سنة، يعنى قوله الحمد للّه. وقد جاء فى الخبر من لم يهتم بأمر المسلمين فليس من المسلمين.

وفى الخبر المشهور أوثق عُرَى الإيمان الحب فى اللّه والبُغض فيه، فجعل ذلك من أوثق العُرَى لأنه منوط بالإيمان لا يستطيع الشيطان حلّه ولا سلطان له عليه، كما لا سبيل له على حل عَقْد الإيمان لأن اللّه يحول بينه وبينه. وفى الحب فى اللّه الولاة والنُصرة بالنفس والمال والفعل والمقال، وفى البُغض فى اللّه ترك ذلك. فبُغض المبتدع والفاجر المجاهر والظالم المعتدى وترك موالاتهم ونُصرتهم واجب على المؤمنين، فلأجل ذلك صارت الموالاة لأولياء اللّه والمعاداة لأعدائه من أوثق عرى الإيمان، لأنك قد تعصى وتخالف مولاك بتسليط العدوّ وغلبة هواك، إلاّ أنك تبغض العاصين ولا تواليهم على المعاصى ولا تحبهم لأجلها، من قِبَل أن العدو لم يُسلّط على حلّ عقْد إيمانك كما سلّط على حل المراقبة والخوف منك. ولم يسلط أيضا عليك فى استحلال المحارم ولا استحسانها ولا التدين بها، ولا فى ترك التوبة منها ولا بالرضا بها، كما سلط عليك باقترافها. فإنْ سلّط على مثل هذا منك العدو حتى تحب الفسّاق وتواليهم وتنصرهم على فسقهم، أو تستحل ما ارتُكب من الحرام أو ترضى به أو تدين به، فقد انسلخ منك الإيمان كما انسلخ النهار من الليل، فلست منه فى كثير ولا قليل لأن هذه العقود منوطة بعرى الإيمان، وهى هو فى قرن واحد مقترنان. ألم تسمع اللّه تعالى يقول لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من اللّه فى شىء؟ أو ماسمعته تعالى يقول لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم. ومثله لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، أتريدون أن تجعلوا للّه عليكم سلطانا مبينا، أى حجة قاطعة، أن يجمعكم وإياهم فى النار. وكذلك قال اللّه تعالى وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض واللّه ولى المتقين. وقال تعالى وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون، ثم قال تعالى ويتبع غير سبيل المؤمنين نولّه ماتولّى ونُصلِه جهنم.

وقد روينا فى خبرأن الله تعالى أخذ على كل مؤمن فى الميثاق أن يبغض كل منافق، وأخذ على كل منافق أن يبغض كل مؤمن. وفى الخبر المشهور المرء مع من أحب وله ما احتسب. وفى حديث آخر من أحب قوما ووالاهم فى الدنيا جاء معهم يوم القيامة وفى معنى قوله أوثق عُرىَ الإيمان الحب فى الله والبُغض فيهً وجه خفى هو أن يحبك المؤمنون ويبغضك المنافقون، فيكون ذلك علامة وثيقة عرى إيمانك، لأن قوله الحب فى الله يصلح أن يبغضك المنافقون كما تبغضهم أنت، فكأنك تتحبب إلى المؤمنين حتى يحبوك وتتبغض الى المنافقين حتى يبغضوك، بإظهار التباعد عنهم وبترك المبالأة لهم، وبنصحك إياهم، فيدل ذلك على قوة إيمانك، لم تأخذك فى الله لومة لا ئم منهم. كما وصف تعالى بذلك من يحبهم ويحبونه، ويكون ذلك أبعد لك من المداهنة والنفاق وأقرب إلى الورع والإخلاص، فإذا فعلت ذلك بهم أبغضوك أو مقتوك، فهذا على معنى ماقال الله سبحانه أشداء على الكفار رحماء بينهم، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين. وكما أمر نبيه عليه السلام فى قوله تعالى قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة. وروى عن **عيسى عليه السلام** أن الله عز وجل قال أحَبّ عبادى إلىّ الذين يذكرونى بالأسحار ويُبغّضون إلىّ الفجار، معناه أن يظهر لهم البغض وينابذهم العداوة حتى يبغضوه، فإذا أبغضوه أبغضهم الله، فيكون قد بغّضهم إليه بهذا المعنى، أى كان سبب عقوبة لهم بالبغض والمقت.

وقد كان **الثورى** يقول إذا رأيت الرجل محببا إلى جيرانه فاعلم أنه منافق. وقال **كعب الأحبار** لأبى إدريس الخولانى، وكان من علماء الشام، كيف أنت فى قومك، قال يحبونى ويكرمونى، قال كعب ماصدَقَتنى التوراة إذن، قال ومافى التوراة، قال أجد فى التوراة أن الرجل العالم لايحبه جيرانه. وقال بعض المريدين قلت لبعض أهل المعرفة إنى كثير الغفلة عن الله قليل المسارعة إلى مرضاته، أوصنى بشىء أعمله أدرك به مايفوتنى من هذا، قال يا أخى إن استطعت أن تتحبب إلى أولياء الله وتتقرب من قلوبهم فافعل لعلهم يحبونك، فإن الله عز وجل ينظر إلى قلوب أوليائه فى كل يوم سبعين نظرة، فلعله أن ينظر إليك فى قلوبهم لمحبتهم لك فيجيرك حيرة الدنيا والآخرة إذا لم تكن ممن ينظر إليه كفاحاً. وكذلك يقال إن الله تعالى عز وجل ينظر إلى قلوب الصدّيقين والشهداء مواجهة، ثم ينظر إلى قلوب قوم فى قلوب قوم، وإلى قلوب قوم من قلوب آخرين.

فهكذا عندى من عزائم الدين وسبيل الورعين أن تتبّغض إلى أعدائه من المبتدعين والظالمين ليبغضوك ويمقتوك، فيكون لك من القُربة كحب أوليائه لك وحبك لهم، فهذا من أسباب ولاية الله. وقد روينا عن النبىّ صلى الله عليه وسلم: اللّهم لاتجعل لفاجر عندى يداً فيحبه قلبى. ووصل بعض الأمراء أبا هريرة بألف دينار وعشرة أثواب فردّها عليه، وقال ماكنت لأقبل منه، يأخذ المال من غير حلّه ويضعه فى غير حقه. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ردّوا هدية الفاجر عليه، لايرى أنكم ترضون عمله.

والمداهنة والممالأة من أكبر أبواب الدنيا، وقد جعل الله تعالى من يسارع بالإدهان وإظهار المتابعة للظالمين خشية دوْر الدوائر عليه علَمْين من أعلام النفاق، فقال سبحانه ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويؤمنوا قومهم، كلما رُدوا إلى الفتنة أُركِسوا فيها. وقال تعالى فى المعنى الثانى فترى الذين فى قلوبهم مرض، يعنى المنافقين، يسارعون فيهم، يعنى يواطئون الكافرين سراً، يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة، أى نخاف أن تكون الدولة للكافرين على المؤمنين. قال الله تعالى فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده الآية. فينبغى لمن آمن فى المؤمنين وأهل السنة وأحبوه أن يخاف فى المنافقين وأهل البدع، وأن يبغضوه.وينبغى لمن سارع فى مواطئة المؤمنين أن ينىء ويبطىء فى مداهنة الظالمين ومتابعتهم حتى يخلص له إيمانه من النفاق وتستقيم طريقه من الضلال. وقد نفى الله الإيمان عمن أحب من حادّه، وأثبت الإيمان والتأييد باليقين لمن أبغض فيه أعداءه، فقال تعالى لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله الآية.

فأما من قال من الجاهلين بأن الرضا قد يكون بالمعاصى منه أو من سواه كما يكون فى الطاعات، فقد جعل المعاصى والمخالفات من القُرُبات وسوّى بينهما، وفى هذا هدم شرائع الأنبياء وإبطال تفصيل الله ماأحل لنا مما حرّم علينا، وما أمرنا به مما نهانا عنه. وقد روى فى خبرٍ من شر الناس منزلةً عند الله من يَقتدى بسيئة المؤمن ويترك حسنته. وقال بعض العلماء من حَمَلَ شاذّ العلماء فقد حمل شراً كثيرا. ومن حُسن الأدب فى المعاملة إذا عملتَ صالحا فقل ياسيدى أنت استعملتنى، وبحولك وقوتك وحُسن توفيقك أطعتك، لأن جوارحى جنودك. وإذا عملت سيأ ظلمت نفسى، وبهواى وشهوتى اجترحت جوارحى وهى صفاتى. ثم يعتقد فى ذلك أنه بقَدره ومشيئته كان ماقضاه، فتكون بالمعنيين قد وافقت مرضاة مولاك،

وتكون فى الحالين عاملاً بما يرضيه بالقول والعقود، وينتفى عنك العُجب فى أعمال برّك، ويصح منك المقت لنفسك واعترافك بظلمك. وقد ثقلت هذه المشاهدة على الجاهل، فإذا عمل حسنا شهد نفسه ونظر إلى حوله وقوّته فهلك بالكِبْر وبطل عمله بالعُجب، وإذا عمل سيأ لم يعترف بالذنب ولم يُقر على نفسه بالظلم ولم تصح له توبة ولم يرض له عملا، نعوذ بالله من مشاهدة الضلال. وقال أبو محمد سهل رحمه الله تعالى إذا عمل العبد حسنة فقال يارب أنت استعملتنى شكر الله له ذلك فقال أنت عملت، فإذا نظر إلى نفسه فقال أنا عملت، يقول الله بل أنا استعملت. قال وإذا عمل سيئة فقال أنت قدّرتَ وأنت أردت، يقول الله تعالى أنت ظلمتَ وأنت عصيتَ بشهوتك هواك. فإن قال العبد ظلمتُ نفسى وعصيتُ بجهلى استحيا الله منه فقال بل أنا قدّرت وأنا قضيت، قد غفرت لك باعترافك بالظلم على نفسك. فهذه آداب العاملين ومشاهدة العالمين، وهذا داخل فى قوله أعْرفُكم بربه أعرفكم بنفسه.

فكذلك يحب ابن آدم ممن عامله الاعتراف والتواضع، وهذا أيضا أحد المعانى فى قوله تعالى وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيأ، قيل هو الاعتراف عقيب العمل السيىء لأنه قد تقدم ذكره. وفى الحديث الذى رويناه عن النبى صلى الله عليه وسلم آنفا أنه قال من نظر إلى مَن فوقه فى الدين وإلى من دونه فى الدنيا كتبه الله صابراً شاكرا. ومن نظر إلى من دونه فى الدين ومن فوقه فى الدنيا لم يكتبه صابرا ولا شاكرا، فيه أربعة معان حسان إذا تدبّرها العبد وتفكّر فيها لم يعدم أن يرى أهلها، لأنه لايخلو أن يرى بعينه أو بقلبه لسيرة المتقدمين، فيرى مَن فوقه فى باب الدنيا فيشكر الله على حاله ويقنع منه برزقه، فيكون صابراً شاكراً بمعرفة ماقنع به، ورضى باختيار ماصَرف عنه من الفضول. وروى عنه من الحساب الطويل، ولايخلو أن يرى مَن فوقه فى أمر الدين يُسارع اليه ويسابقه إذ قد نُدب إلى ذلك فيكون حضاً له وحثاً على افتعال الخيرات وأعمال الصالحات، وأقل مايفيده ذلك الإزراء على نفسه والمقت لها فى تقصيره. ثم ينظر فى الأمرين الآخرين من وجه آخر، فلا يخلو أن يرى مَن هو دونه فى الدنيا من ذوى الفاقات والحاجات فيحمد الله على تفضيله عليه وحُسن صونه له، ويشكر نعمته لفضل إحسانه وكفايته له. ويجد أيضا فى المعنى الآخر من هو دونه فى أمر الدين من الفجَرَة والظالمين وأهل البدع الزائغين فيفرح بفضل الله ورحمته، ويشكر الله على حُسن إسلامه وجميل معافاته مما ابتلَى به غيره، فيكون أيضا صابراً شاكراً. فيكون للعبد فى هذه الطبقات من الناس أربع معاملات بما وهب الله من البصيرة والاعتبار.

ويشهد لما ذكرناه قوله: لاحَسَدَ إلاّ في اثنين: رجل آتاه الله حكمة فهو يبثها في الناس ويعلّمها، ورجل آتاه الله مالاً فسلّطه على هلَكته في الحق. وفي لفظ حديثٍ آخر ورجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، فيقول الرجل أتاني الله ماأتى هذا فعلتُ كما يفعل، فنُدب إلى الحسد على أعمال البرّ، وفُضّل الحاسد لما نَدب الله إليه من المنافسة في أعمال الخير. فمن حسد على هذه المعاني من أعمال الخير كان ذلك مَزيدا له في مقام الرضا للغبطة به والطلب له، فأما من قُلبت عليه هذه المعاني فجهل عواقب الأمور وغلبت عليه الغفلة واستحوذت عليه الجهالة، فجعل ينظر إلى مَن فوقه في الدنيا فيغبطه على حاله، أو يتمنى مكانه أو يُبخله نظره إليه في استصغار نعمة الله عليه ويزدري يسير ماقسَمه الله له، ثم ينظر إلى مَن دونه في الدين من عموم المسلمين فيرضى بنقصان مقامه ويجعل ذلك معذرة له وتأسيّاً به، ويثبطه عن المسارعة إلى القربات، ولعله أن يداخله العُجب والكبر حتى يتفضّل عليه بحاله، أو ينظر إلى نفسه بأعماله لتقصير غيره عن مثل فعاله، فهذا يُكتّب جزوعا عن الصبر كفوراً لنعمه بإضاعة الشكر، لأنه ليس بصابر ولاشاكر. وهذا وصف من أوصاف المنافقين، وهو مقام الهالكين إذ الصبر والشكر من صفات المؤمنين.

وقد وُصف هذا البلد (بغداد) بمثل هذا المعنى فالله المستعان. وقد حدّثوا عن عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى أنه قال طفتُ الشرق والغرب فما رأيت بلداً شراً من بغداد. قيل وكيف ذلك يا أبا عبد الرحمن؟ قال هو بلد تُزدرَى فيه النعمة وتُستصغَر فيه المعصية. وحدثونا عنه أنه قيل له لمّا قَدِم خراسان كيف رأيت الناس ببغداد. قال مارأيت بها إلاّ شُرطياً غضبان أو تاجراً لهفان أو قارئاً حيران. وقيل إنه كان يتصدق كل يوم بدينار لأجل مقامه ببغداد إلى أن يخرج إلى مكة، فبلغني أنه كان يتصدّق بستة عشر دينارا. وقد وصفها الشافعي أنها هي الدنيا، فروينا عنه أنه قال الدنيا كلها بادية وبغداد حاضرتها. وروينا عن يونس بن عبد الأعلَى قال قال الشافعي، يا يونس رأيت بغداد؟ قلت لا، قال مارأيت الدنيا ولارأيت الناس! وقد ذمّ العراق جماعة، منهم عمر بن عبد العزيز وكعب الأحبار، فروينا عن عمر أنه قال لمولى له أين تسكن؟ قال العراق، قال ماتصنع هناك؟ بلغني أنه مامِن أحد سكن العراق إلاّ قُيّض له قرينٌ من البلاء. وذكر كعب الأحبار العراق يوما فقال: فيه تسعة أعشار الشرّ، وفيه الداء العُضال. ومن سكن بلداً كثير المنكر ظاهر المعاصي فكان منزعجاً فيه غير مطمئن إليه، يرغب إلى الله عز وجل في إخراجه منه لحُسن اختياره له، وكان مضطراً في المقام فيه لعيْلةٍ ثقيلةٍ أو قلة ذات يد، حقيقةً لا يستطيع حيلة في الخروج ولا يعرف طريقاً هو على يقين من سلامة دينه فيه، فإنه معذور عند الله لحُسن تفضّلٍ من الله، وهو أقرب إلى العفو والسلامة

ممن اغتبط بمقامه واطمأن ورضى بحاله، أو كان مقامه على هوى، أو لاختلاف أسباب الفتنة والدنيا. قال الله تعالى ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها. فى التفسير إذا كنت فى بلد يُعمل فيه بالمعاصى فتحوَّل منه إلى غيره. وقيل إذا كان العبد فى بلد من يعمل فيه بالمنكر والمعاصى أضعف أو أقل من أهل الدين والمعروف ثم لم ينكر ذلك فقد وجب الخروج منه. ثم قال عز وجل فى قوم من المستضعفين عذَرهم وأرجى إلى العفو أمرهم: والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها. وقال تعالى فى تمام وصفهم واستثنائهم من غيرهم لايستطيعون حيلة ولايهتدون سبيلا، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم.

ولايصح الرضا إلاّ بالعصمة من جميع الهوى. وأوّل الرضا **القناعة**. وقال بعض أهل المعرفة لايكون العبد قانعا حتى لو جاء إلى باب منزله جميع مايرغب فيه أهل الدنيا من الاتساع والنعمة فعُرض عليه، لم ينظر إلى ذلك ولم يفتح بابه قناعة منه بحاله. **والعصمة** حال الراضى عن الله عز وجل، وهى ظاهر الرحمة، والرحمة أول الرضا من الله تعالى. قال الله سبحانه وتعالى إن النفس لأمّارة بالسوء إلاّ مارحم ربى. وقال تعالى لا عاصم اليوم من أمر الله إلاّ مَن رحم. فالعصمة من الله لعبده دليل على الرحمة منه، ثم تدخله الرحمة فى مقام المحبة وهى رحمة المحبوبين، ثم ترفعه المحبة إلى الرضا فتكون المحبة مقامه عن شهادة محبوب، ويكون الرضا حاله فى جميع تصريف البقية والمطلوب. وهذا آخر كتاب الرضا.

ذكر أحكام المحبة ووصف أهلها وهو المقام التاسع من مقامات اليقين

المحبة من أعلى مقامات العارفين، وهى إيثار من الله تعالى لعباده المخلصين، ومعها نهاية الفضل العظيم. قال الله جلّت قدرته يحبهم ويحبونه، ثم قال تعالى ذلك فضل الله يؤتيه مَن يشاء. وهذا الخبر متصل بالابتداء فى المعنى، لأن الله تعالى وصف المؤمنين المحبين بفضله عليهم، وما اعترض بينهما من الكلام فهو نعت المحبوبين. وروى عن **النبىّ صلّى الله عليه وسلم** ما كان الله ليعذب حبيبه بالنار. وقال الله عز وجل مصداق قول نبيه عليه السلام، رداً علَى مَن ادعى محبته، احتجاجاً عليهم، قل فلِمَ يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشرٌ ممن خلق. وقال **زيد بن أسلم** إنّ الله ليحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول اصْنع ماشئت فقد غفرت لك. وروينا عن إسمعيل بن أبأن عن أنس قال قال **رسول الله صلى الله عليه وسلم** إذا أحب الله عبداً لم يُضِره ذنب، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له. ثم تلا إنّ الله يحب التوّابين ويحب المتطهرين. وقد **اشترط الله للمحبة غفران الذنوب** بقوله تعالى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم. فكل مؤمن بالله فهو محب لله، ولكن محبته على قدر إيمانه، وكشْف مشاهدته

وتجلّى المحبوب له على وصف من أوصافه. دليل ذلك استجابتهم له بالتوحيد والتزام أمره وتسليم حُكمه، ثم تفاوتهم فى مشاهدات التوحيد وفى دوام الالتزام للأوامر وفى تسليم الأحكام، فليس ذلك يكون إلاّ عن محبة وإنْ تفاوت المحبون على حسب أقسامهم من المحبوب. وليس يقصر عن المحبة صغير، كما لا يصغر عن المعرفة من عرف، ولايكبر عن التوبة كبير ولو كان على كل العلوم قد أوقف، لأن اللّه تعالى وصف المؤمنين بشدة الحب له فقال تعالى والذين آمنوا أشد حبا للّه. وفى قوله أشد دليل على تفاوتهم فى المحبة، لأن المعنى أشد فأشد ولم يقل شديد، والحب للّه، فأشبه هذا الخطاب قوله تعالى إنّ أكرمكم عند اللّه أتقاكم، فدلّ على تفاوتهم فى الإكرام على قدر تفاضلهم فى التقوى، ولم يقل إنّ الكرام المتقون.

وروينا عن **رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم** إنّ اللّه يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطى الإيمان إلا من يحب، فالمؤمنون متزايدون فى الحب للّه عز وجل عن تزايدهم فى المعرفة به والمشاهدة له. وقد جعل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم **الحب للّه من شرط الإيمان**، قال أنْ يكون اللّه ورسوله أحب إليه مما سواهما. وفى حديث لا يؤمن أحدكم حتى يكون اللّه ورسوله أحب إليه مما سواهما. وفى خبر آخر أشد توكيداً وأبلغ من هذين قوله واللّه لا يؤمن العبد حتى أكونَ أحَبّ إليه من أهله وماله والناس أجمعين. وفى خبر آخر ومن نفسك. وقد أمر صلّى اللّه عليه وسلم بالمحبة للّه فيما شرعه من الأحكام، فقال أحبوّا اللّه لما أسدى إليكم من نعمه، وأحبونى لحب اللّه، فدلّ ذلك على **فرض الحب للّه** وإنْ تفاضل المؤمنون فى نهايات فضائله. ومن أفضل ما أسدى إلينا من نعمه المعرفة به، **فأفضل الحب له** ما كان عن المشاهدة، والمحبون للّه على **مراتب من المحبة** بعضها أعلى من بعض، **فأشدّهم حبا للّه** أحسنهم تخلّقا بأخلاقه، مثل العلم والحلم والعفو وحُسن الخلُق والستر على الخلْق، وأعرفهم بمعانى صفاته، وأتركهم منازعة له فى معانى الصفات كى لا يشركوه فيها، مثل الكِبْر والحمد وحب المدح وحب الغنى والعز وطلب الذكر، **ثم أشدهم حبا لرسوله** إذ كان حبيب الحبيب، وأتبعهم لآثاره أشبعهم هَدْياً لشمائله. وقد روى أن رجلا قال يا رسول اللّه إنى أحبك، فقال استعدّ للفقر، فقال إنى أحب اللّه، فقال استعدّ للبلاء. والفرق بينهما أن البلاء من أخلاق المُبلِى وهو اللّه تعالى المُبتلِى، فلمّا ذكر محبته أخبره بالبلاء ليصبر على أخلاقه، كما قال تعالى ولربك فاصبر، فدلّ على أحكامه وبلائه. والفقر من أوصاف رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، فلمّا ذكر محبته دلّه على اتباع أوصافه ليقتفى آثاره، لقوله عليه السلام أحْينى مسكينا وأمتنى مسكينا واحشرنى فى جُملة المساكين.

ومن **علامة المحبة** كثرة ذكر الحبيب وهو دليل محبة المولى لعبده ، وهو من أفضل مننه على خلقه . وفى الخبر أن لله فى كل يوم صدقة يمن بها على خلقه ، وما تصدق على عبد بصدقة أفضل من أن يلهمه ذكره . وفى حديث سفيان عن **مالك بن معول** قيل يا **رسول الله** أى الأعمال أفضل ، قال إجتناب المحارم ، ولا يزال فوك رطبا من ذكر الله . وقد أمر النبى ﷺ بكثرة الذكر لله ، كما أمر بمحبة الله لأن الذكر مقتضى المحبة ، فقال أكثر من ذكر الله حتى يقول الناس إنك مجنون . وقد روينا أكثروا من ذكر الله حتى يقول المنافقون إنكم مراءون . وفى حديث أبى سلمة المدنى عن أبيه عن جده أتانا رسول اللهﷺ ذات يوم إلى مسجد قباء فذكر حديثا فيه طول ، قال فى آخره من تواضع لله رفعه ومن تكبر وضعه ، ومن أكثر ذكر الله أحبه الله . وقد أخبر أن الذاكرين هم السابقون المفردون ، ورفعهم إلى مقام النبوة فى وضع الوزر ورفع الذكر ، أن كان الذكر موجب الحب فى قوله سيروا سبق المفردون ، قيل من المفردون ، قال المستهترون بذكر الله وضع الذكر عنهم أوزارهم يردون القيامة خفافا .

ومن **أعلام المحبة** حب لقاء الحبيب على العيان ، والكشف فى دار السلام ومحل القرب ، وهو الإشتياق إلى الموت لأنه مفتاح اللقاء وباب الدخول إلى المعاينة . وفى الحديث من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه . وقال **حذيفة** عند الموت ـ حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم . وقال بعض السلف ما من خصلة أحب إلى الله تكون فى العبد بعد حب لقائه **من كثرة السجود** فقدم حب لقاء الله . وقد شرط الله لحقيقة الصدق القتل فى سبيله وأخبر أنه يحب قتل محبوبه فى قوله تعالى إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص ، بعد قوله تقريرا لهم لم تقولون ما لا تفعلون ، حيث قالوا إنا نحب الله ، فجعل القتل محنة محبته وعلامة أخذ مال محبوبه ونفسه، **إذ يقول تعالى يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون. وفى وصية أبى بكر** لعمر رضى الله عنهما الحق ثقيل وهو مع ثقله مرىء ، والباطل خفيف وهو مع خفته وبيئ ، فإن حفظت وصيتى لم يكن غائب أحب إليك من الموت وهو مدركك ، وإن ضيعت وصيتى لم يكن غائب أبغض إليك من الموت ولن تعجزه ، وكان **الثورى وبشر بن الحارث** يقولان لايكره الموت إلا مريب، وهو كما قالا لأن الحبيب على كل حال لايكره لقاء الحبيب ، وهذا لايجده إلا عبد يحب الله بكل قلبه، عندها يشتاق إليه مولاه فينزعج القلب لشوق الغيب فيحب لقاءه. وروى أن **أبا حذيفة بن عتبة بن زمعة** لما تبنى سالما مولاه عاتبته قريش فى ذلك

وقالوا أنكحتَ عقيلة من عقائل قريش بمولى، فقال والله لقد أنكحته إياها وإنى لأعلم أنه خير منها، فكان قوله أشد عليهم، قالوا وكيف وهى أختك وهو مولاك، فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من أراد أنْ ينظر إلى رجل يحب الله بكل قلبه فلينظر إلى سالم. فمن الدليل أن من المؤمنين من يحب الله ببعض قلبه فيؤثره بعض الإيثار ويوجد فيه محبة الاعتبار، ومنهم من يحبه بكل قلبه فيؤثره على ما سواه فهذا عابده ومألوهه الذى لا معبود له ولا إله إلاّ إياه. وفيه دليل على أنهم على مقامات فى المحبة عن معانى مشاهدات الصفات ما بين البعض فى القلوب والكلية. وقد كان نُعيْمان يُؤتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فيجده فى معصية يرتكبها إلى أن أُتى به يوما فحدّه، فلعنه رجل وقال ما أكثر ما يُؤتَى به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال **رسول الله صلى الله عليه وسلم** لا تفعل فإنه يحب الله ورسوله. فلم يخرجه من **المحبة مع المخالفة**.

وقد قال بعض العارفين إذا كان الإيمان فى ظاهر القلب، يعنى على الفؤاد، كان المؤمن يحب الله حبا **متوسطا**، فإذا دخل الإيمان باطن القلب فكان فى سويدائه أحبه **الحب البالغ**، ومحبة ذلك أنْ ينظر فإنْ كان يؤثر الله على جميع هواه ويُغلّب محبته على هوى العبد حتى تصير محبة الله هى محبة العبد من كل شىء فهو محب لله حقا، كما أنه مؤمن به حقا. وإنْ رأيت قلبك دون ذلك فلك من المحبة بقدر ذلك. **فأدلّ علامات المحبة الإيثار للمحبوب** على ذخائر القلوب، ولذلك وصف الله المحبين بالإيثار، ووصفه العارفون بذلك، فقال تعالى فى وصفه المحبين يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة، ثم قال تعالى ويؤثرون على أنفسهم، وقال فى وصفه تالله لقد آثرك الله علينا. وقال بعض العلماء إن ظاهر القلب محل الإسلام، وإنّ باطنه مكان الإيمان، فمن هنا تفاوت المحبون فى المحبة لفضل الإيمان على الإسلام، وفضل الباطن على الظاهر. وفرّق بعض علمائنا البصريين بين **القلب والفؤاد**، فقال الفؤاد مقدم القلب وما استدق منه، والقلب أصله وما اتسع منه. وقال مرة فى القلب تجويفان، فالتجويف الظاهر هو الفؤاد وهو مكان العقل، والتجويف الباطن هو القلب وفيه السمع والبصر، وعنه يكون الفهم والمشاهدة وهو محل الإيمان. وقد قال الله كتب فى قلوبهم الإيمان. وقال إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. **فمحبة الإسلام** مفترضة على الخلق وهى متصلة بأداء الفرائض واجتناب المحارم طاعةً لله ومحبةً له، فأما **محبة المقرّبين** فعن مشاهدة معانى الصفات بعد معرفة أخلاق الذات، وهى مخصوصة

بمخصوصين. والأصل فى هذا أن المحبة إذا كانت عن المعرفة فإن المعرفة عموم الخصوص، فلخصوص العارفين خاصة المحبة، ولعمومهم عموم المحبة.

ويروى فى الأخبار السالفة أن **زليخا** لمّا آمنت وتزوّج بها **يوسف عليه السلام**، انفردت عنه وتخلّت للعبادة وانقطعت، فكان يدعوها إلى فراشه نهاراً فتدافعه إلى الليل، فإذا دعاها ليلاً سوّفته نهاراً. فقالت يا يوسف إنما كنت أحبك قبل أن أعرفه، فأمّا إذ عرفته فما أبقت محبته محبة لسواه وما أريد به بدلا، حتى قال لها فإن اللّه أمرنى بذلك وأخبرنى أنه مخرج منك ولدين وجاعلهما نبيّين، فقالت أمّا إذا كان اللّه أمرك بذلك وجعلنى طريقا إليه فطاعةً لأمر اللّه، فعندها سكنت إليه. وقال بعض العلماء باللّه إذا تمّ التوحيد تمّت المحبة، وإذا جاءت المحبة تم التوكل فتمّ إيمانه وخلص فرضه، وسمّى ذلك يقينا. وقال **الفضيل بن عياض** فى فرض المحبة إذا قيل لك تحب اللّه فاسكت، فإنْ قلت لا كفرت، وإن قلت نعم فليس وصفك وصف المحبين، فاحذر المَقت. وقال بعض علمائنا ليس فى الجنة نعيم أعلى من نعيم أهل المعرفة والمحبة، ولا فى جهنم عذاب أشد من عذاب من ادّعى المعرفة والمحبة ولم يتحقق بشىء من ذلك. وقال عالم فوقه، كل أهل المقامات يُرجى أن يُعفى عنهم ويُسمح لهم إلاّ مَن ادّعى المعرفة والمحبة فإنهم يطالبون بكل شعرة مطالبة، وبكل حركة وسكون، وكل نظرة وخطْرة للّه وفى اللّه ومع اللّه.

واعلم أنّ **المحبة من اللّه لعبده** ليست كمحبة الخلق، إذ محبة الخلق تكون حادثة لإحَد سبع معان، لطبعٍ، أو لجنسٍ، أو لنفعٍ، أو لوصفٍ، أو لهوى. أو لرحمٍ ماسة، أو لتقربٍ بذلك إلى اللّه، فهذه حدود الشىء الذى يشبهه الشىء. واللّه يتعالى عن جميع ذلك، لا يوصف بشىء منه، إذ ليس كمثله شىء فى كل شىء، ولأن هذه أسباب مُحدَثة فى الخلق لمعانٍ حادثة ومتولدة من المحبين لأسباب عليهم داخلة، وقد تتغير الأوقات وتتقلب لانقلاب الأوصاف. ومحبة اللّه سابقة للأسباب عن كلمته الحسنى، قديمة قبل الحادثات عن عنايته العليا، لا تتغير أبدا ولا تتقلب لأجل ما بدا، لقوله تعالى إن الذين سبقت لهم منى الحسنى، يعنى الكلمة الحسنى، وقيل المنزلة الحسنى، فلا يجوز أن يسبقها سابق منهم بل قد سبقت كل سابقة تكون، كقوله تعالى ولقد آتينا إبراهيم رشده من **قبل** وكنا به عالمين، فكذلك قال هو سمّاكم المسلمين من **قبل**، وقال تعالى لهم قدَم صدق عند ربهم، وقال تعالى فى آخر آياتهم فى مقعد صدق عند

مليك مقتدر، ولا يصلح أن يكون قبل قدمه الصدق منهم قدم، كما لا يصلح أن يكون قبل علمه بهم منهم عمل بهم منهم، لأن عمله سبق المعلوم، ومحبته لأوليائه سبقت محبتهم إياه ومعاملتهم له. ثم هى مع ذلك خاصية حُكم من أحكامه، ومزيد من فضْل أقسامه، وتتمة من سابغ إنعامه، خالصة لمخلصين، ليس لذلك سبب معقول، ولا لأجل عمل معمول، بل يجرى مجرى سرّ القدر ولطف القادر، وإفشاء سر القدر كفر، ولا يعلمه إلاّ نبى أو صدّيق، ولا يطّلع عليه إلاّ من يظهره، وما ظهر فى الأخبار من الأسباب فإنما هو طريق الأحباب ومقامات أهل القُرب من أولى الالباب، وإنما تستبين المحبة وتظهر للعبد لحُسن توفيقه وكلاءة عصمته، ولطائف تعليمه غرائب علمه، وخفايا لطفه فى سرعة ردهم إليه فى كل شىء، ووقوفهم عنده ونظرهم إليه دون كل شىء، وقربه منهم أقرب من كل شىء، وكثرة استعمالهم لحسن مرضاته وكشف اطلاعهم على معانى صفاته، ولطيف تعريفه لهم مكنون أسراره، وفتوحه لأفكارهم من بواطن إنعامه، واستخراجه منهم خالص شكره وحقيقة ذكره، فهذه طرقات المحبين له عن كشوف اطّلاعه لهم من عين اليقين. يقال إذا أحب اللّه عبداً استخدمه، فإذا استخدمه اقتطعه. وقيل إذا أحب اللّه عبداً نظر إليه، وإذا نظر اللّه إلى عبد لم يعذبه. وروى عن بعض هذا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم.

وروينا فى الخبر إذا أحب اللّه عبداً ابتلاه، وإذا أحبّه الحب البالغ اقتناه. قيل وما اقتناؤه، قيل لم يترك له أهلا ولا مالاً. فالمحبة مزيد إيثار من المحب الأوّل وهو اللّه لعبده، وأحكام تظهر من المحبوب وهو العبد فى حُسن معاملته أو حقيقة علم يهبه له، كما قال إخوة يوسف حين عرفوا محبة اللّه ليوسف عليهم - تاللّه لقد آثرك اللّه علينا، ثم قالوا وإنْ كنّا لخاطئين، فذكروا سالف خطاياهم وأنه آثره بما لم يؤثرهم به، فقال اللّه تعالى فى وصفه إياه قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليهم. وقال فى موهبته له آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين، فذكر ما سلف من إحسانه لِمَا آثره به. وقالت الرسل إنْ نحن إلاّ بشرمثلكم ولكن اللّه يمنّ على من يشاء من عباده. وقال اللّه تعالى يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس. وفى الخبر إذا أحب اللّه عبداً ابتلاه يعنى اختبره، فإنْ صبر اجتباه، وإنْ رضى اصطفاه. وقال بعض العلماء إذا رأيتك تحبه ورأيته يبتليك فاعلم أنه يريد أن يُصافيك. وقال بعض المريدين لأستاذه قد طولعت بشىء من المحبة، فقال يا بنى هل ابتلاك بمحبوب سواه فأثرت عليه إياه، فقال لا، فقال فلا تطمع فى المحبة فإنه لا يعطيها عبداً حتى يبلوه.

ومن **دلائل المحبة** حب كلام الحبيب وتكريره على الأسماع والقلوب. وحدثونا عن بعض المريدين قال كنت وجدت حلاوة المناجاة فى سوء الإرادة فأدمنت على قراءة القرآن ليلا ونهارا، ثم لحقتنى فترة فانقطعت عن التلاوة، قال فسمعت قائلا يقول لى فى المنام إنْ كنت تزعم أنك تحبنى فلِمَ جفوت كتابى؟ أما ترى ما فيه من لطيف عتابى؟ قال فانتبهت وقد أُشرب فى قلبى محبة القرآن فعاودت إلى حالى الأوّل. وقد قال بعض العارفين لا يكون العبد مريداً حتى يجد فى القرآن كل ما يريد. ومن **علامة حب القرآن حب أهل القرآن وكثرة تلاوته** آناء الليل وأطراف النهار. وقال **سهل بن عبد الله** علامة حب الله حب القرآن، وعلامة حب القرآن وحب الله حب النبى عليه السلام، وعلامة حب النبى عليه السلام حب السنّة، وعلامة حب السنة حب الآخرة، وعلامة حب الآخرة بغض الدنيا، وعلامة بغض الدنيا أن لا يأخذ منها إلاّ زاداً وبلّغة إلى الآخرة. وقال تعالى وهو أحسن القائلين يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه، أى لا يرتدّون لأنهم أبدال من المرتدّين، ولا ينبغى أن يكونوا أمثالهم كما قال يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم.

ومن **علامة محبة المولى** تقديم أمور الآخرة من كل ما يقرّب من الحبيب على أمور الدنيا من كل ما تهوى النفس، والمبادرة بأوامر المحبوب ونواديه قبل عاجل حظوظ النفس، ثم إيثار محبته على هواك، واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم فيما أمرك به ونهاك، والذل لأوليائه من العلماء به والعاملين، ثم التعزز على أبناء الدنيا الموصوفين بها المؤثرين لها، كما قيل **لابن المبارك ما التواضع**، فقال التكبر على المتكبرين. وقال **الفتح بن شحرف** رأيت علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فى النوم، فقلت أنبئنى بحرفٍ خير، فقال ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء رجاء ثواب الله، وأحسن من ذلك تيه الفقراء على الأغنياء ثقةً بالله. وإنما وصف الله أحباءه بالذل للأولياء والعز على الأعداء، لأنه يصف من يحبه بأحسن الأوصاف، فالذل للحبيب حُسن والعز على العدو فى حُسنه مثل العز على الذليل، فلذلك وصف الله محبّه بالذل للولى وبالعز على العدو، وقُبح العز على الحبيب كقبح الذل للعدو، والله لا يصف أولياءه بقبيح.

ومن **علامات الحب المجاهدة** فى طريق المحبوب بالمال والنفس ليقرب منه ويبلغ مرضاته، ويقطع كل قاطع يقطعه عنه بالمسارعة إلى قربه كما قال تعالى وعَجِلْتُ إليك ربِ لترضى، وكما أمر حبيبه صلى الله عليه وسلم فى قوله وتبتل إليه تبتيلا، فيه معنيان، أحدهما

انقطعْ إليه انقطاعا عما سواه بالإخلاص له والأثرة على غيره، والأخرى اقطع كل ما قطعك عنه إليه، أى اقطع كل قاطع حتى تصل إليه، فهذان من أدل الدليل على المحبة. ثم أنْ لا يخاف فى حبه لومة لائم من الخلْق لامه على محبته أو على السلوك إليه بشق النفس وهجران الدار ورفض المال، ولا يرجو فى محبته مدح مادح، ولا يرغب فى حُسن ثناء العباد بإيثارك له على الأهل والمال، ثم وجود الأُنس فى الوحدة، والروْح بالخَلوة، ولطف التملق فى المناجاة، والتنعّم بكلامه، والتنعم بمرّ أحكامه، وَوَجَد حلاوة الخدمة ورؤية البلاء منه نعمة. وقال **ثابت البنّانى** كابدت القرآن عشرين سنة وتنعّمت به عشرين سنة.

ومن المحبة ترك السكون إلى غير محبوبه إذ هو السكن. وقال **أبو محمد** خيانة المحب عند اللّه أشد من معصية العامة، وهو أن يسكن إلى غير اللّه ويستأنس بسواه. وفى قصة برخ العبد الأسود الذى استسقى به **موسى عليه السلام**، أن اللّه تعالى قال لموسى إنّ برخا نِعْمَ العبد هو لى إلاّ أن فيه عيبا، قال يارب وما عيبه، قال يعجبه نسيم السَحَر فيسكن إليه، ومن أحبنى لم يسكن إلى شىء. فالسكون فى هذا الموضع الاستراحة إلى الشىء والأنس به، والسكون فى غير هذا الموضع النظر إلى الشىء والإدلال به والطمأنينة والقطع به. ذكرت هذه الحكاية لبعض أهل المعرفة فقال لم يُرد بهذا برخا إنما أراد به موسى، لأنه أقامه مقام المحبة فاستحى أن يواجهه بذلك فعرض له ببرخ، وكان هذا جوابا منه أني سألته لِمَ أخبرَ موسى بعيبه وهو يحبه دون أن يخبره هو بعيب نفسه، فأجاب بهذا. فالمقربون من المحبين إنما نعيمهم باللّه، وروحهم وراحتهم إليه من حيث كان بلاؤهم منه، فإذا وجدوا ذلك فى سواه كانت ذنوباً لهم عن غفلة أُدخلت عليهم ليتوبوا منها إليه فليغفر لهم. ورووينا أن عابداً عبد اللّه فى غيضة دهراً، فنظر إلى طير قد عشش فى شجرة يأوى إليها ويصفر عندها، فقال لو حوّلت مسجدى إلى تلك الشجرة فكنت آنس بصوت هذا الطائر، قال ففعل فأوحى اللّه إلى النبى عليه السلام قل لفلان العابد استأنستَ بمخلوق لأحطنّك درجة لا تنالها بشىء من عملك أبدا. فمن صدْق المحبة وخالصها الانقطاع إلى الحبيب بوجود الأنس به، ومصادفة الاستراحة والروْح عنده، بمحادثةٍ فى المجالسة ومناجاةٍ فى الخلوة، وذوق حلاوة النعيم فى ترك المخالفة لغلبة حب الموافقة. كما أنشدنى بعضهم عن بعض المحبين:

ألذ جميل الصبر عمّا ألذه * وأهوى لما أهواه تركاً فاتركه

وقال نظيره فى مثله:

وأترك ما أهوى لمن قد هويته * وأرضى بما يرضى وإنْ سخطتْ نفسى

ثم الطمأنينة إلى الحبيب، وعكوف الهّم على القريب، ودوام النظر وسياحة الفكر، لأن من عرفه أحبه ومن أحبه نظر إليه، ومن نظر إليه عكف عليه. أمّا فهمت هذا من قوله تعالى وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا؟

ومن فرائض المحبة وفضائلها موافقة الحبيب فيما أحب حباً للّه، وقال بعض علمائنا الإيثار يشهد للحب، فعلامة حبه إيثاره على نفسك. وقال ليس كل مَن عمل بطاعة اللّه صار حبيبا للّه، ولكن كل من اجتنب ما نهاه عنه صار حبيبا، وهذا كما قال إن المحبة تستبين بترك المخالفة ولا تبين بكثرة الأعمال. كما قيل أعمال البِرّ يعملها البَرّ والفاجر، والمعاصى لا يتركها إلاّ صدّيق، وقيل أفضل منازل الطاعات الصبر على الطاعات، وإنّ الصبر على الطاعة يُضاعَف إلى سبعين، والصبر عن المعصية يُضاعَف إلى سبعمائة، كأنه أقيم مقام المجاهد فى سبيل اللّه لأنه يقع اختبارا من اللّه وضرورة من كلية النفس، فإذا ترك هواه فقد ترك نفسه، فأقل ما له فى ذلك الزهد فى الدنيا والجهاد فى سبيل اللّه، ومن أجل ذلك ضوعفت حسناته إلى سبعمائة، ومن أجله ثبتت له المحبة بترك المخالفة، ولذلك قال اللّه تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان ففضّله على غيره بحبه. وأعجب ما سمعت فى هذا أن **موسى** سأل **الخضر** بأى شىء بلغت هذه المنزلة، فقال بترك المعاصى كلها. وقد كان **أبو محمد** يقول قوله تعالى إن اللّه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم، قال عيش نفوسهم الفانى وهو عاجل حظوظهم من الشهوات.

ومن المحبة وجود الروْح بالشكوى إليه والاستراحة إلى علمه به وحده وإخلاص المعاملة لوجهه وحُسن الأدب فيها، وهو الإخفاء لها وكتم ما يحكم بها من الضيق والشدائد، وإظهار ما ينعم به من الألطاف والفوائد، وكثرة التفكر فى نعمائه وخفى ألطافه وغرائب صنعه وعجائب قدرته، وحسن الثناء عليه فى كل حال ونشر الآلاء منه والأفضال، والصبر على بلائه لأنه قد صار من أهله وأوليائه. وقد يعسف بأوليائه ويعنف بأحبابه لتمكنه منهم ومكانتهم عنده، ولعلمه أنهم لا يريدون به بدلا ولا يبغون عنه حِوَلا، إذ ليست لهم راحة لسواه ولا بغية فى سواه، ولا لهم همّة إلاّ إياه، كما قال بعض المحبين ويلى منك وويلى عليك، افزع منك وأشتاق

إليك، إنْ طلبتك أتعبتنى، وإنْ هربتُ منك طلبتنى، فليس لى معك راحة ولا لى فى غيرك استراحة؛ ثم المسارعة إلى ما ندب إليه من أنواع البرّ يوجد الحلاوة ويشرح الصدر كما جاء فى الأثر ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه؛ ثم الرضا بقضائه لأنه مستحسنٍ لأفعاله؛ ثم اللهج بذكره ومحبة ومجالسة مَن يذكره، ودوام التشكى والحنين إليه، وخلو القلب من الخلْق، وسبْق النظر إلى الخالق فى كل شىء، وسرعة الرجوع إليه بكل شىء، ووجد الأنس به عند كل شىء، وكثرة الذكر له والتذكر بكل شىء.

ومن علامة المحبة طول التهجد. وروى عن اللّه سبحانه كذب من ادّعى محبتى إذا جنّه الليل نام عنى. ألاَ إنّ بعضهم جعل سهر الليل فى مقام بعينه. وإمام المحبين وسيد المحبوبين رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كان ينام مثل ما يقوم، وقد يكون نومه أكثر من قيامه، ولم يكن تأتى عليه ليلة ينام فيها. **ومن المحبة** الخروج إلى الحبيب من المال بالزهد فى الدنيا أو الخروج إليه من النفس بإيثار الحق على جميع الأهواء. وقال **الجنيد** علامة المحبة دوام النشاط والدؤب بشهوة، يفتر بدنه ولا يفتر قلبه. وقد قال بعض السلف العمل عن المحبة لا يداخله الفتور.

ومن المحبة التناصح بالحق والتواصى به والصبر على ذلك، كما وصف تعالى الصالحين فقال تعالى إن الإنسان لفى خُسر إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، لأن المحبين ليسوا كمن وصفهم فى قوله تعالى يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم، إنْ يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويُخرج أضغانكم، يعنى إنْ يسألكم محبوبكم من الأموال ويستقصى عليكم يُخرج أحقادكم عليه. وروينا فى مَقرأ ابن عباس ويخرج أضغانكم يعنى الأموال، فلو لم يدخل على هؤلاء الضعفاء إلا الشرك فى محبة الأموال والشغل بها عن ذكر ذى الجلال فخسروا ما ربح المخلصون من الأحباب، وفاتهم ما أدرك الصالحون من طوبى وحسن مآب. فاللّه تعالى يسأل أحبابه أموالهم وأنفسهم حتى لا يبقى لهم محبوب سواه، ولئلا يعبدوا إلاّ إيّاه، محبةً منه وكشفاً لمحبتهم واختباراً لصدقهم وصبرهم، ولأنه جواد مَلِك لا يسأل إلاّ كلية الشىء وجملته، وهو غيور لا يحب أن يشركه سواه فى محبته، فلا يصبر عليه إلاّ مَن عرفه، ولا يحبه إلاّ من صبر عليه، ولا يرضى بحكمه فيه إلاّ من أيقن به. إلاّ أنه لا يسأل الجملة كلها إلاّ لمن أحبه المحبة الخاصة، وذلك كله من نظام حكمته. وقيل لبعض

المحبوبين وكان قد بذل المجهود فى بذل ماله ونفسه حتى لم يبق عليه منها بقية، ما كان سبب حالك هذه من المحبة، فقال كلمة سمعتها من خَلْق لخلْق عملت بى هذا البلاء، قيل وما هى، قال سمعت محبا قد خلا بمحبوبه وهو يقول أنا والله أحبك بقلبى كله وأنت معرض عنى بوجهك كله، فقال له المحبوب إن كنتَ تحبنى فأى شىء تنفق علىّ، فقال يا سيدى أملَكُكَ ما أملك ثم أنفق عليك روحى حتى تهلك، فقلت هذا خلْقٌ لخلْق، وعبْدٌ لعبد، فكيف بخلق لخالق وعبدٍ لمعبود، فكان ذلك سببه، فقد دخلت الأموال فى الأنفس تحت الشراء وقد باعوه نفوسهم فما دونها لمحبتهم إياه، وقد أشتراها منهم لنفاستها عنده، فعلامة محبته لها اشتراؤها منهم، وعلامة شرائها طيّها عنهم، فإذا طواها فلم يكن عليهم منها بقية هوى فى سواه فقد اشتراها.

واعلم أن آفات النفوس هى أدواؤها، وطُهْرة النفوس من الأدواء هو داؤها، كما قال تعالى قد أفلح من زكّاها، فإذا صفّاها من الآفات فقد صافاها، وإذا امتحنها بالتمحيص من الشهوات للتقوى فقد اشتراها. ولكل داء من النفس دواء قدر صغره وعِظَمه، فضع الدواء على الداء من حيث دخل عليك بإدخال ضده عليه، أو بقطع أصله عنه، فعلامة النفوس المشتراة وهى المحبوبة المجتباة التوبة إلى الحبيب بالخدمة له، وكثرة الحمد له بالسياحة إليه، ودوام الصلاة بحُسن الأدب بين يديه، والأمر بما يحب والنهى عما يكره، والحفظ بحدوده التى حدّها، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه، ومن يتب فأولئك هم الظالمون، إن الله يحب التوّابين ويحب المتطهرين، والله يحب المتقين.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أراد أن يحبه الله فليزهد فى الدنيا فلا يطمعن طامع فى محبة الله قبل الزهد فى الدنيا، فهذا جملة أوصاف المحبين. ومن المحبة أن لا يطلب خدمة سواه، وأن يجتمع فى محبته همّه وهواه، ولا يهوى إلاّ ما فيه رضا المولى، ولا يقضى عليه مولاه إلاّ بما يهواه. وروى عن بعض العلماء إذا رأيته يوحشك من خلْقه فاعلم أنه يريد أن يؤنسك به. وفيما نقل وهب من الزبور ومَن أظلم ممن عبدنى لجنّة أو نار. لو لم أخلق جنة ولا نار ألم أكن أهلاً أن أطاع أو كما قال. وفى أخبار عيسى إذا رأيت التقىّ مشغوفا فى طلب الرب فقد ألهاه ذلك عمّا سواه. وعن عيسى عليه السلام المحب لله يحب النَصَب. وروى عنه أنه مرّ على طائفة من العبّاد قد احترقوا من العبادة كأنهم الشنان البالية، فقال ما

أنتم، فقالوا نحن عبّاد، قال لأى شيء تعبدتم، قالوا خوّفنا الله من النار فخفنا منها، فقال حقٌ على الله أن يؤمّنكم ما خفتم. ثم جاوزهم فمر بآخرين أشد عبادة منهم، فقال لأى شيء تعبّدتم، قالوا شوّقنا الله إلى الجنان وما أعدّ فيها لأوليائه فنحن نرجو ذلك، فقال حقٌ على الله أن يعطيكم ما رجوتم. ثم جاوزهم فمرّ بآخرين يتعبّدون، فقال ما أنتم، قالوا نحن المحبّون لله لم نعبده خوْفاً من نار ولا شوقا إلى جنة، ولكن حباً له وتعظيماً لجلاله، فقال أنتم أولياء الله حقا، معكم أُمِرت أن أقيم، فأقام بين أظهرهم. وفى لفظ آخر أنه قال للأوّلين مخلوقا خفتم ومخلوقا أحببتم. وقال لهؤلاء أنتم المقربون. وممن روى عنه هذا القول وأقيم فى هذا المقام جماعة من التابعين بإحسان منهم **أبو حازم المدنى**، كان يقول إنى لأستحي من ربى أن أعبده خوفاً من العقاب فأكون مثل العبد السوء إن لم يُعط أجر عمله لم يعمل، ولكن أعبده محبةً له. وقد روينا معنى هذا الكلام عن **النبى صلى الله عليه وسلم** لا يكون أحدكم كالعبد السوء إن خاف عمل، ولا كالأجير السوء إن لم يُعط أجراً لم يعمل. وقال بعض إخوان **معروف** له أخبرنا عنك أى شيء أهاجك إلى العبادة والانقطاع عن الخلْق، فسكت فقلنا ذكر الموت ؟ فقال وأى شيء الموت! قلنا ذكر القبر والبرزخ ؟ فقال وأى شيء القبر! فقلنا خوف النار ورجاء الجنة ؟ فقال وأى شيء هذا! إنّ واحداً بيده هذا كله إنْ أحببته أنساك جميع ذلك، وإنْ كانت بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا. وحُدِّثت عن **علىّ بن الموفق** قال رأيتُ فى النوم كأنى أدُخلت الجنة فرأيت رجلا فى سرادق العرش قد شخص ببصره ينظر إلى الله عز وجل لا يطرف، فقلت لرضوان من هذا، فقال **معروف الكرخى**، عبَدَ الله لا خوفاً من ناره ولا شوقا إلى جنته بل حباً له، فقد أباحه النظر إليه إلى يوم القيامة! كما قال **أبو سليمان الدارانى** من كان اليوم مشغولا بنفسه فهو غداً مشغول بنفسه، ومن كان اليوم مشغولاً بربه فهو غدا مشغول بربه.

وقد روينا عن **رابعة العدوية** وكانت إحدى المحبين، وكان **الثورى** يقعد بين يديّها ويقول علّمينا مما أفادك الله من طرائف الحكمة، وكانت تقول نِعْمَ الرجل أنت لولا أنك تحب الدنيا وقد كان رحمه الله زاهداً فى الدنيا عالماً إلاّ انها كانت تجعل إيثار كُتب الحديث والإقبال على الناس من أبواب الدنيا، وقال لها الثورى يوماً لكل عبد شريطة، ولكل إيمان حقيقة، فما حقيقة إيمانك، فقالت ما عبدت الله خوفا من الله فأكون كالأمة السوء، إن خافت عملت، ولا حباً للجنة فأكون كأمَة السوء إنْ أُعطيت عملت، ولكنى عبدته حباً له وشوقا إليه. وروى عنها

حمّاد بن زيد أنها قالت إنى لأستحيى أن أسأل الدنيا من يملكها فكيف أسألها من لا يملكها. وكان هذا جواباً لأنه قال لها انكرى لى حوائجك حتى أقضيها. وخطبها **عبد الواحد بن زيد** فقالت يا شهوانى اطلب شهوانية مثلك. أى شىء رأيت فىّ من آلة الشهوة!! وخطبها **محمد بن سليمان أمير البصرة** على مائة ألف، وقال لها غلّة عشرة آلاف فى كل شهر أدفعها إليك، فكتبت إليه ما يسرنى أنك لى عبد وأن كل ما تملكه لى وأنك شغلتنى عن اللّه طَرفة عين. وقد قالت فى معنى المحبة أبياتا تحتاج إلى شرح حملها عنها أهل البصرة وغيرهم، منهم جعفر بن سليمان الضبعى وسفيان الثورى وحمّاد بن زيد وعبد الوارث بن زيد قالت:

أحبك حبّين حبّ الهـــــوى * وحباً لأنك أهل لـذاكـــــا
فأما الذى هو حب الهـــوى * فشُغلى بذكرك عمّن سواكا
وأما الذى أنت أهل لـــــــه * فكشفُك للحُجب حتى أراكـا
فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى * ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

فأما قولها **حب الهوى** وقولها **أنت أهل له** وتفريقها بين الحبّين، فإنه يحتاج إلى تفصيل حتى يقف عليه من لا يعرفه ويخبره من لم يشهده، وفى تسميته ونعتِ وصْفِه إنكارٌ من ذوى العقول ممن لا ذوق له ولا قدَم فيه، ولكنا نحمل ذلك وندل عليه مَنْ عرفه. يعنى حب الهوى أنى رأيتك فأحببتك عن مشاهدة عين اليقين لا عن خبرٍ وسمعٍ تصديق من طريق النِعَم والإحسان، فتختلف محبتى إذا تغيرت الأفعال لاختلاف ذلك علىّ، ولكن محبتى من طريق العيان فقَربتُ منك، وهربتُ إليك، واشتغلتُ بك، وانقطعتُ عمّن سواك، وقد كانت لى قبل ذلك أهواء متفرقة، فلما رأيتُك اجتمعتْ كلُها فصرتَ أنت كلية القلب وجملة المحبة، فأنسيتنى ما سواك، ثم إنى مع ذلك لا أستحق على هذا الحب، ولا استأهل أن أنظر إليك فى الآخرة على الكشف والعيان فى محل الرضوان، لأن حبى لك لا يوجب عليك جزاءً عليه، بل يوجب علىّ كل شىء، لك منى كل شىء مما لا أطيقه ولا أقوم بحقك فيه أبدا، إذ كنت قد أحببتك فلزمنى خوف التقصير ووجب علىّ الحياء من قلة الوفاء، فتفضلت علىّ بفضل كرمك وما أنت له أهل من تفضلك، فأريتنى وجهك عندك آخرا كما أريتنيه اليوم عندى أولا، فلك الحمد على ما تفضّلت به فى ذا عندى فى الدنيا، ولك الحمد على ما تفضّلت به فى ذا عندك فى الآخرة، ولا حمد لى فى ذاهنا ولا حمد لى فى ذاك هناك إذ كنت إنما وصلت إليهما بك، فأنت المحمود فيهما لأنك

وصلتني بهما. فهذا الذى فسّرناه هو وجْد المحبين المحقين ظناً بقولها ذلك، إذ كان لها فى المحبة قدَم صدْق والله أعلم. ولا يسعنا أن نشرح فى كتابٍ كشف حقيقة ما أجملناه، ولا أنْ نفصّل وصف ما ذكرناه، ومَن لم يكن من المحبين كذلك، حتى يدل بمحبته ويقتضى الجزاء عليها من محبوبه، ويوجب على حبيبه شيأ لأجل محبته، فهو مخدوع بالمحبة ومحجوب بالنظر إليها، وإنما ذاك مقام الرجاء الذى ضده الخوف، وليس من المحبة فى شىء ولا تصح المحبة إلا بخوف المقت فى المحبة. وقال بعض العارفين ما عرفه مَن ظن أنه عرفه، ولا أحبّه من توهم أنه أحبه.

ذكر مخاوف المحبين ومقاماتهم فى الخوف

وللمحب **سبع مخاوف** ليست بشىء من أهل المقامات، بعضها أشد من بعض، أولها **خوف الإعراض**، وأشدّ منه **خوف الحجاب**، وأعظم من هذا **خوف البُعد**. وهذا المعنى فى سورة هود هو الذى شيّب الحبيب إذ سمع المحبوب يقول ألا بُعداً لثمود، ألا بُعداً لمدين كما بعدت ثمود، فذِكْرُ البُعد فى البُعد يُشيّب أهل القرب فى القرب، ثم **خوفُ السلب للمريد**، وهذا يكون للخصوص فى الإظهار والاختيار منهم فيُسلَبون حقيقة ذلك عقوبة لهم،ثم **خوف الفوْت** الذى لا دَرْك له، وأشدّ من الفوت **خوف السلْو**، وهذا أخوف ما يخافون، وأشد من هذا كله **خوف الاستبدال** يقع عن نهاية المقت من المحبوب وغاية البغض منه والبعد والسلو مقدمة هذا المقام، والإعراض والحجاب، بداية ذلك كله، وثم **خوف ثامن** هو وصف من المحبة لأنه من شوق الحبيب إلى المحب، وهو من معنى قول **رابعة** آنفا حب الهوى، ومن معنى قول **عائشة رضى الله عنها** للنبى صلى الله عليه وسلم أرى ربك يسارع إلى هواك. ومَن صَدر عن مقام محب بعد وروده رُفع إلى هذا المقام لأنه فى مقام محبوب لجميل مشاهدات اليقين. وقد كان **الجنيد** رحمه الله ينشد هذين البيتين كثيرا:

ومن بعد هذا ما تدق صفاتـه * وما كتمه أحظى لديه وأعدل
ألا إن للرحمن سراً يُسره * إلى أهله فى السّر والستر أجمل

وقد ذكّرنا معناه بعض المحبوبين فى كلام منظوم فى بيتين وهما:

فمنك بدا حب بعز تمازجا * بماء وصالٍ كنت أنت وصلته
ظهرت لمن أبقيت بعد فنائه * فكان بلا كون لأنك كنته

وقال بعض العلماء من عرف الله من طريق المحبة بغير خوف هلك بالبسط والإدلال، ومن عرفه من طريق الخوف من غير محبة انقطع عنه بالبُعد والاستيحاش، ومن عرف الله من طريق المحبة والخوف أحبه الله فقرّبه وعلّمه ومكّنه. وليس العجب من خوف الخائفين إذ لا يعرفون إلا الصفات المخوفات والأفعال القاصمات، وإنما العجب من خوف المحبين مع ما عرفوا من أخلاقه وحنانه، وشهدوا من تعطفه وألطافه ما لم يعرف الخائفون. ثم هم مع حبهم يهابونه وعلى أنفسهم به يحابونه، وفى فزعهم منه يشتاقون إليه، وفى بسطه لهم ينقبضون بين يديه، وفى إعزازه لهم يُذلّون له، لأن مَن قَبض فانقبض فليس بَعجب، ولكن من أعز وأكرم فتواضع وذلّ فهو العجب، فللمحبين الانقباض فى البسط وللخائفين الانقباض فى القبض، وللمحبين الذلّ مع العز والكرامة، وللخائفين الذلّة مع الهيبة والمهنة. فهذا يدل على أن معرفة المحبين به أعظم المعارف إذ كانت أوائل أحوالهم المخاوف، فكل محب للّه خائف وليس كل خائف محبا. والمحبة لا ترفع الهيبة فلذلك كان محبا خائفاً لأن المحبوب مهوب، والخوف قد يقبض عن المحبة لشُغل الخائف بوصفه السالف.

وسئل بعض علمائنا البصريين الحب أفضل أو الحياء، فقال الحب الذى يورث من الخوف - الحياء أفضل منه - والحب الذى يورث الحياء منه أفضل من الحياء، وهو الشوق. وقال الجنيد المحبة نفسها قرب القلب من الله بالاستنارة والفرح، فأما حب تجلّى الصفات عن الأسماء الباطنة فإنا لم نذكر منها شيأً وإنما ذكرنا محبة الأخلاق عن الأسماء الظاهرة، ولا أحسب أنه يحل رسمه فى كتاب ولا كشفه لعموم الناس، لأنه من سر المحبة لا يُكاشَف به إلاّ مَن اطّلع عليه، ولا يتحدث به إلاّ من أُعطيه، وما رأيت أحداً رسمه فى كتاب لأنه لا يؤخذ من كتاب وإنما يُتلقى من أفواه العلماء ويُنسخ من قلب إلى قلب، وهو يشبه ما كتبنا عنه آنفا من الخوف الثامن الذى لم نصفه لمن لا يعرفه. ومما نقل فى الأثر من وصف مَن أُذيق منه ولم يُفصح بذكر وصفه أن بعض الصدّيقين سأله بعض الأبدال أن يسأل الله أن يرزقه ذرةً من محبته، ففعل ذلك فهام فى الجبال وحار عقله وولّه قلبه وبقى شاخصا سبعة أيام لا يَنتفع بشىء ولا يُنتفع به شىء، فسأل له الصديق ربه فقال يارب انقصه من الذرة نصفها، فأوحى الله إليه إنما أعْطيناه جزأ من مائة ألف جزء من ذرة من المعرفة، وذلك أن مائة ألف عبد

سألونى شيأً من المحبة فى الوقت الذى سألنى هذا فأخّرت إجابتهم إلى أن شفعت أنت لهذا، فلما أجبتك فيما سألت أعطيتهم كما أعطيته، فقسمت ذرةً من المحبة بين مائة ألف عبد فهذا ما أصابه من ذلك، فقلت سبحانك أحكم الحاكمين،أنقصْه مما أعطيته، قال فأذهب الله عنه جملة ذلك الجزء وبقى فيه عُشر معشاره، وهو جزء من ألف جزء، فاعتدل خوفه وحبه وعِلمُه ورجاؤه، وصار كسائر العارفين.

ومن علم المحبة **سهر الليل** بمناجاة الجليل، **والحنين إلى الغروب** شوقاً إلى الخلوة بالمحبوب، **ومناجاة القلب** سرائر الوَجْد، **ومطالعة الغيب**. **والمناجاة** عند أهل المصافاة إنما هى بالقلوب.والمناجاة دليل رؤية القلب وشاهد وجود الأنس. وفيما أُخبرنا عن الله تعالى أنه قال كذب من ادّعى محبتى إذا جنّه الليل نام عنى. أليس كل حبيب يحب الخلوة بحبيبه، فها أنا ذا قريب من أحبابى، أسمع سرهم ونجواهم وأشهد حنينهم وشكواهم. وروينا عن بعض العلماء القدماء أن الله عز وجل أوحى إلى بعض الصدّيقين أنّ لى عباداً من عبادى يحبونى وأحبهم ويشتاقون إلىّ وأشتاق إليهم، يذكرونى وأذكرهم، وينظرون إلىّ وأنظر إليهم، فإنْ حنوت طريقهم أحببتك، وإنْ عدلت عنهم مقتك، قال يارب وما علامتهم، قال يراعون الظلال بالنهار كما يراعى الراعى الشفيق غنمه، ويحنّون إلى غروب الشمس كما تحنّ الطير إلى أوكارها عند الغروب، فإذا جنّهم الليل واختلط الظلام وفُرشت الفُرُش ونُصبت الأسرة وخلا كل حبيب بحبيبه، نصبوا لى أقدامهم وافترشوا إلىّ وجوههم وناجونى بكلامى وتملّقوا لى بأنعامى، فبيْن صارخٍ وباكٍ، وبين متأوهٍ وشاك، وبين قائمٍ وقاعد، وبين راكع وساجد، بعينى ما يتحملون من أجلى، وبسمعى ما يشتكون من حبى، فأول ما أعطيهم ثلاثاً أقذف من نورى فى قلوبهم فيخبرون عنى كما أخبر عنهم، والثانية لو كانت السموات والأرض وما فيهما فى موازينهم لاستقللتها لهم، والثالثة أُقبِل بوجهى عليهم فترى من أقبلتُ بوجهى عليه لا يعلم أحد ما أريد أن أعطيه.

وأما **الشوق** فإنه مقام رفيع من مقامات المحبة، وليس يُبقِى الشوق للعبد راحة ولا نعيما فى غير مشوقه. والمشتاقون مقرّبون بما أُشهدوا من الشوق إليه، وهم المأمور بطلبهم الموجود الحبيب عندهم مثوبة منه لهم لِمَا شوّقهم إليه فى قوله لموسى عليه السلام اطلبنى عند

المنكسرة قلوبهم من أجلى. هم المشتاقون من المحبين والله أعلم. وذلك أن الحبيب قَرُب منهم بوصفه تكرما، ففرحوا بقربه وعاشوا بمشاهدته ونعموا لحضورهم عنده، ثم احتجب عنهم غيْرةً على نفسه لعزه، فانكسرت قلوبهم لأجله، فاشتاقوا إلى ما عوّدهم منه، فثبتت لديه حُرمتهم فأمر أولياءه بطلبهم، وأوجد نفسه عندهم لمكانتهم عنده، ففرَحُ هؤلاء من المحبين بقُربه لا يوصف، وانكسارهم وحزنهم لأجله لا يُعرف. والله سبحانه قد يعرض عن محبيه تعززاً ليزعجهم الشوق إليه، ويقلقهم الأسف عليه. وحدثونا عن **إبراهيم بن أدهم** وكان أحد المشتاقين، وهو من أبدال هؤلاء الذين نتكلم فى علمهم ونكشف طريقهم، وكانت له رحمه الله أماكن من المحبة رفيعة ومكاشفات فى القُرب عليّة، قال قلت ذات يوم يارب إنْ كنت أعطيت أحدا من المحبين لك ما تُسْكِن به قلوبهم قبل لقائك فاعطنى ذلك فقد أضرّ بى القلق. قال فرأيت فى المنام أنه أوقفنى بين يدّيه فقال يا إبراهيم: أما استحيت منى أن تسألنى ما يسكن به قلبك قبل لقائى؟ وهل يسكن **المشتاق** قبل لقاء حبيبه، أم هل يستروْح **المحب** إلى غير مشوقه؟ قال قلت يارب، تُهتُ فى **حبك** فلم أدر ما أقول، فاغفر لى وعلّمنى كيف أقول. فقال قل اللّهم رُضنى بقضائك، وصبّرنى على بلائك، وأوزعنى شكر نعمائك.

وقد حدثونا بمعنى ذلك عن **أحمد بن عيسى الخرّاز**، وكان مشتهراً **بالسماع**، كثير الحركة والصعق عنده. ذكر بعض أصحاب **سهل** قال رأيته فى المنام بعد موته، فقلت ما فعل الله بك، فقال، وقفنى بين يديه فقال لى يا أحمد حملتَ وصفى على ليلى وسعدَى لولا أنى نظرت إليك فى مقام واحد أردتنى به خالصا لعذّبتك. قال وأقامنى من وراء حجاب الخوف فأرعدت وفزعت ما شاء الله، ثم أقامنى من وراء حجاب الرضا فقلت ياسيدى لم أجد من يحملنى غيرك فطرحت نفسى عليك، فقال صدقت من أين تجد من يحملك غيرى، قال وأمر بى إلى الجنة. – وفى هذا تخويف للسامعين على التشبيه، الحائدين عن سمع أهل الفهم والتنبيه، لأن **السماع علم لا يصلح إلاّ لأهل الصفاء**، فمن سمعه على كدر فذاك له محنة وضرر، ويدخل من الآفات على نقصان المشاهدات إذا سُمِع من قِبَل **النغمة والصوت** ما يدخل علَى مَن نظر إلى الأيدى فى العطاء، لأن الصوت ظرف للمعانى بمنزلة اليد ظرفاً للأرزاق، فالناظر الموقن يأخذ رزقه من اليد ويترك النظر، والسامع المُحِق يأخذ المعانى من الصوت ولا يلتفت إلى التنغيم بها، فمن سمع على التشبيه والتمثيل ألْحَدَ، ومن سمع على الهوى والشهوة فهو

لَعِبَ ولهو، ومن سمع باستخراج الفهم ومشاهدة العلم على معانى صفات حقٍ ونظرٍ وتطرقٍ ودليلٍ على آيات صدق كان سامعا على مزيد، وهذه طرائق أهل التوحيد. **وفى السماع حرام وحلال وشبهة**، فمن سمعه بنفسٍ بمشاهدة هوى وشهوة فهو حرام، ومن سمعه بمعقوله على صفة مُباحٍ من جارية وزوجة كان شبهة لدخول اللهو فيه، وفَعَل هذا بعض السلف من التابعين، ومن سمعه بقلب بمشاهدة معان تدلّه على الدليل وتُشهده طرقات الجليل فهذا مباح، ولا يصح إلاّ لأهله ممن كان له نصيب منه، ووجد فى قلبه مكاناً له لعبدٍ أقيم مقام حزن أو شوق، أو فى مقام خوف أو محبة، فيحركه السمع ويخرجه إلى الشهادة، فيكون ذلك مزيده من السمع. فأما من سمعه على نعمة، أو لأجل صوت، أو ليلهو به، أو ليستروْح إليه، فهذا لاعب لاهٍ لا يحل له إذ ليس مراداً به. وكان **الجنيد** يقول تنزّل الرحمة على هذه الطائفة فى **ثلاثة** مواطن: عند الطعام لأنهم لا يأكلون إلاّ عن فاقة، وعند المذاكرة لأنهم يتذاكرون أحوال النبيين ومقامات الصدّيقين، **وعند السماع لأنهم يسمعون بوْجد** ويشهدون حقا. وكان بعض العارفين يقول تعرف مواجيد أصحابنا فى **ثلاثة** أشياء: عند المسائل وعند الغضب **وعند السماع**. وإنما ذكرنا هذا لأنه كان طريقاً لبعض المحبين وحالاً لبعض المشتاقين، فإن أنكرناه مجملاً فقد أنكرنا على تسعين صادقا من خيار الأمة. **وقد دخل فيه غير أهله فأحالوه عن وجهته وعدلوا به عن قصده**. وقد كان بعض السامعين **يقتات السماع فيجعله قوته** ويتقوى به على زيادة طيّه، وكان أحدهم يطوى اليومين والثلاثة فإذا تاقت نفسه إلى القوت عدل بها إلى السماع فأثار منه مواجيده وأهاج فيه أذكاره فصرفه ذلك عن الطعام وأغناه عن الأنام. وحدثنى بعض الشيوخ عن شيخ له قال رأيت **أبا العباس الخضر** فقلت ماتقول فى هذا السماع الذى يختلف فيه أصحابنا، فقال هو الصفا الزلال لا يثبت عليه إلاّ أقدام العلماء. وقد صدق فى قوله لأنّا روينا عن نبينا **صلى الله عليه وسلم** أخوف ما أخاف على أمتى الشهوة الخفية **والنغمة الملهية**، ولأن **حماداً** روى عن **إبراهيم**: **الغناء** ينبت النفاق فى القلب؛ وعن **مجاهد**: ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليُضل عن سبيل اللّه، قال **الغناء**، وهذا كما قاله لأن **سماع الغناء حرام وأجور المغنيات وأثمانهن حرام**. والفرق بين **الأغانى والقصائد** أن الأغانى ما شُبّب به النساء وذُكِر فيه الغزل، ووُصِفن به وشهِدن منه، ودعا إلى الهوى وشوّق إلى اللهو، فمن سمع من حيث قال القائلون بهذه المعانى فالسماع عليه حرام. **والقصائد** ما ذكّر باللّه، ودلّ عليه، وشوّق إليه، وأهاج مواجيد الإيمان إليه وأثار مشاهدات العلوم وذُكِرَ به طرقات الآخرة ومقامات الصادقين. فمن سمع من حيث

شهد بهذه الشهادة فهو من أهله إذْ له نصيب منه، وقد قال اللّه سبحانه ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكّرون، فالكلام زوجان منثور ومنظوم، فالمنثور كلام العلاّمة، والمنظور كلام الشعراء، فما ذُكِرَ به اللّه ويُذكر منه فهو طريق إليه. ولم يزل الحجازيون عندنا يسمعون السماع فى أفضل أيام السنة وهى الأيام التى أمر عباده أن يذكروه فيها، أيام التشريق، من وقت **عطاء بن أبى رباح** إلى يومنا هذا، ما أنكره عالم، وقد كان لعطاء جاريتان يلحنان، فكان إخوانه يستمعون إليهما. ويحمل القول فى السماع أن مَن سمع فظهرت عليه صفات نفسه وذكّرته حظوظ دنياه فالسماع عليه حرام، ومن سمع فظهر له به ذكر ربه وتذكّر به أجلّ ما شوّقه اللّه إليه وأعدّه لأوليائه فهو له ذِكْر من الأذكار. وسئل عالمنا رحمه اللّه فقيل له بلَغَنا أنك تنكر السماع **وقد كان الجنيد وسرى السقطى وذو النون يسمعون**، فقال كيف أنكر السماع وقد سمعه **عبد اللّه بن جعفر الطيّار**، يعنى ابن أبى طالب، وأنما أُنكر اللهو وأنكر اللعب فى السماع، ولعمرى أن هؤلاء الأشياخ الذين ذُكِروا قد كانوا يسمعون ولكن كان منهم من سمع السرّ دون العلانية، ومنهم من كان يسمع مع إخوانه ونظرائه دون الاتباع والأصحاب، وكانوا يقولون **لا يصلح السماع إلاّ لعارف مكين ولا يصح لمريد مبتدىء. وقد سمع من الصحابة غير عبد اللّه بن جعفر أربعة، منهم ابن الزبير والمغيرة بن شعبة.**

وفى خبر **وهب بن منبه** أوحى اللّه تعالى إلى **داود عليه السلام** أنك تكثر مسألتى ولا تسألنى أن أهب لك **الشوق**، قال يارب وما **الشوق**، قال إنى خلقت قلوب المشتاقين من رضوانى وأتممتها بنور وجهى، فجعلت أسرارهم موضع نظرى إلى الأرض، وقطعت من قلوبهم طريقا ينظرون به إلى عجائب قدرتى فيزدادون فى كل يوم شوقا إلىّ، ثم أدعو نجباء ملائكتى فإذا أتونى خرّوا لىّ سُجّداً فأقول إنى لم أدْعُكم لعبادتى، إرفعوا رؤسكم أُرِكُم قلوب المشتاقين إلىّ، فوعزتى وجلالى إن سمواتى لتضىء من نور قلوبهم كما تضىء الشمس لأهل الدنيا. معنى قوله لداود عليه السلام ولا تسألنى الشوق ليس أنه قد يعطى الأولياء ما لا يعطى الأنبياء كما غلط فى هذا بعض الناس ففضّل العارف على النبى، ولكنه ذكر ذلك لداود عليه السلام ليسأله إياه فيعطيه، فلمّا أخبره بما أعطاه مقام الشوق إليه فجاوز مقامات المشتاقين من العارفين، وإنما أراد أن يجعل ذلك على لسانه ليريه فضل مكانه ويُظهر له ذلك عن مسئلته، ليفضّله ويشرّفه بسرعة إجابته. كما أن قول داود عليه السلام «وما الشوق» ليس أنه لم يعرف الشوق وقد آتاه الحكمة والنبوة، ولكن سكت بين يديه استحياءً منه، واعترف لديه بالجهل لأنه عند علاّم الغيوب، وأراد أن يسمع منه حقيقة وصفه لأنه أصدق القائلين وأمدح الواصفين.

وأما **الغيرة** فحال سنية من أحوال المحبين، لأنه قد أظهرهم على معانى نفسه فضنّوا بها لمّا امتلأت بها قلوبهم وحارت فيها عقولهم، إلاّ أنّ هؤلاء خصوص أصحاب اليمين وهم عموم المحبين، إلاّ أنه إذا رفعهم إلى مقام التوحيد فأشهدهم الإيجاد بالوحدانية والانفراد بالفردانية، نظروا فإذا هو لم يُعطِ منه لسواه شيأ، ولا أظهر من معانيه وصفاً، فانطوت **الغيرة** فى توحيدهم لمّا عرفوا بيقين التوحيد أنه ما نظر إليه سواه، ولا عرفه إلاّ إياه. فهذا إذا طولعوا به مقام الموحدين من الصدّيقين.

وقد روينا فى **دلائل المحب وأوصافه** أبياتا عن **يحيى بن معاذ وأبى تراب النخشبى**، وعن **أبى سعيد الخرّاز** أيضا، على قافية واحدة فى معانٍ متقاربة، وهى جامعة مختصرة فى نعت المحبين من المريدين، وفى وصف السائحين من المرادين بالتقرب والانقطاع، أُولِى الأحوال والمشاهدات الرفاع، فالذى روينا عن **أبى تراب** هذه الأبيات:

لا تخدعن فللمحب دلائل * ولديه من تُحَف الحبيب وسائل
منها تنعمه بمُر بلائه * وسروره فى كل ما هو فاعل
فالمنع منه عطية مقبولة * والفقر إكرام ولُطفٌ عاجل
ومن اللطائف أن يُرى من عزمه * طوع الحبيب وإنْ ألحّ العاذل
ومن الدلائل أن يُرى متبسما * والقلب فيه من الحبيب بلابل
ومن الدلائل أنْ يُرى متفهما * لكلام من يحظى لديه السائل
ومن الدلائل أنْ يُرى متقشفا * متحفظا من كل ما هو قائل

والذى رويناه عن يحيى بن معاذ:

ومن الدلائل أن تراه مشمّرا * فى خِرقتين على شطوط الساحل
ومن الدلائل حزنه ونحيبه * جوف الظلام فما له من عادل
ومن الدلائل أن تراه مسافرا * نحو الجهاد وكل فعل فاضل
ومن الدلائل زهده فيما يَرى * من دار ذل والنعيم الزائل
ومن الدلائل أن تراه باكيا * أنْ قد رآه على قبيحٍ فاعل
ومن الدلائل أن تراه مسلما * كل الأمور إلى المليك العادل
ومن الدلائل أن تراه راضيا * بمليكه فى كل حُكم نازل
ومن الدلائل ضحكه بين الورى * والقلب محزون كقلب الثاكل

والذى رويناه عن **أبى سعيد الخرّاز** دخل فيما ذكرناه عنهما وأحسب أنه أخذه منهما لأنهما أقدم منه، إلاّ أن قوله كان أحد عشر بيتا فقط.

وجميع ما قدّمنا ذكره من العلامات والدلالات هى أوصاف المحبين، وكل محب للّه فمن محبة اللّه، لأن وجود العبد لمحبته للّه علامة غيب محبة اللّه له، يبين ذلك الغيب فى هذه الشهادة، إلاّ أنّ **فى المحبة مقامين، مقام تعريف ومقام تعرّف**، فمقام التعريف هو معرفة العموم وهذا قبل المحبة الخاصة، ومقام التعرف معرفة الخصوص وهذا بعد محبة العموم، وهو مزيد الحب الأول وهذا محبة خصوص. **وكذلك فى المحبة مقامان، مقام محب وأعلى منه مقام محبوب**، وهذا كما عبّروا عن قولهم مريد ومراد، وعلى الحقيقة كل مريد للّه فهو مراد بذلك، إلا أنهم جعلوا اسم مراد بوصف مخصوص يعرف به فيمتاز معه المبتدى من المبادى، والمنيب من المجتبى، والطالب من المطلوب، والراغب من المرغوب، والحافظ من المحفوظ، فكذلك لعمرى ليس الحامل مثل المحمول، ولا الزائر كالمزور، ولا الاشتياق كالحضور، **ولا المحب مثل المحبوب**.

وفى المشاهدة مقامان: مقام شوق ومقام أنس، فالشوق حال من القلق والانزعاج عن مطالعة العزة ومعاينة الأوصاف من وراء حجاب الغيب بخفايا الألطاف، وفى هذا المقام الحزن والانكسار، والأنس حال من القُرب عن مكاشفة الحضور بلطائف القدرة، ففى هذا المقام السرور والاستبشار. وقال **ضيغم** عجبت للخليقة كيف أرادت بك بدلاً، وعجبت لها كيف أنست بسواك. وقال **الجنيد** علامة كمال الحب دوام ذكره فى القلب بالفرح والسرور، والشوق إليه والأنس به، والرضا بكل ما يصنع. وعلامة أنسه باللّه استلذاذ الخلوة وحلاوة المناجاة واستفراغ كله حتى لا يكاد يعقل الدنيا وما فيها، وقد أنكر **الأنس** من لا مقام له فيه، كما أنكر المحبة أيضا من لا معرفة له بها، لأنه تخيل فيها محبة المخلوق وتمثّل لها صفاتهم، فقال لا يعرف المحبة ولا يعقلها إلاّ المخلوق وليس إلاّ الخوف والهيبة. وممن ذهب إلى هذا القول **أحمد بن غالب المعروف بغلام خليل**، أنكر على **الجنيد وأبى سعيد والثورى** كلامهم فى المحبة وليس هذا مذهب السلف ولا طريقة العارفين. وكتب **عامر بن عبد اللّه** إلى بعض إخوانه آنسك اللّه بنفسه. وقيل **لإبراهيم بن أدهم** وقد نزل من الجبل من أين أقبلت قال من الأنس باللّه. وأنشدونا لبعض العارفين.

الأنس باللّه لا يحويه بطّال * وليس يدركه بالحوْل محتال
والأنسون رجال كلهم نُجُب * وكلهم صفوة للّه عُمّال

وقد روينا فى التفسير عن قتادة فى قوله عز وجل الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله، قال هشّت إليه وأنست به. وفى مقام الأنس يكون التملق والمناجاة، ومعه تكون المحادثة والمجالسة ومعنى من البسط، ولا يحب الله تعالى هذا النوع من الإدلال إلاّ ممن أقامه مقام الأنس، ولا يحسن ذلك إلاّ منهم، لنحو قول موسى عليه السلام فى مقام الأنس يارب لى ما ليس لك، قال ما وهو، قال لى مثلك وليس لك مثل نفسك، قال صدقت. معنى قوله مثلك أى لى أنت كقوله تعالى ليس كمثله شىء، معناه ليس كهو شىء لأنه لا مثل له، والعرب تعبر بالمثل عن نفس الشىء. وفوق هذا من البسط ما أخبر الله تعالى عنه أنه قال مواجها للجليل العظيم إنى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون. وأعظم من هذا قوله له إذهب إلى فرعون فقال مجيبا له فأرسلْ إلَى هرون ولهم علّى ذنب، ومثله قوله إنى أخاف أن يكذبون ويضيق صدرى، فحسن هذا منه لأنه أقامه مقام البسط بين يديه والأنس به، ولأن مكانه لديه مكان محبوب فأدّل به عليه فحمله ذلك، وهذا من غير موسى فى غير هذا المقام من سوء الأدب بين يدَى المرسِل، ولم يحتمل ليونس عليه السلام خاطراً من هذا القول لمّا أقيم مقام القبض والخوف حتى عوقب بالسجن فى بطن الحوت فى البحر فى ظلمات ثلاث، ونودى عليه إلى يوم الحشر، لولا أن تداركه نعمة من ربه لنُبذ بالعراء وهو منموم، وقيل عراء القيامة. ونهى الله تعالى حبيبه صلّى الله عليه وسلم أن يقتدى به فى القول والفعل فقال تعالى فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم. وقد قال تعالى منهم من كلّم الله ورفع بعضهم درجات. واحتمل لإخوة يوسف ما عزموا عليه واعتقدوه وما فعلوه وما أسرّوه من قولهم اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم، إلى نحو ذلك من الكلام والفعال. ولقد عددت من أول قولهم لَيوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا إلى رأس العشر من إخباره عنهم فى قوله وكانوا فيه من الزاهدين نيفا وأربعين خطيئة بعضها أكبر من بعض، قد يجتمع فى الكلمة الواحدة الأربع والخمس من الخطايا ودون ذلك وفوقه بدقائق الاستخراج ومعرفة خفايا الذنوب، فغفر لهم ذلك أن كانوا فى مقام محبوبين، ولم يحتمل لعُزَيْر مسئلة واحدة سأل عنها فى القدَر حتى قيل مُحِيَ من ديوان النبوة. وقد قال الله تعالى فوق ذلك كله ثم اتخذتم العجل من بعد ما جاءتكم البينات فعفونا عن ذلك، فإن شاء أن يعفو عفا عن العظائم فلم يعظم عليه شىء، وإن شاء طالب وناقش على الصغائر ولا تصغر الذرة والخردلة عن مطالبته. وفى قوله سبحانه يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، قيل يغفر لمن يشاء على الذنب العظيم ويعذب من يشاء على

الذنب الصغير. وقيل يشترك الجماعة فى المعصية فيغفرها لبعضهم ويبدلها حسنات فلا تضره بل تكون عاقبتها مايسره، ويعذب البعض بذنبه ولايغفر له وقد لاينفعه معه عمل.هذا كما قال بعض العارفين الحبيب لايحاسب والعدو لا يحسب. وروى عن الله سبحانه أنه أوحى إلى عبد تداركه بعد أن كان أشفى على الهلكة، كم من ذنب واجهتنى به غفرته لك وقد أهلكت فى دونه أمة من الأمم. وقد اشترك عبدان فى اسم المعصية ثم تباينا فى الاجتباء والعصمة: **آدم عليه السلام وإبليس لعنة الله عليه**، ثم اجتبى آدم وهدا لِمَا سبق له من الاصطفاء والكلمة الحُسنى، وإبليس أبلس من رحمته وأغوى لما سبق له من الشقوة والكلمة السوء.

ومثل المحبوب من المحب مثل **مقام المصطفى صلى الله عليه وسلم من مقام موسى عليه السلام**: قال موسى رب اشرح لى صدرى، وقال لمحمد ألم نشرح لك صدرك، وقال موسى واجعل لى وزيرا من أهلى هرون أخى، وقال لمحمد ورفعنا لك ذكرك، أى تقرن بى فى الشهادة والأذان لا أوازرك بغيرى، فقد وزّرتك وقرنتك بذكرى، وقال لموسى عليه السلام بعد المقام قد أوتيت سؤلك يا موسى ولقد مننا عليك مرة أخرى ففى هذا تحديد، وقال لمحمد عليه السلام بعد المقامات وقل رب زدنى علما فلم يحد له حداً فهذا غاية المزيد. وقال موسى عليه السلام رب أرنى أنظر إليك أى فى محل العبودية، وقال لمحمد عليه السلام مازاغ البصر وما طغى فكان قاب قوسين أو أدنى أى مكان الربوبية، فبين المحب والمحبوب فى التقليب كما بين موسى ومحمد عليهما السلام من التقريب. كم بين مَنْ رأى ما رأى عند نفسه فى مكانه، وبين من رأى ربه عند ربه فى علوه! كم بين من عَجَل إليه شوقا منه ليرضى عنه، وبين من عجل به شوقا إليه ليرضاه إليه لرضاه عنه. كم بين من رأى ما رأى فلم يثبت ففاضت عليه الأنوار لضيقه، وبين من رأى مارأى فثبت له وغاضت فيه الأنوار لسعته، فقد جاوز المحبوب مقام المحب فى التمكين كما جاوز محمد صلى الله عليه وسلم مقام موسى عليه السلام فى المكان، أدخل بينه وبين موسى لام الملك وأقام محمدا مقامه فى الملك، وقال تعالى لموسى واصطنعتك لنفسى، وقال لمحمد إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله، فكم بين مَنْ صنعه لنفسه وبين من جعله بدلا من نفسه تفضلا وتعظيما. كم من فصل مدحه مَنْ وصفه، وبين مَن وصل مدحه بوصفه فقال تعالى فى الفصل وألقيت عليك محبة منى ولتُصنع على عينى، وقال فى الوصل لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه الآية، وقال فى مثله والله ورسوله أحق أن ترضوه. وقد قيل فى قوله تعالى يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك

وكن من الشاكرين، أى خذ ما آتيتك من الكلام اصطفيتك به على الناس فاشكر عليه، والنظر فقد خصصت به محمدا. وعن **ابن عباس وكعب** أن الله تعالى قسم كلامه ورؤيته بين موسى ومحمد فأعطى موسى الكلام وخصّ محمدا بالرؤية. ومما يؤيد هذا القول أن الذى آتاه الكلام هو الذى ثبت له فدّل أنه هو الذى أُريد به، لأن الله تعالى إذا أراد عبداً بشىء ثبّته فيه وقوّاه عليه، وقد ثبّت محمدا لما آتاه من الرؤية وقوّاه لها ومكّنه فيها لأنه أراده بها.

ومن وصف مقام المحبوب ماقيل **لعلّى بن أبى طالب** رضى الله عنه صف لنا أصحابك، فقال عن أيهم تسألون، قالوا عن **سلْمَان**، قال أدرك علم الأول والآخر، قالوا **فعمّار**، قال مُلىء إيمانا إلى مشاشه، قالوا **حُذَيْفة**، قال صاحب السر أُعطى علم المنافقين، قالوا فأخبرنا عن نفسك، فقال إياى أردتم بهذا؟ كنت إذا سألت أُعطيت، وإذا سكتّ ابتُدئت. فهذا مقام محبوب لأنه إذا سأل سُمع منه فاستُجيب له، وإذا سكت نُظر إليه فعُطف عليه. وقد روينا عنه من أحب من لا يعرف فإنما يمازح نفسه، أى من لا يعرف صفات حبيبه وأخلاقه وأفعاله وأحكامه فيحبه بعد خُبره فيسارع إلى مرضاته ويجانب مكارهه، فإنما يمازح نفسه أى يلهو بها ويلعب، ليس فيه شىء من جدّ المحبين ولا حقيقة العارفين، إذ لا يأمن انقلاب محبته لتقليب أفعال محبوبه، ولا يأمن تغيير حبه لابتلاء حبيبه واختلاف أحكامه، فكأنه كان مازحا بحبه لا مُحقاً به. وفى مثل هذا المقام من جهل المحبين بأفعال المحبوب اغترار عظيم.

ومن المحبة **كتمان المحبة** إجلالا للحبيب وهيبةً له وتعزيزا وتعظيما له وحياءً منه، وهذا وصف المخصوصين من عقلاء المحبين، وهو من الوفاء عند أهل الصفاء إذ كانت المحبة سر المحبوب فى غاية القلوب، فإظهارها وابتذالها من الخيانة فيها، وليس من الأدب ولا الحياء النسبة إليها ولا الإشارة بها، لأن فى ذلك اشتهاراً فتدخل عليه دقائق الدعوى والاستكبار. وقد قال بعض العارفين أبعد الناس من الله أكثرهم إشارة به، هو الذى يكثر التعريض به فى كل شىء، ويظهر التزين والتصنع بذكره عند كل أحد، وهذا ممقوت عند المحبين لله والعلماء به. وقيل دخل ذو **النون المصرى** على بعض إخوانه ممن كان يذكر المحبة فرآه مبتلى ببلاءٍ يجل عن الوصف، فقال ذو النون لا يحبه من وجد ألم ضربه، فقال الرجل لكنى أقول لا يحبه من لم يتنعم بضربه، فقال ذو النون لكنى أقول لا يحبه من شهر نفسه بحبه، فقال الرجل استغفر الله وأتوب إليه. وهذا كما قال ذو النون هو من علامة **الإخلاص فى المحبة** إذ كانت

من أعمال القلوب، فوجود الإشفاق والحذر من إظهارها خشية السلب والاستبدال وخوف المكر والاستدراج علامة التحقق بها، ودفعها عن النفس وسترها عن أبناء الجنس، وترك التظاهر بها علامة الظفر بها، لأن المحبوب غيور على نفسه وعلى ظهور محبته أشد من غيرته على إظهار محبته، وغيرته على إظهارهم لغير أبناء جنسهم أشد من غيرة جميع محبيه عليه. وهذا كلام من عالم صاحٍ في مقام صحو مكين، فأمّا السكران بحاله والولهان بوجده فمغلوب، والمغلوب معذور. ومن المحبة **كتمان بلاء الحبيب** بعد الرضا به، لأن ذلك من السرّ عنده وحُسن الأدب لديه. وعوتب سهل في العلّة التي كانت به، علّة مهولة وكان يداوي الناس منها ولا يداوي نفسه، فقال ضرب الحبيب لايوجع. وكان حينئذ يقول من علامة المحب في المكاره والإسقام هيجان المحبة وذكرها عند نزول البلاء، إذ هو لطف من مولاه، وفيه الغربة إلى محبوبه وقلة التأذي بكل بلاء يصيبه لغلبة الحب على قلبه. وقد كان بعض المحبين يقول أصفى ما أكون ذِكْراً إذا ما كنت محموما.. وذَكَر بعض من ينتمي إلى المحبة مقامه في المحبة عند بعض المحبين، فقال له المحب أرأيت هذا الذي تذكر محبته أهممت بسواه قط، قال نعم، قال فهل رأيته في ليلة مرتين وثلاثا، قال لا، قال لولا أني أستحي لأخبرتك أن محبتك معلولة. تهتم بسوى حبيبك ولا تراه في ليلتك؟ ثم قال ولكني لا أدعي محبته وعلى ذلك ما اهتممت بسواه مذ عرفته. وربما رأيته في الليلة سبع مرات. وذكر بعض المحبين ممن كان بدلا عن **إبراهيم ابن أدهم** ممن تكلم في علم طريقه ووصفه حاله، وذكر القصة بطولها، قال رأيت الله عز وجل مائة وعشرين مرة، وسألته عن سبعين مسئلة، أظهرت منها أربعاً فأنكرها الناس، فأخفيت الباقي.

وفيما ذكر من وصف المحب كفاية وغنية عن وصف المحبوب، وليس يمكننا وصف المحبوب إذا كان حاله يجلّ عن الوصف. وكيف يوصف من يسمع ويبصر من يحبه، ويبطش ويعقل عن محبوبه، فيكون هو سمعه وبصره وقلبه ويده ومؤيده كما جاء في الخبر: إذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، وقلبه الذي يعقل به، إنْ سألني أعطيته، وإنْ سكت ادخرتُ له، لو قسم نوره على أهل الأرض لوسعهم، فهذا كله في مقام محبوب. ويقال إن هذه الآيات والقدر من سرائر الغيوب وخفايا الملكوت التي تسميها العامة **المعجزات والآيات**، وتسميها العلماء **الكرامات والإجابات**، وهي آيات الله في أرضه مودعة، وقدرته في عباده جارية، وعنايات له في ملكه مستقرة، ليس للعباد منها إلاّ كشفها،

ونظرهم إليها إذا أقيموا مقام الأنس من مقام محبوب. ويقال إنها توجد فى المقام السابع عشر من مقامات المعرفة إذا أقيم العبد هذا المقام فى المعرفة.

وقال بعض العلماء كل مقام أعبر عنه إلاّ مقام المحبة، قيل ولِمَ، قال لأن الشيء يعبر عنه بألطف منه ولا شيء ألطف من المحبة. وقيل لمعروف أخبرنا عن المحبة أى شيء هى. قال يا أخى ليس المحبة من تعليم الناس. المحبة من تعليم الحبيب. وقد كان الحُذّاق من العلماء لا يخبرون بحقائق أربع مقامات: حقيقة التوحيد، وحقيقة المعرفة، وحقيقة المحبة، وحقيقة الإخلاص. وقال بعض العارفين كل المقامات عن أنوار الأفعال والصفات إلاّ المحبة فإنها عن نور حقيقة الذات، فلذاك عزّ وصفها وعزّ علمها، وقلّ من المؤمنين المتحقق بها، ومن أدرك مقام المحبة لله لم يضره فوت شيء من المقامات، ومن فاته المحبة لم يغبط بدرك شيء. وقد قيل فى قوله عز وجل ومن يتوكل على الله فهو حسبه أن الهاء عائدة على التوكل أى فالتوكل حسبه من جميع المقامات. والتوكل حال من مقام المحبة، وقد قال الله تعالى ورضوان من الله أكبر، والرضا مقام من المحبة فقد جلّت المحبة أنْ توصف ودقّت عن العلوم بالعقول أن يعرف مثلها مثل العلم بالله، فكذلك أى قلب أجَل من قلب يكون محبوبه الله، ولا أعلم من معلومه الله.

وقيل إن للقلب حبة هى باطنه، تتعلق عليها المحبة ومنه سميت محبة اشتقاقاً من حبّة القلب وهى التى يقال لها سويداؤه. والميم فى الأسماء قد تزاد للمبالغة فى الوصف، ومن هذا قول الله عز وجل قد شغفها حبا لمّا وصفها بنهاية الوصف فى الحب، أى قد خرق حبه شغاف قلبها فوصل إلى حبة القلب وخرق الشغاف وهو حجاب القلب. وحباً منصوب على التفسير كأنه قيل قد شغفها أى خرق شغافها فقيل ماذا، فقيل حباً، فالحب إذا وصل إلى هذا الوضع من العبد لم يملك نفسه ففرّغ قلبه له وامتلأ به ولم يجر على ترتيب مارسمناه، وربما خرج إلى الوله والاستهتار، وجاوز معيار العقل فى التصريف والاذكار. والعرب تقول أشغفه إذا أصاب شُغاف قلبه فهتك حجابه. وقد قرئت بالعين، ومعنى قد شعفها بلغ أعلى القلب ونهايته، لأن الشعف أعلى كل شيء وأبعده، فالمعنى ذهب به الحب أقصى المذاهب وغايته، فحينئذ يملكه الحب فيكون أسيره، ويغلب عليه الحبيب فيصير مأسوره، فيحكم عليه ولا يجاوز، ويُفرغ له قلبه من كل شيء، ويمتلىء به فلا يبقى فيه شيء، ولا يقدر على الكذب لظهور سلطان قهر الحب، فحينئذ يكشف قناعه، ويُرسل عذاره فيه، ويصفه الحب بالحب وهو صامت

بخيفة المحب إلاّ لمن أحب وهو ظاهر، وليس يكون هذا إلاّ فى مقام شكر وحالٍ عليه، فمن لم يعرف هذا المقام أنكر هذا الكلام إلاّ أنْ يُربَط قلبه بتأبيده، ويُحفَظ سره بتمكينه، كما قال تعالى وأصبح فؤاد أم موسى فارغا، أنْ كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين، أى من المصدّقين أنّا نرده إليها ولا تُظهر أنه ابنها فيُقتل. وكما لطف للفتية الذين آمنوا وهم أصحاب الكهف لمّا غلب حب الإيمان على قلوبهم فقالوا ربنا رب السموات والأرض لئلا يُظهروا إيمانهم لمّا غلب حبه عليهم فيقتَلوا، فهذه لطائف الحكيم وخفى صنع العليم، فالمحبون له حافظون للغيب بما حفظ.

وقال بعض الناس فى وصف المحبين أقامهم مقام المحبة فلم يَزِنْ المُلك فى قلوبهم حبّة، فمحبة غير الله فى محبة الله شِرْك عند المحبين، وهى خيانة عند بعضهم، وهو من نقض العهد وقلة الوفاء بالعقد. وقال سهل من أحبّ الدرهم لا يحب الآخرة، ومن أحب الخبز لم يحب الله عز وجّل. ولا يخرج حب الوالد والولد المحبين من المحبة، لأن ذلك جعل الله فى القلوب نصيبا لهم، ولا يخرجه أيضا حب الزوجة بمعنى الرفق بها والرحمة لها، ولا يخرجه أيضا حب مصالح الدنيا من حاجات الأقسام والقلوب مما لابد منه. وليس ذلك كله يكون فى مكان محبة الله لأن محبة الله فى أنوار الإيمان، ومحبة هذه الأشياء فى مكان العقل. هكذا عندى فى الفرق بين **محبة الله ومحبة المخلوق**. ويخرجه جميع ذلك عند بعض المحبين من السلف. فأما الاشتغال بهذه الأشياء بالإيثار لها على التفرغ لمرضاة الله، والانحطاط فى أهوائها دون محبة الله فإن ذلك يخرجه عند الكل. وعندى يخرج العبد من حقيقة المحبة السكون إلى غير الله والفرح بسواه، والحزن على فوت غيره إياه. وقيل لبعض العارفين من الأبدال الناس يقولون إنك محب، فقال لست محباً، المحب متعوب ولكنى محبوب.

فهؤلاء هم الذين لاتعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين، وهم المحبون لله من عباده، الزاهدون فى ملكوته لوداده، فإذا قالوا حسبنا الله ونعم الوكيل يقول الله تعالى لهم فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء، واتبعوا رضوان الله رضى الله عنهم ورضوا عنه، لأنهم عملوا بما قالوا فتحققوا بالإيمان. وقيل إن الإيمان قول وعمل ولاينوب القول عن العمل. وإذا قالوا إياك نعبد وإياك نستعين، قال الله تعالى صدقتم لأنهم لا يخدمون ولا يذلون لسواه، ولا يعدون للنوائب إلاّ إياه، ولا يستعينون بغيره، ولذلك صاروا صدّيقين لتصديق الصادق لهم.

كما بلغنا أن العبد ليقرأ قوله إياك نعبد وإياك نستعين فيقول الله تعالى كذبت، لو كنت إياى تعبد لم تَخَفْ ولم ترجُ سواى، ولو كنت بى تستعين لم تسكنْ إلى مالك وأهلك. وكذلك بلغنا أن العبد ليقرأ السورة من القرآن فتصلى عليه حتى يفرغ منها، إذا عمل بها فهذا صدّيق، وإن العبد ليقرأ السورة من القرآن فتلعنه إلى أن يختمها إذا لم يعمل بما يقول، فهذا كذّاب، فأين الإيمان ولا إيمان إلاّ بعمل، فليس هذا مؤمنا حقا، فالأولياء حققوا القول بالعمل، وشهدوا الإيمان باليقين، فإذا قالوا حسبنا الله ونعم الوكيل، والحمد لله ولا إله إلاّ الله، والله أكبر، توكلوا عليه ورضوا عنه وتألّهوا إليه، ولم يكن فى صدورهم غيره، فيقول الله تعالى صدقتم فيكونون صدّيقين، كما يقول للشىء كن فيكون، فتدبّروا. فإذا قال ونعم الوكيل قاموا مقام التوكل فصار لهم فى الصدق مقامات، يقول الصادق صدقتم فيكونون صدّيقين، فيقول عبادى أنتم خِيرتى من ذوى ودادى، وأنا وكيلكم، رضيتم بى وأنا حسبكم، فهؤلاء الذين انقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء، واتّبعوا رضوان الله فأعطاهم من الجزاء أربعة معان: النعمة والفضل، والتوكل عليه، وصرف السوء، واتباع الرضا برضاهم عنه رضى الله عنهم. فالحبيب يعتذر له، والعدو لا يقبل عذره، والمحبوب لا يُحاسِب، والمُبغَض لا يُحسَب له وقد قال بعض الأدباء فى معناه:

من لم يكن للوصال أهلاً * فكل إحسانه ذنوب

وقال آخر فى وصف آخر:

فى وجهه شافع يمحو إساءته * من القلوب ويأتى بالمعاذير

وأنشدت لبعض المريدين المتحققين:

إنى جعلتُ مَنْظَرِى فى مُهجتى * وجعلت ودّك لى إليك شفاعة
ولو أن وقتاً منك بالدهر كله * لكان قليلاً ألف عام بساعة

فليتق الله تعالى عبد لم يطلعه الله عز وجل على ماذكرناه فيزهد فيه، ويعلو همّه عنه بمشاهدة قدرة عظيمة ومعاينة آيات كثيرة، ظاهرا وباطنا، أن يدّعى المعرفة أو يتوهم المحبة، فما عنده منها إلاّ أمانى وغرور وظنون وزور، والله تعالى يعطى قوما الظنون كما يعطى أولياءه اليقين، ويعطى قوما المزوّرات لِعلَل القلوب كما يعطى أحباءه المحققات فى مقام

محبوب، بآيات بينات، وشواهد من اليقين بإثبات آيات فى القرآن وآيات الرسول، ولا يظهرهم على كن حتى ينكشف الكون عن قلوبهم، وفى الكون ما فيه من نفيس الملكوت وعظيم الرغبوت مما لا يصلح ذكره.

ومن الإخلاص فى الصدق عند الصدّيقين سؤال الحجبة فى قلوب الناس، كما قال **بشر** وقد سئل بأى شىء بلغت هذه المنزلة، فقال كنت أكتم الله تعالى حالى، معناه أسأله أن يكتم علىّ ويُخفِى أمرى. وحُدّثت أنه رأى **الخضر عليه السلام** فقال ادع الله تعالى لى، فقال يسّر الله تعالى عليك طاعته، قال قلت زدنى، فقال وسترها عليك، فقيل فى تأويل ذلك معنيان، منهم من قال وسترها عليك أى يسترك حتى لا تُعرف بها. وقال بعضهم أراد سترها عنك حتى لا تنظر أنت إليها. وقال بعضهم قلقنى الشوق إلى **الخضر** فسألت الله تعالى مرة أن يرينى إياه ليعلمنى شيأ كان أهم الأشياء علىّ، قال فرأيته فما غلب على قلبى ولا همّنى إلاّ أنْ قلت له يا أبا العباس علّمنى شيأ إذا قلته حُجبت عن قلوب الخليقة، فلم يكن لى فيها قدر ولم يعرفنى أحد بصلاح ولا ديانة، فقال قل اللّهم أسبل علىّ كثيف سترك وحطّ علىّ سرادقات حُجبك، واجعلنى فى مكنون غيبك، واحجبنى فى قلوب خليقتك، قال ثم غاب فلم أره ولم أشتق إليه بعد ذلك، قال فما تركت أن أقول هذه الكلمات فى كل يوم، فحُدّثت أن هذا كان يُستذَل ويُمتهَن حتى كان أهل الذمة يسخرون به فى الطريق، يحملونه الأشياء فى الطريق لسقوطه عندهم، وكان الصبيان يولعون به، وكانت راحته فى ذلك ووجود قلبه به، واستقامة حاله عليه، وهذا طريق جماعة من السلف، وحال طبقة من صادقى الخلَف، أخفوا أنفسهم وأسقطوا منازلهم فُسمّوا **عقلاء المجانين**، وهذا من الزهد فى النفس وحقيقة التواضع، إلاّ أنه زهد **مجانين الأولياء** وتواضُع موقنى الضعفاء، فالتكبّر يكون **بثلاثة** معان: تكبّر على الناس عُجباً بالنفس، وتكبّر فى قلوب الناس عزةً من النفس، أى يحب أن يكبر فى قلوبهم فيكون ذلك تكبّراً منه، وتكبّر فى القلب عن نظره إلى صلاحه ودينه فيكبر ذلك عنده فيدل به، ولذلك رآه من نفسه لقصور علم اليقين منه، وهذا أدق معانى التكبر، ولا يتخلص منه إلاّ صحيحو التوحيد، صادقو اليقين، مخلصو الصالحين. وأما التكبّر الظاهر الذى هو التطاول والفخر والتظاهر فذاك جلّى، وهو من أكثف حُجُب القلب وأقوى صفات النفس، فلذلك فزع العلماء من دقائقه لمّا عرفوه، فطلبوا القلة والذلة للنفس، ليمتهنوها بخفايا التواضع، لينتفى عنهم دقائق الكِبْر لتخلص لهم الأعمال.

والتواضع عند المتواضعين هو حقيقة أن يكون العبد ذليلا صفةً لا متذللا متعمدا للذلة، وأن يكون عند نفسه فى نفسه وحيدا حقيرا معتقداً لصغره وحقارته فى نفسه لا متواضعا متكلفاً، وعلامة ذلك أن لا يغضب إذا عابه ونقّصه عائب، ولا يكره أن يذمه ويقذفه بالكبائر ذام، وبيان ذلك فى وجده أن لا يجد طعم الذل فى ذله ولا يشهد الضعة فى تواضعه، إذ قد صار ذلك له صفة، فمن ذلّ ووجد ذوق ذلّه فهو متعّمل للتواضع، ومن تواضع وشهد تواضعه وضِعَته فهذا متعذر وهى علامة بقية الأَنَفة فى نفسه لنفسه، ومتى غضب أو كره ذمّه من غيره فهو يفرح ويرضى بمدحه، فإذا كانت هذه العلامات فهو محجوب عن جميع ماذكرناه من المقامات، ومتى ذلّ نفسه فلم يجد لذلّه ذوقا ولا لِضَعته حساً فقد صار الذُلّ والتواضع كونه، فهذا لا يكره الذمّ من الخلْق لوجود النقص فى نفسه، ولا يحب المدح منهم لفقد القدْر والمنزلة من نفسه، فصارت الذلّة والضِعة صفته لا تفارقه، لازمة له لزوم الزبالة للزبّال، والكُساحة للكَسّاح، هما صنعتان لهما كسائر الصنائع، وربما فخروا بهما لعدم النظر إلى نقصهما، فهذه ولاية عظيمة له من نفسه قد ولاّه على نفسه وملّكه عليها فقهرها بعزه، وهذا مقام محبوب وبعدَه المكاشفات بسائر العيوب. أول ذلك دخول نور الحكمة فى القلب وينبوع الحُكم من قلبه. كما روينا أن **عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام** قال يا بنى إسرائيل أين ينبت الزرع، قالوا فى التراب، فقال بحقٍ أقول لكم لا تنبع الحكمةإلاّ فى قلبٍ مثل التراب. ومن كان حاله مع الله تعالى الذُلّ طلبه واستحلاه كما يطلب المتكبر العز ويستحليه إذا وجده، فإنْ فارَقَ ذلك الذل ساعةً تغيّر قلبه لفراق حاله، كما أن المتعزز إنْ فارقه العز ساعة تكدّر عليه عيشه لأن ذلك عيش نفسه.

وممن روينا عنه اختيار الذُل وإسقاط المنزلة والقدْر عند الناس، ومحو جاهه وموضعه من قلوبهم، وأظهر على نفسه ألوان معانى الذّم، أكثر من أن يُحصَى، وذكرُهم يطول، وذاك أن حالهم الصدق مقتضيهم القيام بحُكمها فلابد من قيامهم بمقتضى حالهم. حدثنى بعض الأشياخ عن **أبى الحسن الكرينى** أستاذ الجنيد أن رجلا دعاه ثلاث مرات إلى طعامه ثم يرده، فرجع إليه بعد ذلك حتى أدخله المنزل فى المرة الرابعة، فسأله عن ذلك، فقال قد رضيت نفسى على الذل عشرين سنة حتى صارت بمنزلة الكلب يُطرد فينطرد، ثم يُدعى فيُرمى له عظم فيجىء. وزاد غيره وقال لو رددتنى خمسين مرة ثم دعوتنى بعد ذلك لأجبت. وحدثنى شيخ آخر عن أستاذه قال نزلت فى محلة فعُرفت فيها بالصلاح فتشتت قلبى، فدخلت حمّاما

فى جوف المحلة وعنيت على ثياب فاخرة فسرقتها ولبستها، ثم لبست مرقعتى فوقها وخرجت، وجعلت أمشى قليلا قليلا ليُفطَن بى، فلحقونى فنزعوا مرقعتى واستخرجوا الثياب وصفعونى وأوجعونى ضربا، فصرت أُعرف فى الناحية بلص الحمام فسكنت نفسى. وحُدِّثت عن بعض الصوفية أنه وقف على رجل يأكل، فمدّ يده إليه فقال إنْ كان ثم شىء للّه، فقال له اجلس فكُلْ، فقال اعطنى فى كفى فأعطاه فى كفه، فقعد فى مكانه يأكله، فسأله عن امتناعه من الجلوس معه، فقال إنّ حالى مع اللّه عز وجل الذُّل فكرهت أن أفارق حالى. وكان هذا ربما مدّ يده إلى الهَرّاس فيضع فيها هَرِيسته، والعرب تأنف أن يوضع الشىء فى أكفها لعزة نفوسها، حتى روينا عن بعض الصحابة من المهاجرين الأول فى أول النبوة، فقال جعت ثلاثا لم أطعم شيأً، فبلغنى أن إنسانا يتصدّق بزبيب، فسألته فقال هات كفك، فقلت إنى رجل من العرب ولا آخذ فى كفى فاجعله لى فى شىء، قال فجعله فى كيل ثم ناولنيه، فلما فرّغته رددته إليه، فكانت فيه عزة نفسٍ، لا جَرَم أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال له أنت رجل فيك جاهلية، فقال على ما أنا عليه من كِبَر السن، قال نعم.

وإنما نبّهنا ببعض ما ذكرناه العقول المستيقظة وحرّكنا بما بيّنا القلوب الحية ليحيا من حي عن بيّنة، بذكر أوصاف الصادقين وطرقات المخلصين ليستدل على الكثير باليسير. وقد كان شاهد من شهود بسطام عظيم القدر فيهم لا يفارق مجلس أبى يزيد، فقال له يوما يا أبا يزيد أنا منذ ثلاثين سنة أصوم الدهر لا أفطر، وأقوم الليل لا أنام، ولا أجد فى قلبى شيأ من هذا العلم الذى تذكر، وأنا أُصدّق به وأحبه. فقال له أبو يزيد لو صمتَ ثلثمائة سنة وقمت ليلها ما وجدت من هذا ذرة، قال ولِمَ، قال لأنك محجوب بنفسك، قال أفلهذا دواء، قال نعم، قال قل لى حتى أعمله، قال اذهب الساعة إلى المزّين واحلق رأسك ولحيتك، وانزع هذا اللباس، وأتزِر بعباءة، وعلّق فى عنقك مخلاة مملوءة جوْزا، واجمع الصبيان حولك، وقل كل من صفعنى صفعة أعطيته جوزة، وادخل الأسواق كلها عند الشهود وعند من يعرفك وأنت على ذلك، فقال الرجل سبحان اللّه تقول لى مثل هذا، فقال أبو يزيد قولك سبحان اللّه شِرْك، قال كيف، قال لأنك عظّمت نفسك فسبحتّها، قال هذا لا أفعله ولكن دلّنى على غيره، قال ابتدىء بهذا قبل كل شىء، فقال لا أطيقه، فقال قد قلت لك إنك لا تقبل. فهذا لمّا قال سبحان اللّه كان مشركا عنده لأنه سبّحه برسم النفس، وقد كان أبو يزيد يقول سبحانى ما أعظم شانى وهو موحد، لأنه وحّد بوُلية بدَتَ. وهذا الذى ذكره دواء من اعتّل بنظره إلى نفسه ثم

سقم بنظر الناس إليه، لزمه سد نظره إلى نظرهم، ليس لها من دون الله كاشفة، إلاّ أن هذا من طب المجانين يصلح لضعفاء اليقين، ولو أدخل الطبيب الأعلى ذرة من عين اليقين أخرج بها من قلبه كل نظرة فاستراح من كل دواء، ولكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا، ليهلك من هلك عن بيّنة بشواهد الحق، ويحيا من حى عن بيّنة بشاهد الحق ويتلوه شاهد منه، فلا تنكرن من جميع ماذكرناه شيأ فتخسر أقل أنصبة المؤمنين من علم القدرة واليقين، لأن للمؤمنين أنصبة من هذا العلم منها المشاهدة لما وصفناه، والإدراك لما رمزناه. ومنها الوجد والحال، ومنها المعاملة والمنازلة، ومنها الذوق، والشم منه، وآخرها التصديق والقبول، فأقل النصيب من علم المعرفة إن لم يُشهَد فلا يُجحَد، وإن لم يُعرَف فليُتعرّف، ويكون معقله التسليم وليس وراء هذا مكان.

وهذه المقامات التى شرحناها وهى مقامات اليقين، أولها التوبة إلى هذا المقام من المحبة، منوط بعضها ببعض، إن أُعطى العبد حقيقة من أحدها أُعطى من كل مقام حاله، ومع كل حال مشاهدة، ولكل مشاهدة علم إلاّ مَنْ شهد بالحق وهم يعلمون. وكلها مجموعة فى حقيقة الإيمان إنْ أُعطى العبد حقيقةً من إيمان ويقين، حتى يكون مؤمنا حقا غير مُرْتدٍ عنه، ولا مُستَبدَلٍ به فى علم الله تعالى، وكان إيمانه منّة وهبَة، لا عارية ولا وديعة. وذاك هو كمال الإيمان. وقد روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وصف كمال الإيمان ثلاثة أحاديث من أصول هذه الأحوال وأساس هذه الأفعال، منها أنه قال لا يستكمل العبد إيمانه حتى يكون قلة الشىء أحب إليه من كثرة الشىء، وحتى «لا يعرف» أحب إليه من أن «يعرف». فهذان حالا الصادق الزاهد، وهما أول الطريق المؤدى إلى التحقيق، وأس البنيان الرافع إلى أنه لا يخاف فى الله لومة لائم، ولا يرائى بشىء من عمله، وإذا عُرِض له أمران أحدهما للدنيا والآخر للآخرة آثر أمر الآخرة على أمر الدنيا، فهذه أحوال المحب لله تعالى، المخلص بمعاملة الله عز وجل، الراغب فيما عند الله تبارك وتعالى. والحديث الثانى قوله صلى الله عليه وسلم لا يكمل إيمان أحدكم حتى يكون فيه ثلاث خصال: إذا غضب لم يخرجه غضبه عن حق، وإذا رضى لم يدخله رضاه فى باطل، وإذا قَدِر لم يتناول ما ليس له. فهذه تجمع أحوال العدل والفضل والمراقبة والزهد، وهى أصول المقامات. ويشبه هذا الحديث قوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الثالث: ثلاث من أوتيهن فقد أوتى مثل ما أوتى آل داود: العدل فى الرضا والغضب، والقصد فى الغنى والفقر، وخشية الله تعالى فى السرّ والعلانية. وتفسير ما ذكرناه

أن هذه المقامات مرتبطة بعضها ببعض، وأنّ مَن أُعطى حقيقة من أحدها أُعطى جميعها حالا، إذ يجمع ذلك كله الإيمان باللّه تعالى ليتوب العبد إلى من آمن به، وإلى ما آمن به من الوعد، وما آمن به من الوعيد، ليحق إيمانه ويصح يقينه وليستقيم توحيده، كما قال تعالى إن الذين قالوا ربنا اللّه ثم استقاموا، وقال تعالى فاستقم كما أُمرت ومن تاب معك. وقال فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى، فذهب إليه لمّا آمن به وهو الرجوع وهى التوبة. ثم يزهد فيما تاب منه من هواه لتصحّ توبته وتخلص نيته، فيكون نصوحا كما قال تعالى ما عندكم ينفد وما عند اللّه باق، وقال والآخرة خير وأبقى، وقال شروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين، لمّا أخرجوه من أيديهم وتركوه وتابوا إلى أبيهم وزهدوا فيه. ثم يصبر عمّا زهد فيه ليحق زهده كما قال وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، وقال عز وجل لربك فاصبر. ثم يشكر على ما صبر عنه ليكمل صبره كما قال لا قوة إلا باللّه، وما بكم من نعمة فمن اللّه، وانكروا نعمة اللّه عليكم. ثم يرجو مَن شكَر له ليزيد من فضله فيعطيه فوق سُؤله بحسن ظنه به كما قال تعالى ويرجو رحمة ربه، وقد ذمّ من أيِسَ من رحمته بقوله ولئن أذقنا الإنسان منّا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤس كفور. ثم يخاف فوْت ما رجا ويخاف من تقصيره فى الشكر لِمَا أُولِىَ لتحق غبطته برجائه ويتم إشفاقه من تبديل الآية ويخاف نقصان المزيد، كما قال سبحانه يدعون ربهم خوفا وطمعا، وقال مخبرا عن أوليائه إنّا كنا قبل فى أهلنا مشفقين فمَنّ اللّه علينا. وقد عاب اللّه من فَرِح بما أظهر له، وفَخَر بما أوتى، وأَمِنَ عوْد البلاء ونسى أنه كان مبتلَى، فى قوله تعالى ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسّته ليقولن ذهب السيآت عنى إنه لَفَرِحٌ فخور. ثم يتوكل على من خافه فيسلم نفسه إليه ويستسلم بين يديه أن يحكم فيه ما أحب، لقوله تعالى وعلى اللّه فتوكلوا إن كنتم مؤمنين، وقوله نِعْم أجر العاملين الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون. ثم يرضى بمن توكل عليه وعمّن توكل له لعلمه بحكمته البالغة وتدبيره الحسن، لقوله تعالى رضى اللّه عنهم ورضوا عنه، ولقوله تعالى ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات اللّه. ثم يحب من رضى به ورضى عنه إذ كان قد اختاره على ما سواه، وإذ صار حسبه لمّا رآه. فصارت هذه **المقامات التسع** كمقام واحد بعضها منوط ببعض، دليلها كتاب اللّه تبارك وتعالى الحق اليقين، والنور المبين الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه من طريق الهوى، ولا من خلفه من خيل الأعداء، فأُشبِهت دعائم الإسلام الخمس فى مقام العموم من طريق الإسلام إذ بعضها مرتبط ببعض، كهذه فى مقام الخصوص من طريق المقرّبين. ثم يرجع بعد مقام المحبة إلى حال الرضا قوةً فقوة، ثم يتردد فى مقام المحبة رتبةً رتبة. وليس

فوق حال الرضا مقام يُعرف، ولا فوق مقام المحبة حال يوصف، وهما موجب المعرفة ومنتهاها المعروف وقرارها المألوف، وإن إلى ربك المنتهى، إلى ربك يومئذ المستقر، فليس للرضا نهاية إذ ليس للمحبوب غاية، وإنّ الرضا مزيد أهل الجنة فى الجنة، وليس للحب نهاية لأنه عن الوصف، ولا غاية للصفات، وليس لطلب المحب حد لأنه عن القُرب، ولا غاية للقرب لأنه عن وصف قريب، ولا حد لقرب فيترافع المؤمنون فى الحب مقامات على نحو تجلى الحبيب بمعانى الصفات، ويتزايد الرضوان فى الرضا درجات حسب تعاليهم فى علو المشاهدات، ويتعالى أهل عليّين فى العلو غايات على قدر أنصبتهم من قوة الإيمان وصفاء اليقين. قال الله تعالى وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين، فأعطاهم من معانى وصفه العلو، ثم وصف نصيبهم بوصفهم فقال ان كتاب الأبرار لفى عليّين وما أدراك ما عليّون، فعليّون لا نهاية له فى العلو إذ هو من أسماء المبالغة فى الوصف، وقيل إنه اسم لا واحد له من جنسه فهو علىٌّ فى علوهم يعلو بهم أبدا فى علو علوهم فى دار الأبد، وهم أعلون لأن الأعلى معهم فهم يعلون به وعليون يعلو بهم، هذا كله لأنه معهم كما قال وأنتم الأعلون والله معكم. فالرضا الأول الذى هو قبل المحبة مقام التوكل وحال المحب المحبوب حاله، والرضا الثانى الذى يكون بعد المحبة مقام المعرفة وحال المحبوب التوكل حاله.

والمحبة من أشرف المقامات، ليس فوقها إلاّ **مقام الخُلّة** وهو مقام فى المعرفة الخاصة، وهى تخلل أسرار الغيب فيطلع على مشاهدة المحبوب بأن يعطى الحيطة بشىء من علمه بمشيئته على مشيئته التى لا تنقلب وعلمه القديم الذى لا يتغير. وفى هذا المقام الإشراف على بحار الغيوب وسرائر ما كان فى القديم وعواقب ما يؤب. ومنه مكاشفة العبد بحاله، وإشهاده من المحبة مقامه، والإشراف على مقامات العباد من المآل، والاطّلاع عليهم فى تقلّبهم فى الأبد حالاً فحالا. وقد ذكر **أبو يزيد البسطامى وأبو محمد سهل** أنهما أقيما فى هذا المقام ووَصَفا حالهما منه. وقد كان **لشقيق وابن أدهم البلخيين** مطالعات فى هذه المعانى، وقد سلك **بأبى الفيض** فى هذا الطريق. وهذا محجوب عن أوهام القلوب بعقولها، ومستقر فى جبِّ غاية القلوب بأرواحها، فإذا خرجت النفس من الروح فكان روحانيا خروج الليل من النهار تنفس المكروب، وإذا خلا العقل عن القلب فكان ربانيا انفرجت الكروب كما قال العارف:

بحيـــاتى يـــا حيـــاتـــى * لا تبـــعـــد قربـــاتى
أخرج النفس من الـــرو * ح وروّح كـــربـــاتـــى

وقد قال أحسن القائلين ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، والاستثناء واقع على اعطاء الحيطة بشيء من شهادة علمه. وهذا معنى من سر التوحيد لا يكشفه إلاّ عين اليقين. وقد كان للشيخ **أبي الحسن بن سالم** رحمه الله تعالى من هذا الطريق مشاهدات ومطالعات وسياحات في الغيوب وجريان في الآخريات، وانقلبت له الأعيان وظهر له العيان وطوى له المكان، ورأى ألف ولىّ لله تعالى وحمل عن كل واحد علما، ثم انقطع الطريق بعد فقده وعفا الأثر ودرس الخبر ثم الله تعالى أعلم بما هو صانع بهذا الطريق وأهله، هل ينشيء له أهلا وينهج له غامضات الطريق طريقا أم يطويهم في طى طريقهم ويخفى طريقهم في خفاء الموج الغامض في غامضات العلم السابق، نقول في ذلك كما قال إمام الأئمة **علىّ بن أبي طالب** كرّم الله وجهه بعد إذ ذكر في خطبته قيام الساعة واستقرار أهل الدارين فيهما، قال ثم الله أعلم بما هو صانع بالدنيا بعد ذلك، فهذا من سرّ السرّ الذى أودعه صاحب الأمر.

وليس فوق مقام الخلة مقام إلا درجة النبوّة، وهو محجوب عن القلوب كحجاب هذا المقام من الخلة عن قلوب العموم. ومقام الخلة لايكون إلا مقام محبوب. وماسمعت من أحد من أهل العلم الباطن والمعرفة الثاقبة رسما من علم الخلة ولا من وصف محبوبه شيأ في كتاب الله تعالى ولا إشاراته إلا نكتا في الأخبار ولُمعاً من الآثار. وقد كان **الحسن** رحمه الله تعالى يروى في الخلة أخباراً منها ان الله عز وجل أوحى إلى بعض أوليائه إنما اتخذ من لا يفتر عن ذكرى ولا يكون له غيرى ولا يؤثر علّى شيأ من خلقى، وإنْ حُرّق بالنار لم يجد لحرق النار وجعا، وإن قُطّع بالمناشير لم يجد للمس الحديد ألما. وقد روينا عن **الخليل الحبيب** عليه السلام أنه قال تحابوا في الله وتصافوا وتباذلوا وتخاللوا فيه. أوَليس من كرم الله تعالى أنْ اتخذ عبدا من عباده خليلا، فنبه أن الخلة من الله تعالى كانت لأوليائه عن فرط كرمه وفضل آلائه، وقد تكلم **الجنيد** رحمه الله تعالى في مقام من هذا وقد سئل عنه، فقال هو غاية الحب وهو مقام عزيز يستغرق العقول وينسى النفوس، وهو من أعلى علم المعرفة بالله تعالى. وقال في هذا المقام يعلم العبد أن الله عز وجل يحبه، ويقول العبد بحقى عليك وبجاهى عندك، ويقول بحبك لى، قال وهؤلاء هم المدلّون على الله تبارك وتعالى والمستأنسون بالله تعالى، وهم جلساء الله تعالى قد رفع الحشمة بينه وبينهم وزالت الوحشة بينهم وبينه، فهم يتكلمون بأشياء هى عند العامة كفر بالله تعالى، لما قد علموا أن الله تعالى يحبهم، وأن لهم عند الله جاها ومنزلة. ثم قال عن بعض العلماء أمّا أهل الأنس بالله تعالى فليس إلى معرفتهم سبيل.

ومقام الخلّة لا يعطاه العبد إلاّ فى مقام مع مقام، فالمقام الأوّل هو المعرفة الخاصية بظهور تُعرف كشفاً عن وصف الباطن، ثم يدخل عليه المحبة المخصوصة هو مقام المحبوب، ثم يُرفع من هذا المقام إلى مقام **الخلة** وهو الإشراف على سرائر الغيوب وغير ذلك، والأصل فيما ذكرناه أنه سبحانه يعطى مقامات المعرفة فى مقام عارف ولا يعطى فيه مقام محبوب. وقد يعطى مقامات من المحبة فى مقام محب ولا يعطى شهادة خلة لغير خليل عارف، فإذا جمع مقام معرفة إلى مقام محبة محبوب أُعطى مقاما من الخلة الذى وصفناه. وروينا عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** أنه خطب الناس قبل موته بثلاث فقال إن الله تعالى قد اتخذ صاحبكم خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا، فَرُفِع صلى الله عليه وسلم فى مقامٍ محبوب إلى درجة خليل، كما نُقِلَ من مقام محب إلى حال محبوب، كما زيد بالمحبة فى مقام محبوب الصفوة. وقال أيضا فى المقام الأول إن الله عز وجل اتخذ موسى صفيا واتخذنى حبيبا، فأول العطاء هو الصفاء من الهوى، ثم المحبة بعد الصفاء، ثم الزيادة بوصف محبوب فوق المحبة، ثم ارتفع فعلا بعد القوّة والاستواء إلى العلىِّ الأعلى، فدنا لمّا علا، فتدلّى حتى دنا، فكان قاب قوسين أو أدنى.

وكان ما كان مما لست أذكره * فظُنْ خيرا ولا تسأل عن الخبر

إذ من العلوم علم لا ينبغى أن يُسئل عنه، فهذا منها فلا يُبدَى إلا بقدر معلوم بمقدار ما أبدى المبدىء، ويعيد منه بقدر ما أعاد المعيد، وكان لديه **خليلا** كما كان عنده قريبا، فصارت **الخلة** مقاما فى محبوب، وهو نهاية المزيد، كما كان مقام محبوب وزيادة على مقام محب، كما رفعه إلى المحبة بعد الصفوة من كدر الهوى. وكذلك أنت أيها السامع الشاهد يجعل لك بعد الصفاء نصيبا من نصيب، وشهادة على شهادة، ووجْداً من وجْد، وفقداً للنفس من فقد، فلا يذهب كثير النبوّة منه صغير العطية لك، لأنه تعالى رفع الطائعين له ولرسوله صلّى الله عليه وسلم مقاما إلى مقام النبيّين والصدّيقين، والصديقون باقون إلى نزول الروح عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام، وهم الأبدال عددهم فى كل الدنيا **ثلثمائة** وماشاء الله، منهم الشهداء والصالحون، فهم **ثلاث طبقات** وكلهم مقربون سابقون، إيمان صدّيق منهم كإيمان جميع الشهداء، وإيمان شهيد كإيمان كل الصالحين، وإيمان كل صالح بمقدار إيمان ألف مؤمن من عموم المسلمين.

وليس فى الخلة شريك لغير الخليل على خليله، ولأنها حال مفردة لفرد موحدة لواحد، ولو كان يصلح لها نظير ويوزر بها وزير كان أحق الأمة بذلك **الصدّيق**، فقد أعطاه تعالى **ثلاثا** لم يعطها غيره، منها أنّا روينا أن **النبى صلى الله عليه وسلم** قال له إن الله عز وجل أعطاك مثل إيمان كل من آمن بى من أمتى، وأعطانى مثل إيمان كل من آمن بى من ولد آدم. **والحديث الثانى** أن لله تعالى ثلثمائة خلُق، من لقيه بخلُق منها مع التوحيد دخل الجنة. فقال **أبو بكر رضى الله تعالى عنه** يا رسول الله هل فىّ منها خلُق واحد، فقال كلها فيك يا أبا بكر، وأحبُّها إلى الله عز وجل السخاء. **والحديث الثالث** هو المستفيض: رأيت ميزانا دُلىَّ من السماء فوُضِعتُ فى كفة فرجحتُ بهم، ووضع أبو بكر فى كفة وجىء بأمتى فوضعت فى كفة فرجح بهم. وليس بين الصدّيق وبين الرسول إلاّ درجة النبوّة. والقطب اليوم الذى هو الإمام للأثافى الثلاثة، والأوتاد السبعة، والأبدال الأربعين أو السبعين إلى ثلثمائة كلهم فى ميزانه، وإيمان جميعهم كإيمانه، إنما هو بدل من أبى بكر رضى الله تعالى عنه، والأثافى الثلاثة بعده إنما هم أبدال الثلاثة الخلفاء بعده، والسبعة هم أبدال السبعة إلى العشرة، ثم الأبدال الثلثمائة وثلاثة عشر إنما هم أبدال البدريين من الأنصار والمهاجرين أهل الرحمة والرضوان. فمع هذا الفضل العظيم لأبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه لم يصلح أن يُشرك الحبيب الرسول المقرب الخليل فى مقام **الخُلّة** كما صلح أن يشرك فى **مقام الأخوة**، وهو المقام الذى شرك فيه علياً كرّم الله وجهه، فقال علىّ منى بمنزلة هرون من موسى، فهذا مقام أخوة. كذلك فى التفرد بمقام الخلة لو كنت متخذا من الناس خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن صاحبكم خليل الله تبارك وتعالى، يعنى نفسه صلوات الله عليه، لأنه واحد لواحد مفرداً لمفرد، فاعتبروا يا أولى الألباب بتدبر فهم الخطاب، فمَن أُعطى من الصفاء نصيبا أُعطى من الحب نصيبا، وكان له من المعرفة بقوة محبته، ومن المعرفة بقدر معرفته. فأما المعرفة الأصلية التى هى أصل المقامات ومكان المشاهدات فهى عندهم واحدة لأن المعروف بها واحد والمتعرف عنها واحد، إلاّ أن لها أعلى وأول، فخصوص المؤمنين فى أعلاها وهى مقامات المقرّبين، وعمومهم فى أولها وهى مقامات الأبرار وهم أصحاب اليمين، ولكل منهم وجهة من الصفات المخوّفة عنها كانوا خائفين، أو الأخلاق المرجوّة منها كانوا راجين، أو الأفعال والأملاك عندها كانوا صابرين شاكرين، أو معانى أوصاف ذات منها كانوا محبين متوكلين. قال الله سبحانه وتعالى ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات. ويقال من أحب شيأ حُشِرَ معه. وفى الخبر المرء مع مَن أحّب وله ما احتسب. وفى الخبر من مات على مرتبة من المراتب بُعث عليها يوم القيامة.

فأمّا جُمْله **مقامات المحبين** فمذكورة فى الكتاب العزيز من الحبيب **إثنا عشر مقاما**، **خمسة** فى دليل الخطاب وتدبر الألباب، **وسبعة** فى صريح الكلام بظاهر الإفهام. فأمّا السبعة المصرّحة فقوله عز وجل إن الله يحب **التوابين**، ويحب **المتطهرين**، والله يحب **الصابرين**، والله يحب **الشاكرين**، والله يحب **المتقين**، والله يحب **المحسنين**، والله يحب **المتوكلين**. وأما **الخمسة** المتدبرة فهم الموحدون لقوله لا يحب الكافرين، **والعادلون** لقوله لا يحب الظالمين، **والمستقيمون** لقوله لا يحب الفاسقين، **والمتواضعون** لقوله لا يحب المستكبرين، **والموفون** لقوله لا يحب الخائنين. وهؤلاء طبقات المحبوبين تعريضا وتصريحا. وشرح هذه الأوصاف هى مقامات اليقين، وفى كل مقام من هذه أحوال يكثر عددها، كل حال منها طريق إلى الله عز وجل، فى كل طريق طائفة من المحبين محبتهم على قدر معرفتهم، ويقينهم على حسب صفاء إيمانهم، وإيمانهم على نحو عناية الله بهم وتفضله عليهم وإيثاره لهم. وليس فوق المحبة مقام مشهور ولا دون التوبة حال مذكور، فأول المقامات التوبة يخرج بها من الظلم، والظلم حال من الشرك، قال الله تعالى الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن فى الآخرة وهم مهتدون فى الدنيا. وهذا فصل الخطاب لأضدادهم، فأى الفريقين أحق بالأمن، الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك هم أحق بالأمن غدا فى المقام الأمين، وقال تعالى ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون، فآخر الظلم أول التوبة، وآخر التوبة أول المحبة، وآخر المحبة أول المعرفة. وأوسط المقامات الزهد، وأول الزهد آخر الهوى، وآخر الزهد أول العلم، وآخر العلم أول الخوف، وآخر الخوف أول الحب، وهذا حب محبوب، والظالم لا مقام له ولا جاه. ومن لا جاه له فلا شفاعة، ومن لا شفاعة فلا شهادة، ومن لا شهادة فلا يقين. وقد روينا فى تفسير قوله تعالى لا ينال عهدى الظالمين، قيل الجاه، وقيل الشفاعة، ويقال الولاية، وقيل الإمامة. والظلم ظلمةٌ اليوم فى القلب، وظلمةٌ غدا فى القيامة، فالتوبة تُخرج العبد من الظلم، وبخروجه من الظلم يدخل فى منازل العهد، وبرعاية العهد يعمل فى الإصلاح، والله لا يضيع أجر المصلحين كما لا يصلح عمل المفسدين، فإذا كان مصلحا بالتوبة ما أفسد بالهوى استُعمل بالصالحات لأنه قد صلح، فإذا عمل بالصالحات لندخلنهم فى الصالحين لأنه قد فَضُل. قال الله تعالى ويؤت كل ذى فضل فضله، وقال فى البيان الأول وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين، فمن صلح له تولاه، ومن تولاه علّمه وحبّاه وكاشفه من نفسه وعافاه وأحبه، فكان هو حسبه، وكفاه وجعله تحت كنفه وآواه، فيكون ظاهر حاله العصمة من الهوى، وأعلاه مشاهدة عين اليقين من المولى.

وللتائب حال من أول المحبة، وللتوّاب مقام من حقيقة الحب، وللناس فى التوبة مقامات حسب كونهم فى الهوى طبقات، وهم فى الحب درجات، ويلزم كل عبد من المجاهدة على قدر ما ابتلى به من الهوى، ويثبت له من المحبة بقدر ما صح له من التوبة، ويسقط عنه من المجاهدة بقوة ما يكشف له من المشاهدة، فيحمل الإشهاد عنه آلام الجهاد، فيكون العبد فى البلاء محمولا، ويكون يقينه بالشهادة واليقين موصولا، وهذا من سوابغ العوافى، ومن تمام النعماء. وهؤلاء الذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصدّيقين والشهداء، وهم الذين جاء الخبر فيهم إن لله عباداً ضنائن من خلْقه يغذوهم برحمته ويجعلهم فى ظل عافيته، يضن بهم عن القتل والبلاء، ويحييهم فى عافية، ويدخلهم الجنة فى عافية، أولئك الذين تمر عليهم الفتن كقطع الليل المظلم وهم منها فى عافية، فتدبروا فلا ييأس عبدٌ من فضل مولاه، ولا يقطعن من حبله رجاه، ولا يستوحش من التقرب إليه بما يحب.

وقد تلتبس المحاب فتدخل محبة النعم فى محبة المنعم، وتدخل محبة النفس على محبة الخالق، ويشتبه ذلك عند عموم المحبين ممن لم يُكشَف له عين اليقين، فيكون العبد محبا للنعم وهو يظن بوهمه أنه محب للمنعم، ويكون محبا لنفسه ويحسب أنه محب لمولاه، وعلامة ذلك سكونه إلى الأشياء وفرحه بالموجودات، ووَجَد راحته ولذته فى هواه، فربما اختار الله تعالى أن يكشف له حاله قبل موته، وربما ستر عليه حاله ولم يفضحه حتى يلقاه فيثيبه ثواب مثله وجزاءه، وليس يظهر فرقان هذا إلا فى قلب موقن مراد بنور ثاقب وعلم نافذ ويقين صاف من عين التوحيد وشاهد القيومية، لأنه الفرقان الذى وعده الله تعالى المتقين من المؤمنين فقال يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا، قيل نوراً تفرقون به بين الشبهات، وهو المخرج الذى ضمنه الله تعالى لأهل التقوى والمنهج فى قوله تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا.

وقيل إن المحبين لله تعالى خصوص وعموم، فالخصوص أحبوه من طريق مشاهدة الصفات، فحب هؤلاء بقلب ووجد لا يتغير أبدا، وهم مثبتون فيه إلى لقاء الحبيب، وهؤلاء عبدوه على التعظيم والمحبة والإجلال والكبرياء، وفى هؤلاء المقربون، والمحبون، والخائفون، والعاملون، والمتوكلون، والراضون، وهو المقام الأعلى وهم الأطون عنده فى المنتهى. والعموم أحبوه من طريق مواجيد الأفعال وهى النعم والإحسان والأيادى والأفضال، وعما أظهر من

العوافى. والذين خدموه شهوة وعادة وحاجة أحبوه لمنافعه ومرافقه ولأجل ما فى يده من مُلْكه، وحب هؤلاء يتغير لانقلاب الأحكام، وهؤلاء لم يتحققوا بالإخلاص ولا الزهد، وقد بقى عليهم فى نفوسهم هوى حجبهم ذلك عن مخالصته، وهذه هى أوصافهم عائدة لهم وعليهم، فحب هؤلاء حُوِّل قَلَّب لأن الأفعال التى أحبوه لأجلها تُحُوِّل فيُحوِّلون، وتختلف عليهم بالمكاره والمرائر فيختلفون. وفى هؤلاء المريدون والعاملون والراجون والطامعون والتائبون. وأصحاب اليمين من هؤلاء. وقد قال بعض العارفين كل محبة كانت عن عوض إذا زال العوض زالت المحبة، فمنهم من عرف حاله فى مقامه فاعترف بنقصان محبته وتقصير شهادته واستغفر منها وأناب، ومنهم من لبس عليه ذلك لنقصان مزيده وضعف يقينه فكانت محبته عن صفات متصلة بذات، ويُخاف على مثل هذا الانقلاب عند كشف الغطاء لأنه فى اغترار وفتنة والتباس ومحنة، وفى طريق مكر وهلكه، إلاّ أنْ تدّاركه رحمة من ربه فيوقَف فى حده فى مقامه، ويرده إلى حاله من مكانه، فيتوب من محبته ويستغفر من شهادته، فحينئذ يرحمه اللّه تعالى فيُدخله فى أهل العفو ويستر عليه فى الآخرة كما ستر عليه فى الدنيا، فلقيه تحت الستر فى الدارين. وهذه بعض مخاوف الصادقين من المحبين، لأنها محبة إظهار لا ظهور، فصاحبها فى تقلب وغرور، إلاّ أن **أهل محبة الأفعال**، ينقسمون قسمين، منهم من أحبه لأجل أفعاله، إلاّ أنْ يشهدها منه فيراه فيها فهو يتبصر له ويتعمّل فى المجاهدة ويجتهد فى تنقية محابه لبقاء حاله، فهذا أعلاهما، وهذه محبة عموم أهل الآخرة الذين لا يشهدون سواها ولا يطلبون إلاّ إياها، ومنهم من تتغير عليه الأفعال، وتخرجه من الاعتياد، ويتّابع عليه البلاء ويُنقصه من العوافى فى المال والنفس، فيُخرج صفته ويَظهر منه تسخطه وتبرمه به، فهذا قد افتضح بدعوى المحبة، وقد كشفه بعد ستره فلم يزِنْ فى المحبين حبة. وهذه **محبة أهل الدنيا** الذين هم لها يكدحون وإياها يطلبون.

وقد سئل **الجنيد** رحمه اللّه تعالى عن المحبة، فقال الناس فى محبة اللّه **خاص وعام**، فالعوام قالوا ذلك بمعرفتهم فى دوام إحسانه وكثرة نعمه فلم يتمالكوا أن أرضوه، إلا أنهم تقل محبتهم وتكثر على قدر النعم والإحسان. فأما الخاصة فنالوا المحبة بعظيم القدر والقُدرة، والعلم والحكمة، والتفرد بالمُلك، فلما عرفوا صفاته الكاملة وأسماءه الحسنى لم يمتنعوا أن أحبوه، إذ استحق عندهم المحبة بذلك لأنه أهل لها ولو زال عنهم جميع النعم. ومن الناس من يكون محباً لهواه أو لعدوّ اللّه إبليس، وهو يدّعى لعظيم جهله وطول غرته المحبة للّه تعالى. ومن

محبة الهوى إيثار عاجل حظ النفس على آجل ما وُعدت به، ويقدم محبتها على محبة الله عز وجل، وهى مطبوعة على محبة الهوى وكراهة الحق، أمّارة بالسوء فيما تسر، كذّابة فيما تُظهر من الخير. قال الله سبحانه وتعالى وعسى أن تكرهوا شيأ وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيأً وهو شر لكم، فقرن محبتها بالشر، وقرن كراهتها بالخير.

الفصل الثالث والثلاثون

فى ذكر دعائم الإسلام الخمس التى بنى عليها

أول ذلك **فرض شهادة التوحيد** للمؤمنين ووصف فضائلها، وهى شهادة المقرّبين وشهادة الرسول صلى الله عليه وسلم، وفضلها للموقنين قال الله تعالى وصدقت أنبياؤه لرسوله صلى الله عليه وسلم، فاعلم أنه **لا إله إلا هو**، واستغفر لذنبك، وقال لعباده يأمرهم بمثل ذلك فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو، **ففرض التوحيد** هو: اعتقاد القلب أن الله تعالى واحد لا من عدد، وأول لا ثانى له، موجود لا شك فيه، وحاضر لا يغيب، وعالم لا يجهل، وقادر لا يعجز، حى لا يموت، قيّوم لا يغفل، حليم لا يسْفُه، سميع بصير مَلِك لا يزول مُلكه، قديم بغير وقت آخر، بغير حد كائن، لم يزل ولا تزال الكينونة صفته، لم يحدثها لنفسه، دائم أبد الأبد لا نهاية لدوامه، والديمومة وصفه، غير محدثها لنفسه، لا بداية لكونه، ولا أولية لقدمه، ولا غاية لأبديته، آخر فى أوليته، أول فى آخريته. وإنّ أسماءه وصفاته وأنواره غير مخلوقة له ولا منفصلة عنه، وأنه أمام كل شىء ووراء كل شىء وفوق كل شىء وأقرب إلى كل شىء من نفس الشىء، وأنه مع ذلك غير محل للأشياء وأن الأشياء ليست محلاً له، وأنه على العرش استوى كيف شاء بلا تكييف ولا تشبيه، وأنه بكل شىء عليم، وبكل شىء محيط. هو ذات منفرد بنفسه، متوحد بأوصافه، ولا يمتزج ولا يزدوج إلى شىء، بائنٌ من جميع خلْقه، لا يحل الأجسام ولا تحله الأعراض، ليس فى ذاته سواه، ولا فى سواه من ذاته شىء، ليس فى الخلق إلاّ الخلق، ولا فى الذات إلا الخالق، فتبارك الله أحسن الخالقين، وأنه تعالى ذو أسماء وصفات، وقُدرة وعظمة، وكلام ومشيئة، وأنوار كلها غير مخلوقة ولا محدثة، بل لم يزل قائما موجوداً بجميع أسمائه وصفاته وكلامه وأنواره وإرادته، وأنه ذو المُلك والملكوت والعزة والجبروت، له الخلْق والأمر والسلطان والقهر، يحكم بأمره فى خلقه ومُلكه، ما شاء كيف شاء،